الجامعة الأردنيّـــــة :
كليّـــة الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها :
الدّراسات العليـا .

٥٦٧
٠١٢
١٠٧٨

ابن شرف القيروانيّ : حياته ، وأدبـه .

إعداد الطالـب :
(حلمي إبراهيم محمّد عبد الفتّـاح)

إشـــراف :
(الاستاذ الدّكتور عبد الحكيم خليفـه)

" قدّمت هذه الرّسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجـــة
الماجستير في اللغة العربيّة وآدابها بكليّة الآداب فـــي
الجامعـــة الأردنيّـــة "

١٩٨٢م — ١٤٠٢ هـ

الاهـداء ....

الى والدّي الحبيبين ثمرة من ثمار غرسهمـــــا .

الى زوجتي لقاء ما بذلته من عـــــون وتشجيـع .

الى ولدّي الحبيبيـــــن : أمجـــد ، وأنس ...

الى السّاعين وراء الحقيقة من أجل اقتناصهـا ....

أهدي هذه الرّسالـــــة .

المقدّمـــــــة :

الحمد للّه ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمّـــد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، اللهمّ لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا ، ولا فهم لنـــا إلاّ ما فهّمتنا ، إنّك أنت العليم الحكيم ، وبعد :

فإنّ صلتي بابن شرف ، وببيئته الّتي نشأ فيها ترجع إلى سنـــوات مضت ، يوم أنْ درسنا مادة الأدب الأندلسيّ والمغربيّ على أستاذنا الدّكتـــور عبد الكريم خليفة الّذي كان يغرينا بالاتصال بأعلام الأندلس والمغرب ، وببيآتهـــم ، ويحثّنا على كتابة تقارير عنهم ، فاستطعنا من خلال ذلك أنْ نتعرّف إلـــى نخبة كبيرة من أعلام هذه البيئة ، ولمّا التحقت بقسم الدّراسات العليـــا بالجامعة الأردنيّة ، وبدأت أعدّ نفسي لتقديم بحث لنيل درجة الماجستيـــر في اللّغة العربيّة ، قفز أبو عبد اللّه محمّد بن شرف القيروانيّ في مخيّلتـــي ، فشرعت في استقصاء أخباره وآثاره من مظانّها المختلفة ، وجمعت ماتناثـــر منها في كتب الأدب ، والسّير ، والتّراجم ، وإذا بي أمام أديب ، شاعـــر ، كاتب ، ناقد ، صاحب ثقافة واسعة ، متنوّعة ، فطرحت فكرة بحثي هـــذا على أستاذي الدّكتور عبد الكريم خليفة ، فلقيت منه كلّ تشجيع ، وقبـــول ، واتفقنا على أنْ نجعل دراستنا هذه بعنوان : ((ابن شرف القيـــروانيّ : حياته وأدبه .)) .

وأما الدّوافع الّتي حفزتني لاختيار ابن شرف ليكون موضوعـــاً لدراستي هذه فكثيرة ، وقد كان من أهمّها : أنّ ابن شرف لم يلق مـــن الباحثين والدّارسين ما لقيه أدباء عصره على الرّغم من شهرته الواسعـــة الّتي طبّقت الآفاق ، ومن المكانة الشّعريّة والأدبية المرموقة الّتي وصـــل إليها في عصره ، وهذا ما أكّده لنا مؤرخ عصره ابن الرّقيق الّذي يقـــول : ((. . . ما كان بأفريقيّة من مشاهير الشّعراء إلاّ ابن رشيق ، وابن شرف .))[1] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ١ : ١٩٠٤ .

ففي الوقت الذي درس فيه معاصره وقرينه ابن رشيق أكثر من مرّة ، وأقيمت عليه أكثر من دراسة ، وقدّم عنه أكثر من بحث ، فإنّ ابن شرف لم يدرس ، ولم يخصّه أحد من الدّارسين بدراسة متخصّصة .

ويمكننا أنْ نردّ اغفال الباحثين والدّارسين لابن شرف لأمور منها : ضياع معظم آثاره الّتي ألّفها في حياته ، إذ لم يصلنا منها إلاّ تلك الرّسالة المعروفة بـ ((رسائل الانتقاد)) (١) ، هذا فضلاً عن مقطّعاته الشّعريّة والنّثريّة الّتي توافرت لنا ، ومنها : أنّ نتاجه الأدبيّ لم يصلنا في كتاب مطبوع مستقلّ ، فأتى شعره ونثره مبعثراً في طيّات كتب الأدب والتراجم على صورة مقطّعات شعرية قصيرة ، ونتف لا تغري بالدّراسة ، خاصّة وأنّ المصادر الّتي تصدّت له ما زال بعضها مخطوطاً ، ومنها أيضاً : قلّة أخباره ، وتراجمه في كتب الأدب والتّراجم ، فكثيراً ما كانت هذه الكتب تكتفي بذكر اسمه ، ومقطّعات من أشعاره ، الأمر الذي جعل الدّارسين يزهدون في دراسته وبحثه .

هذا ولقد كانت ثقافته الواسعة المتنوّعة ، وانتاجه الشّعريّ الغزير الذي لم يصلنا منه إلاّ القليل ، من أقوى الدّوافع إلى دراسته ، وفي هذا يقول قرينه ومعاصره ابن رشيق : ((... ولقد شهدته في مرّات يكتب القصيدة في غير مسوّدة كأنّه يحفظها ، ثمّ يقوم فينشدها ، وأمّا المقطّعات فما أحصي ما يصنع منها كلّ يوم بحضرتي ...)) (٢) .

وأخيراً فإنّ المعاناة التي عاشها هذا الرّجل بعد أنْ شُرِّدَ من وطنه قهراً ، وأرغم على مفارقة أهله وأترابه ، قد جعلتني شديد التعلّق بدراسته والبحث في حياته ، لما بيننا مِنْ تقارب وتشابه ، فكلانا فارق وطنه قهراً ، وذاق مرارة التشريد ، ولذعة الفراق .

---

(١) نشرها الخانجي تحت عنوان : ((أعلام الكلام)) ، وهي هي .
(٢) مسالك الأبصار ، ق ١ ج ١١ / ٢٤٠ .

ولكن الشك — مع ذلك — ظلّ يراودني ، وقلت في نفسي : إنّه ليس من المعقول أنْ تُغفَلَ دراسة هذا الرّجل حتّى يومنا هذا ، فعكفت على التّنقيب في فهارس المطبوعات والمخطوطات داخل الأردنّ ، وخارجها ، واتصلت بمن لهم علاقة بهذا الأمر ، علّهم قد علموا بدراسة قد أقيمت عليه ، فأجابوا بالنّفي ، وحثّوني على المضيّ بهذه الدّراسة ، وأرسلوا لي — مشكورين — بعض الكتب والمخطوطات التي تتعلّق به ، وتتحدّث عنه (١) .

ولكنّني مع ذلك لم أظفر بدراسة مستفيضة ، أو بحث متخصّص أقيم على هذا الرّجل الفذّ ، وكلّ ما ظفرت به لا يتجاوز أنْ يكون ترجمات مختصرة كتلك التّرجمة التي أثبتها له الاستاذ حسنن حسني عبد الوهّاب في كتبه : ((مجمل تاريخ الأدب التّونسيّ)) و ((المنتخب المدرّسيّ)) ، و ((بساط العقيق)) ، وقد اكتفى المؤلف في هذه الكتب بذكر اسمه ، ونتف من شعره ونثره ، وكتلك الترجمة التي أوردها له الأستاذ محمّد رضا الشّبيبيّ في كتابه : ((أدب المغاربة والأندلسيين)) ، وقد تحدّث في ترجمته له عن اسمه ، ونسبه ، وآثاره ، ومؤلّفاته ، ومكانته الشّعرية التي وصل إليها في عصره ، وأشار في أثناء حديثه عن مؤلّفاته أنّه قد اطّلع على نسخة مخطوطة من كتابه المعروف بـ ((أبكار الأفكار)) في احدى رحلاته التي قام بها

---

(١) فقد أرسل إليّ الأستاذ السّيد محافظ الخزانة العامّة للكتب والوثائق بالمغرب ، مخطوطا بعنوان : ((أبكار الأفكار)) ، كما أرسل لي الأستاذ محمّد العروسي المطويّ التّونسيّ مجموعة من المصادر والمراجع من مثل : ((معالم الايمان)) ، و ((بساط العقيق)) ، و ((مجمل تاريخ الأدب التونسي)) ، و ((المنتخب)) ، وغيرها من مؤلّفات الاستاذ حسن حسني عبد الوهّاب التي تتحدّث عنه ، وصوّر لي الأستاذ شكري فيصل رسائله المعروفة بـ ((رسائل الانتقاد)) الموجودة في مجلّة المقتبس ، وشجّعني الأستاذ إحسان عبّاس على مواصلة بحثي هذا .

الى الخزانة العامة بالرّباط [1] ، ولمّا كانت دراستنا هذه تدور حول حياة ابن شرف وأدبه ، فقد سارعت الى احضاره مصوّراً من الخزانة العامّة ، وعكفت على دراسته ، فوجدت أنّه في حقيقة الأمر عدّة مخطوطات لأدباء مختلفين ، وبها نقول من كتاب ((أبكار الأفكار)) ، ورسائل لولده أبي الفضل جعفر بن شرف ، جمعها النّاسخ بعضها الى بعض ، وأطلق عليها اسم : ((أبكار الأفكار)) ، فطلب منّي أستاذي الدّكتور عبد الكريم خليفة أنْ أقوم بتحقيق هذا الأمر ، سعياً وراء الحقيقة ، وأنْ أرسل ما توصلت الى الخزانة العامّة ، ففعلت ذلك ، وصوّبت هذا الخطأ ، حرصاً منّي على حفظ التراث، وحمايته من الشّوائب .

ولكنّ الأستاذ الشّبيبي عاد في نهاية كتابه ليهيب بالباحثين عن التّراث أنْ يبحثوا عن كتاب ((أبكار الأفكار)) لابن شرف القيرواني ـ مع أنّه أكد أنّه قد أطلّع عليه ـ فذهب الى القول : ((... ولا بدّ لنا في ختام هذه الدّراسة من التأكيد على المعنيين بالبحث في تراثنا العربيّ القديم من المخطوطات ، أنْ يثابروا على التنقيب عمّا ضاع من تلك المصنّفات المهمة ... ومن أهمّها : كتاب : ((الأنموذج)) لابن رشيق ، ... وكتاب : ((أبكار الأفكار)) لابن شرف القيروانّي ...)) [2]

يضاف الى ما تقدّم أنّ الأستاذ الشّبيبي بين ترجمة أديبنا ، وترجمة ولده جعفر ابن شرف التي أقامها في كتابه .

هذا وقد أفرد له الشّيخ محمّد النّيفر ترجمة دقيقة في كتابه المعروف بـ ((عنوان الأريب)) ، خلط فيها بينه وبين ولده جعفر ، ونسب

---

(١) أنظر : أدب المغاربة والأندلسيين ، ص : ٤١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص : ١٣٧ .

اليه بعض مقطّعاته الشّعريّة[1]، كما عرض له الأستاذ محمّد سلامه موسى في مجلّة : ((عالم الفكر .)) ، فتحدّث عن نظراته النّقديّة ، وترجم له ترجمة بسيطة ، هذا بالاضافة الى تلك التّرجمات والاشارات التي أشار اليها الذين درسوا قرينه ومعاصره ابن رشيق ، فتحدّثوا عنه كمعاصر له ، ومن أشهر هؤلاء الأستاذ عبد الرّحمن ياغي في كتابه : ((حياة القيروان ، وموقف ابن رشيق منها ،)) ، والاستاذ عبد العزيز الميمني في كتابه : ((ابن رشيق)) ، والاستاذ مخلوف في كتابيه : ((ابن رشيق ، ونقد الشّعر)) ، و ((ابن رشيق الشاعر النّاقد)) .

ولعلّ أوّل من أفرد له كتاباً خاصّاً جمع فيه بعض مقطّعاته الشّعريّة من بعض المصادر ، وكتب التّراجم ، هو الاستاذ عبد العزيز الميمنيّ ، وقد أسماه : ((النّتف من شعر ابن رشيق ، وابن شرف)) ، وقد أفدنا ممّا توصّل اليه هؤلاء في دراستنا هذه مع أنّهم كانوا يمرّون به مروراً سريعاً ، ويتحدّثون عنه حديثاً عابراً عندما كانوا يتوقّفون عند معاصره وقرينه ابن رشيق ، أو عندما كانوا يتصدّون لنظراته النّقدية .

فأحببت ازاء ذلك كلّه أنْ ألقي ضوءاً كاشفاً على هذا الأديب ، الشّاعر ، والكاتب ، النّاقد ، وأنْ أرسم له صورة واضحة المعالم ، بقدر ما تسعفني به المصادر ، وأنْ أضعه في المكان المناسب الذي يليق به بين الأدباء والشعراء العرب ، مضيفاً بذلك رافداً جديداً الى المكتبة الأندلسيّة والمغربيّة .

وأمّا المصادر التي اعتمدنا عليها في دراستنا هذه ، واستقينا منها مادة بحثنا فكثيرة ومتنوّعة ، ولقد كان من أهمّها : رسالته النّقديّة المعروفة بـ ((رسائل الانتقاد)) ، وقد أفدنا من هذه الرسالة في معرفة

---

(١) أنظر : عنوان الأريب ، ١١ .

نظراته النقدية ، وطريقته في كتابة النّثر ، وأسلوبه فيه .

هذا ومن أهمّ المصادر التي أفدنا منها في دراستنا هذه : كتاب : ((الذّخيرة)) ، لابن بسّام ، (ت : ٥٤٢هـ) فقد أورد له ترجمة وافية ، وحفظ لنا الكثير من مقطّعاته الشّعريّة والنّثرية التي انفرد بها من بين المصادر الأخرى التي تصدّت لترجمته وأخباره ، وهو كتاب مهمّ ، لأنّه يعطينا فكرة واضحة عن حياة ابن شرف بالأندلس ، وعن صلاته ببعض حكّامها ، يضاف الى هذا أنّه أورد لنا أخباراً عن ابن شرف في غاية الأهمية نقلها عن فصل لابن حيّان في ذكر الشّعراء ، وابن حيّان هذا كان معاصراً لابن شرف . وعلى كتاب الذّخيرة هذا اعتمد معظم الذّين تحدّثوا عن ابن شرف ، وترجموا له ، وقد كان في مقدمتهم : ابن فضل الله العمريّ في كتابه : ((مسالك الأبصار)) ، والدّباغ في كتابه : ((معالم الايمان)) ، وغيرهما .

ومن هذه المصادر أيضا ، كتاب : ((خريدة القصر)) ، للعماد الأصفهانّي ، (ت : ٥٩٧ هـ) ، وقد أفادنا هذا المصدر في معرفة ترجمته وأخباره ، كما أثبت لنا طائفة من شعره ونثره .

ومنها : ((بدائع البداهة)) ، لعلّي بن ظافر الأزديّ ، (ت : ٦١٣هـ) ، وهو كتاب مهمّ بالنسبة لنا ، لأنّه أثبت لنا نقولاً من كتاب ((أبكار الأفكار)) لابن شرف ، كما أورد لنا نخبة من مقطّعاته الشّعريّة ، وطائفة من اخباره .

ومنها أيضا : ((معجم الأدباء)) ، لياقوت الحمويّ ، (ت : ٦٢٦ هـ) ، وقد أفدنا منه في معرفة ترجمته ، وصلاته ، وأخباره ، هذا فضلاً عن مقطّعاته الشّعريّة التي حفظها لنا .

ومنها : ((المطرب في أشعار أهل المغرب)) ، لابن دحيّة ، (ت : ٦٣٣هـ) ، وهو من المصادر الأساسية التي اتكأنا عليها ، فأفادتنا

في الوقوف على نسبه ، وترجمته ، وعرّفتنا الى مؤلّفاته وصلاته بمَنْ عاصروه ، هذا فضلاً عن مقطعاته الشّعرية التي أثبتها لنا ،

وثمّة مصادر أخرى تاريخيّة ، وجغرافيّة أفدنا منها في بحثنا هذا عندما تحدّثنا عن معالم البيئة السّياسيّة ، والاجتماعيّة ، والفكرية التي نشأ فيها أديبنا ، هذا بالاضافة الى كتب التّراجم والسّير التي انتفعنا بها ، وقد كان في مقدمتها : كتاب : ((الصّلة)) لابن بشكوال و ((فوات الوفيات)) ، لابن شاكر الكتبيّ ، و ((الوافي بالوفيات)) ، للصّفدي ، وغيرهم ، وقد أفادتنا هذه المصادر في معرفة اسمه ، ونسبه ، ومؤلّفاته ، وصلاته ، كما حفظت لنا بعض مقطّعاته الشّعريّة والنّثريّة .

ولقد جمعت ما ورد في تلك المصادر من شعر ، ونثر ، وأخبار ، وأقمت على ضوئها دراسة تبحث في حياة ابن شرف وأدبه ، وفقاً لما تجمّع لديّ من معلومات وأشعار ، وجعلت ذلك في أربعة فصول ، مهّدت لها بتمهيد ، وختمتها بخاتمة لخّصت فيها ما توصّلت اليه من نتائج وألحقتها بملحق جمعت فيه ما تناثر من شعره في كتب الأدب ، والتّراجم ، والسّير ، بعد أنْ خرّجته ، ورتبته ترتيباً هجائياً .

وقد جعلت التّمهيد للحديث عن العصر الذي نشأ فيه ابن شرف ، فتحدّثت عن الحياة السّياسيّة ، والاجتماعيّة ، والاقتصادية ، والفكريّة التي هيمنت على عصره ، لأرى مدى تفاعله مع أحداث عصره ، وتأثيرها في شخصيّته وانتاجه ، ففي ذلك ما يلقي ضوءاً كاشفاً على انتاجه وشخصيّته . وتحدّثت عن تلك النّكبة التي مُنِيَ بها وطنه ، فأنطقته بالشّعر ، وجعلته يتفاعل معها بكلّ مشاعره وأحاسيسه .

وأمّا الفصل الأول فقد خصّصته للحديث عن حياة ابن شرف ، وثقافته ، فرافقته في هذا الفصل منذ ولادته في أواخر القرن الرّابع الهجري ، وحتّى

وفاته في سنة ستين وأربعمائة للهجرة ، فتوقّفت عند اسمه ونسبه ، وأسرته ، ونشأته الأولى ، وصلاته ، وعرّفت بشيوخه الذين تتلمذ عليهم ، وتلاميذه الذين تلمذ لهم ، وبآثاره التي ألّفها ، منبّها الى ما ضاع منها . وتوقّفت عند شخصيّته وأخلاقه ، ورافقته في رحلة القهر والتشريد التي قام بها — رغماً عنه — الى بلاد الأندلس ، مشيراً الى علاقاته وصلاته بأمراء الطّوائف فيها ، فإنّ دراسة هذه النّواحي هي دراسة للينابيع التي امدّت حياته الفكريّة ، وشخصيّته بالمدد الغزير . وقد ختمت هذا الفصل بالحديث عن زمن وفاته ومكانها ، وصحّحت ما وقع فيه الدّارسون من التباس في مكان ولادته ، وحسمت القول في ذلك .

وأما الفصل الثاني فقد جعلته للحديث عن شعره من حيث جمعه وتدوينه ، وأغراضه ، وخصائصه الفنّية ، وحاولت في هذا الفصل أنْ أتعرّف الى طريقته في نظم الشّعر ، وأنْ أرسم معالم شخصيّته واتجاهاته من خلال شعره ، وأنْ أتعرّف الى جوانب حياته وعبقريته .

وجعلت الفصل الثّالث للحديث عن نثره ، فتحدّثت عن موضوعاته ، وخصائصه الفنّية ، ورسائله التي بعث بها الى أمراء الطّوائف ووزرائهم ، ومقاماته التي ألّفها محاكياً بها بديع الزّمان ، وتحدّثت عن مجتمعه كما يصوّره في نثره ، فوقفت على موقفه منه ، وتعرّفت الى موقفه من قضايا عصره .

وأما الفصل الرّابع والأخير من هذه الدّراسة فقد خصّصته للحديث عن نظراته النّقدية التي طالعنا بها في اطار العناوين التّالية : نظراته النّقديّة ، مقاييسه في نقد الشّعر ، ونقده التّطبيقيّ .

وحرصاً منّا على حفظ وما وصلنا من شعره ، وحمايته من الضّياع ، فقد أخذنا على أنفسنا أنْ نقوم بجمع ما تناثر منه في طيّات كتب الأدب والتّراجم

والسّير ، المطبوعة منها والمخطوطة ،ليسهل على الدّارسين والباحثين الاتصال به ، والاطلاع عليه ،فوجدت أنّ الأستاذ الميمنيّ قد سبقني الى هذا العمل ،فجمع شعره وشعر قرينه ومعاصره ابن رشيق في كتيّب أسماه : ((النتف من شعر ابن رشيق ،وابن شرف)) ،ولكنّ ما جمعه الاستاذ الميمني لا يتجاوز مائة وستة وخمسين بيتاً من الشّعر ،أتى معظمه في مقطّعات شعرية لاتتجاوز العشرة أبيات ،فأضفت ما جمعه الأستاذ الميمنيّ الى ما توافر لي من شعره ،فتجمّع لديّ ما يزيد على خمسماية وثمانين بيتاً من الشعر ،فرتبتها ترتيباً هجائيّاً ،وأشرت الى المصادر التي وردت فيها ، والى اختلاف الرّواية في بعض أبياتها ،وجعلت ذلك في ملحق الحقته بدراستي هذه ،راجياً أنْ يكون فيما جمعت ما يفيد دارسي الأدب العربي ، والله الموفّق .

ولقد واجهتنا في هذه الدّراسة مصاعب كثيرة منها : أنّ المصادر وكتب التّراجم التي تعرّضت لترجمته وأخباره كانت تكتفي بالاشارة الى اسمه ، ونسبه ،وبعض أخباره وأشعاره .

ومنها : ضياع معظم آثاره ،ومؤلّفاته التي ألّفها في حياته ، وجمع فيها شعره ونثره ،وخاصّة كتابه المعروف ب ((أبكار الافكار)) ، وكتابه المعروف ب ((أعلام الكلام)) .

ومنها : اختلاط شعره بشعر والده جعفر ، وخاصّة عندما كانت بعض المصادر تورد عبارة : ((قال ابن شرف)) .

وبعد : فهذا هو موضوع البحث ، والدّوافع اليه ، ومصادره الأساسيّة ، والمشاكل التي واجهتنا فيه ،آملا أنْ أكون قد وفّقت فيما ذهبت إليه ،فإنْ أصبت ، فذلك فضل مِنَ اللّه ونعمة ، وإنْ أخطأت ، أَوْ

قصّرت ، فيقوم بعذري أنّني مازلت طالب علم في بداية الطّريق ، أتتبّع خطى من سبقني من الدّارسين والباحثين .

وفي الختام ، ليسمح لي أستاذي الفاضل الدّكتور عبد الكريم خليفه أنْ أتقدّم اليه بأسمى آيات الشّكر والعرفان ، على ما منحني اياه من وقته ، وجهده ، وسعة صدره ، فرعى هذا البحث منذ أنْ كان فكرة ، الى أنْ بدا على الصورة التي ترونها ، فكان يوجّهني بعلمه ، وخبرته ، ويمسك بيدي كلّما أشرفت على الزّلل ، ولولاه ما كان هذا البحث ليتمّ على هذه الصّورة ، فله منّي كلّ تحيّة وتجلّة ، واللّه وليّ التّوفيق ،

((ربّنا عليك توكّلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير))

حلمي إبراهيم محمّد عبد الفتّاح
الجامعة الأردنّية ـ عمّان
١٩٨٢ م ـ ١٤٠٢ هـ

التمهيـــــــد :

أولا : البيئة السّياسيّـــــــــــة .
ثانيا : البيئة الاجتماعية والاقتصاديـــــة .
ثالثا : البيئة الثقافيّة والفكريّـــــــة .

البيئـــة السياسيّـــة :

لم تكن الأحوال السّياسيّة للعالم الإسلاميّ في القرن الخامس الهجـــريّ بصورة عامّة لتختلف اختلافاً كبيراً عمّا كانت عليه في القرن الرّابع الهجـــريّ، فقد تنافس كلٌّ من الأمويين، والفاطميين والعبّاسيين على الخلافة الإسلاميّـــة الّتي لم تعد من حقّ العبّاسيين وحدهم، حيث قامت الدّولة الأمويّة فـــي الأندلس، كما قامت الخلافة الفاطميّة في مصر، يقول ابنُ خلدون: " وصـــارت الدّولة العربيّة ثلاث دول: دولة بني العبّاس، ودولة بني أميّة بالأندلـــس، ودولة العبيديين بأفريقيّـــة ومصر والشّام والحجاز. " (١)، ولقد كانـــت الدّولة الصّنهاجيّة الّتي نحن بصددها تابعةً اسمياً للدّولة الفاطميّة فـــي مصر، وقد تمثلت هذه التبعيّة في ذكر الخليفة الفاطميّ في خُطَبِ الجمعـــة، والدُّعاء له على أعواد المنابر، وتلقي التقليد منه، وفي نقش اسمه علـــى السّكّة (٢). وقد عُرِفَتْ بهذا الاسم نسبةً إلى قبيلة صِنْهاجة البربريّة المعروفـــة بقوّتها وبأسها (٣)، وكانت رئاسة هذه القبيلة لسيّدها زيري ابن مَنّـــاد (٤)، الّذي كان أوّل من ظهر منها وقاد الجيوش لصالح الفاطميين ضدّ أعدائهـــم حتّى صار من أكبر أنصار الفاطميين ورجالهم المحدودين، ولقد ظلّ سيفـــاً مسلّطاً على الخارجين عن طاعة الفاطميين إلى أن توفّي سنة ستين وثلاثمائـــة، فخلفه من بعده ابنه أبو الفتوح بُلُكين بن زيري بن مُناد (٥)، الّذي يعتبـــر بحق المؤسس الفعليّ لهذه الدّولة البربريّة، وقد كان ذلك بعهد من الخليفـــة الفاطميّ المعزّ لدين الله الّذي أوصاه أنْ لا يرفع الجباية عن أهل البادية، والسّيْف عن البربر، وأنْ لا يولي أحداً من اخوته وأبناء عمّه بحجة أنّهـــم

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ١/٥١٨.

(٢) البيان المغرب، ١/٢٧٩.

(٣) وفيات الأعيان، ١/٢٦٥.

(٤) وهو: زيري بن مَناد الحميريّ الصّنهاجيّ جدّ المعزّ بن باديس، انظـــر ترجمته في وفيات الأعيان، ٢/٣٤٣.

(٥) هو: أبو الفتوح بُلكين بن زيري بن مُناد الحِمْيَريّ الصّنهاجيّ، ويُسمّى يوسف، لكنّ بلكين أشهر، وهو الّذي استخلفه المعزّ لدين الله الفاطميّ على أفريقيّة عند توجهه إلى الدّيار المصريّة. انظر وفيات الأعيان، ١/٢٨٦.

يرون أنّهم أحقّ بهذا الأمر منه (١)، وبعد وفاته، خلفه ابنه المنصور وكان ذلك في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة للهجرة، وقد أظهر المنصور هذا درايـة وعدلاً كبيراً مدّة استيلائه على الحكم إلى أنْ توفّي فخلفه ابنه باديس(٢) الذي تمتع بحق تعيين العمّال والولاة في البلاد التي تخضع لحكمه، فولّى عمّه حماد ناحية أشير أحدى مدائن المغرب، وسبب ذلك أنّ أمراء زناتة استضعفوا الأمير باديس لصغر سنه، فخالفوا عليه وحاربوه، فبعث إليهم عمّه حماد على رأس جيش ليعيد زناتة إلى الطّاعة، وجعل له ملك ما يفتحه (٣)، فانقسم بذلك المغرب إلى قسمين: دولة في الشّرق من أفريقيّة وقاعدتها القيروان، ودولة في المغرب من أفريقيّة وقاعدتها قلعة بني حمّاد الحصينة، قال ابن خلدون: ((... وافترق ملك صنهاجة إلى دولتين: دولة إلى المنصور بن بلكّين أصحاب القيروان، ودولة إلى حمّاد ابن بلكّين أصحاب القلعة.)) (٤)، وكان ذلك في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة للهجرة (٥)، وبهذا يكون باديس قد فرّط بوصيّة المعزّ لدين الله الفاطميّ التي أوصى بها لجدّه، فيقيم حمّاد لنفسه ملكاً داخل ملك ابن أخيه باديس، يتمتع فيه بكثير من مظاهر الاستقلال لكنّه مع ذلك ظلّ يعترف لابن أخيه بالتبعيّة.

وعلى ما يبدو أنّ باديس قد ندم على هذه الفعلة لاسيّما عندما رأى عظمة ملك حمّاد، ورأى فيه منافساً له على السلطة فأخذ يطالبه بالتنازل عن ملكه له إلاّ أنّ حمّاد أبى أنْ يفعل ذلك، فوقعت بينهما

---

(١) وفيات الأعيان، ١/ ٢٨٦.
(٢) انظر: المصدر نفسه، ١/ ٢٦٥—٢٦٦.
(٣) اتحاف أهل الزّمان، ١/ ١٣٤.
(٤) تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٣٢٤، تاريخ المغرب، ٣/ ٧٥—٧٦، وغيرهما.
(٥) المؤنس، ص: ٨٠.

معارك كثيرة ، كان النّصر فيها حليف باديس[1] الّذي توفّي في سنة ست وأربعمائة[2] ، فتولّى بعده ابنه المعزّ[3] الّذي لم يكن ليتجاوز التّاسعة من عمره على ما ذكرته المصادر[4] ، فباشر الحكم تحت وصاية جدته ، وبعض رجال الدّولة على ما أورده ابن دينار حيث يقول : " ... ولمّا وصل الخبر بموت باديس ، خرج عامل القيروان ، ومعه الفقهاء والشّيوخ من أهل البلد ، وأكابر صنهاجة ، فوصلوا إلى المهديّة ، وعزّوا المعزّ في والده ، وكانت جدته تباشر الأمور ، وتصرّف الأحوال من رأيها ، فأحسنت لأهل القيروان . "[5] هذا ولمّا رأى قوّاد المعزّ طمع الطّامعين في صغر سن الملك الجديد ، عملوا على توحيد صفوفهم ، واتجهوا إلى أعداء المملكة الطّامعين بها ، وعلى رأسهم حمّاد عم والده الّذي كان يحاول دائماً أنْ يغتصب ملكه ، ليستولي على النّصف الثاني من أفريقيّة ، إلاّ أنّ محاولاته قد باءت بالفشل فعاد إلى قلعته مهزوما[6] .

وبعد فترة من الزّمن أخذ المعزّ يشارك بنفسه في مقاومة المخالفين والطّامعين ، غير أنّه لمّا رأى قوّة حمّاد ، وعجزه عن استعادة ملكه مال إلى مصالحته ، لينصرف إلى شؤون دولته العمرانيّة والإقتصادية ، وغيرهما ، لاسيّما عندما علم أنّ حمّاد قد مال إلى ذلك ، وأحبّ الصّلح معه ، قال ابن الأثير : " ... وورد رسولٌ من حمّاد إليه يعتذر ، ويقرّ بالخطأ ، ويسأل العفو ، فأجابه المعزّ : إنْ كنت على ما قلت : فأرسل ولدك القائد

---

(١) البيان المغرب ، ١ / ٢٦٩ ، المؤنس ، ص : ٨١ ، الحلل السّندسيّة ، ق ٤ ج ١ / ٩٣٩ ، البساط ، ص : ٦٦ .
(٢) وفيات الأعيان ، ١ / ٢٦٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ٥ / ٢٣٣ — ٢٣٤ .
(٤) الكامل في التّاريخ ، ٩ / ٢٥٧ ، البيان المغرب ، ١ / ٢٦٧ ، صبح الأعشى ، ٥ / ١٢٤ ، تاريخ المغرب ، ٣ / ٧٣ ، الحلل السّندسيّة ، ق ٤ ج ١ / ٩٤٠ ، وغيرهم
(٥) المؤنس ، ص : ٨١ .
(٦) الكامل في التاريخ ، ٩ / ٢٥٧ — ٢٥٨ .

إلينا ." (١) ، ففعل حمّاد ذلك ، وأرسل ولده إلى المعزّ فأكرمه وأحسن وفادته ، وعاد إلى أبيه ، ورضي الصُّلح ، وبذلك فقد استقرت الأمور بينهما وتصاهرا فزوّج المعز اخته بعبد الله بن حمّاد ، فازدادوا اتفاقاً وأمناً (٢) .

وبعد هذه المُعاهَدة يتسنّى لعهد المعزّ أن يكون عهد صلح واتفاق بينه وبين عمّ والده حمّاد من ناحية ، وبين الّذين خالفوا عليه من صِنْهاجة من ناحية أُخرى ، فهيأله ذلك أن يتّجه إلى المخالفين عليه من قبائل البربر الثائرة ، فيعيدها إلى الطّاعة وبخاصّة قبيلة زناتة الّتي كانت مصدر قلق وإزعاج وشغب في دولته لكثرة ما كانت تقوم به من ثورات وفتن ، حيث كانت تثور ما بين الفينة والفينة إلاّ أنّ النّصر عليها كان يقف إلى جانب المعزّ بن باديس (٣) ، الأمر الّذي دفع بهذه القبيلة إلى مصالحته (٤) ، غير أن هذا الصُّلح لم يدُم إلاّ لفترة غير طويلة ، فقد عاودت زناتة الخلاف ، وأعلنت الثّورة على المعزّ من جديد (٥) .

وبهذا الصُّلح يكون المعزّ قد جمّع حبّات العقد الصّنهاجيّ الّذي تناثر باستقلال حمّاد في قلعته الحصينة ، وبما قام به من ثورات وفتن قبل الصُّلح ، كما التمّ الشّمل الصّنهاجيّ بقدوم زاوي ابن زيري بن مناد عمّ والد المعزّ من الأندلس ، وقدم معه أهله وحشمه ، فأكرمهم المعزّ وأقاموا عنده (٦) ، الأمر الّذي جعل ابن خلّكان يصف المعزّ بن باديس بأنّه واسطة

---

(١) الكامل في التّاريخ ، ٩/٢٥٨ ، وتاريخ ابن خلدون ، ٦/٣٢٤ .
(٢) الكامل في التاريخ ، ٩/٢٥٨ — ٢٥٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ٦/٣٢٥ ، ٩/٣٤٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ٩/٣٥٥ .
(٥) المصدر نفسه ، ٩/٣٧٧ ، ٩/٤٥٠ ، البيان المغرب ، ١/٢٧٥ .
(٦) الكامل في التاريخ ، ٩/٢٥٨ — ٢٥٩ ، تاريخ ابن خلدون ٦/٣٢٤ .

عقد بيته (١) ، ذلك لأنّه استطاع أنْ يؤمّن النّفوس ، وأنّ يجمع أفراد البيت الصّنهاجيّ مِنْ حوله ، فتهيأله بذلك أنْ ينشر الاتفاق والوئام بين أهله من جانب ، وبين القبائل البربريّة من جانب آخر (٢) .

ومِنَ الأحداث الكبرى الّتي كان لها أثر في سياسة هذه الدّولة ، ذلك الصّراع الّذي اشتدّ ما بين أنصار المذهب الشّيعيّ الّذي عمل الفاطميون على نشره في بلاد المغرب قبل رحيلهم عنها إلى مصر ، وما بين أنصار المذهب السُّنيّ المالكي في هذه الفترة الّذين كانوا يشكّلون الأغلبية العظمى من السكّان على ما ذكره ابن خلدون الّذي يقول : « . . . وأمّا مالك — رحمه الله تعالى — فاختصّ بمذهبه أهل المغرب والأندلس ، وإنْ كان يوجد في غيرهم إلاّ أنّهم لم يقلدوا غيره إلاّ في القليل . . . . . وأهل المغرب جميعاً مقلّدون لمالك رحمه الله . » (٣) .

ففي بداية حُكْم المعزّ بن باديس ، وفي نفس اليوم الّذي وصل به إلى القيروان ، بعد وفاة والده ومباشرته الحكم (٤) ، قُتِلَ الشّيعة في كلّ مكان ، وتبعتهم العامّة إلى البادية ، وقُتِلُوا في المساجد أيْضاً ، وكان ذلك في سنة سبع وأربعمائة للهجرة (٥) .

ولقد ذهب المؤرّخون في تعليلهم لأسباب وقوع هذه الفتنة مذاهب شتى ، فمنهم مَنْ ذهب إلى القول : إنّ عامل القيروان كان يحقد على المعزّ بن باديس ، ويريد أنْ يوقع بينه وبين الفاطميين ، ويحاول أنْ يُظْهِرَ هذا الأمير

---

(١) وفيات الأعيان ، ٥ / ٢٣٣ ، مرآة الجنان ، ٣ / ٧٥ ، الحلل السندسية ق ٤ ج ١ / ٩٤٠ ، وغيرهم .
(٢) انظر : الكامل في التّاريخ ، ٩ / ٢٥٩ .
(٣) تاريخ ابن خلدون ، ١ / ٨٠٥ — ٨٠٦ .
(٤) انظر : ترتيب المدارك ، ٤ / ٦٢٥ ، الكامل في التّاريخ ، ٩ / ٢٩٥ ، والمعالم ، ٣ / ١٥٣ .
(٥) انظر المصادر السّابقة نفسها ، والصفحات نفسها .

بمظهر المتقاعس عن نصرة الدعوة الفاطمية ، وحماية أرواح الشيعة ، وعلى رأس هؤلاء ابن الأشير حيث يقول : « ... وأغراهم عامل القيروان ، وحرضهم ، وسبب ذلك أنه كان قد أصلح أمور البلد ، فبلغه أن المعز بن باديس يريد عزله ، فأراد فساده ، فقتل من الشيعة خلق كثير ، وأحرقوا بالنار . »(١) ومنهم من يرى أن فقهاء المالكية هم السبب في وقوع هذه الفتنة ، لأنهم عملوا على تحريض المعز بن باديس ضد مذهب الشيعة ودلوه على مذهب السنة والجماعة ، وعلى رأس هؤلاء ابن عذاري الذي يقول : « ... وكانت أفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السنة والجماعة من وقت تملك عبيد الله المهدي لها ، فحرض ابن أبي الرجال (٢) المعز بن باديس وأدبه ، ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة ، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان ، فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلى في زينته وجنوده ، وهو غلام ، فكبابه فرسه ، فقال : « أبا بكر وعمر » فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره ، فبادروا إليه ليقتلوه ، فجاء عبيده ورجاله ، ومن يكتم السنة من أهل القيروان ، ووضع السيف في الشيعة . »(٣) ونحن نرى أن الرواية الثانية رواية ابن عذاري تحظى بالقبول لدينا ، ذلك لأن الناس في هذا القطر كانوا يحسون أن المذهب الشيعي كان مفروضاً عليهم فرضاً ، فكانوا يتحينون الفرصة المناسبة للتخلص منه ، ولكنهم كانوا يكتمون ذلك خوفاً من السلطة ، غير أنهم استطاعوا أن يتنفسوا الصعداء من خلال تلك النزيعة التي وقعت مع المعز ، ليعبروا عن سخطهم وكرههم لهذا المذهب الدخيل عليهم ، فقتلوا الشيعة لاسيما عندما أحسوا

---

(١) الكامل في التاريخ ، ٩ / ٢٩٤ .

(٢) وهو : أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني ، رئيس ديوان الإنشاء بدولة المعز بن باديس ، وهو مربيه ووزيره ، وكاتم سره ، العمدة ، ١ / ١٥ ، إعتاب الكتاب ، ص : ٢١٤ .

(٣) ١ / ٢٧٣ — ٢٧٤ ، والكامل في التاريخ ، ٩ / ٢٩٤ .

أنّ المعزّ يقف إلى جانبهم ، وأنّهُ راغبٌ عن مذهبهم ولو من بعيد ، إلاّ أنّ المعزّ لم يقفْ مِنْ هذه الفتنة موقف المتفرّج ، بل حاول أنْ يقضي عليها ، وأنْ يعمل على حماية الشّيعة ، فنسب هذه الفتنة إلى العامّة(١) ، ودبّر قضيّة قتل زعيم السّنّة ، وشيخ هذه الدّعوة ابن خلدون(٢) ، ليثبت لخليفة مصر الفاطميّ أنّ الأمر لم يخرجْ مِنْ يديه ، وأنّهُ ما زال مسيطراً على الموقف .

ولكنّ أهلَ السّنّة لم يستسلموا لقتل شيخهم وزعيمهم ، بل حاولوا أنْ يعبروا عن غيظهم وغضبهم ، وقاموا بنهب الحوانيت وإحراق الأسواق ، الأمر الّذي دفع بالمعزّ إلى محاولة استرضاء العامّة وكسب ودّهم(٣) . وأمّا خليفة مصر الفاطميّ فقد حاول أنْ يخفّفَ الطّرفَ عن المعزّ بن باديس ويرسل لهُ الخلَع والهدايا مِنَ مِصْرَ على ما ذكره ابن الأثير حيث يقول : « . . . وفي آخر ذي الحجّة سيّر الحاكم الخلَعَ مِنْ مصر إلى المعزّ ، ولقّبه شرف الدّولة ، ولم يذكرْ ما كان منهُ إلى الشّيعة من القتل والإحراق »(٤) ولقد كان ذلك في نفس السّنة الّتي وقعت فيها فتنة الشّيعة(٥) ، إلاّ أنّ هذه الفتنة لم تقضِ على الدّعوة الشّيعيّة في أفريقية قضاءً مُبْرَماً ، إنّما ظلّتْ الدّولة الصّنهاجيّة تدين بالطّاعة والولاء للفاطميين في مصر ، ومِنْ أجل ذلك فقد طلب الخليفة

---

(١) أنظر : المؤنس ، ص ٨٢ ، تاريخ ابن خلدون ، ٦/ ٢٩ ، النّجوم الزّاهرة ، ٢/ ١٦٤ — ٦٥ .

(٢) وهو : أبو عليّ حسن بن خلدون البَلَويّ ، كان رُكناً مِنْ أركان أهل السّنّة مع فقه كثير ، قرأ على الشّيخ أبي الحسن القابسيّ ، كانت العامّة تتبعه وتتعلّق به ، وكان شديداً على أهل البدع والرّوافض مُغْرِياً بهم . انظر : ترجمته في : ترتيب المدارك ، ٤/ ٦٢٦ ، المعالم ، ٣/ ١٥١ .

(٣) انظر : ترتيب المدارك ، ٤/ ٦٢٦ .

(٤) الكامل في التاريخ ، ٩/ ٢٥٨ ، وفيات الأعيان ، ٥/ ٢٣٣ ، البيان المغرب ، ١/ ٢٦٩ ، النّجوم الزّاهرة ، ٥/ ٧١ ، الحلل السّندسيّة ق ٤ ج ١/ ٩٤٠ ، إتحاف أهل الزّمان ، ١/ ١٣٧ .

(٥) وفيات الأعيان ، ٥/ ٢٣٣ ، البيان المغرب ، ١/ ١٦٩ ، المصدر نفسه ، ١/ ٢٧١ — ٢٧٢ .

الفاطميّ إلى المعزّ أنْ يعمل على حماية هذه الطّائفة ، وأنْ يحافظ على وجودها وبقائها بالقيروان (١) .

وعلى ما يبدو أنّ دولة المعزّ بن باديس كانت على علاقات طيّبة مع الدّول المجاورة لها ، ومع ملوكها الّذين تبادلوا الهدايا مع المعزّ بن باديس، وعملوا على تحسين العلاقات فيما بينهم ، قال ابن عذارى : (... ووصلت من ملك السّودان إلى المعزّ بن باديس هدية جليلة ، فيها : رقيق كثير ، وزرافات وأنواع من الحيوانات غريبة) (٢) ، كما أتته بعثة أخرى من ملك الرّوم ، تحمل هديّة جليلة قبلها المعزّ ، وأرجعها بما يلائم المقام (٣) ، وذكر لنا صاحب المؤنس هديّة أخرى وصلت إليه من أحد الحكّام فيها ثلاثمائة وخمسة وثلاثون برذوناً بالسّروج المحلّاة ، وعبيد وأشياء أخرى كثيرة (٤) ، هذا بالإضافة إلى هدايا وأعطيات صاحب مصر الّتي كانت تصل إليه بين الفينة والأخرى .

ولقد تمتع المعزّ بملكه طيلة هذه الفترة ، على الرّغم من تلك الفتن الّتي كانت تطلّ برأسها بين الفترة والفترة ، لاسيّما عندما تغيّر عليه أولاد حمّاد بعد وفاة والدهم ، فثاروا عليه وخالفوا لكنّه استطاع أنْ يعيدهم إلى الطّاعة (٥) ، ولبث بملكه مسيطراً قوياً إلى أنْ تغيّر على الفاطميين وقطع دعوتهم من بلاد أفريقية ، وخطب لبني العبّاس ، ولقد أجمع المؤرخون على أنّ الدّعوة للفاطميين قد قطعت من بلاد المغرب في سنة أربعين وأربعمائة للهجرة ، وأقيمت بدلاً منها للعبّاسيين (٦) ، ولم يشذ عن هذا الإجماع

---

(١) المؤنس ، ص : ٨١ .
(٢) البيان المغرب ، ١/ ٢٧٥ ، الإتحاف ، ١/ ١٣٧ ، البساط ، ص : ٦٩ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ٦٩ .
(٤) المؤنس ، ص : ٨٢ — ٨٣ .
(٥) الكامل في التّاريخ ، ٩/ ٤٩٣ ، البيان المغرب ، ١/ ٢٧٥ ، تاريخ ابن خلدون ، ٦/ ٣٢٤ .
(٦) انظر : الكامل في التاريخ ٩/ ٥٦٦ ، ١/ ٢٧٧ ، المعالم ، ٣/ ١٩٦ ، صبح الاعشى : ٥/ ١٢٥ ، المؤنس ، ص : ٨٣ ، رحلة التجاني ، ٣٢٨ ، وغيرهم .

إلاّ القليل (١)، وصفوة القول في هذه القضيّة أنّ الدّعوة الفاطميّة قد قُضِيَ عليها في بلاد المغرب وأفريقية في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة للهجرة حين أمر المعزّ بلبس السّواد شعار العبّاسيين، وصرّح بلعن الفاطميين على أعواد المنابر (٢).

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذا الموقف الّذي وقفه المعزّ بن باديس من الفاطميين قد لقي قبولاً وتشجيعاً من خليفة بغداد العبّاسيّ الّذي بادر إلى تولية المعزّ جميع بلاد المغرب وأفريقية على ما ذكره ابن الأثير حيث يقول: «... وفي هذه السّنة أظهر المعزّ ببلاد أفريقية الدّعاء للدّولة العبّاسيّة، وخطب للإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، ووردت عليه الخلع والتقليدات ببلاد أفريقية وجميع ما يفتحه، وفي أوّل الكتاب الّذي مع الرسل، من عبد الله ووليّه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد ثقة الإسلام، وشرف الإمام، وعمدة الأنام، ناصر دين الله، قاهر أعداء الله، ومؤيد سُنّة رسول الله أبي تميم المعزّ بن باديس بن المنصور وليّ أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب، وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين، وأرسل إليه سيفٌ وفرسٌ وأعلامٌ على طريق القسطنطينية، فوصل ذلك يوم الجمعة، فدُخِلَ به إلى الجامع والخطيب يخطب على المنبر، فدخلت الأعلامُ، فقال: إنّ هذا لواء الحمد يجمعكم، وهذا معزّ الدّين يسمعكم، واستغفر الله لي ولكم" وقطعت الخطبة للعلويين من ذلك الوقت وأُحرقت أعلامُهم." (٣).

---

(١) انظر: وفيات الأعيان، ٥/٢٢٩، المؤنس، ص: ٨٣، تاريخ المغرب، ٣/٧٤.

(٢) انظر البيان المغرب، ١/٢٨٠، تاريخ الخلفاء، ص: ٢٧٨، وفيات الأعيان، ٥/٢٢٩، النّجوم الزّاهرة، ٥/٢، وغيرهم.

(٣) الكامل في التّاريخ، ٩/٥٢٢.

٣٣١٠٦٢

هذا ولقطع دعوة الفاطميين من بلاد المغرب وأفريقية أسباب كثيرة تحدّث عنها المؤرّخون ، فابن الأثير يرى أنّها قطعت لأسباب شخصيّة كانت بين المعزّ بن باديس ووزير الفاطميين اليازوري(١) ، وهذا واضح من قوله : «... ثم إنّ المستنصر استوزر الحسن بن عليّ اليازوري ولم يكن من أهل الوزارة ، انما كان من أهل التبانة والفلاحة ، فلم يخاطبه المعزّ كما كان يخاطب من قبله من الوزراء ، كان يخاطبهم بعبده فخاطب اليازوري بصنيعته فعظم ذلك عليه ، فعاتبه فلم يرجع إليه ما يحبّ ، فأكثر الوقيعة في المعزّ وأغرى به المستنصر .»(٢) .

ونحن وإن كنّا لا ننكر الدّور الّذي لعبه اليازوريّ في تحريض المستنصر الفاطميّ ضدّ المعزّ بن باديس وإغراءه به ، إلاّ أنّنا لا نستطيع أن ندّعي أنّ ما ذكره ابن الأثير يعد من الأسباب المباشرة الّتي أدّت إلى قطع دعوة الفاطميين من بلاد المغرب وأفريقية ، فالقضيّة في نظرنا ليست قضية عداء شخصي وحقد قديم كان بين المعزّ بن باديس ووزير الفاطميين اليازوريّ ، إنّما هي قضيّة صراع اشتدّ ما بين مذهبين متناقضين أحدهما : شيعيّ مفروض على عامّة النّاس في هذه البلاد فرضه عليهم الفاطميون ، وثانيهما سنّيّ مالكيّ اعتنقه النّاس عن قناعة ، ولقد بلغ هذا الصّراع ذروته لاسيّما عندما قاطع أهل القيروان صلاة الجمعة ، تعبيراً عن عدم رضاهم ، وعن كرههم لهذا المذهب الدّخيل الّذي يتعارض مع مبادئهم ، وهذا واضح من رواية ابن عذاري الّتي

---

(١) وهو : الحسن بن علي بن عبد الرّحمن أبو محمّد اليازوريّ ، وزير من الدّعاة ، ولد في يازور بفلسطين وإليها نسبته ، سكن الرّملة وولي الحُكْمَ فيها ، اتصل بالمستنصر الفاطميّ صاحب مصر سنة ٤٤٢هـ ، وجعله قاضي القضاة ولقب بسيّد الوزراء . انظر : رحلة التجاني ، ص ٢٢ ، الحلل السّندسيّة ق ٤ ج ١ / ٩٤٦ ، الأعلام ، ٢ / ٢١٨ ، وغيرهم .

(٢) الكامل في التّاريخ ، ٩ / ٥٦٦ ، تاريخ ابن خلدون ، ٦ / ٢٩ .

يقول فيها :« . . . لمّا رحل بنو عُبيد إلى مصر ، لم تزل ملوك صِنْهاجة ، يخطبون لهم بأفريقية ، ويذكرون أسماءهم على المنابر ، وتمادى الأمر على ذلك حتّى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة ، فراراً من دعوتهم ، فكان بعضهم إذا بلغ المسجد ، قال سراً : " اللهمّ اشهد ، اللهمّ اشهد " ، ثم ينصرف ، فيصلّي ظهراً أربعاً إلى أنْ تناهى الحال حتّى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحدٌ ، فتعطلت الجمعة دهراً ، وأفاء ذلك إلى أنْ رأى المعزّ بن باديس قطع دعوتهم ، فكان بالقيروان لذلك سرور ».(١)

على أنّنا لانستطيع أنْ ننكر الدّور الّذي قام به فقهاء المالكيّة في قطع هذه الدّعوة باحتضانهم المعزّ بن باديس ، وتربيتهم له ، ذلك لأنّهم عملوا على إقناعه بقطع هذه الدّعوة على ما ذكره عياض حيث يقول : « . . . ولمّا انتقل بنو عبيد إلى مصر والمشرق ، تركوا على أفريقية عمالهم أبناء زيري بن مناد الصّنهاجيّ الّذين أقاموا ولاياتهم بالمهدية ، عمل فقهاء المالكية بأفريقية على استقلال بلادهم عن مركز الخلافة ، وما أنْ جاء المعزّ الصّنهاجيّ حتّى أقنعوه بإعلان استقلاله من هذا الخليفة الوهمي ، وأصبحت الدّولة مالكية صرفة ، وانتقم أصحابها من بقية من كان يتهم بالتشيع للباطنيّة ، وقتل بكلّ سنيّ باطني ».(٢) .

أجل لقد سيطر فقهاء المالكية بالقيروان على أمور الدّولة الصّنهاجية في الوقت الّذي شغل به الفاطميون بالفتن والثورات الدّاخلية والمجاعات ، لاسيّما إذا علمنا ان المعزّ بن باديس ، قد انصرف الى تأييد أهل السّنة بتأثير أستاذه ومربيه ابن أبي الرّجال الّذي حبب إليه عقائد المذهب السّنيّ وعرّفه إلى مذهب مالك ، فغرس في

---

(١) البيان المغرب ، ١/٢٧٧ .

(٢) ترتيب المدارك ، ١/١٣ ، البيان المغرب ، ١/٢٧٤ .

نفسه كُرْه المذهب الشّيعيّ والخلفاء الفاطميين ، فشبّ على ذلك منذ نعومة أظفاره ، لكنّه ظلّ يتمذهب بمذهب الشّيعة (١) ، ويُظهر لهم الولاء ، ويُبطن العطف على أهل السّنّة ، ويميل إليهم ، وهذا واضح من رواية الدّبّاغ الّتي ذكر فيها على لسان المعزّ بن باديس أنّه قد أبقى على التبعية للفاطميين ، مخافة إلحاق الأذى بالحجّاج المغاربة ، حيث يقول : « . . . ما أبقيت السّكّة والبنود إلاّ مداراة لأجل حجّاج بيت الله الحرام والمسافرين ، ثمّ قال السلطان : ألم أقتل المشارقة ؟ ، ألم أفعل كذا ؟ ، ألم أفعل كذا ؟ ، فقال الشّيخ أبو بكر (٢) : فعلت وبقي عليك ! أتأذن لي أن أتكلّم ؟ ، قال له السّلطان : لا . » (٣)

فهذه الرّواية تدلّ دلالة صريحة على أنّ المعزّ بن باديس كان يفكر فعلياً بقطع دعوة الفاطميين وبخاصّة عندما اشتدّ عليه لوم الفقهاء ، على إبقاء هذه الصّلة التقليديّة الّتي لم يعد لها من لزوم ، لأنّها تتعارض مع عقائدهم ، إلاّ أنّه كان يتحيّن الفرصة المناسبة لذلك ، وإلاّ لما استشار هؤلاء الفقهاء فيما يلبس من ثياب وعليه أسماء بني عُبَيد على ما أورده الدّبّاغ حيث يقول : « . . . ما يقول الفقيه في هذا الطّرز الّتي فيها أسماء بني عُبَيد مثل : الظّاهر ، والحاكم ، وغيرهما ممّا يلبس أيُصلّى فيها ؟ » (٤) .

وعندما رأى خليفة مصر أنّ المعزّ بن باديس قد تغيّر عليه ، وخرج على طاعته ، حاول أن يحل الأمر حلاً سلمياً ، وأن يصلح الأمور فيما بينهما إلا أنّ المعزّ ردّ عليه ردّاً عنيفاً وادّعى أنّ ملك أفريقية حقّ من حقوقه

---

(١) انظر : المؤنس ، ص ٨٢ ، الإتحاف ، ١/١٣٨ .

(٢) وهو : أحمد بن عبد الرّحمن بن عبد الله الخولانيّ — ٤٣٢هـ ، كان أحد الفقهاء المبرزين والحفّاظ المعدودين ، قرأ على الشّيخ أبي سعيد ، وابن أبي زيد ثمّ لزم أبا الحسن القابسيّ ، وانقطع إليه . انظر : المعالم ، ٣/١٦٥ — ١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ٣/١٦٧ .

وحقوق آبائه (١) . فكان لهذا الرّد أثره في نفس الخليفة الفاطميّ إذْ وقع في نفسه موقع النّبال ، ذلك لأنّ المعزّ وآباءه كانوا صنيعة الفاطميين ، وما اختاروهم إلاّ ليكونوا لهم عوناً على مَنْ عاداهم لا أعداء لهم ومناهضين .

ولمّا أحسّ الخليفة الفاطميّ أنّ بلاد المغرب قد خرجت على طاعته ، وفقد الأمل مِنْ عودتها مرّة أخرى ، بدأ يفكر بطريقة ينتقم بها مِنَ المعزّ بن باديس لا تكلفه تجهّداً ومشقّة ، فأشار عليه وزيره اليازوريّ مَشْوَرَةً تحقّق له بُغْيَتَهُ دونما عناء ، وذلك أنّه كان بأرض مصر قبائل من الأعراب ينتسبون إلى بني هلال ، وبني سليم وهم : رياح ، وزغبة ، وعديّ والأثبج ، وغيرهم ، وكان هؤلاء الأعراب يقيمون جَبْراً في صعيد مصر ما بين البحر الأحمر والنّيل ، وقد أجبرهم على الإقامة بها الفاطميون بعد أنْ كثُرَ ضررهم في بلاد الحجاز ، فَسُمِحَ لَهُم بمجاز النّيل إلى بلاد المغرب ، وكان ذلك محظوراً عليهم بعد أنْ أمدهم بالمال والعتاد ، وملّكهم ملك المعزّ بن باديس وبلاد أفريقية على ما ذكره ابن خلدون حيث يقول : « . . . وكان أحياء هلال من جُشَم ، والأثبج وزُغْبَة ، ورياح ، وربيعة وعديّ في محلاّتهم بالصّعيد ، وقد عمّ ضررهم وأحرق البلاد والدّولة شرّهم ، فأشار ابن اليازوريّ باصطناعهم ، والتقدّم لمشايخهم وتوليتهم أعمال أفريقية وتقليدهم أمرها ، ودفعهم إلى حرب بِمُنْتَهاجَة ، ليكونوا عند نصر الشّيعة والسّبب في الدّفاع عن الدّولة » (٢) ، فجازهم خَلْقٌ كثير إلى بلاد أفريقية ، وانطلقوا إلى حاضرة ابن باديس انطلاق الجراد ، واقتحموا البلاد فأحرقوا الأخضر واليابس ، وعاثوا فيها تخريباً وفساداً (٣) .

---

(١) أنظر : وفيات الأعيان ، ٥/٢٣٣ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ٦/١٠ ، الكامل في التّاريخ ، ٩/٥٦٦ ، وورقات عن الحضارة ، ١/٤٤٨ .

(٣) أنظر : البيان المغرب ، ١/٢٨٨ ، المؤنس ، ص : ٨٤ ، تاريخ ابن خلدون ، ٦/٣٢٥ ، الحلل السّندسيّة ، ق ٤ ج ١ / ٩٤٠ — ٩٤١ ، وغيرهم .

وعندما رأى المعزّ بن باديس هذه الجحافل المتقدّمة إلى مملكته ، حاول أن يستميلهم إلى جانبه ، وأن يشغلهم بخدمته ، ومن أجل ذلك فقد أغدق عليهم نِعَمَهُ ، وهم يتمرّسون بجهاته ، ويطّلعون على مقاتله وعوراته إلى أن جاهروه العداوة وحاربوه (١) ، فدارت بينهما حروب ووقائع كثيرة كانت سجالاً بينهم حتّى تمّت عليه الهزيمة ودارت الدّائرة عليه ، لتخلي زناتة وبني هلال عنه ، ففرّ بنفسه وبخاصّته إلى المهدية (٢) وكان ذلك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة على ما ذكرته المصادر (٣) .

ولقد أرغم المعزّ على إباحة دخول القيروان للأعراب (٤) بعد هذه الهزيمة ، فألحقوا بها الخراب والدّمار ، وشرّدوا أهلها (٥) ، فأصيبت القيروان بنكبة عدّت من أكبر ما نُكبت به مدينة في التّاريخ الإسلامي ، واندكت بهذه النّكبة معالم مدينة من أزهى وأعظم مدن البلاد الافريقية في ذلك الوقت ، ولقد انطلقت هذه النّكبة الّتي منيت بها القيروان ابن شرف ، وابن رشيق ، والحصريّ ، وغيرهم من أبناء القيروان وأدباء هذا القطر ، حيث صوّروا لنا تلك النّكبة تصويراً حزيناً باكياً ، يفيض ألماً وحرقة على المصير الّذي آلت إليه هذه المدينة الزّاهرة ، هذا إلى جانب ما نقلته لنا المصادر التاريخيّة الّتي صوّرت لنا بعض جوانب هذه النّكبة (٦) ، الأمر

---

(١) انظر : رحلة التجاني ، ص : ١٨ .
(٢) انظر : الكامل في التّاريخ ، ٩/٥٦٩ ، تاريخ ابن خلدون ، ٦/٣٢ ، المؤنس ، ص : ٨٥ ، الحلل السّندسيّة ، ق ٤ ج ١ / ٩٤٠ — ٩٤١ ، الإتحاف ، ١/١٣٩ .
(٣) انظر : الكامل في التّاريخ ، ٩/٥٦٩ ، تاريخ ابن خلدون ، ٦/٣٢٦ ، الإتحاف ، ١/١٣٩ .
(٤) الكامل في التاريخ ، ٩/٥٦٩ ، والبيان المغرب ، ١/٢٩٣ ، وتاريخ ابن خلدون ، ٦/٣٤-٣٥ ، المؤنس ، ص : ٨٤ ، والاتحاف ، ١/١٣٩ .
(٥) انظر : تاريخ المغرب ، ٣/٧٥ .
(٦) البيان المغرب ، ١/٢٩١—٢٩٢ .

الذي أدى إلى إنجاح مكيدة اليازوري من جانب ، وإضعاف ملك صنهاجة وحصره في مدينة المهدية العاصمة الثانية لهذه الدولة بعد نكبة القيروان من جانب آخر .

وبهذا استطاع الخليفة الفاطمي أن يتخلص من خطرين في آن واحد إذ تخلص من المعز بن باديس الذي خرج على طاعته دون مشقة وعناء ، كما تخلص من خطر هؤلاء الأعراب الذين كانوا يحملون نفوساً مضطربة تغلي فيها الثورات والفتن لاسيما بعد أن كثرت مشاكلهم ، وأصبحوا يشكلون خطراً على الدولة ، بما يسببونه فيها من إزعاج وشغب ، قال ابن خلدون : "... فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة ، كانوا أولياء للدعوة وعمالاً بتلك القاصية ، وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة ، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها ، وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك"(١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الخليفة الفاطمي قد طرب لهزيمة المعز بن باديس ، وعبر عن فرحته بهذه الهزيمة في رسالته التي وجهها لعلي بن محمد الصليحي (٢) صاحب اليمن وقد جاء فيها : "... وأنه خلف ابن باديس محصوراً في منفاه من الأرض ، محمولاً على شفا جرف من الأخذ والقبض ، وقد ضفر الزدى له فهه ، ولن يبعد بعون الله أن يلتقمه ، وأمير المؤمنين يسأل الله جلت عظمة معونته على شكر نعمته التي هو عن القيام بواجب أقلها محصور ، ولسانه عن الوفاء بأيسره مقصور ، والحمد

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ٦/٣٠ .

(٢) وهو : أبو الحسن علي بن بن محمد بن علي الصليحي ، القائم باليمن ، كان والده قاضيا بها ، وهو سني المذهب . انظر : ترجمته في : وفيات الاعيان ، ٣/٤١١ ، وشذرات الذهب ، ٣/٣٤٦ .

لله الذي أذهب عنا الحزن ، إنّ ربّنا لغفور شكور ، أعلمك أمير المؤمنين بهذه الصارفة الطارفة ، لتنشره على المنابر ، وتذيعه في البوادي والحواضر — إنْ شاء الله تعالى — والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته »(١) .

ولقد أقام المعزّ بالمهدية بعد خراب القيروان إلى أنْ لفظ أنفاسه الأخيرة في سنة أربع وخمسين وأربعمائة(٢) ، فخلفه ابنه تميم بعد أنْ رأى خراب مملكته ، وتمرّدت القبائل عليه ، فعمّت الثورات في البلاد من جديد ، وكثر عليه المخالفون والثائرون ، وساءت العلاقة بينه وبين أبناء حمّاد الّذين خلعوا طاعته ، وخالفوا عليه ، وقد استغل خليفة مصر هذه الأمور فعمل على إشعال نار العداوة والخصومة بين الطرفين بما كان يوحيه إلى هؤلاء الأعراب الّذين كانوا يغيرون على المعزّ مرّةً ، وعلى أولاد حمّاد مرّة أخرى ، كما خرجت على طاعته غالب البلاد ، وكثر عليه المخالفون ، فخالفت عليه سوسة وقفصة ، وباجة ، وجل البلاد المغربيّة (٣) ، ولكنّه مع ذلك استطاع أنْ يحتفظ بالمهدية وأنْ يقيم فيها دولته .

---

(١) السّجلاّت المستنصريّة ، ص ٤٥ .

(٢) أنظر : وفيات الأعيان ، ٥ / ٢٣٥ ، البيان المغرب ، ١ / ٢٩٨ ، تاريخ المغرب ، ٣ / ٧٨ ، المؤنس ، ص : ٨٥ ، العبر ، ٣ / ٢٣٣ .

(٣) أنظر : الكامل في التاريخ ، ١٠ / ٤٤ ، المؤنس ، ص : ٨٤ ، تاريخ ابن خلدون ، ٦ / ٣٢٦ .

البيئة الإجتماعيّة :

لمّا كانت مظاهر الحياة متداخلة مترابطة ، لا يمكن أنْ تنفصل بعضها عنْ بعض فإنّنا سنرى أنّ ما رأيناه مِنْ مظاهر في البيئة السّياسيّة للدّولة الصّنهاجية ، ينعكس أثره على المظاهر الأُخرى بصفةٍ عامّةٍ ، وعلى البيئة الإجتماعيّة بصفة خاصّة في هذا العصر ، ذلك لأنّ البيئة الإجتماعيّة تتلوّن بألوان البيئة السّياسيّة السّائدة وتتأثّر بها ، ولا يمكن أنْ تكون بمنأى عنها .

وبناءً على ما تقدّم فإنّنا نستطيع أن نقول : إنّ حياة النّاس في هذا القطر ، قد تأثرت تأثراً واضحاً وملموساً بالبيئة السّياسيّة ، الّتي كانت تزخر بالفتن والثورات الدّاخليّة الّتي كانت تُطِلُّ برأسها بين الفينة والفينة (١) ، لاسيّما عندما كانت تضطرب سياسة الدّولة ، وتختلّ الأُمور ، وفي هذه الحالة تختلّ الأوضاع الاجتماعيّة وتتغيّر أحوال النّاس ، وأمّا عندما تختفي الثورات والفتن وتزول أسباب الخوف ، فإنّ حياة النّاس تميل إلى الهدوء والاستقرار ، فينصرفون إلى الإنشاء والتّعمير ، وهذا ما يستطيع الدّارس أنْ يراه ، عندما يتعرّض لأُمور الدّولة الصّنهاجيّة الّتي عاش في كنفها شاعرنا ، وتفاعل مع أحداثها وحوادثها ، وعبّر عنها في أدبه وشعره ، ففي فترات الهدوء والاستقرار الّتي عاشتها هذه الدّولة رأينا حضارةً لاتقلّ عن مثيلتها في المشرق ، فابن خلدون يرى أنّ ملك المعزّ كان أضخم مُلكٍ عُرِف للبربر بأفريقية وأترفه وأبذخه (٢) .

هذا ولقد كان المجتمع الصّنهاجيّ في هذه الفترة يضم عناصر شتى من عرب وروم وبربر وفرس وترك ، وقد انصهرت هذه العناصر المختلفة

---

(١) الكامل في التّاريخ ، ٩/٢٥٧ ، ٣٤٠ ، ٤٥٠ ، ٣٧٧ وغيرها ، البيان المغرب ، ١/٢٧٥ ، المؤنس ، ص: ٨٢ ، إتحاف أهل الزّمان ، ١/١٣٧ وغيرهم .
(٢) تاريخ ابن خلدون ، ٧/٣٢٤ .

في بوتقة واحدة وكوّنت مجتمعاً واحداً ، قال صاحب الأعلاق النفيسة :

«وفي القيروان أخلاط من النّاس : من قريش ، ومن سائر بطون العرب ، من مضر وربيعة وقحطان ، وبها أصناف من العجم من أهل خرسان ، ومن كان وردها مع عمّال بني هاشم ، وبها عجم البلد البربر والروم ، وأشباه ذلك»(١)

فالمجتمع القيروانيّ لم يكن منعزلاً عن غيره من المجتمعات الإسلامية الموجودة في المشرق وفي الأندلس ، وإنّما كان على اتصال بالشعوب والأجناس الّتي يتكوّن منها العالم الإسلامي في طرفه الشرقيّ من : عرب ، وفرس ، وروم ، وقد كانت حركة الاختلاط بين العرب والبربر تسير جنباً إلى جنب مع حركة الفتوح الإسلامية الّتي عملت على توحيدهم(٢) .

ويجدر بنا أنْ نذكر أنّ المجتمع الصّنهاجيّ في هذا العصر كان يتألف من طبقتين رئيستين هما : الخاصّة وهم : أصحاب السلطان وأقرباؤه ورجال الدّولة كالأشراف والوزراء والقوّاد والكتّاب ، والقضاة ، والعلماء ، والأدباء ، والعامّة وهم : سواد الناس من أهل الحرف والصنائع والفلاّحين والجُند والرّقيق ، وغيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى(٣) . ولقد حفظ لنا المؤرخون كثيراً من مظاهر التّرف والبذخ الّتي عاشتها الطبقة الخاصّة في هذا القطر ، لاسيّما الأمراء منهم الذين أحاطوا ملكهم بهالة من الأبهة والعظمة ، فبذّروا الأموال هنا وهناك ، وتمرّغوا بأموال الرّعية تمرّغ المالك المطلق ، وسخروها لشؤونهم الخاصّة ، ولمآربهم الذّاتية ، وقد حدّثتنا المصادر عن تلك الأموال الطّائلة الّتي أنفقها المعزّ في تجهيز جدته ، وعن تلك الولائم الّتي أقامها في حفلة زفافه وزفاف شقيقته(٤) ، ولقد ساعدهم

---

(١) الأعلاق النفيسة ، ص : ٣٩٩ .
(٢) أنظر : حياة القيروان ، ص ٧٢ .
(٣) انظر : البساط ، ص ٣١ .
(٤) انظر : البيان المغرب ، ١ / ٢٧٠ ، المؤنس ، ص ٨٣ ، تاريخ ابن خلدون ، ٦ / ٣٢٥ ، الاتحاف ، ١ / ١٣٨ .

على حياة البذخ والترف هذه عوامل متعددة منها : ازدهار التجارة في هذا القطر ، ونمو الصناعة ، ووفرة الغلات الزراعية ، لذلك فقد بلغت الدولة الصنهاجية درجة عالية من الرقي في جميع نواحي الحياة ، وتطورت الحياة الاجتماعية فيها تطوراً كبيراً .

هذا ولقد ازدهرت في عهد المعز بن باديس الصناعة والتجارة والزراعة ، فوجد في هذا القطر الكثير من الصناعات مثل : صناعة البسط والمنسوجات الحريرية والقطنية ، وهذه الصناعة ازدهرت في مدينة سوسه على ما ذكره البكري حيث يقول : « ... والحياكة بسوسه كثيرة ، ويغزل بها غزل يباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب »(١) ، ومن الصناعات التي وجدت في هذا القطر صناعة الجلد لاسيما تلك السروج القيروانية المطرزة بأسلاك الفضة ، هذا إلى جانب بعض الصناعات البسيطة الأخرى ، كصياغة المجوهرات ، وأدوات الحرب ، وغيرها (٢) ، ولقد أعجب البكري بصناعة الفخار والخزف في هذا القطر ، فوصفها لنا وصفاً دقيقاً وذكر لنا بعض أسمائها ، فيقول : « .. ويصنع بتونس آنية للماء من الخزف تعرف بالريحانية ، شديدة البياض في نهاية الرقة تكاد تشف ، ليس لها مثيل في جميع الأقطار وعامة الامصار »(٣) .

وأما الحركة التجارية في هذا القطر فقد ازدهرت إزدهاراً كبيراً ما بين المغرب والمشرق عن طريق الإسكندرية ، وما بين المغرب وأوروبا بواسطة الأندلس وصقلية ، حيث كانت القوافل تسير ليل نهار محملة بالبضائع من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان على ما ذكره المراكشي

---

(١) المغرب ، ص : ٣٦ ، البساط ، ص : ٣٤ .
(٢) البساط ، ص : ٣٥ .
(٣) المغرب ، ص : ٤٠ .

حيث يقول : «وكانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان ، تمشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً ، وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة ، فإذا ظهر في البحر عدوّ نوّر كل حصن للحصن الذي يليه ، وأتصل التنوير فينتهي خبر العدوّ من طرابلس إلى الإسكندرية ، أو من الإسكندرية إلى طرابلس»(١) ، كما كانت السفن تحمل البضائع من نهر إشبيلية وأنهار الأندلس إلى المغرب والإسكندرية ، قال ابن خلكان : «... ونهر إشبيلية هذا نهر مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من برّ المغرب ، وعاطفة إليه»(٢) .

فالحركة التجارية كما نرى كانت نشطة ومزدهرة في هذا القطر ، وقد ساعد على ازدهارها عوامل كثيرة كان أهمها : موقع البلاد المغربية مابين المشرق والأندلس ، وغزارة الإنتاج الصناعي والزراعي ، هذا إلى جانب قلة الضرائب المفروضة ، الأمر الذي أدى إلى ازدهار التجارة ازدهاراً كبيراً ، وأما المواد التي كان الافريقيون يتاجرون بها فهي : محصولات القطر ومصنوعاته ، ثم واردات البلاد المجاورة كطرابلس ، والسودان ، ومنه يجلب الرقيق والعاج والتبر(٣) ، هذا بالإضافة إلى التجارة الداخلية التي ازدهرت ما بين مدن القطر ، فكانت البضائع تحمل من مدن القطر إلى القيروان حتى صارت قطيراً لخيرات البلاد الافريقية ، وسوقاً كبيراً لنتاجها الصناعي والزراعي ، الأمر الذي دفع بالإدريسي إلى أن يصفها بأنها أمّ أمصار ، فيقول : «أمّ أمصار ، وقاعدة أقطار ، وكانت أعظم مدن المغرب قطراً ، وأكثرها بشراً ، وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً ، وأتقنها بناءً ، وأنفسها هممًا ، وأربحها تجارةً ، وأكثرها جباية ،

---

(١) المعجب ، ص : ٤٣٢ .
(٢) وفيات الأعيان ، ٧/١١٦ .
(٣) انظر : البساط ، ص:٣٧ .

وأنفقها سلعة ، وأنماها ربحاً ﴾(١) . كما ازدهرت الزراعة في هذا القطر ازدهاراً كبيراً والذي ساعد على ذلك : خصب الأرض ، وجودة التربة هذا من جانب ، واعتدال الطقس من جانب آخر ، حتى إنّ بعض الأراضي كانت تنبت في بعض الأحيان مائة ضعف ما يبذر فيها ، قال البكري : ﴿ومدينة القيروان في بساط من الأرض مديدٌ ، وسائر جوانبها أرضون طيبةٌ كريمةٌ ، وأحسنها الجانب الغربي وهو المعروف بفحص الزرارة ، يصاب فيه في السنة الخصبة المخصبة مائة ضعف ، وهواء هذا الجانب طيّب﴾(٢)

ولقد حفظت لنا كتب الجغرافية الكثير من أسماء النباتات والأشجار والثمار التي جادت بها أرض المغرب(٣) .

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ هذا الخصب ، وهذا الثراء الواسع ، كان سبباً من أهم أسباب الغنى وكثرة الأموال ، فازداد الترف والبذخ واللهو في هذا القطر ، فكان للأمراء والحكام من ثروة البلاد أوفر نصيب ، وللرعية ما فاض عن قصورهم ، ورغم هذا فقد حدّثنا المؤرخون عن تلك الجماعات التي كانت تطلّ برأسها بين الحين والآخر (٤) ، وعلى الرغم من ذلك فإنّ الغالب على أيام هذه الدولة أنّها كانت تنعم بالرخاء ، وبكثرة الأموال ، ولقد حدّثنا المؤرخون عن تلك الولائم والهبات والهدايا ، وعن توابيت الأمراء التي كانت تتخذ من العود الهندي ، وتستر بمسامير الذهب(٥) .

---

(١) صفة المغرب ، ص : ١١٠ .
(٢) المغرب ، ص : ٢٣ .
(٣) أنظر : المصدر نفسه ، ص : ١٧-٣٩ ، وصفة المغرب ، ص ص : ١٠٤-١١٥ ، المعجب : ٤٣٤ .
(٤) أنظر : الكامل في التاريخ ، ٩/٣٢٩ ، البيان المغرب ، ١/٢٧٥ وغيرهما .
(٥) أنظر : البيان المغرب ، ١/٢٧٠ ، المؤنس ، ص : ٨٣ ، تاريخ ابن خلدون ، ٦/٣٢٥ ، وإتحاف أهل الزمان ، ١/١٣٨ . وغيرهم .

وأما الفقهاء فقد احتلوا مكانة مرموقة في عهد المعزّ بن باديس، لمّا كان لهم من تأثير في العامّة، فكانت لهم الكلمة المسموعة والرأي المتبع[1]، ولقد تعلّقت العامّة بهم تعلّقاً كبيراً، فكانت تأتمر بأمرتهم، وتفعل ما يريدون، الأمر الّذي دفع بالمعزّ إلى مسايرتهم ومسانمتهم من ناحية، وإلى الإذعان لرأي جمهورهم من ناحية أخرى، على الرّغم من عدم اقتناعه بما يريدون، وخير شاهد نسوقه على ما ذهبنا إليه هو موقف المعزّ من أبي إسحاق المعافريّ[2]، أحد فقهاء السُّنّة المعتدلين الّذي استُفتي بقضيّة طلاق ومراجعة، وكان على صواب، فخالفه جمهور الفقهاء، فانضمّ المعزّ إليهم، رغم اقتناعه بصواب رأي أبي إسحاق، قال عياض: «ولا امتراء عند كلّ منصف أنّ الحقّ فيما قاله أبو إسحاق»[3].

هذا ومن يقرأ موقف أبي عمران الفاسيّ من ابن عطاء اليهوديّ طبيب المعزّ الخاص الّذي أرسل من قبل المعزّ ليستفتي الشّيخ في مسألة[4]، يستطيع أن يتبيّن مدى تأثير الفقهاء في ذلك العصر، وقوّة شخصيّتهم، حتّى إنّ المعزّ بن باديس عندما عزم على قطع دعوة الفاطميين من بلاد المغرب، اجتمع بالفقهاء، فقهاء المالكية، وشاورهم في الأمر[5].

وأما المرأة في هذا العصر فلم يكن يتاح لها أن تختلط بالرّجال، في الوقت الّذي كانت به المرأة في الأندلس، تختلط بهم، وتجالسهم

---

(١) أنظر: المعالم، ٣/١٥٤.

(٢) وهو: أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن يحيى المعافريّ التونسيّ +٤٤٣هـ، كان فقيهاً صالحاً موصوفاً بالفهم، مقدّماً في أجوبته، تفقّه على أبي عمران الفاسيّ، أنظر: المعالم، ٣/١٧٧، وترتيب المدارك، ٤/٧٦٦.

(٣) المعالم، ٣/١٧٩.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ٣/١٦١.

(٥) المصدر نفسه، ٣/١٦٧.

في مجالس اللّهو والطّرب ، والغناء ، والخمر ، وفي مجالس العلم والأدب(١) ، بل إنّ الحجاب كان مفروضاً على المرأة في ذلك العصر بالقيروان (٢) ، وعلى الرّغم من ذلك فقد حدثتنا المصادر عن مشاركة بعض النّسوة من الأميرات في تدبير شؤون الدّولة ، وتصريف الأمور فيها (٣).

وثمّة ظاهرة أخرى ينبغي لنا أنْ نشير إليها وهي أنّ المجالس الأدبية ، ومجالس اللّهو والطّرب قد انتشرت انتشاراً واسعاً في ذلك العصر ، حتّى إنّ المعزّ بن باديس نفسه كان يحضر هذه المجالس، ويطلب إلى شاعري حضرته أنْ يقولا شعراً في وصف نوع من الفاكهة أو نوع من الأطعمة ، أو في وصف الشّعر الرّقيق الّذي ينبت على سيقان بعض النساء ، والطريف في الأمر أنّ المعزّ كان يحدّد لهما الموضوع والقافية على ما ذكره ابن ظافر (٤).

كما انتشرت ظاهرة الغزل بالغلمان في هذا العصر ، فكان الشّعراء يتغزلون بهم وكأن الواحد منهم فتاةٌ جميلةٌ ، يبثّ إليها الشاعر لواعج نفسه ، ويعبّر عمّا يدور في نفسه من تعلّق وهيام ، ومن يتصفّح ديوان ابن رشيق ، وما وصلنا من شعر ابن شرف يستطيع أنْ يلمح هذه الظّاهرة بوضوح .

ومهما يكن من أمر ، فإن الحياة الاجتماعية والاقتصاديّة والثقافيّة ظلّت مزدهرة في القيروان إلى أنْ داهمها الأعراب ، فتغيّر الحال ، واضطربت الأمور ، فساءت الأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديّة ، وغيرهما

---

(١) أنظر : الأدب الأندلسيّ ، ص : ٤٦ .
(٢) أنظر : البساط ، ص ٤٣ .
(٣) أنظر : البيان المغرب ، ١ / ٢٧٢ ، المؤنس ، ص : ٨١ .
(٤) أنظر : البدائع ، ص : ٢٤٠ — ٢٤١ .

من مرافق الحياة ، فتفرّق النّاس ، وتشتتوا في كلّ مكان (١) ، بسبب الغزو الهلاليّ الّذي عمل على تغيير معالم الحياة في هذا القطر لاسيّما القيروان الّتي تحوّلت إلى ديار موحشة لاساكن فيها (٢) ، فتغلغلت الفوضى في حياة النّاس ، واضطربت شؤونهم . فانعكس ذلك في أدبهم وشعرهم ، وعبّروا عن هذه الحياة المضطربة القلقة تعبيراً صادقاً ، وأكثروا من شكوى الزّمان وتقلبه ، وسوف نرى أصداء هذه النّكبة في شعر شاعرنا الّذي كان ممّن خرجوا رغماً عنهم من وطنهم مقهورين ، فعبّر عن هذه النكبة تعبيراً صادقاً ، وأكثر من ذمّ الزّمان وتغيّره كغيره من شعراء القيروان الّذين لذعتهم النكبة مثل ابن رشيق ، والحصري ، وغيرهما .

---

(١) أنظر : المعجب ، ص : ٤٤١ .
(٢) انظر : البيان المغرب ، ١/٢٩١ ، المعجب ، ص ٢٩٣ .

البيئة الأدبيّة والفكريّة :

لقد ازدهرت الحياة الأدبية والفكرية في هذا العصر ازدهاراً كبيراً ، وقد ساعد على ازدهارها عوامل متعدّدة كان أهمّها : أنّ المعزّ ابن باديس الّذي تولّى الحكم في مطلع القرن الخامس الهجريّ بالقيروان ، كان محبّاً للعلم والأدب ، مكرماً للأدباء والشّعراء ، فقرّبهم منه وأغدق عليهم الأموال الهائلة ، فنفق هؤلاء لديه سوق الأدب حتّى أصبح بلاطه محطّاً لبني الآمال ، ومنتدىً للأدباء والشّعراء ، فاجتمع ببابه ما يزيد على مائة شاعر بليغ ، قال ابن خلّكان : «... وكان ملكاً جليلاً عالي الهمّة محبّاً لأهل العلم ، كثير العطاء ، وكان واسطة عقد بيته ، ومدحه الشّعراء ، وأنشجعه الأدباء ، وكانت حضرته محطّ بني الآمال»(١) .

ومن هذه الرّواية يتضح لنا أنّ ديوان المعزّ بن باديس كان من أزهى وأحفل الدّوائر الملوكيّة في ذلك العصر ، ولقد فاق بلاطه بلاريب بلاط ملوك الطّوائف المعاصرين له في الأندلس ، حيث اجتمع ببابه من أفاضل الشّعراء والأدباء ما لم يجتمع إلا ببباب الصّاحب بن عبّاد (٢). ومن أشهر هؤلاء الشّعراء : ابن أبي الرّجال الشّبيانيّ ، وابن رشيق (٣) ،

---

(١) وفيات الأعيان ، ٥/٢٣٣ ، الكامل في التّاريخ ، ١٠/١٥-١٦ ، البيان المغرب ، ١/٢٩٧ ، مرآة الجنان ، ٣/٧٥ ، الحلل السّندسيّة ، ق ٤ ج ١/٦٤٠ ، وغيرهم .

(٢) أنظر : البساط ، ص : ٨٢ ، وابن رشيق ، ص : ٧ ، وظهر الإسلام ، ١/٣٠٤ ، وغيرهم .

(٣) وهو : أبو عليّ الحسن بن رشيق القيروانيّ ، أحد الأفاضل البلغاء ، صاحب كتاب " العمدة في صناعة الشّعر ونقده " و " أنموذج الزّمان في شعراء القيروان " ، والرّسائل الفائقة ، والنّظم الجيّد ـ ٤٥٦هـ . أنظر : وفيات الأعيان ، ٢/٨٥ ، معجم الأدباء ، ٨/١١٠ ، شذرات الذهب ، ٣/٢٩٧ ، إنباه الرّواه ، ١/٢٦٨ ، بغية الوعاة ، ١/٥٠٤ ، وغيرهم .

والحصريّ (١)، وابن شرف، وأبو الفضل الدّارميّ (٢)، وابن الخازن (٣)، وابن الإسفنجيّ (٤)، وغيرهم.

يضاف إلى ما تقدّم أنّ المعزّ بن باديس، كان أديباً بارعاً، ينظم الشّعر ويتذوّقه، هذا إلى جانب رعايته لأهل الأدب وعنايته بهم، قال ابن خلّكان: "... والمعزّ كان أكرم أهل بيته بالمال، وكان ديّناً يتجنّب سفك الدماء إلّا في حقّ، وكان رقيق القلب، حديد الذّهن، عارفاً

---

(١) وهو: أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ بن تميم الأنصاريّ الحصريّ ـ ٤١٣ هـ، أديب ناقد من أهل القيروان، صاحب كتاب: "زهر الآداب وثمر الألباب" و "نور الطّرف ونور الظّرف"، و "المصون في الهوى المكنون" و "جمع الجواهر في الملح والنّوادر"، له شعر جيّد فيه رقّة، انظر: وفيات الأعيان، ١/٥٤، معجم الأدباء، ٢/٩٤، الأعلام، ١/٤٤، والمنتخب، ص: ٦٠، وغيرهم.

(٢) وهو: أبو الفضل محمّد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن سليمان بن الأسود بن سليمان التميميّ البغداديّ. انظر: جذوة المقتبس، ص ٧٣، الذّخيرة، ق٤ م١/٨٧، وغيرهما.

(٣) وهو: إسماعيل بن إبراهيم بن الخازن، شاعر حاذق كابن رشيق وابن شرف، انظر: ترجمته في مسالك الأبصار، ق١ ج١١/٣٦٣.

(٤) وهو: إسماعيل بن محمّد اللّخميّ، أبو إبراهيم، ناقد في ديوان الإنشاء، مشهور بعمل الشّعر، انظر ترجمته في مسالك الأبصار، ق١ /١١/٣٧٣.

بعدّة صنائع من الألحان والتوقيعات ، وعلم الاحجار ، وله شِعْر جيد .)) (١)
والأمثلة على تذوّق المعزّ للشِّعْر ونقده له كثيرة منها ما أخذه على ابن رشيق يوم أنشده :

تثبّت لا يُخامِرْكَ اضطِرابُ فقد خَضَعَتْ لعزّتِكَ الرِّقابُ (٢) .

وقد اخذ عليه قوله : ((تثبّت)) وأمر بتمزيق القصيدة وحرقها (٣) .

هذا ولقد كان لموقع البلاد المغربيّة بين مشرق الدّولة الاسلاميّة ومغربها اثر واضح في نهضة العلوم والآداب فيها . إذ كانت بمثابة جسر تمر عليه حضارة المشرق الى الأندلس ، وحضارة الأندلس الى المشرق ، فالدّاخلون الى المشرق من الأندلس ، والعائدون من المشرق الى الاندلس ، كانوا يمرّون به ، وقد كان للأدب في المشرق والأندلس سوق نافقة ، فتجاوبت اصداء هذه الثقافات المختلفة ، وهذه النهضة في بلاد المغرب ، فكانت بذلك حركة علميّة لاتقلّ عن مثيلتها في المشرق والأندلس ، كما حدث امتزاج حضاريّ وثقافيّ فيما بين المغرب والاندلس من ناحية ، وبين المغرب والمشرق من ناحية أخرى ، وفي هذا يقول عياض : ((وجدّدت القيروان عصرها في ربط صلتها بالمشرق والمغرب ، وخرج طلّاب العِلْم منها الى المشرق والمغرب معلّمين ومتعلّمين ، وكثرت الرّحلات العلميّة الى بغداد ، والشام ، ومكّة ، والمدينة من المغرب والأندلس ، كما نزح بعض أهل المشرق الى القيروان والأندلس)) (٤) .

---

(١) وفيات الاعيان ، ٥/٢٣٤ ، المؤنس ، ص : ٨٣ ؛ مرآة الجنان ، ٣/٧٥ ، وغيرهم .
(٢) الذّخيرة ق٤ م٢/٥٩٨ ، وديوان ابن رشيق ، ص : ٢٤ .
(٣) انظر : الذّخيرة ق٤ م١/٥٩٨ ، المكتبة الصقليّة ، ص : ٩٤٩ ، البساط ، ص : ٩١ .
(٤) ترتيب المدارك ، ١/١٣ — ١٤ ، ظهر الاسلام ، ١/٣٠٤ .

ومن هذه العوامل أيضاً أنّ القيروان كانت دار العلم بالمغرب ، وإليها كانت الرّحلة في طلب العلم ، فأمّها طلاب العلم من كلّ حدب وصوب ، يغترفون من معارفها الزّاخرة ، فوجدوا عند أميرها الإكرام والتّشجيع ، فتسابقوا في تحصيل المعارف والعلوم ، وأبرزوا نتاج أفكارهم ، ودوّنوا كتبهم ، فكانت بذلك حركة علميّة وأدبيّة مزدهرة فألّق في أخبار القيروان ، وتراجم علمائها كتبٌ كثيرةٌ ، قال المراكشيّ : "... وكانت القيروان هذه في قديم الزّمان — منذ الفتح إلى أن خرّبها الأعراب — دارَ العلم إليها يُنسَبُ أكابر علماء ، وإليها كانت الرّحلة في طلب العلم ، وقد ألّف النّاس في أخبار القيروان ومناقبه ، وذكر علماء ، ومن كان به من الزّهّاد والصّالحين والفقهاء المتبلين كتباً مشهورة ، فلمّا استولى عليها الخراب ، تفرّق أهلها في كلّ جهة فمنهم من قصد بلاد مصر ، ومنهم من قصد صقليّة والأندلس ، وقصدت طائفة عظيمة أقصى المغرب ، فنزلوا مدينة فاس فعقبهم بها إلى اليوم"(١) ، فكانت القيروان بذلك مركز إشعاع حضاريّ وثقافيّ إلى أن خرّبها الغزاة .

هذا ويرى بعض الدّارسين أنّ ضيق رقعة البلاد واعتزاز المعزّ بالحكم ، وزهوه بالاستقلال عن الفاطميين ، ورغبته في أن يظهر أمامهم وقد استقلّ عنهم بمظهر المتفوّق السّبّاق في شتى مناحي الحياة ، قد هيأ فرصة طيّبة وأرضاً خصبة لحياةٍ أدبيّةٍ نامية في هذه الفترة في تلك البلاد (٢) وذلك لأنّ الانفصال عن مركز الخلافة قد يكون مصدر خير وبركة على الأدب والعلم ، فالحاكم أو الوالي الّذي يستقلّ عن مركز الخلافة ، يجهد في أن ينافس أصلَه الّذي انفصل عنه ، فيسعى إلى

---

(١) المعجب ، ص : ٤٤١ .
(٢) أنظر : ابن رشيق ، ص : ٧٥ .

تشجيع الحركة العلميّة والأدبيّة في وطنه ومقرّ حكمه وملكه (١) ، ويهيىء الفرصة لذلك ، ويفتح أبواب قصره للشعراء والأدباء ، والعلماء ، ويخصّهم برعايته وكرمه ، ويغدق عليهم الأموال الطائلة ، فيجعل منهم السنة تلهج بذكره ، الأمر الذي هيّأ للعلم والعلماء ، وللشعر والشعراء وسائل النهوض وأسباب الحياة ، فازدهرت العلوم والآداب في هذا القطر ازدهاراً منقطع النظير .

ثم إنّ الحضارة قد تقدّمت ، ونمت ، فازدهرت الصناعة والتجارة والزراعة ، فسادت بالأرباح الطائلة على الدولة ، فأنشئت القصور ، وأقيمت المتنزّهات والحدائق ، هذا الى جانب الطبيعة المغربية الجميلة التي ازدانت بالحدائق والبساتين (٢) ، فساعد ذلك العلماء والأدباء وشجّعهم على الإنتاج والإبداع في كلّ ميدان ، وجادت قرائحهم بالأشعار الجميلة والصور البديعة .

ولقد كانت المجالس الأدبية في هذا العصر مظهراً هاماً من مظاهر النشاط الأدبي ، كما كانت مظهراً بارزاً من مظاهر الحياة الإجتماعيّة ، والعقليّة في هذا العصر ، قال اليافعي : «... وأخبار المعزّ بن باديس كثيرة ، وسيرته شهيرة ، وله شعر قليل ، وكان يوماً في مجلسه وعنده جماعة من الأدباء ، وبين يديه أترجة ذات أصابع ، فأمرهم أن يصفوها ، فقال ابن رشيق شعراً :

أترجةٌ سبطةُ الأطباقِ ناعمةٌ تلقى العيون بحسنٍ غيرِ منحوسِ
كأنّما بسطت كفّاً لخالقها تدعو بطولِ بقاءِ لابنِ باديسِ (٣) .

---

(١) أنظر : الفن ومذاهبه في النثر ، ص : ٣٢٥ .
(٢) أنظر : المجمل ، ص : ١٠٤ .
(٣) ديوان ابن رشيق ، ص : ٩٢ ، البساط ، ص : ٨٩ .

فاستحسن المعزّ منه ذلك ، وفضّله على من حضر من الجماعة الأدباء.(١)". ومن هذه الرّواية نستطيع أن نلاحظ أنّ الشّعر في مثل هذه المجالس كان يرتجل ارتجالاً ، وأنّ الشّعراء الّذين كانوا يشهدونها يتّصفون بسرعة البديهة والخاطر ، ولقد حدّثنا ابن شرف نفسه عن تلك المجالس الأدبيّة الّتي كان يعقدها المعزّ بقصره ، ويدعو إليها من يحبّ من شعراء حضرته ، فيقول : "... استدعاني المعزّ بن باديس يوماً ، واستدعى أبا عليّ الحسن ابن رشيق الأزديّ — وكنّا شاعري حضرته ، وملازمي ديوانه — فقال : أحبّ أن تصنعا بين يديّ قطعتين في صفة الموز على قافية الغين ، فصنعنا حالاً من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر ، فكان الّذي صنعته :

يا حبّذا الموز وإسعادُه ... من قبل أن يمضغه الماضغ
لان إلى أن لامسّ لحمه ... فالفمُ ملآن به فارغ
سبحان ربّنا مأكلٌ طيّبٌ ... فيه وإلاّ مشربٌ سائغ

والّذي صنعه ابن رشيق :

موزٌ شريفٌ أكلُه ... من قبل مضغ الماضغ
فمأكلٌ لآكلٍ ... ومشربٌ لسائغ
فالفمُ من لينٍ به ... ملآنٌ مثلُ فارغ
يخالُ وهو بالغٌ ... للخلق غير بالغ

قال فأمرنا للوقت أن نصنع على حرف الذال ، فعملنا ولم يُسرِ أحدُنا صاحبَهُ ما عمل ، فكان ما عملته :

هل لك في موزٍ إذا ... ذُقتاه قلتما : حبّذا

---

(١) مرآة الجنان ، ٣/٧٥ ، وفيات الأعيان ، ٥/٢٣٤ ، البساط ، ص : ٨٩ .

فيه شَرابٌ وَغِـــــذا يُريك كالمـــاء القَـــذى
لو ماتَ مَنْ تَلَـــذّا بِـهِ لَقِيـلَ ذابِـــذا

وما عَمِلَهُ ابْنُ رشيـــق :

للّه مَـــوْزٌ لَذِيـــذْ يُعيذُهُ المُستميـــذْ
فَواكِهٌ وشَـــــرابْ بِـهِ يُداوى الوَقيـــذْ
تَرى القَذى المَيْن فيـــهِ كَما يُريهَـــا النَّبيـــذْ

قال ابن شرف : فأنتَ ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة ، والقصد واحداً ، ولقد قال من حضر ذلك اليوم : فما ندري مِمَّ تَعجَبُ أمن سُرْعَـــة البديهة ! ! ؟ أم مِنْ غرابة القافية ؟ ! ، أم مِنْ حُسْنِ الاتفاق ؟ ! » (١) .

ومهما يكن مِنْ أمر ، فإنَّ هذه المجالس كانت تُعقَدُ بطلب من المعـــزّ ابن باديس نفسه خاصّةً عندما ينتهي من مشاغل الدّولة ، وأمور الحكم ، فكـــان يتخيّـــر لهذه المجالس مَنْ يُفضّلهُ مِنْ بين خاصّته وكُتّابه وشُعَرائـــه ، ويطلب إليهم أنْ يقولوا في الغرض الّذي يُريدُ بعدَ أنْ يحدّد لَهُمْ الـــوزن والقافية الّتي يريد ، وهنا يستطيع الدّارس أن يلاحظ أنّ الموضوعـــات والأغراض الّتي كانت تُطرَحُ في تلك المجالس ، كانت تفرضُ فرضاً على الأدبـــاء ، وربّما كان المعزّ بذلك يهدفُ إلى امتحان شاعريّة شُعَرائه ، وإجبارهـــم على القول في غرضٍ محدّدٍ ، وقافية معيّنة ، ومِنْ هُنا فقد جاء التّعبيـــرُ عَن مِثْلِ هذه الموضوعات مِنْ خارج النّفس لا مِنْ داخلها .

ولكنّ الأمر لم يكن ليقتصر على مجالس العلم والأدب ، بل كان يتعـــدّى ذلك إلى مجالس اللّهو والطّرب الّتي كانت تُعقَدُ في قُصور الأمراء ، وكبـــار رجال الدّولة بين الفينة والفينة ، ولقد تفنّن الشّعراءُ والأدباء في وصـــف

---

(١) البدائع ، ص : ٢٤٠ — ٢٤١ ، المطرب ، ص : ٧٤ ، نهايـــة الأرب ، ١١/١٠٨ ، البساط ، ص : ٨٣ .

هذه المجالس، وتصويرها، قال أبو الفضل البغدادي: «... حضرت مجلس المعزّ يوماً وبالمجلس ساقٍ وسيمٌ، قد مسّك عذاره ورد خديه، وعجزت الرّاح أن تفعل في النّدمان فعل عينيه، فأمر المعزّ بوصفه، فقلت بديهاً:

وصدّر نقش الجمال بمسكه ... خدّاً غدا يدم القلوب مضرّجا
لمّا تيقّن أنّ سيف جفونه ... من نرجس حمل العذار بنفسجا

فواصلني المعزّ بحلّة فاخرة»(١).

ومن ذلك أيضاً ما حدّثنا به ابن رشيق عن مجلس لهو أقيم، وقد حضره عبد الكريم النّهشليّ الّذي أتلف ثيابه النّفيسة بالخمرة عندما صفّق للرّواقص وهو لا يدري، فيقول: «... حدّثني من أثق به قال: كنّا في مجلس شرب والكأس في يد عبد الكريم، فصفّقنا والرّواقص ترقص، فصفّق عبد الكريم، فأسقط الكأس في حجره، وعليه ثياب نفيسة فأتلفها، فقلنا له: ما هذا؟ فقال: ما علمت أنّ الكأس في يدي»(٢).

ولقد عمل المعزّ بن باديس على إثارة التّنافس بين الأدباء والشّعراء، وذلك بتفضيله أحدهما على الآخر، فنتج عن ذلك تنافس وتسابق بين الشّعراء في اختراع المعاني والصّور، وتوليد المبتكرات(٣)، الأمر الّذي أدّى إلى نهوض الأدب وازدهاره، كما أدّى بالتالي إلى قيام حركة فكريّة وأدبيّة نشطة في هذا القطر.

هذا ومن أبرز مظاهر النّشاط الأدبيّ في هذا العصر تلك الأعداد الكبيرة من الشّعراء والأدباء والكتّاب الّذين أنجبهم عصر المعزّ بن باديس، وقد دارت أسماؤهم وأخبارهم في معظم كتب الأدب من مثل: الذّخيرة،

---

(١) الذخيرة، ق٤م١/ ٩٥.
(٢) مسالك الأبصار، ق١/ج١١/ ٢٩٢.
(٣) انظر: البساط، ص: ٨٤.

والخريدة ، ومعجم الأدباء ، والنّفح ، والقلائد ، وغيرها ، والّذي يزيد في تصوّرنا لتلك الأعداد الهائلة من الشّعراء الّذين عاشوا في هذه الفترة أنْ نذكر أنّ ابن رشيق قرين ابن شرف ومعاصره قد وجد في الشّعراء الّذين عاشوا معه وعاصروه دون غيرهم مِنْ علماء اللّغة والنّحو ، والفقه والتّفسير والحديث ، وغيرهم مِنْ أهل العلم والأدب مادةً خِصْبَةً لكتاب أسماه : " أنموذج الزّمان في شعراء القيروان " ، على ما ذكرته المصادر (١) ، غير أنّ هذا الكتاب ما زال مفقوداً ، لكنّنا نستطيع أنْ نجد نقولاً متفرقةً مِنْه مبثوثةً في بعض كتب الأدب مِنْ مثل : " مسالك الأبصار " (٢) ، وقد ترجم فيه صاحبه لأكثر مِنْ سبعين شاعراً ذكرهم ابن رشيق في أنموذجه هذا .

فإذا أضفنا هذا إلى الرّوايات الأخرى الّتي ذكرت أنّ أكثر من مائة شاعرٍ بليغٍ مثل ابن رشيق وابن شرف ، وغيرهما ، قد اجتمعوا في بلاط المعزّ ابن باديس وعطوا في ديوان المراسلات عنده (٣) ، استطعنا أنْ نقيم دليلاً واضحاً على مدى ازدهار تلك النّهضة الأدبيّة والعلميّة الّتي وُجِدَتْ في ذلك العصر .

ولقد لقيت العناية بالكتب والمكتبات في هذه الفترة اهتماماً خاصّاً لدى الأمراء وكبار رجال الدّولة والعلماء ، فكانت مظهراً مِنْ أهمّ مظاهر النّشاط الثقافيّ والأدبيّ في ذلك العصر ، فأنشئت المكتباتُ العامّة والخاصّة ، ويكفينا للتّدليل على هذه الظاهرة أنْ نذكر أنّ المعزّ بن باديس أميرَ القيروان قد اهدى لأبي بكر السُّوسيّ (٤) أحد علماء القيروان تسعمائة

---

(١) وفيات الأعيان ٢٦ / ٨٥ ، معجم الأدباء ، ٨ / ١١٠ ، وإنباه الرّواة ، ١ / ٢٩٨ ، البساط ، ص : ٨٤ .

(٢) مخطوط في مكتبة الجامعة الأردنيّة ، برقم : "٣٩٥" ، ميكروفيلم .

(٣) انظر : البساط ، ص : ٤٧ .

(٤) وهو : أبو بكر عتيق السّوسيّ من الفقهاء المبرّزين ، والحفّاظ المعدودين بالقيروان وكان حافظاً للفقه والحديث ، عالماً بالنّحو واللّغة مع دين وورع . انظر : المعالم ، ٣ / ١٨١ .

مجلد من نفائس المصنفات ، أرسلها إليه عقب مجلس علمي استحسن فيه المعز آراء هذا العالم ، من مكتبته الخاصة ، وأرسل معها هذه العبارة : «... هذه الكتب في خزانتنا ضائعة ، وبقاؤها عندنا مما يزيدها ضياعاً ، وأنت أولى باقتنائها» (١) .

كما أهدت جدة المعز إلى المكتبة العامة التي كانت في البيت المجاور للمحراب من الجامع الأعظم بالقيروان مجموعة من الكتب كان في جملتها مصحف شريف مخطوط بيدها على الرق الرفيع المزوق بالذهب ، وقد جعلته في صندوق من الخشب الثمين (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الروايات إن دلت على شيء إنما تدل على عناية المعز وحبه للعلم وتشجيعه للعلماء في دولته .

هذا ونستطيع أن نلاحظ أن الشعر في هذا العصر كان يقال في أماكن متعددة ، فكان يقال في قصور الأمراء ، وفي مجالس الأدب ، ومجالس اللهو والطرب . كما رأينا ، وفي الحمامات والدكاكين ، قال ابن رشيق : «... جلست يوماً في دكان أبي لقمان الصفار ، وكان يلعب مع الدركادو (٣) ، بالشطرنج ، ونحن نضحك لما يجري بينهما من غريب المهاترة ، فقال الدركادو : أجزيا أبا لقمان : حيتان حبك في طنجير بلوائي .

فقال أبو لقمان :

وفحم وجهك في كانون أكشائي» (٤) .

وعلى ما يبدو أن الشعر في هذا العصر كان يجري على كل لسان ، حتى إن الولع بغرض الشعر ونظمه قد سرى بين الخاصة والعامة فأخذوا

---

(١) المعالم ، ٣/١٨١ .
(٢) انظر : البساط ، ص : ٦٣ .
(٣) وهو : عبد الملك بن يحيى التميمي ، انظر : مسالك الأبصار ، ق ١ ج ١١/٣٤١ .
(٤) البدائع ، ٢٢٥ ، البساط ، ص : ٤١ ، الميمني ، ص : ٢٩ ، وغيرهم .

يكتبون الأبيات الشعرية على شواهد القبور ، ومن ذلك ما كتب على قبر الفقيه أبي جعفر عمر بن محمد العطار (١) ، وغيره .

كما نستطيع أن نلاحظ ظهور بعض الخصائص التي برزت بوضوح في أدب هذه الفترة ، فكانت سمة واضحة من سمات أدبها ومؤلفاتها الأدبية والنقدية من مثل : الإقتداء بشعراء المشرق في أساليبهم ومعانيهم ، ولقد حدثنا ابن بسام عن محاولات ابن رشيق وابن شرف التي كانا يقومان بها لمعارضة المتنبي الذي كان مثلاً أعلى لهذين الشاعرين (٢) ، ولقد أحس المغاربة والأندلسيون بذلك فهذا ابن بسام يقول : «... إن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو تعلق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجئوا على هذا ضناً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً .» (٣) .

ومن هذه الخصائص أيضاً أن كثيراً من الأدباء في هذا العصر كانوا يجمعون ما بين كتابة الشعر وكتابة النثر ، هذا إلى جانب تذوقهم الأدب ، ونقدهم له ، ونحن نستطيع أن نلاحظ هذه الظاهرة بوضوح فيما وصلنا من أدب ومؤلفات هذه الفترة ، ومن أشهر الذين جمعوا بين نظم الشعر ، وكتابة النثر في هذا العصر ، ابن رشيق ، وابن شرف ، والحصري ، وابن غانم (٤) ، وابن الإسفنجي ، وابن حديدة (٥)

---

(١) أنظر : المعالم ، ٣ / ١٦٥ .
(٢) أنظر : الذخيرة ، ق ١م ١ / ٢٤ — ٢٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ق ١م ١ / ٢ .
(٤) وهو : إبراهيم بن غانم بن عبدون ، كاتب ، شاعر . أنظر : المسالك ، ق ١ج ١١ / ٣٣٨ .
(٥) وهو احمد بن القاسم بن أبي الليث اللخمي ، المعروف بأبي العباس ، كان كاتباً في ديوان الرسائل ، وكان فكه متصرفاً عن المدح ، وعن الهجاء . المصدر نفسه ، ٣٤٣ — ٣٤٥ .

والطّارقيّ (١)، وابن زنجي الكاتب(٢)، وابن حيّان الكاتب(٣)، وغيرهم.

ومنها أنّ الأدباء في هذا العصر قد مالوا إلى استعمال المحسّنات اللّفظيّة والبديعية، غير أنّهم فتنوا بالسّجع فأكثروا منه في مؤلّفاتهم الّتي جاءت زاخرةً بهذا النّوع من الزّخرفة اللّفظيّة، ومن يقرأ العمدة لابن رشيق، وزهر الآداب للحصريّ، ورسائل الانتقاد لابن شرف، يستطيع أن يرى هذه الظّاهرة بوضوح.

ومن أبرز مظاهر النّشاط الفكريّ في القيروان في هذه الفترة شيوع الرّحلة في طلب العلم حيث انطلق أبناء القيروان إلى المشرق والأندلس، لينهلوا من علميهما، ولقد كانت هذه الرّحلة على نوعين: داخليّة، وخارجيّة، أمّا الدّاخليّة فقد كانت إلى المراكز العلميّة المنتشرة في أنحاء البلاد وبخاصّة الى القيروان (٤)، والمهديّة، وأمّا الرّحلة الخارجيّة فغالباً ما تكون إلى المشرق والأندلس، وقد أورد لنا الدّباغ أسماء كثيرين ممّن رحلوا إلى المشرق والأندلس من أبناء القيروان طلباً للعلم (٥)، وبذلك فقد استمر الاتصال الثقافيّ والفكريّ ما بين المغرب والمشرق، وما بين المغرب والأندلس، فساعد ذلك على الامتزاج الثقافيّ بين هذه الأنحاء.

ولقد شهدت العلوم على اختلاف موضوعاتها وميادينها نهضةً واسعةً، وازدهاراً كبيراً في هذا العصر، لكنّنا لا نستطيع أن ندّعي أنّها كانت وليدة عصر واحدٍ، بل كانت وليدة العصور المتتاليةِ والحضارات المختلفةِ الّتي التقت في هذا القطر، وتعاقبت عليه على مر العصور، لكنها اكتملت،

---

(١) وهو: عبد العزيز بن محمّد القرشيّ الطّارقيّ، اشتهر بالنّثر، وكان فيه فارس الفرسان، وواحد الزّمان. المصدر السابق، ٣١٢.
(٢) انظر: ترجمة في المصدر نفسه، ٣١٨—٣١٩.
(٣) انظر: ترجمته في المسالك، ص: ٣٣١.
(٤) انظر: المعجب، ص: ٤٤١.
(٥) انظر: المعالم، ٣/١٣٢، ١٣٥، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٥، ١٧١، ١٧٣، وغيرها.

ونضجت في عهد المعز ، وأتت أكلها .

فمن العلوم التي ازدهرت في هذا القطر ، ولقيت اهتماماً كبيراً من العلماء والحكام في هذه الفترة : العلوم النقلية من فقه وحديث وتفسير وقراءات ، والعلوم اللغوية من نحو ولغة وبلاغة وعروض ، وعلوم الأدب : من شعر ونثر ونقد ، وعلوم العقل من طب وحساب وهندسة وتاريخ ، وما إلى ذلك ، ومن الطبيعي والحالة هذه أن يكثر التأليف ويزدهر في دولة بلغ فيها النشاط الفكري مدى بعيداً ، لذلك فقد كثرت المصنفات التي تبحث في مختلف العلوم والفنون ، وقد نبغ في هذه الدولة علماء أفذاذ ، ثقفوا أنفسهم بثقافات واسعة ومتنوعة ، فدوت شهرتهم في الآفاق ، فبرعوا في ميادين تخصصهم ، ودارت آراؤهم وأفكارهم في معظم كتب الأدب والنقد والفقه ، ففي ميدان الشريعة والفقه نبغ عدد من الفقهاء والعلماء كان أشهرهم : ابن القابسي (١) ، صاحب الممهد ، بلغ فيه ستين جزءاً ، ومات ولم يكمله (٢) ، الفاسي (٣) ،

---

(١) وهو : علي بن محمد بن خلف المعافري ، المعروف بابن القابسي — ٣٠٣ هـ ، سمع من أبي العباس الأبياني ، وأبي محمد التجيبي ، وأبي عبد الله المسال ، وغيرهم . وله تواليف منها : " الممهد في الفقه " ، و " المنقذ من شبه التأويل " ، " الملخص " و " المعلمين والمتعلمين " ، وغيرها . انظر : المعالم ، ٣ / ١٣٤ — ١٤٣ ، ترتيب المدارك ، ٣ / ٦١٦ ، وفيات الأعيان ، ٣ / ٣٠٢ ، شجرة النور ، ص : ١٠٥ .

(٢) انظر : المعالم ، ٣ / ١٣٥ .

(٣) وهو : موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي الفاسي — ٤٣٠ هـ ، تفقه على أبي الحسن القابسي ، وعلى علي بن أحمد السوسي ، رحل إلى قرطبة ثم إلى المشرق ، وكان فقيهاً عالماً بفنون العلم منها : القرآن وعلومه والحديث وعلله ، والفقه البارع ، استوطن القيروان ، وحصلت له به رئاسة العلم . انظر : ترتيب المدارك ، ٣ / ٧٠٢ ، المعالم ، ٣ / ١٥٩ ، الصلة ، ٢ / ٦١١ .

اللّبيديّ (١) ، السّيوريّ (٢) ، الخَوْلانيّ (٣) ، والمعافريّ (٤) والبلويّ (٥) وغيرهم .

ويكفينا للتّدليل على ازدهار علوم الشريعة والفقه في هذا القطر أنْ نذكر أنّ الدّبّاغ قد ترجم لاكثر من خمسين فقيهاً مالكياً عاشوا في هذه الفترة بالقيروان في عهد المعزّ بن باديس(٦) .

---

(١) وهو : عبد الرّحمن بن محمّد المصريّ ، المعروف باللّبيديّ — ٤٤٠هـ ، كان فقيهاً فاضلاً ، محبّاً للصّالحين ، سمع على أبي الحسن القابسيّ ، وابن أبي زيد ، وغيرهما ، كان يُنشد الشّعر ويحسن القول فيه . أنظر : ترتيب المدارك ، ٤/٧٧٣ ، المعالم ، ٣/١٧٥ ، شجرة النّور ، ص: ١٠٦ ، وغيرهم .

(٢) وهو : عبد الخالق بن عبد الوارث التّميميّ ، المعروف بالسّيوريّ — ٤٦٢هـ ، سمع من أبي عمران الفاسيّ ، وكانت له عناية بالحديث والقراءات ، وقرأ النّحو والكلام وأصول الدّين والفقه لكنّ الغالب عليه الفقه . أنظر : ترتيب المدارك ، ٤/٧٧٠ ، المعالم ، ٣/١٨١ ، وغيرهما .

(٣) وهو : أحمد بن عبد الرّحمن بن عبد اللّه الخَوْلانيّ — ٤٣٢هـ ، لزم أبا الحسن القابسيّ وانقطع إليه ، رحل إلى المشرق ، وكان أحد الفقهاء المبرزين ، والحفّاظ المحدودين . أنظر : المعالم ، ٣/١٦٥ .

(٤) وهو : إبراهيم بن حسن بن يحيى المعافريّ التونسيّ — ٤٤٣هـ ، صاحب كتاب التّعليقة ، وهو من طلبة أبي بكر بن عبد الرّحمن ، كان فقيهاً صالحاً ، رثاه ابن رشيق يوم وفاته وشهد المعزّ في جنازته . أنظر : المعالم ، ٣/١٧٧ .

(٥) وهو : أبو الطّيّب عبد المنعم بن خلدون البلويّ الفقيه المفتي — ٤٢١هـ ، كانت له عناية بالفقه والدّين ، اشتهرت إمامته بالقيروان ، وانتشر فضله وعنايته بالعلم ، وأقواله معتبرة في مذهب مالك ، وهو أحد أشياخ القيروان الفقهاء .
أنظر : المعالم ، ٣/١٥٨ .

(٦) أنظر : المعالم ، ص ص : ١٣٢ — ١٩٧ .

وفي علم الحديث والتفسير والقراءات نبغ كلٌّ من : الغافقيّ (١) ، وابن سُفيان (٢) ، والقصريّ (٣) ، وابن مُحرِز (٤) ، وابن حمدون (٥) وابن أبي زيد (٦)، وغيرهم .

---

(١) وهو : أبو القاسم عبد الرّحمن الغافقيّ — ٤٠٧ هـ ، كان فقيهاً عالماً بالقراءات ، أخذ ذلك عن أبي بكر الهوّاريّ ، وأبي بكر بن الصوّاف ، وسمع الحديث ، وأخذ المدوّنة ، وكان مشهوراً بالدّين والورع والفضل . انظر : المعالم ، ٣ / ١٥١ .

(٢) وهو : أبو عبد الله محمّد بن سُفيان المقرّيّ — ٤٠٨ هـ ، كان أوحد زمانه في القراءات ، وألف في ذلك كتابه " الهادي " ، أخذ القراءات على أبي الطيّب المقرّيّ ، وتفقّه على أبي الحسن القابسيّ ، أخذ عنه القراءات كثيرٌ من النّاس ، وكان حسن الصّوت بالقرآن . انظر : المعالم ، ٣ / ١٥٦ .

(٣) وهو : أبو بكر محمّد بن عبد الله القصريّ — ٤٣٦ هـ ، كان من أهل العلم والقرآن ، وأتباع السُّنّة ، وخدمة الصّالحين ، صحب الشّيخ أبا الحسن القابسيّ ، انظر : المعالم ، ٣ / ١٧١ .

(٤) وهو : أبو القاسم بن مُحرِز ، كان معلوماً بالفقه والفهم والعناية بالحديث ورجاله ، رحل إلى المشرق ولقي المشايخ الجلّة ، وأخذ عنهم الحديث . انظر : المعالم ، ٣ / ١٨٥ .

(٥) وهو : أبو عليّ حسن بن حسن بن حمدون الجلوليّ المقرئ ، كان من العلماء المعدودين عالماً بوجوه القراءات عن أبي عبد الله بن سُفيان ، وكان إماماً فيها ، وانتفع به خلق كثير . انظر : المعالم ، ٣ / ١٨٦ .

(٦) وهو : أبو حفص عمر بن الشّيخ أبي محمّد ابن أبي زيد — ٤٦٠ هـ ، كان فقيهاً فاضلاً ، سمع على أبي عبد الله محمّد بن العبّاس الأنصاريّ ، له اعتناء بالعلم ، وكان الغالب عليه حفظ الحديث ، وكان كثير الكتب كلّها بخطّه ، حافظاً لمذهب مالك وأصحابه .
انظر : المعالم ، ٣ / ١٩٠ .

وفي ميدان اللغة والنحو فقد برع عدد من العلماء في هذا العصر، عرفوا بهذا العلم وشهروا به، وقد كان من أشهرهم: محمد بن جعفر القزاز (١)، وعبد الله بن مسلم (٢)، وعبد الرزاق القيرواني (٣)، وعلي بن عبد الجبار الهذلي (٤)، وإسماعيل بن إبراهيم الزويلي (٥)، وعبد العزيز ابن سهل الخشني (٦)،

---

(١) وهو: محمد بن جعفر القزاز القيرواني، أبو عبد الله التميمي النحوي -٤١٢هـ، شيخ اللغة بالمغرب، صنف "الجامع في اللغة" و "ضرائر الشعر" و "إعراب العربية" و "الضاد والظاء" و "المعثرات في اللغة" و "وما أخذ على المتنبي"، و "التعريض والتصريح" و "أدب السلطان" وغير ذلك. المسالك، ق١ ج١١/ ٣٧٦، إنباه الرواة، ٣/ ٨٤، البغية، ١/ ٧١.

(٢) وهو: عبد الله بن مسلم القيرواني النحوي، كانت له معرفة بالنحو واللغة، ندب إلى درسها بدار الكتب بمدرسة النظامية ببغداد، واستفاد منه قوم. انظر: معجم الأدباء، ١٤/ ٨، وإنباه الرواة، ٢/ ١٤٧، البغية، ٢/ ٦٤.

(٣) وهو: عبد الرزاق بن علي القيرواني النحوي، شاعر مشهور، قادر على طلب الطباق والتجنيس، طلباً شديداً بالتصريف، وتبديل الحروف ويستعمل القوافي العويصة. انظر: إنباه الرواة، ٢/ ١٧٤، البغية، ٢/ ٦٥، وغيرهما.

(٤) وهو: علي بن عبد الجبار بن سلامة بن عيذون الهذلي اللغوي المعروف بأبي الحسن التونسي المغربي الذي خرج إلى صقلية وبها لقي ابن رشيق. انظر: إنباه الرواة، ٢/ ٢٩٢، البغية، ٢/ ١٧٣.

(٥) وهو: إسماعيل بن إبراهيم القيرواني اللغوي الزويلي، تقدم في علم الغريب وطلبه، وبحث عن الشذوذ بحثاً شديداً، وإلى أمهات كتبه ترجع جميع النسخ وبها تقابل، وعليها، وطريقته في الشعر طريقة العلماء. انظر: إنباه الرواة، ١/ ١٦٢.

(٦) وهو: عبد العزيز بن أبي سهل الخشني النحوي اللغوي القيرواني الضرير، قال في حقه ابن رشيق في الأنموذج: "كان مشهوراً باللغة والنحو جداً، مفتقراً إليه فيهما، بصيراً بفنونهما من العلوم". انظر: المسالك ق١ ج١١/ ٣١١، إنباه الرواة، ٢/ ١٧٨، البغية، ٢/ ١٠٠، ظهر الإسلام، ١/ ٣١٥.

والتبان [١] ،والقيسيّ [٢] ، والسوسي [٣] ،وابن رشيق ،وغيرهم .

ولكن الأمر لم يكن يقتصر على علوم اللغة والنحو بل تعدى ذلك الى جوانب الادب الاخرى كالنثر والنقد ،وغيرهما ،فقد برع في هذين الفنين علماء متخصصون طبقت شهرتهم الافاق وتردد اراؤهم النقدية في كتب النقد والأدب حتى يومنا هذا ،ومن اشهر هؤلاء : عبد الكريم النهشلي ، صاحب كتاب " الممتع " [٤] ،وابن رشيق ،صاحب العمدة وقراضة الذّهب ،وابن شرف صاحب رسائل الانتقاد ،وغيرهم .

وأما في علم المناظرة والكلام فقد برع أبو القاسم بن محرز ،حتى قال فيه ابن علّاق المصري : ((... ما رأيت من أهل المغرب من يحسن طريق المناظرة مثل أبي القاسم بن محرز ، وكان أبو الطاهر البسكريّ يفضله على جميع من بالقيروان في طريق المناظرة والكلام على مسائل الخلاف.)) [٥] ، كما برع في علم الطب ابن عطاء اليهودي ،طبيب المعز الخاص[٦] .

---

(١) وهو : أبو محمّد عبدون ابن الشيخ أبي محمّد التبان ،كان من أهل العلم والرقة والادب . انظر : المعالم ، ٣/١٣٣ .

(٢) محمّد بن مختار القيسي اللغوي النحوي — ٤٣٧هـ ،له كتاب : " الهداية في التفسير " و " اعراب القرآن " ، كان مقرئا اديبا . انظر :المعالم ،٣/١٨١ .

(٣) وهو ابو بكر عتيق السوسي ،كان عالماً باللغة والنّحو . انظر : المعالم ، ٣/١٣٣ .

(٤) انظر : المسالك ق١ ج ١١/٢٩٢ ، العمدة ، ١/٩٣ ، المنتخب ،ص : ٥٤ ، والمجمل ، ١١١ .

(٥) المعالم ، ٣/١٨٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ٣/١٦١ .

وأمّا في علوم الحساب والهندسة ، فقد نبغ الفقيه عبد المنعم الكندي (١) ، كما عني بعلم التّاريخ والسّير والأخبار عدد من العلماء نجد منهم ، أبا العرب ابن تميم (٢) ، وعبد الرّحمن بن رشيق (٣) ، وإبراهيم الرّقيق (٤) ، وغيرهم .

---

(١) وهو : أبو الطّيّب عبد المنعم بن محمّد الكندي +٤٣٥ ، كان فقيهاً عالماً بفنون من العلم منها : الفقه والحديث والنّحو واللّغة والغريب وعلم الكلام والهندسة ، قرأ القرآن على أبي عبد الله بن أبي سفيان ، والفقه على أبي بكر بن عبد الرّحمن ، وكان عالماً باختلاف النّاس ، وله تواليف عدّة في فنون العلم إلاّ أنّه مات ولم يهذّبها . أنظر : المعالم ، ٣ / ١٨٤ .

(٢) وهو : محمّد بن تميم بن أبي العرب التّميميّ الفقيه +٤١٧هـ ، كان من أهل العلم والفضل والثقة ، واسع الرّواية عارفاً بالتّاريخ ، صحيح النقل ، كثير التّحري ، معروفاً بالصّدق ، يروي عن أبيه وغيره ، رحل إلى المشرق ، ولقي العلماء بمصر والشّام والحجاز ، ودخل الأندلس ، ثمّ عاد إلى القيروان . أنظر : المعالم ، ٣ / ١٥٨ .

(٣) وهو : أبو القاسم عبد الرّحمن بن محمّد بن رشيق الحافظ المؤرّخ ، كان عالماً بالتّاريخ ، حافظاً للحديث وعلله ، عارفاً بأسماء رجاله ونقلته ، وله مشاركة في سائر العلوم ، وتقدّم في معرفة الآثار والسّير والأخبار ، حافظاً للقرآن ، وله تواليف في الفقه منها : " المستوعب بالزيادات مسائل المبسوط ممّا ليس في المدوّنة " وهو كثير المشايخ . أنظر : المعالم ، ٣ / ١٨٦ .

(٤) وهو : إبراهيم بن القاسم المعروف بالرّقيق ، أصله من القيروان ، له تصانيف كثيرة منها : " تاريخ افريقية والقيروان " و " كتاب النّساء " و " الرّقّ والإرتياح " و " كتاب : الأغاني " ، وغيرها . قال في حقّه ابن رشيق في الأنموذج : " شاعر ، سهل الكلام ، لطيف الطّبع ، غلب عليه رسم الكتابة ، وعلم التاريخ وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق النّاس " .
أنظر : وفيات الأعيان ، ١ / ٤١ ، معجم الأدباء ، ١ / ٢١٦ ، والمجمل ، ص : ١٢١ ، وغيرهم .

ونحن إذا ما نظرنا في تراجم العلماء الذين عاشوا في هذه الفترة فإننا نجد أن الواحد منهم لم يكن ليكتفي بتحصيل علم واحد ينقطع له دون غيره من العلوم ، بل كان يحاول أن يثقف نفسه بثقافات واسعة مختلفة ، كي يكون على اتصال وثيق بثقافة عصره ، وبمعارفه الواسعة المتنوعة ، فكان منهم من جمع علم الفقه إلى علم اللغة والنحو والحديث كأبي بكر السوسي (١)، ومنهم من جمع علم الفقه إلى الحديث ، إلى علم اللغة والنحو والغريب إلى علم الكلام والحساب والهندسة كأبي الطيب عبد المنعم الكندي (٢) ، ومنهم من جمع الفقه إلى الحديث إلى الأدب إلى علم التاريخ والسير كأبي القاسم عبد الرحمن بن رشيق (٣) ، وإبراهيم الرقيق ، وغيرهما ، وقلما وجدنا عالما من علماء هذه الفترة قد شذ عن هذه الظاهرة .

ولقد ازدهرت حركة التأليف في هذا العصر أيما ازدهار ، وتسابق العلماء والأدباء في تدوين أفكارهم ومعارفهم المختلفة التي ألموا بها ، فألفت كتب كثيرة في هذه الفترة ، غير أن يد الزمن قد امتدت إلى بعضها فاختطفته ، وأذنت للبعض الآخر بالوصول إلينا ، ولعل خير دليل نتخذه للتدليل على ما ذهبنا إليه هو وصول بعض مؤلفات ابن رشيق وابن شرف ، والحصري وضياع بعضها الآخر .

ويمكننا أن نرد هذا إلى النكبة الكبرى التي أصيبت بها القيروان على يد الأعراب الذين أتوا على حضارتها الزاهرة ، وعملوا على تعمير معالمها وطمسها ، ففوتوا علينا بذلك فرصة الاتصال بنتاج ذلك العصر الثقافي ، وحرمونا من التعرف إليه بصورة كاملة .

وبعد فهذه هي أهم ملامح البيئة السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية التي عاش فيها أدبينا ، وتفاعل معها ، فأثرت فيه ، وتأثر بها ، فعبر عنها تعبيراً صادقاً في شعره ونثره .

---

(١) انظر : معالم الإيمان ، ٣/١٨١ .
(٢) المصدر نفسه ، ٣/١٨٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٣/١٨٦ .

الفصـــــــل الاوّل :

حياته وثقافتـــــه :

أولا : اسمه ونسبـــــــــه .
ثانيا : مولده ونشأته الاولـــى .
ثالثا : شيوخه وتلاميـــــذه .
رابعا : تكوينه الثّقافـــــي .
خامسا : مصنّفاته وآثـــــاره .
سادسا : مجريات حياتـــــه .
سابعا : شخصيّته وأخلاقـــــه .
ثامنا : وفاتـــــــــــه .

اسمه ونسبه :

إنّ ما وصلنا عن ابن شرف من أخبار وتراجم لا يكاد يتفق وشهرته الواسعة ، سواءٌ في الشّعر أم النّثر أم النّقد ، فمعظم الّذين تحدّثوا عن ابن شرف ، وتعرّضوا لأخباره ، وترجمة حياته ، اكتفوا بذكر كنيته ، واسمه ، واسم أبيه وجدّه ، ونسبه ، يضاف الى هذا كلّه أنّ بعض المصادر وكتب التراجم لم تتعرّض لتوجمته وأخباره ، إنّما كانت تكتفي بذكره ذكراً عابراً عندما كانت تتحدّث عن قرينه ومعاصره ابن رشيق فابن خلّكان ، والقفطيّ ، والسّيوطيّ ، وغيرهم لم يترجموا لابن شرف مثلما ترجموا لمعاصره ابن رشيق ، بل أشاروا إليه إشارةً عابرةً .

ومهما يكن من أمر ، فإننا نستطيع أن نقول : إنّ معظم الّذين ترجموا لابن شرف قد أجمعوا على أنّ اسمه محمّد ، وأن كنيته أبوعبد الله (١) ، ولم يشك أحد منهم في ذلك ، وأمّا الّذين تعرّضوا لذكر أبيه وجده ، فقد اختلفوا فيما بينهم اختلافاً لا يدفعنا إلى الشّك في نسبه ، فمنهم من يرى أنّه محمّد بن شرف ، وعلى رأس هؤلاء ابن بسّام الّذي يقول : «أبو عبد الله محمّد بن شرف» (٢) ، ومنهم من يذهب الى القول إنّه : محمّد بن سعيد

---

(١) أنظر : الذخيرة ، ق١م١/١٦٩ ، الصّلة ، ٢/٦٠٤ ، الخريدة ، ق٤ج٢/١١٠ ، رايات المبرّزين ، ص١٤٢ ، وفيات الأعيان ، ٢/٨٩ ، الوافي بالوفيات ، ٣/٩٧ ، مسالك الأبصار ، ق١ج١١/٢٣٨ ، بغية الوعاة ، ١/١١٤ ، إعتاب الكتّاب ، ص : ٢١٤ ، أخبار وتراجم أندلسيّة ، ص : ٣٥ ، المطرب ، ص : ٧٢ ، النفح ، ٣/٣٩٥ ، شجرة النّور ، ص : ١١٠ ، الأعلام ، ٧/١٠ ، عنوان الأريب ، ١/٥٦ ، معجم المطبوعات ، ١/١٣٩ ، المنتخب ، ص : ٧٨ ، رسائل البلغاء ، ص : ٢٣٣ .

(٢) الذخيرة ، ق٤م١/١٦٩ ، وأنظر : البدائع ، ٢٤ ، رايات المبرّزين ، ص : ١٤٢ ، نهاية الأرب ، ١/٨٣ ، تزيين الأسواق ، ١/١١٧ ، إعتاب الكتّاب ، ص : ٢١٤ ، أخبار وتراجم ، ص : ٣٥ .

ابن أحمد (١) ، وثالث يرى أنه محمد بن أبي سعيد أحمد ، وفي هذا يقول ابن خلكان : «أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد .»(٢) . ويبدو لي أن الذين قالوا : إنه محمد بن شرف قد سموه باسم جده الأول شرف ، وأسقطوا اسم أبيه أحمد المعروف بأبي سعيد ، وأما الذين قالوا : إنه محمد بن سعيد ابن أحمد ، فعلى ما يبدو أنهم أسقطوا لفظة أبي ، فجاءت ابن سعيد ، وهي في الأصل ابن أبي سعيد على ما ذكرته المصادر .

هذا ولقد أضافت بعض المصادر إلى سلسلة نسبه لفظة الجذامي (٣) فقالوا : محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي (٤) ، بينما ذهب الدباغ إلى القول إنه : الأجذابي ، حيث يقول : «محمد بن أبي سعيد بن شرف الأجذابي .»(٥) ، وهذه رواية إنفرد بها الدباغ من بين الذين ترجموا لشاعرنا إذ لم يشر إليها غيره ، والذي نراه نحن أنها الجذامي نسبة إلى قبيلة جذام العربية الصميمة كما أخبرنا بذلك ابن دحية حيث يقول في سلسة نسبه : «... أبو عبد الله محمد بن سعيد بن شرف الجذامي ،

---

(١) أنظر : فوات الوفيات ٢ / ٤١٠ ، كشف الظنون ٢ / ٩٨٦ ، هدية العارفين ، ٢ / ٧٢ ، وغيرهم .

(٢) وفيات الأعيان ٢ / ٨٩ ، وأنظر : معجم الأدباء ١٩ / ٣٧ ، الوافي بالوفيات ، ٣ / ٩٧ ، وبغية الوعاة ١ / ١١٤ ، الصلة ٢ / ٦٠٤ ، فوات الوفيات ٢ / ٤١٠ ، والخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٠ . المطرب ، ص : ٧٢ ، المعالم ٣ / ١٩٣ .

(٣) جذام : بطن من كهلان من القحطانية ، وهم بنو جذام بن عدي بن الحارث ابن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . أنظر : الأنساب ٣ / ٢٢٤ ، والجمهرة ، ص : ٤٢٠ - ٤٢١ ، معجم قبائل العرب ، ١ / ١٧٤ .

(٤) أنظر : الصلة ٢ / ٦٠٤ ، معجم الأدباء ١٩ / ٣٧ ، الوافي بالوفيات ، ٣ / ٩٧ ، فوات الوفيات ٢ / ٤١٠ ، بغية الوعاة ١ / ١١٤ ، كشف الظنون ٢ / ٩٨٦ ، النتف ، ص : ٣١ ، عنوان الأريب ١ / ٥٦ ، والنفح ٣ / ٣٩٥ .

(٥) المعالم ٣ / ١٩٣ .

من ولد جذام بن عدي بن مرة بن أرد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .»(١) ، كما أضافت بعض المصادر الأخرى لفظة القيرواني (٢) نسبة إلى موطنه ومسقط رأسه القيروان ، وقد اكتفى البعض الآخر بذكر كنيته واسمه واسم جده فقالوا : أبو عبد الله محمد بن شرف(٣) ، بينما اكتفى بعضهم بتسميته بابن شرف (٤) ، ونحن نستطيع أن نرد ذلك إلى الشهرة الواسعة التي حظي بها ابن شرف آنذاك ، وإلى الاحتذاء بالمصادر السابقة التي ترجمت له .

هذا ولقد زعم الصفدي أن شرف هو اسم جدة شاعرنا وإليها نسب ، وهذا واضح من قوله : «... قيل : إن شرف اسم أم أحمد ، فعلى هذا لا ينصرف ، وقيل : اسم أبيه ، فينصرف(٥) .» .

---

(١) المطرب ، ص : ٧٢ .

(٢) انظر : الصلة ، ٢/٦٠٤ ، الخريدة ، ق٤ ج٢/١١٠ ، البدائع ، ص : ٢٤٠ ، وفيات الأعيان ، ٢/٨٩ ، نهاية الأرب ، ١/٨٣ ، الوافي بالوفيات ، ٣/٩٧ ، فوات الوفيات ، ٢/٤١٠ ، بغية الوعاة ، ١/١١٤ ، ديوان الصبابة ، ١/١١٧ ، معجم الأدباء ، ١٧/٣٧ ، شفاء الغليل ، ص : ٢١ ، الحلة السيراء ، ٢/٩٧ .

(٣) انظر : الذخيرة ، ق٤م١/ ١٦٩ ، رايات المبرزين ، ص : ١٤٢ ، شفاء الغليل ، ص : ٢١ ، ديوان الصبابة ، ١/١١٧ ، وإعتاب الكتاب ، ص : ٢١٤ ، إخبار وتراجم ، ص : ٣٥ ، الغيث ، ٢/٢٢ .

(٤) انظر : البيان المغرب ، ١/٢٩٥ ، تاريخ ابن خلدون ، ١/١٩١ ، النفح ، ٤/٦٧ ، المعاهد ، ١/٣٦٠ ، وطراز المجالس ، ص : ١٣٢ ، الفباء ، ١/٥٩ ، نهاية الأرب ، ١/٨٣ ، الحلة السيراء ، ٢/٩٧ .

(٥) الوافي بالوفيات ، ٣/١٩٧ .

ويبدو لي أنّ الصّفديّ في هذه الرّواية قد اتكأ على قول ابن رشيق في بعض أبياته مخاطباً ابن شرف ، حيث يقول :

بنو شرف شرف أمّكم ولبئست أباكم فلا تكذب(١) .

على أنّنا نستطيع أن نقول : إنّ الصّفديّ قد انفرد بهذه الرّواية إذ لم يشر اليها غيره ممّن سبقوه ، وترجموا لشاعرنا ، يضاف إلى هذا أنّ الصّفديّ لم يكن متأكّداً من صحّة ما يذكره ، وهذا واضح من قوله : " قيل اسم أبيه ! . . " .

وأما نحن فنستطيع أن نطمئن إلى أنّ اسم شاعرنا ونسبه كان كما يلي : أبو عبد الله محمّد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذاميّ القيروانيّ ، وإلى أنّ نسبه ينتهي إلى قبيلة جذام تلك القبيلة العربيّة الّتي جاءت إلى القيروان مع العرب الفاتحين ، واستقرت بها ، فشاعرنا إذن عربيّ صليبة ويرجع نسبه إلى قبيلة عربيّة عريقة .

---

(١) الوافي بالوفيات ، ٣ / ١٩٧ .

مولده ونشأته الأولى :

لم تُشِر المصادر وكتب التّراجم والسير الّتي بين أيدينا إلى زمن ولادة ابن شرف ،بل أغفلت هذا الأمر إغفالاً تاماً ،ولم تتعرّض لَهُ من قريب أو بعيد ، الأمر الّذي حمل بعض الدّارسين إلى محاولة تقدير زمن ولادته ،فذهب الأستاذ حسن حسني إلى أنّهُ قد وُلِدَ في سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة(١) ، وذهب الأستاذ عبد العزيز الميمنيّ إلى مثل هذا أو قريب منه حيث يقول : «... تنفس صبح الحياة في أواخر القرن الرابع للهجرة .»(٢) . ومع أنّنا من خلال اتصالنا بتراجم شيوخه الّذين تتلمذ عليهم ،ومعاصريه الّذين اتصل بهم ، نستطيع أنْ نُرجّح أنّهُ قد وُلِدَ في أواخر القرن الرّابع إلاّ أنّنا لا نستطيع أنْ ندّعي أنّنا قد ظفرنا ولو بمصدر قديم واحد ،يلمح تلميحاً إلى السّنة الّتي وُلِدَ فيها ابن شرف . وهذا ما يجعلنا نتحفّظ من قبول الزّمن الّذي حدّده الأستاذ حسن حسني عبد الوهّاب، ذلك لأنّهُ يفتقر إلى دليل واحد ،أو مصدر واحد من القدماء يؤكّده .

وهكذا فإن المصادر القديمة الّتي عرضت لابن شرف — مع الأسف — لم تسعفنا بشيء ذي بالٍ عن الزّمن الّذي وُلِدَ فيه ،فقد سكتت جميع المصادر التي بين أيدينا عن هذا الأمر .

هذا ومع أنّ المصادر القديمة وكتب التّراجم والسّير الّتي تعرّضت لأخباره وترجمته لم تتحدّث عن مكان ولادته ، إلاّ أنّنا نستطيع أنْ نطمئن إلى أنّهُ القيروان ، ذلك لأنّ معظم الّذين ترجموا لَهُ من القدماء ،قد نسبوه إليها ،فقالوا في عنوان ترجمتهم لَهُ : " محمّد بن شرف القيروانيّ ".

نشأته الأولى :

إذا كنّا قد اتفقنا على أنّ ابن شرف قد وُلِدَ في أواخر القرن الرّابع الهجريّ

---

(١) مجلّة المقتبس ،م٦/ ٣٥١ ، ورسائل البلغاء ،ص : ١٢٣١ .
(٢) أعلام الكلام ،ص : ١١ .

بالقيروان ،وأنّه لم يغادرها إلاّ بعد نكبة وطنه على أيدي الأعراب في سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة ، فهذا يعني أنّه قد عاش بها الجزء الأكبر من حياته ، وأنّه قد وصل إلى ما وصل إليه من مكانة وشهرة وهو فيها ، وعلى الرغم من تلك الشهرة الواسعة الّتي وصل إليها بها ،بل بأفريقية كلّها ،ومن مساهمته في الحياة الأدبيّة ، وإنتاجه الأدبيّ الغزير ،فإنّ نشأته الأولى في ظلّ والديه ، وحياته في خاصّة نفسه وأهله يكتنفهما الكثير من الغموض ، ذلك لأنّ الّذين تصدّوا لأخباره وترجمته لم يتحدّثوا عن هذا الجانب الهام من حياته ،فالمصادر القديمة وكتب السّير والتّراجم الّتي تعرّضت له ، وعلى رأسها كتاب الذّخيرة لابن بسّام الّذي يعد من أقدم المصادر الّتي عنيت بترجمته وأخباره ، لم تسعفنا بشيء ذي بال يفيدنا بدراسة هذه الجوانب من حياته .

ومن الجدير بالذّكر هنا أنّ ابن شرف نفسه لم يتعرّض لهذه الأمور في شعره الّذي بين أيدينا ، فلم يحدّثنا عن حياته الخاصّة ،ونشأته في كنف والديه ،ولا عن علاقاته بهم وبإخوانه الّذين نشأ بينهم ،وهذا أمر لافت للنّظر ، ذلك لأنّه كما نعلم ،قد قال في معظم فنون الشّعر الّتي كانت شائعة في عصره ، وأنّه من غير الممكن أنْ يُغفل هذا الجانب من حياته ،ولا يتعرّض — ولو تلميحاً — للحديث عن علاقته بأقرب النّاس إلى نفسه ،إلاّ إذا كان قد تحدّث عن هذه الجوانب من حياته في شعره الّذي لم يصلنا .

عائلته :

وأمّا عائلته المكوّنة من زوجه وأولاده ،فلم تلق عناية من كتّاب التّراجم والطبقات الّذين ترجموا له . فلسنا نعرف شيئاً عن زوجه ، وتاريخ زواجه منها ، ولا نعرف شيئاً عن الأسرة الّتي تزوّج منها ،فالمصادر الّتي بين أيدينا لم تعن بهذه الجوانب ،ولم تكشف لنا عن أسماء أولاده وبناته الّذين أنجبهم ، ذلك لأنّ أحداً من الّذين تعرّضوا لترجمته وأخباره من القدماء لم يتعرّض لهذه الجوانب من حياته .

ولكننا — مع ذلك — استطعنا أن نلمح بعض معالم هذه العائلة من خلال شعره الذي توافر لنا ، فهي أسرة مكونة من تسعة أشخاص بمن فيهم ابن شرف وزوجه ، وهذا واضح في قوله :

كأنّي وأفراخي إذا الليل جنّنا ... وبات الكرى يجفو جفوناً ويطرق
حمائم أضللن الوكور فضمّها ... تجانسها حتى تراءى المفرّق
إذا أفزعتهم نبوة راعموا لها ... ضلوعي حتى ودّهم لو تفتّق
ويصفر جسمي عن جميع احتضانهم ... فيثبت ذا فيه وذا عنه يزهق
كأنهم لم يسكنوا ظل نعمة ... لها بهجة ملء العيون ورونق
إلى أن غدوا في الفيافي فتارة ... تهاع وفي بطن الأحاميين تعتق
وطوراً على متن البحار كأننا ... قذى وثقنا أننا ليس نغرق
ونحن نفوس تسعة ليس بيننا ... وبين الردى إلا عويد ملفق (١)

ومن خلال هذه الأبيات ، فإننا نستطيع أن نتبين أن ابن شرف كان قد تزوج ، وأنجب بنين وبنات ، كانوا سبعة ، غير أنه لم يكشف لنا عن أسمائهم وصفاتهم ، إنما اكتفى بالإشارة إلى عددهم ، وإلى أنهم قد رافقوه إلى بلاد الأندلس بعد نزوحه عن وطنه عندما داهمه الأعراب .

وإذا كنا قد علمنا أن عدد أفراد أسرته الذين أنجبهم من البنين والبنات كان سبعة ، فهذا يعني أنه قد خلّف من الذكور اثنين ، ومن الإناث خمسة ، وهذا واضح في قوله :

أجشمهم ليل القفار وظلمة الـ ... بحار وكم ريعوا وللسيد إرقاء
ولي منهما سهمان هذا ابن أربع ... وهذا ابن ست كلما كان إغفاء (٢)

---

(١) الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

ويبدو لي أنه يشير هنا إلى ولده الأكبر عبد الله ، وولده الأصغر جعفر ، ولكنّ المصادر الّتي بين أيدينا لم تشر إلى عبد الله ، ولم تحدّثنا عنه ، فعلى ما يبدو أنّه لم يكن مشهوراً فطُمِسَ ذِكْرُه ، ولم تصل إلينا أخباره .

وأمّا جعفر فهو : أبو الفضل جعفر بن محمّد بن أبي سعيد بن شرف الجُذامي القيروانيّ (١) ، كان من جلّة الأدباء ، وكبار الشّعراء ، اشتهر بمدح المعتصم بن صمادح ، وقد غلبت على شِعْرِه الحكمة ، ومال إلى النّزعة الفلسفيّة في شِعْرِه ، وفي حقّه يقول ابن بسّام : «... ذو مرّة لا تناقض ، وعارضة لا تعارض ، وطرأ أبوه على الأندلس من بلدة القيروان ، وأبو الفضل هذا يومئذ لم يَشِب قَطْرُه ، ولا خرج من الكمامة زَهْرُه ، ومن المريّة دَرَج وطار ، وباسم صاحبها أنجد ذكره وغار ...» (٢)

وقد تتلمذ أبو الفضل على والده ، وعلى ابن المرابط ، وأبي الوليد الوقشيّ ، وأبي سعيد الورّاق ، وفي هذا يقول ابن بشكوال : «... وله رواية عن أبيه ، أخذ عنه ديوان شعره ، وعن القاضي أبي عبد الله بن المرابط ، وأبي الوليد الوقشي ، وأبي الورّاق ، وغيرهم .» (٣) .

وله مؤلّفات كثيرة في الأمثال ، والأخبار ، والأشعار ، منها : " سر البروزجمهر " (٤) وقد تتلمذ عليه خلق كثير منهم : ابن بشكوال صاحب الصّلة ، واليسع بن عيسى ابن اليسع الغافقيّ ، وأبو بكر بن عبد الله بن طلحة بن عطيّة ، وغيرهم (٥) ، وقد

---

(١) أنظر : الذّخيرة ، ق٣ م٢/٨٦٧ ، الصّلة ، ١/١٣٠ ، الخريدة ، ق٤ ج٢/٢٣ ، المطرب ، ص٧١ ، القلائد ، ص : ٢٥١ ، البغية ، ص : ٢٥٩ ، وبغية الوعاة ، ١/٤٨٦ ، البيان المغرب ، ٢/٢٢٠ ، والنّفح ، ٣/٣٩٥ ، شجرة النّور ، ص : ١٢٧ ، الأعلام ، ٢/١٢٤ ، المجمل ، ص : ١٧٧ .

(٢) الذّخيرة ، ق٣م٢/٨٦٧ .

(٣) الصّلة ، ١/١٣٠ ، والبغية ، ٢٥٩ ، والخريدة ، ق٤ ج٢/٢٥ .

(٤) القلائد ، ص : ٢٥١ ، وأنظر : الصّلة ، ١/١٣٠ .

(٥) أنظر : الصّلة ، ١/١٣٠ ، الخريدة ، ق٤ ج٢/٢٥ ، وشجرة النّور ، ص : ١٢٧ .

توفي في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة للهجرة[1]، بعد أن خلّف ولداً شاعراً، حكيماً، فيلسوفاً، أديباً، أسماه محمد على ما ذكره ابن سعيد [2]، وقد عاش في صدر دولة الموحدين [3].

---

(١) أنظر: التكملة، ١/١٣٠، والبغية، ٢٥٩.
(٢) المغرب، ٢/٢٣٢.
(٣) النفح، ٧/٨.

شيوخـــــــه وتلاميـــذه :

لقد كانت البيئة التي عاش فيها ابن شرف بالقيروان بيئة علمية زاخـــرة بالمعارف والعلوم ، غاصة بالعلماء والأدباء الذين ثقفوا أنفسهم بثقافات واسعـــة ومتنوعة ، فأصبحت بذلك منتدى كبيراً للعلماء والأدباء في ذلك العصـــر ، الذين كانوا يعقدون المجالس العلمية والأدبية ، وأخذوا يبثون علومهم ومعارفهـم الزاخرة في أبناء ذلك العصر ، فوجدوا لذلك تربة صالحة ، الأمر الذي هيّـــأ لشاعرنا أن يتصل بهم ، وأن يجالسهم ، ويأخذ عنهم أخذ مشافهة ومناقشـــة ، وأن يسمع منهم ، وتتلمذ عليهم ، ومن أشهر هؤلاء الشيوخ :

ابن القابسيّ ، وهو : أبو الحسن عليّ بن محمد بن خلف المعافريّ ، المعروف بابن القابسي (١) ، القيروانيّ على ما ذكره الدباغ حيث يقول : « ... ولم يكـــن قابسياً ، وإنما كان له عمّ يشدّ عمامته بشدّ قابس ، فسمي بذلك ، وهو قيروانـــيّ الأصل » (٢) ، كان واسع الرواية ، عالماً بالحديث ورجاله ، فقيهاً مالكياً ، أصوليـــاً متكلماً ، مؤلفاً ، وفي ذلك يقول القاضي عياض : « ... وكان أبو الحسن فقيهـــاً عالماً محدّثاً ورعاً متقللاً من الدنيا ، لم أر أحداً ممن يُشار إليه بالقيروان بعلـــم إلاّ وقد جاء اسمه عنده ، يعترف الجميع بحقّه ، ولا ينكر فضله ، متأخر فـــي زمانه متقدم في شأنه العلم والعمل والدراية من ذوي الاجتهاد ، عالمـــاً بالأصول والفروع ، والحديث وغير ذلك » (٣) ، ويقول في حقه ابن خلكـــان : « ... كان إماماً في علم الحديث ومتونه ، وأسانيده وجميع ما يتعلّق به ، وكـــان للناس فيه اعتقاد كبير ، وصنّف في الحديث كتاب " الملخّص " ، جمع فيـــه

---

(١) ترتيب المدارك ، ٤/٦١٦ ، المعالم ، ٣/١٣٤ ، وفيات الأعيان ، ١/٣٣٩ ، العبر ، ٣/٨٥ ، الشذرات ، ٣/١٦٨ ، ظهر الإسلام ، ١/٣٠٠ .
(٢) ترتيب المدارك ، ٤/٦١٦ ، المعالم ، ٣/١٣٤ .
(٣) ترتيب المدارك ، ٤/٦١٨ — ٦١٩ .

ما اتصل إسناده من حديث مالك بن أنس في كتاب الموطأ." (١)، ولقد حفظ لنا الدّبّاغ بعض مؤلّفاته من مثل كتاب: "الممهد" وكتاب: "المنبّه المفطن"، وكتاب: "المُبعد من شبه التأويل"، وكتاب: "المناسك"، كما حفظ لنا بعض رسائله من مثل: رسالة الاعتقادات والرسالة الناصرة، ورسالة في الذّكر والدّعاء، ورسالة أحمية الحُصون، والرسالة المفصّلة لأحوال المعلمين والمتعلمين (٢)، وكانت وفاته بالقيروان في سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة (٤٠٣هـ)، عن عمر يناهز الثمانين عاماً على ما ذكره الدّبّاغ (٣).

وابن القابسيّ هذا من أوائل شيوخ صاحبنا الّذين تتلمذ عليهم، فقد أخذ عنه علوم الدّين والفقه، وفي هذا يقول ابن بشكوال: «... وله رواية عن أبي الحسن القابسيّ الفقيه، وأبي عمران الفاسيّ، وصحبهما» (٤)، ويقول الدّبّاغ: «... ولأبي عبد الله محمّد بن شرف رواية عن الشّيخ أبي الحسن القابسيّ» (٥) ويقول ياقوت: «... روى عن أبي الحسن القابسي» (٦).

ومنهم ابن جعفر القزّاز، وهو أبو عبد الله محمّد بن جعفر القزّاز التّميميّ القيروانيّ (٧)، رحل إلى المشرق، وخدم العزيز بالله الفاطميّ صاحب مصر،

---

(١) وفيات الأعيان، ١/٣٣٩.
(٢) أنظر: المعالم، ٣/١٣٥-١٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ٣/١٤٢.
(٤) الصّلة، ٢/٦٠٤.
(٥) معالم الإيمان، ٣/١٩٤.
(٦) معجم الأدباء، ١٩/٣٧.
(٧) أنظر: وفيات الأعيان، ٤/٣٧٤، الوافي بالوفيات، ٢/٣٠٤، معجم الأدباء، ١٨/١٠٥، إنباه الرواة، ٣/٨٤، بغية الوعاة، ١/٧١، المسالك، جـ١١/٣٧٦، ظهر الإسلام، ١/٣٠٥، الأعلام، ٦/٢٩٩.

وصنّف له كتباً ، وعاد إلى القيروان ، فتصدّر لتدريس العربيّة والآداب فيها إلى أن توفّي في سنة اثنتي عشرة وأربعمائة للهجرة ، وقد قارب السبعين عاماً ، وهو جامع كتاب "الجامع في اللّغة" الذي يقارب كتاب "التّهذيب" لأبي منصور الثّعالبي ، وقد رتّبه على حروف المعجم[1] وفي ابن جعفر القزاز يقول ابن رشيق : «... فتح المتقدّمين ، وقطع ألسنة المتأخّرين ، وكان مهيباً عند الملوك والعلماء ، وخاصّة الناس ، محبوباً عند العامّة ، قليل الخوض إلا في علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكاً شديداً ، له شعر مطبوع مصنوع ربّما جاء به مفاكهة ، ومالحة من غير تحفّز ، ولا تحفّل ، وكانت وفاته بالحضرة سنة ٤١٢هـ ، وقد قارب السبعين»[2] ، ولقد كان ابن القزّاز هذا شيخ اللّغة بالمغرب على ما ذكره الصّفدي حيث يقول : «... شيخ اللّغة بالمغرب ، وكان لغويّاً ، نحويّاً ، بارعاً ، مهيباً عند الملوك ، صنّف كتاب : "الجامع في اللّغة"»[3] ، ويقول في حقّه ياقوت : «... كان إماماً علامة قيّماً بعلوم العربيّة ، وهو جامع كتاب : "الجامع في اللّغة" ، وكتاب "ما يجوز للشّاعر استعماله في ضرورة الشّعر" وكتاب "أدب السّلطان والتّأدب" ، وكتاب "التّعريض والتّصريح" ، وكتاب "ما أخذ على المتنبّي من اللّحن والغلط" ، وكتاب "الضّاد والظّاء" وغير ذلك»[4].

ولقد تتلمذ ابن شرف على هذا الشّيخ الأديب العالم ، فأخذ عنه الأدب ، والنّحو على ما ذكره ياقوت حيث يقول : «... وقرأ النّحو على أبي عبد الله محمّد بن جعفر القزاز»[5] .

---

(١) انظر : معجم الأدباء ، ١٨/١٠٥ ، الأعلام ، ٦/٢٩٩ .
(٢) وفيات الأعيان ، ٤/٣٧٤ ، المسالك ، جـ ١١/ ٣٧٦ — ٣٧٧ ، معجم الأدباء ، ١٨/١٠٥ .
(٣) الوافي بالوفيات ، ٢/٣٠٤ .
(٤) معجم الادباء ، ١٨/١٠٩ .
(٥) المصدر نفسه ، ١٩/٣٧ .

ومنهم الحصريّ وهو : أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ بن تميم الحصريّ القيروانيّ (١) ، ذكره ابن رشيق في الأنموذج ، فقال : « . . كان شاعراً عالماً بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحبّ المجانسة تشبّهاً بأبي تمام في أشعاره ، وتتبّعاً لاثارة ، وعنده من الطّبع مالو أرسله على سجيّته لجرى جَرْيَة الماء ، ورقّ رقّة الهوى » (٢) ، وهو من أولئك العلماء الّذين عقدوا المجالس والحلقات ، وأخذوا يبثّون علومهم ومعارفهم في أبناء ذلك العصر ، وهذا ما عبّر عنه ابن رشيق بقوله : « . . كان شبّان القيروان يجتمعون عنده ، ويأخذون عنه ، ورأس عندهم ، وشرف لديهم ، وسارت تأليفاته ، وانثالت عليه الصّلات من الجهات » (٣) ، وإلى مثل هذا ذهب ابن بسّام حيث يقول : « . . ونظر في النّحو والعروض ، ولزمه شبّان القيروان ، وأخذ في تأليف الأخبار والأشعار ، فرأس عندهم ، وشرف لديهم ، ووصلت تأليفاته صقلية وغيرها ، وانثالت عليه الصّلات ، وله شعر كثير » (٤) .

ونحن لا نستطيع أن ننكر أنّ ابن شرف لم يكن من بين هؤلاء الشبّان الّذين كانوا يجتمعون عند هذا العالم الفذّ ، ليأخذ العلم من نبعه الأصيل ، والّذي يؤكّد ما ذهبنا إليه رواية ياقوت الّتي يقول فيها : « . . وأخذ العلوم الأدبيّة عن أبي إسحق الحصريّ » (٥) .

ولقد كان الحصريّ جاحظ المغرب ، وقد عارضه في بعض مؤلّفاته ، وهذا واضح من قول ابن بسّام : « . . عارض أبا بحر الجاحظ بكتابه الّذي وسمه بـ " زهر الآداب وثمر الألباب " ، فلعمري ما قصّر مداه ، ولا قصرت خطاه ، ولولا

---

(١) أنظر : الذّخيرة ق ٤ م٢ / ٥٨٤ ، المسالك ، جـ١١ / ٣٠٩ ، معجم الأدباء ، ٢ / ٩٤ ، وفيات الأعيان ، ١ / ٥٤ ، ظهر الإسلام ، ١ / ٣٠٥ ، عنوان الأريب ، ١ / ٤٣ .

(٢) المسالك ، جـ١١ / ٣١٠ ، وأنظر : معجم الأدباء ، ٢ / ٩٤ .

(٣) وفيات الأعيان ، ١ / ٥٤ .

(٤) الذّخيرة ، ق ٤ م٢ / ٥٩٣ .

(٥) معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٧ .

أنّه شغل أكثر أجزاءه وأنحائه بكلام أهل العصر دون كلام العرب لمكان كتاب الأدب لا ينازعه ذلك إلاّ مَنْ ضاق عنه الأمد ، وأعمى بصيرته الحسد ، ثُمّ أخذ بعد ذلك في انشاء التّواليف الرّائقة ، والتّصانيف الفائقة ككتاب " النّور والنّور " وكتاب " المصون في الدّواوين)) (١) .

ومنهم الفاسيّ ، وهو أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الدّفجومي الفاسيّ يقول فيه الدّبّاغ : ((... كان فقيهاً عالماً بفنون العلم منها : القرآن وعلومه ، والحديث وعلله ، ورجاله ، والفقه البارع عارفاً بأصول الدّين ، وكان أبو بكر الباقلانيّ يعجبه حفظه ، ويقول : ((لو اجتمعت في مدرسة أنت وعبد الوهّاب بن نصر لاجتمع فيكما علم مالك ، أنت تحفظه ، وهو ينصره ، لو رآكما مالك لسرّ بكما !)) (٢) ، ويقول ابن بشكوال : ((... رحل إلى المشرق ، وحجّ حججاً ، وأخذ القراءة عن أبي الحسن عليّ بن عمر المقرئ ، وغيره ، وسمع بمكة ومصر والقيروان وتوجّه إلى بغداد سنة (٣٧٩ هـ) ، وأقرأ بها القرآن أشهراً ، ثمّ انصرف إلى القيروان ، وأقرأ النّاس بها مدّة ، ثمّ ترك الاقراء ، ودارس الفقه ، وأسمع الحديث بها ، ذكره أبو القاسم حاتم بن محمّد ، وقال : لقيته بالقيروان في رحلتي سنة (٤٠٢ هـ) ، وكان من أحفظ النّاس ، وأعلمهم ، وكان قد جمع حفظ المذهب المالكيّ ، وحفظ حديث النّبي والمعرفة بمعانيه ، وكان يقرئ القرآن بالسّبعة ، ويجوّدها ، مع المعرفة بالرّجال والمعدّلين منهم والمجرحين ، ورحل إلى بغداد وحجّ حججاً ، ... وقد توفّي في سنة تسع وعشرين وأربعمائة للهجرة .)) (٣) .

ولقد أخذ ابن شرف عنه علوم الدّين والفقه وهذا ما أشار إليه ياقوت بقوله :

---

(١) انظر : ترتيب المدارك ، ٤/٧٠٢ ، المعالم ، ٣/١٥٩ ، الصلة ، ٢/٦١٢ ، الشذرات ، ٣/٢٤٧ ، شجرة النور ، ص : ١٠٦ .

(٢) المعالم ، ٣/١٦٠ .

(٣) الصلة ، ٢/٦١٢ .

﴿ . . وروى عن أبي عمران الفاسيّ ﴾[1]، ويقول ابن بشكوال : ﴿ . . وله رواية عن أبي عمران الفاسيّ الفقيه ﴾[2]، ويقول الدّبّاغ : ﴿ . . وله رواية عن أبي عمران الفاسيّ ﴾[3] . .

وثمّة شيخ آخر أعتقد أنّ ابن شرف كان قد تتلمذ عليه ، وأفاد منه فائدة كبيرة ألا وهو ابن أبي الرّجال ، أبو الحسن عليّ بن أبي الرّجال الشّيبانيّ[4] ، رئيس ديوان الإنشاء في دولة المعزّ بن باديس ، وهو مربّي المعزّ بن باديس ، وكان شهما كريماً يحرّض الكتّاب والشّعراء بالعطايا الجزيلة ، قال ابن رشيق : ﴿ . . رجل الخطب ، وفارس الكتب ، زعيم الكرم ، وواحد الفهم ، الّذي نال الرّياسة ، وحاز السّياسة ، وانفرد بالبسط والقبض ، واتحد في الإبرام والنّقض ، عن سعي مشكور ، وفضل مشهور ، وعلم بالموارد والمصادر ، ونظر في الأوائل والأواخر ، وتتبع لآثار من سلف ، من أهل القدر والشّرف وتقلّب في محالّ الحكم ، بين ذوي الأقدار والهمم ، إلى أن صار نسيج وحده ، وقريع دهره ، غير مدافع عن ذلك ، ولا منازع فيه ﴾[5] .

ويبدو لي أنّ ابن شرف يشير إليه حين يقول : ﴿ . . وكان شيخاً جمّاً في اللّسان ، وبدراً تمّاً في البيان ، وقد بقي أحقاباً ، ولقي أعقاباً ، ثمّ القته إلينا من باديته الأزمات ، وأوردته علينا العزمات ، فاغتنمنا من علمه بحراً جارياً ، وقدمنا من فهمه زنداً وارياً ، وأدرنا من برّه طرفاً واجتنينا من ثمره طرفاً ، ونحن إذ ذاك والشّباب مقتبل ، وغفلة الزّمان تهتبل ﴾[6] .

---

(١) معجم الأدباء ، ١٩/٣٧ .
(٢) الصلة ، ٢/٦٠٤ .
(٣) المعالم ، ٣/١٩٤ .
(٤) أنظر : العمدة ، ١/١٥ ، إعتاب الكتّاب ، ص : ٢١٤ ، والمجمل ، ص : ١٢٩ .
(٥) المصدر نفسه ، ١/١٥ .
(٦) المقتبس م٦/٣٥٩ ، رسائل البلغاء ، ص : ٢٤١ ، أعلام الكلام ، ص : ١٣ .

فهؤلاء هم شيوخ ابن شرف الذين استطعنا أن نعرف بعض أخبارهم ، واتضح لنا أنه قد أخذ عنهم ، وتتلمذ عليهم ، واتصل بهم فكان لهم أثر كبير في رسم معالم ثقافته من جانب وتنوعها من جانب آخر .

وأما تلاميذه فإننا نجد منهم ابن عُرَيْف وهو : أبو الحسن راشد بن سليمان ابن موسى بن عُرَيف اللخمي الطليطلي (١) ، أديب ، شاعر ، كاتب ، وهو من كتّاب المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة ، وقد تتلمذ على أديبنا أبي عبد الله بن شرف وروى عنه كتابه المعروف بـ " أعلام الكلام " في أثناء اقامته بطليطلة على ما ذكره ابن الأبّار حيث يقول : " . . . وروى عن أبي عبد الله بن شرف القيرواني ، أخذ عنه كتابه : " أعلام الكلام " من تأليفه ، وسمعه منه في رمضان سنة ثمان ، وخمسين وأربعمائة للهجرة ، وكان أديباً ، شاعراً ، كاتباً بليغاً وشعره مدوّن ، وهو أحد كتّاب المأمون يحيى بن ذي النون " (٢) .

ومنهم أيضاً ابنه جعفر بن شرف الذي تتلمذ على والده ، وروى عنه ديوان شعره (٣) كما روى عنه كتاب العمدة على ما ذكره العماد حيث يقول : " . . . وذكر لي الفقيه اليسع بن عيسى بن اليسع الغافقي الأندلسي بمصر ، أن أبا الفضل جعفر بن محمد بن شرف شيخه ، وهو يروي عنه ، وقال : أدركته سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقد بلغ خمساً وتسعين سنة ، وتوفي سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ، وقد أناف على المائة ، وكان يروي العمدة لابن رشيق عنه بالإجازة ، وأجاز لي روايتها عنه بالإجازة عن ابن شرف عن ابن رشيق " (٤) .

---

(١) انظر : التكملة ، ١ / ٣٢٤ ، المغرب ، ٢ / ٣٢ ، الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ٧ ، النفح ، ٣ / ٤٢٠ .
(٢) التكملة ، ١ / ٣٢٤ ، وانظر : الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ٧ .
(٣) انظر : الصلة ، ١ / ١٣٠ ، البغية ، ١ / ٤٨٦ ، شجرة النور ، ص : ١٢٧ .
(٤) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ٢٥ .

تكوينه الثقافي :

يشير ابن رشيق في كتابه " العمدة " إلى ما يجب على الشاعر أن يأخذ به نفسه من أدوات قبل أن يقحمها في عالم الشعر والشعراء ، فيقول : « ... والشاعر مأخوذ بكل علم ، مطلوب بكل مكرمة ، لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل : من نحو ، ولغة ، وفقه ، وخبر ، وحساب ، وفريضة ، واحتياج أكثر هذه العلوم الى شهادته ، وهو مكتف بذاته مستغن عما سواه ، ولأنه قيد للأخبار ، وتجديد للآثار » (١) .

ولقد تسلح ابن شرف بهذه الأدوات ، وغيرها قبل أن يقوم برحلته ، القصيرة مع الشعر والأدب ، فمن خلال تتبعنا لأخبار وتراجم شيوخه الذين اتصل بهم ، وتتلمذ عليهم نستطيع أن نقول : إنه قد عمل على تثقيف نفسه بثقافات مختلفة ومتنوعة ما بين دينية ولغوية ، ونحوية ، فنستطيع أن نجد الثقافة الدينية في قوله :

إني وتجديك سيوف الورى نهرا ... وقلت ما قاله طالوت في النهر
فأنت عندي منهم نوفة بيدي ... حلت وحرم باقي النهر في الزبر (٢)

وفي قوله :

ما فلان إلا كجيفة كلب ... والضرورات ألجأتنا إليه
فمن اضطر غير باغ ولا عا ... د فلا اثم في الكتاب عليه (٣)

ونستطيع أن نجد الثقافة اللغوية والنحوية في قوله :

أغبهما والليل داج كأنما ... هما نقطتا ياء وجسمي هو الياء (٤)

وفي قوله :

---

(١) العمدة ، ١/١٩٦ .
(٢) الذخيرة ، ق٤م٢/٢٢٣ .
(٣) المسالك ، جـ١١/٢٤٣ .
(٤) الذخيرة ، ق٤م٢/٢١٩ .

فالماجدُ السّيّد الحرُّ الكريمُ لـه كالنّعتِ والعطفِ والتّوكيدِ والبدلِ (١)

ونجد الثقافة العروضيّة في قوله :

فإن أفحمتنا عربيّةٌ عربيّـةٌ لديك لها في الشّعرِ كسرٌ وإقواءُ (٢) .

وفي قوله :

فكأنّما الأجسامُ بعدَ رؤوسِهـا أبياتُ شِعرٍ ما لهنّ قـوافٍ (٣) .

هذا بالإضافة إلى ثقافته النقديّة الواسعة الّتي كشفت لنا عنها رسالتـه النّقديّة المعروفة برسائل الإنتقاد الّتي تعرّض فيها بالنّقد لأكثر من ستين شاعـراً من شعراء الجاهليّة والإسلام في المشرق والمغرب ممّن سبقوه أو عاصروه ، وإليـك بعض الأمثلة على هذا حيث يقول في نقده لبشار : « . . وأمّا بشّارٌ فأوّل المولّدين ، وآخر المخضرمين ، وممّن لحق الدّولتين ، عاشق سمح ، وشاعر جمع ، وشعره ينفـق عند ربات الحجال ، وعند فحول الرّجال ، فهو يلين حتّى يستعطف ، ويقـوى حتى يستكشف ، وقد طال عمره ، وكثر شعره ، وطما بحره ، وبقيَ في البلاد ذكره (٤) » ويقول في نقده لابن الرومي : « . . وأمّا ابن الرّومي فشجرة الاختراع ، وثمـرة الابتداع ، وله في الهجاء ما ليس له في الاطراء ، فتح فيه أبوابا ، ووصل منـه أسباباً ، وخلع منه أثواباً ، وطوّق به رقاباً ، يبقين أعماراً ، وأحقاباً يطول عليهـا حسابه ، ويمحق بها ثوابه ، ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن ، إلاّ أنّ الغالب عليه ضعف المريرة ، وقوّة المرّة » (٥) . والأمثلة على هذا كثيرة .

ولقد كان ابن شرف على معرفة بأحوال العرب وأخبارهم وأمثالهم ، فعبّـر عن هذه الأمور الّتي انعكست في إنتاجه الأدبيّ والشّعريّ تعبيراً صادقاً ، فجـاء

---

(١) المصدر السّابق ، ص : ٢٢٢ .
(٢) المصدر نفسـه ، ص : ٢١٩ .
(٣) المصدر نفسـه ، ص : ٢٢١ .
(٤) أعلام الكلام ، ص : ٢٢ .
(٥) المصدر نفسـه : ص ٢٥ .

أدبه وشعره صورة واضحة لثقافة عصره المتنوعة التي كانت تتطلب من الأديب أو الشاعر أن يلم بعدة علوم ، وأن يثقف نفسه بثقافات مختلفة ، ومن ذلك قوله : "... أوضح من جبال تهامة ، لمتيني زرقاء اليمامة ... (١)" ، وكما في قوله : "... أخفى من السوسة في العود ...." (٢) ، وكما في قوله : "... كتبت وشوقي إلى شرف لقياه ، وشيم سقياه ، شوق التارطين إلى سكون وسكنى .... (٣)" ، وكما في قوله :

وما بلوغ الأماني في مواعدها إلا كأشعب يرجو وعد عرقوب (٤)

ولقد كان لهذه الثقافة المتنوعة التي ألم بها شاعرنا مقومات عديدة منها : أن القيروان التي عاش فيها ابن شرف كانت وجهة للعلماء والأدباء ، ودار العلم بالمغرب ، فإليها كانت الرحلة في طلب العلم (٥) ، فقصدها العلماء والأدباء من كل مكان لما سمعوه عن إكرام المعز للعلماء ، وعنايته بهم ، وإغداقه الأموال الطائلة عليهم ، وعن حبه للعلم والعلوم .

فكانت القيروان بذلك مسرحاً كبيراً التقت فيه أعداد كثيرة من العلماء والأدباء الذين شغلوا مجالس العلم والأدب فيها ، وأخذوا يتسابقون في تدوين علومهم وأفكارهم من ناحية ، وفي بث علومهم المختلفة الواسعة في أبناء ذلك العصر ، الأمر الذي هيأ لشاعرنا ولغيره من أبناء القيروان أن يتصلوا بهؤلاء الشيوخ ويختلفوا إلى حلقاتهم ومجالسهم ، ويتتلمذوا عليهم ، وينهلوا من معارفهم الزاخرة .

---

(١) الذخيرة ، ق ٤ م ٢ / ١٨٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٨٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٩٣ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٥ .
(٥) انظر : ترتيب المدارك ، ١ / ١٣ — ١٥ ، المعجب ، ص : ٤٤١ ، معجم الأدباء ، ١٩ / ٢٧ .

ولقد كان لشيوخه الذين تتلمذ عليهم، واتصل بهم أثر كبير في تنوّع ثقافته وسعتها فقد كان هؤلاء الشيوخ كما رأينا من ذوي الاتجاهات المختلفة الواسعة : فمنهم من غلب عليه الفقه ، ومنهم من اشتهر باللّغة والأدب ، ومنهم من عُرِف بالنّحو ، واشتهر به ، فجاءت ثقافة ابن شرف متنوّعة واسعة ، وقد شهد له بذلك ابن بسّام الّذي يقول : "... ولابن شرف أصالة منزعه ، وجلالة مقطعه ، ومتانة لفظة ، وسعة حفظه ."(١)

ثمّ إن الإزدهار العلميّ والثقافيّ الّذي شهدته القيروان في ذلك العصر بحكم موقعها بين طرفي الدّولة الإسلامية ، قد عمل على إحداث نهضة علميّة وفكريّة فيها هذا من جانب ، كما ساعد أبناء القيروان على الاتصال بثقافة المشرق والأندلس ، والاطلاع عليها ، من جانب آخر ، ففي أدب شاعرنا ونقده ما يدلّ على ذلك (٢) .

ومنها : عمله في ديوان المراسلات بدولة المعزّ بن باديس ، ولقد هيأ له ذلك الدّيوان الّذي كان يضمّ أكثر من مائة كاتبٍ بليغ ، أنْ يتصل ببعض هؤلاء الأدباء والشّعراء ، فعمل ذلك على توسيع مداركه ، ونموّ ثقافته ، وفي هذا يقول صاحب البساط : "... وكان هذا الدّيوان في دولة المعزّ منتصباً بمدينة صُبْرة بمقربة من منزل الملك ، وهو يحتوي على أكثر من مائة كاتب بليغ منتخب كابن رشيق وابن شرف الشّاعرين المشهورين ، ويرأسهم أبو الحسن عليّ بن أبي الرّجال الشّيبانيّ مربّي المعزّ وكاتب سرّه ."(٣) .

ومنها رحلته وتنقله مابين المغرب وصقلّية من ناحية ، وما بين مدن الأندلس وجوارها من ناحية أخرى ، فتسنّى له بذلك أنْ يتصل بأقوام مختلفة

---

(١) الذخيرة ، ق ٤ م ٢ / ١٧٠ ، وانظر : الحلّة ، ٢ / ٦٠٤ ، المعالم ، ٣ / ١٩٤ .
(٢) انظر : أعلام الكلام ، ص : ١٣ — ١٤ .
(٣) البساط ، ص : ٥٤ ، ووفيات الأعيان ، ٢ / ٣٩ .

وشعوب متنوعة ، فأكسبه ذلك خبرة ودراية بأحوال النّاس ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، وعبّر عنه في أدبه وشعره تعبيراً صادقاً ، ومن ذلك قوله :

إنْ تَرِكَ الغُرْبَةُ في مَعْشَرٍ ... قَدْ جُبِلَ الطَّبْعُ على بُغْضِهِمْ
فَدَارِهِمْ ما دُمْتَ في دَارِهِمْ ... وأَرْضِهِمْ ما دُمْتَ في أَرْضِهِمْ (١) .

وكما في قولـــه :

يا هَارِبًا مِنْ مَعْشَرٍ ... لا يُصْطَلَى بِنَارِهِمْ
فَمَا بَقِيتَ جَارَهُمْ ... ففي هَوَاهُمْ جَارِهِمْ (٢) .

ومن هذه المقومات أيضاً : اطّلاعه على الأدب العربيّ القديم ، وتعمّقه في دواوين الشّعراء الجاهليين والإسلاميين الّذين سبقوه أو عاصروه في المشرق والمغرب ، ولكنّ الأمر لم يكن ليقتصر على الاطلاع فحسب ، بل إنّ شاعرنا قد تصدّى لنقد هؤلاء الشّعراء في رسالة نقدية كشفت لنا عن سعة ثقافته ، وعن تعمّقه في دواوين الشّعر العربيّ ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك ، يقول في نقده لابن عبد ربه : "... وأمّا ابن عبد ربّه الأندلسيّ وإنْ بَعُدَتْ عنّا دياره ، فقد صافتنا أشعاره ، ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة ، وتكفيرات توبته الصدوقة ، ومدائحه العروانيّة ، ومطاعنه في العبّاسيّة ، فوجدناه في ذلك فارساً ممارساً ، وطاعناً مداعساً ، واطلعنا في أشعاره على مادة علم واسع ، ومادة فهم مضيء ناصع. (٣)" .

ويقول في نقده لابن دراج القسطليّ : "... وأمّا ابنُ دراج القسطليّ فشاعر ماهر ، عالم بما يقول ، تشهد له العقول ، بأنّه المؤخّر في العصر ، المقدّم في الشّعر ، مَنْ تصفّح أشعاره دلّته على أنّه عالم بالأخبار ، والأنساب ، والآثار والأحساب ، حاذق يضع الكلام في مواضعه لاسيّما إذا ذكر ما أصابه في

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ٢ / ١٧٢ .
(٢) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ٢٦ .

الفتنة ، وهكذا مادحاه في أيام المحنة ، وبالجملة فهو أشعر أهل مغربه في أبعد الزّمان وأقربه ."(١) .

وممّا تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف كان قد اطّلع على ديوانـي هذين الشّاعرين ، وتوقّف عندهما وقفةً متأنيةً ناقدةً ، تكشف لنا عن سعة اطّلاع .

فهذه هي أهمّ المقوّمات الّتي عملت على تكوين ابن شرف الثّقافيّ ، وساهمت في نموّ ثقافته وصقلها .

ولقد بدا لنا ابن شرف من خلال ما وصلنا من إنتاجه الأدبيّ والنّقديّ صاحب شخصيّة واسعة الاطّلاع متنوّعة الثّقافة ، غنيّة بالعلوم والمعارف العامّة المختلفة ، فقد جمع في حوزته عدّة علوم : جمع الشّعر إلى الكتابة إلى النّقد ، وفي هذا يقول ابن بسّام :"... كان أبوعبدالله بن شرف بالقيروان من فرسان هذا الشأن وأحد من نظم قلائد الآداب ، وجمّع أشتات الصّواب ، وتلاعب بالمنظوم والموزون ، تلاعب الرياح بأعطاف الغصون ."(٢) ، ويقول الدّبّاغ :"... ذكره الشّيخ أبو الوليد الباجيّ ، وأثنى عليه ، ووصفه بالعلم والذّكاء ، وأنّ علم الأدب من بعض علومه ."(٣) ، فهذه الرّواية تدلّ دلالة واضحة على أنّ ابن شرف كان صاحب ثقافة واسعة متنوّعة حتّى إنّ علم الأدب كان من بعض علومه الكثيرة المتنوّعة الّتي ألمّ بها ، وأتقنها ، فعبّر عنها تعبيراً واضحاً فيما ألّف أو قاله .

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٢٦ .
(٢) الذّخيرة ، ق٤ م٢ / ١٦٠ — ١٧٠ .
(٣) المعالم ، ٣ / ١٦٤ ، والصّلة ، ٢ / ٦٠٤ .

مصنفاتـــــــــــــه :

يرى بعض الدارسين أنّ العصر الذي عاش فيه ابن شرف كان يتطلّب من الأديب أو الكاتب أن يدوّن ما يتلقّاه عن شيوخه الّذين تتلمذ عليهم ، أو ما تجود به قريحته من أفكار جديدة في رسالة أو كتاب ، ليحفظه من الضياع(١) ، ومن أجل هذا فقد نشطت حركة التأليف في هذا العصر ، وازدهرت ازدهاراً كبيراً ، فكان من الطّبيعيّ والحالة هذه أنْ تجد ابن شرف قد ساهم في هذه الحركة ، فدوّن ما جادت به قريحته من أفكار ، وما حصّله من علوم ومعارف في مصنّفات عديدة ، أشار إليها معظم الّذين ترجموا لهُ ، وتصدّروا لأخباره وأدبه فابن بسّام يقول : "... ولأبي عبد الله عدّة تواليف أفادها بحاراً ، وأطلعها شموساً ، وأقماراً منها كتابه الموسوم بـ "أعلام الكلام" ، وكتاب "أبكار الافكار"(٢) ويقول ابن بشكوال : "... كان من جلّة الادباء ، وفحول الشعراء ، ولهُ كتب مصنّفة في معنى ذلك كلّه ."(٣) ، ويقول ياقوت : "... ولابن شرف القيروانيّ من التّصانيف : أبكار الافكار ، وأعلام الكلام ، ورسالة الإنتقاد ."(٤) ، ويقول ابن دحيّة : "... ولابن شرف مصنّفات عديدة ، وأوضاع مفيدة منها : أبكار الافكار ."(٥) ، ويقول ابن شاكر : "... وله تصانيف منها : أبكار الافكار."(٦) .

ومن هذه الإشارات يتضح لنا أنّ ابن شرف قد صنّف كتباً عديدة ، ومؤلفات كثيرة ، جسدّ لنا فيها ثقافته الواسعة الّتي ألمّ بها إلاّ أنّ يدَ الزّمن قد امتدت إليها ، فخطفتها فيما خطفت من تراثنا العربيّ ، وذلك بسبب الفتن والنّكبات الّتي تعرّضت لها هذه البقعة من الوطن الإسلامي الكبير ، ومن أجل هذا لم يصلنا من مصنّفات ابن شرف الكثيرة الّتي تحدّث عنها المترجمون إلاّ أسماء مجرّدة لتلك المؤلفات الّتي كان من أشهرها :

---

(١) أنظر : البساط ، ص ١٢٩ .
(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م ٢ / ١٧١ .
(٣) الصّلة ، ٢ / ٦٠٤ ، وانظر : بغية الوعاة ، ١ / ١١٤ .
(٤) معجم الأدباء ، ١٩ / ٤٣ .
(٥) المطرب ، ص : ٧٢ .
(٦) فوات الوفيات ، ٢ / ٤١٠ ، وانظر : الوافي بالوفيات ، ٣ / ١٩٧ ، الصور بالصور ، ص : ٦٠ .

أبكـــــار الأفكـــــار :

وهو كتاب في الادب يشتمل على ما اختاره من نظمه ونثره ، ولقد حدّثنـــا ابن شرف نفسه عن موضوع هذا الكتاب، فقال :"... وقد كنت حاولت منه مالـــم أسبق إليه ، ولم أجعل سوى ناظري معيني عليه ، فصنّفت الكتاب الملقّـــب بـ "أبكار الافكـار" ، يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال ، وحكايات قصـــار وطوال ، ممّا عزوتها إلى مَنْ لم يحكها ، وأضفت نسبها إلى مَنْ لم يحكهـــا ، وقد طرّزت بلمع الجدّ والهزل ، وحسنت بمقابلة الهدّ للمثل ."(١) ، ويشيـــر ابن شرف إلى أنّ الكتاب من تأليفه هو ، وأنه لم يعتمد في تأليفه على أحـــد ممّن سبقوه أو عاصروه ، فيقول :"... ليس في ذلك كلّه رواية رويتها عن قديـــم ولا جديد ، ولا حدّثت بها عن قريب ولا بعيد ."(٢) ، ويشير إلى أنّه قد اتبـــع في هذا الكتاب أسلوب السّجع فيما كتبه ، فيقول :"... وقد قدحت زَنْدَ الفكـــر فأورى شرراً ، وامتحنت قليب القلب فأجرى نهراً ، فرقمت في هذا المجموع مـــن الكلام المنثور المسجع الأوساط والأطراف ، والمنظوم المكلّل بتيجان القوافـــي ما استنبطته ، من ذوات صدري ، واستنتجته من بنات فكري ، فقرّاً ابتدعتهـــا ، وسجعتها ، ومعاني حكايات اخترعتها ، تطرّزها الأقلام ، وترقم بها أدبيـــة الكلام ، وهي بنات مؤلفها ، وأسجاع مصنّفها .(٣)".

ولقد حدّثنا عن موضوع هذا الكتاب معظم الذين ترجموا لابن شـرف، فياقوت يقول :"... أبكار الافكار ، جمع فيه ما اختاره من شعره ، ونثره ."(٤) ، ويقول فيه ابن دحية :" أبكار الافكار في سفرين اختراع كلـه في الحكم والامثـــال

---

(١) الذخيرة ق ٤ م ٢/ ١٧٩ — ١٨٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٨٠ .
(٣) المصدر نفسه ق ٤ م ٢/ ١٧٧ — ١٧٨ .
(٤) معجم الأدباء ، ١٩/ ٤٣ .

والنّظم والنّثر(١) ."، ويقول فيه ابن شاكر والصّفديّ في هذا الكتاب وموضوعه : "... وهو كتاب حسن في الأدب يشتمل على نظم ونثر من كلامه ."(٢)، ويقول حاجي خليفه : "... أبكار الأفكار لمحمّد بن شرف بن سعيد الجذاميّ القيروانيّ، جمع فيه نظمه ونثره ."(٣)، ويقول البغداديّ : "... له أبكار الأفكار نظماً ونثراً ."(٤).

ومن هذه الإشارات البسيطة نستطيع أنْ نقول : إنّ شاعرنا قد جمع في هذا الكتاب ما اختاره من نظمه ونثره، فدوّن فيه عُصارة تجاربه الطّويلة مع الحياة، والنّاس، والزّمن، ولقد أهدى ابن شرف هذا المؤلّف النّفيس إلى باديس بن حبّوس(٥) صاحب غرناطة، كما أهداه الى المعتضد عبّاد (٦)، صاحب إشبيلية على ما ذكره ابن بسّام حيث يقول : "... وطرّز تأليفه "أبكار الأفكار" باسم عبّاد، وبعث به إليه على البعاد، وكان وسمه قبل باسم باديس بن حبّوس ".

ويبدو لي أنّ الكتاب كان قد نال إعجاب بعض الأدباء والوزراء الّذين اطّلعوا عليه فهذا ابن عبد البرّ الكاتب(٧)، وزير المعتضد بالله — عبّاد —

---

(١) المطرب، ص : ٧٢.

(٢) فوات الوفيات، ٢/ ٤١٠، الوافي بالوفيات، ٣/ ١٩٧.

(٣) كشف الظنون، ١/ ٤.

(٤) هدية العارفين، ٢/ ٧٢، وأنظر الأعلام، ٧/ ١٠.

(٥) وهو : باديس بن حبّوس صاحب غرناطة، قال ابن سعيد : " كان من أبطال الحروب وشجعانها، يُضرَبُ به المثلُ في شدّة القسوة، وسفك الدّماء، وكان على ما فيه من قسوة مُنْصِفاً حتّى من أقاربه، المغرب، ٢/ ٢٦٤.

(٦) وهو : عبّاد بن إسماعيل بن عبّاد اللّخميّ الملقّب بالمعتضد بالله، ولي الأمر بعد وفاة أبيه في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، أنظر : البيان المغرب، ٣/ ٢٠٤، المعجب، ص : ١٥١، الشّذرات، ٣/ ٣١٦، الحلّة السّيراء، ٢/ ٣٩، فوات الوفيات، ٢/ ١٤٧.

(٧) وهو : أبوعمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البرّ بن عاصم النمريّ القرطبيّ، وزر للمعتضد بالله — عبّاد — صاحب إشبيلية، وكان موجوداً عنده حتّى سنة خمس وخمسين وأربعمائة للهجرة. أنظر : القلائد، ص : ١٨٠ — ١٨١، الشّذرات، ٣/ ٣١٤، العبر، ٣/ ٢٥٥.

صاحب إشبيلية ، يعبّر عن إعجابه بهذا الكتاب ، فيقول مخاطبا ابن شرف في رسالة جاء فيها : "... ورد كتابك الأثير ، فاقتضبت من النّثر البديع ، والنّظم الرّفيع ، ما يهزّ أعطاف الضمائر ، ويُسْري في حواشي الخواطر ، وتتلقاه النفوس تلقي ارتياح إلى بدائعه ، وفتنة بمباديه ومقاطعه ، ولا غرو ، فإنّك علم العلم الّذي لم يزل يحوي قصب السّبق في ميادينه ، ويهدي اليانع الغضّ من رياحينه"(١) .

وهذا يعني أنّ أبكار الأفكار كان من مؤلّفات ابن شرف الّتي دخلت معه إلى بلاد الأندلس ، إلاّ أنّ يد الزّمن قد امتدت إليه ، فكان الضّياع حليفه ، وفُقِدَ فيما فُقِدَ من مؤلّفاته الّتي لم يُكْتَبْ لها الحياة .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ الكتاب كان موجودا حتّى سنة أربع وستين وسبعمائة للهجرة ، فقد أطّلع عليه العماد المتوفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة للهجرة ، غير أنّه لم يشر إلى المكان الّذي اطّلع فيه على هذا الكتاب ، فيقول : "... طالعت مصنف محمّد بن شرف الموسوم بـ " أفكار الأفكار " ، ومن منثور كلامه فيه ..."(٢) ، كما اطّلع عليه ابن ظافر الأزديّ المتوفّى سنة ثلاث عشرة وستمائة للهجرة ، وابن شاكر المتوفّى سنة أربع وستين وسبعمائة للهجرة ، وأمّا الّذين جاؤوا بعد هؤلاء من الّذين ترجموا لشاعرنا فقد اكتفوا بالنّقل عنهم ، ولم يشر واحد منهم على الأقل إلى أنّه قد اطّلع على هذا الكتاب أو نقل عنه .

أعلام الكلام :

لم يصلنا من هذا الكتاب إلاّ تلك المقدّمة الّتي حفظها لنا ابن بسّام في ذخيرته ، وقد جاء فيها "... قد أطلت الوقوف بالعكوف على غيرها تصنيف في شتى الأنواع ، فلم أرها إلاّ ولدا عن والد وطارفا عن تالد ، فلا تكاد تُرى

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ٢ / ١٨٠ .
(٢) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٠ .

غريبة ولا شاردة إلاّ منقولة : بـ " حدّثني فلان ، وسمعت عن فلان " والمؤلّفون تُمّاص بأقلامهم ، وإنْ لم يتصوّا بكلامهم ، وقد تكررت تواليفهم على الأبصار والأسماع ، والمكرر مملول بالإجماع ، وللنّفس صبابة بالغرائب ، وإنْ لم تكن من الأطايب ، لانفرادها عمّا سئمته القلوب ، وتجافت به الجُنوب ، إلاّ أنّ الإبتداع والاختراع عليهما باب بينه وبين الاستطاعة حجاب ." (١) ، والكتاب بصورة عامة يتخذ من النوادر ، والفوائد والنّكت موضوعاً لهُ ، وهذا ما أكّده ياقوت بقوله : " ... وأعلام الكلام : مجموع فيه فوائد وطرائف وملح منتخبة ." (٢) . وهو من مؤلّفات ابن شرف الّتي لم تصلنا ، ولكنّنا نستطيع أنْ نقول : إنّه من مؤلّفاته الّتي اصطحبها معه إلى بلاد الأندلس والّذي يؤكّد ما ذهبنا إليه هو ما ذكره العماد الّذي ذهب إلى القول : إنّ أحد كُتّاب المأمون بن ذي النّون وهو راشد بن عُرَيف قد أخذ هذا الكتاب عن ابن شرف في طليطلة ، وقد كان ذلك في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة للهجرة (٣) ، وهذا يعني أنّ أعلام الكلام كان موجوداً مع ابن شرف في طليطلة قبل أنْ تمتدّ إليه يد الضّياع .

رسالة الانتقاد (٤) :

وهي مقامة نقديّة كتبها ابن شرف على لسان شخص خياليّ أسماه " أبا الرّيان " ، وقد اتبع فيها أسلوب السّجع ، وأثقلها بالمحسنات اللّفظيّة والمعنويّة ، وقد جعلها في مقدّمة وثلاثة مجالس ، فتحدّث في المقدّمة عن الغرض الّذي أُلّفت من أجله ، وعن صفات بطلها الصلبيّة والخلقيّة ، فيقول : "... هذه أحاديث مختلفة الأنواع ، مؤتلفة في الأسماع ، عربيات المواشم ، غريبات التّراجم ،

---

(١) الذّخيرة ، ق٤م٢/١٧٩ .
(٢) معجم الأدباء ، ١٩/٤٣ .
(٣) أنظر : الخريدة ، ق٤ج٢/٧ ، والتّكملة ، ١/٣٢٤ .
(٤) نشرها الأستاذ حسن حسني في مجلة المقتبس ، م٦/ص: ٢٥٠ ، باسم : "رسائل الإنتقاد" ، ونقلها عنه الأستاذ محمّد كرد عليّ في رسائل البلغاء ، ونشرها بهذا الاسم ، أنظر : ص: ٢٢١ ، كما نشرها الأستاذ الخانجيّ باسم : "أعلام الكلام" ، في كتاب مطبوع سنه ١٩٢٦م ، وهي في مكتبة الاسكوريال باسم مقامه عن الشعراء ، وتحمل الرقم : (٥٢٦) .

واختلقت فيها أخباراً فصيحات الكلام ، بديعات النظام ، لها مقاصد ظراف ، وأسانيد ظراف ، بروق الصغير معناها ، والكبير مغزاها ."(١) ويشير في هذه المقدمة أيضا إلى أنه اقتدى في تأليفها بمن سبقوه ، فيقول :". . . واحتذيت فيما ذهبت إليه ، ووقع تعويضي عليه من بثّ هذه الأحاديث ما رأيت الأوائل قد وضعته في كتاب كليلة ودمنه ، فأضافوا حكمة إلى الطّير الحوائم ، ونطقوا به على ألسنة الوحش والبهائم ، تتعلق به شهوات الأحداث ، وتستعذب بثمره ألفاظ الحدّاث . . ."(٢) ، وأمّا في المجلس الأوّل منها فإنّه يتصدّى فيه لنقد طائفة من الشّعراء الجاهليين والإسلاميين ممّن سبقوه أو عاصروه في المشرق والمغرب ، وهذا واضح من قوله :". . . وجاريت أبا الرّيان في الشّعر والشّعراء ، ومنازلهم في جاهليتهم وإسلامهم ، واستكشفته عن مذهبه فيهم ، ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم . . ."(٣) ، وفي المجلس الثّاني من هذه المقامة يتوقف عند نقد الشّعر ، وقواعده ، وأصوله ، فيعرض لنا بعض المبادئ الّتي يجب على الشّاعر أو النّاقد أن يراعيها في شعره ونقده ، فيقول :". . . قلت لأبي الريان في مجلس عقب هذا المجلس ، ياأبا الرّيان ، لقد رأيت لك نقداً مصيباً ، ومرمى عجيباً ، ولقد أرغب في أن أنال منه نصيباً . . ."(٤) ، وأمّا المجلس الثالث فقد جعله لرواية ما كان يستحسنه من الشّعر ، فيطلب من بطله أبي الرّيان أن يروي له من مستحسن الأشعار عنده ، فيقول :". . . وطلبتني نفسي بمعرفة مذهب أبي الرّيان في اختيار الشّعر ، واغتنمت جوده بما أردته ، وجوده متى طلبته ، . . . قلت اقترحي على فهمك ، وكرمك ، أن تنشدني ولا تمل ، وتملي علي ولا تكل من مستحسن الأشعار عندك ، ما أجمع بين ميزك فيه ، ونقدك على الاختيار . . ."(٥) .

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ١٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٣ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٦ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٤٧ .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ الآراء الّتي يدلي بها أبو الريّان بطل هذه المقامة الخيالية ، إنّما هي آراء ابن شرف نفسه ، وقد صاغها على هذه الصّورة ، لتكون أكثر قبولاً ، وأبدع في الأداء والتّصوير .

ولقد خُيّل لبعض الدّارسين أنّ " رسالة الإنتقاد " هذه ، و " أعلام الكلام " هما اسمان لكتاب واحد ، وأنّ كتاب " أعلام الكلام " هو عينة " رسالة الإنتقاد " ، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ الخانجيّ الّذي ذهب إلى القول في مقدّمة ما نشره تحت عنوان " أعلام الكلام " : " ... أعلام الكلام ، الّذي ننشره اليوم بين يدي القارئ الكريم ، وقد سبق لأحد أفاضل التونسيين ، وهو حسن حسني عبد الوهّاب أنْ نشره في مجلة المقتبس تحت اسم " رسائل الإنتقاد " وقد خُيّل لحضرته أنّ " رسائل الإنتقاد " هذه هي غير " أعلام الكلام " كما أشار بذلك في مقدّمته . (١) " ويشير في موضع آخر إلى هذه القضيّة ، فيقول : " نجزت " مسائل الإنتقاد " بلطف الفهم والإفتقاد ، وهو " أعلام الكلام " لابن شرف القيروانيّ على لسان أبي الريّان ، الصلت بن السكن من سلامان . " (٢) ، وإلى مثل هذا أو قريب منه ذهب الأستاذ ياغي حيث يقول : " ... " أعلام الكلام " ، نشرها الخانجيّ ، وهي هي " رسائل الإنتقاد (٣) " .

وأما نحن فنستطيع أنْ نقول : إنّ " رسالة الإنتقاد " ، هي غير " أعلام الكلام " ، ولدينا ما يدلّ على ذلك فالّذين ترجموا لابن شرف ، وأثبتوا له هذه الرّسالة ، أشاروا إلى أنّ موضوعها يدور حول نقد الشّعر والشّعراء ، فابن بسّام يقول : " ... ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه ، وصبّ فيها على قالبه ، منها مقامة فيها بعض طول ، لكنه غير مطول ، آخذة بطرف مستطرف من أخبار الأدباء ،

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ١٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٤٦ .
(٣) حياة القيروان ، ص : ٢٠٥ .

وذكر الشعر والشعراء. (١)، ويقول ياقوت : ((... ورسالة الانتقاد ، وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية والاسلام. (٢)) . يضاف الى هذا ان ابن بسّام قد حفظ لنا ما جاء في مقدمة أعلام الكلام (٣)، ولم يشر الى أنه قد ألف في نقد الشعر والشعراء ، لكنه أشار الى أن موضوع مقامته هذه يدور حول ذلك ، والرّسالة بين أيدينا وليس فيها شيء)) ممّا أورده ابن بسّام في مقدّمة أعلام الكلام ، كما حدّثنا ياقوت عن موضوع ((أعلام الكلام)) فذكر أنه مجموع فيه علم وفوائد ، ونوادر كما تقدم ، الامر الذي يحملنا على الاعتقاد انهما كتابان مختلفان لا اسمان لكتاب واحد .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الرسالة تكاد تكون هي الاثر الوحيد الذي وصلنا من مؤلفات ابن شرف .

مجريات حياته وصلاته :

لقد مرت حياة ابن شرف في طورين أساسيين ، الأول منها يبدأ بولادته ، وينتهي بخروجه من وطنه القيروان الى صقلية وبلاد الاندلس ، والثاني منهما يبدأ بخروجه من القيروان ، وينتهي بوفاته ، وسوف نتتبّع حياة هذا الأديب الشاعر منذ ولادته في أواخر القرن الرابع ، الى أن لفظ أنفاسه الأخيرة في سنة ستين وأربعمائة للهجرة .

حياته في القيروان والمهديّة :

أشرنا فيما تقدم الى أن حياة ابن شرف الأولى وطفولته يكتنفهما الكثير من الغموض ، وذلك بسبب اهمال المؤرخين وكتّاب التّراجم الذين عنوا بترجمة حياته ،

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٩٦ - ١٩٧ .
(٢) معجم الأدباء ، ١٩ / ٤٣ .
(٣) الذّخيرة ق ٤ م ١ / ١٧٩ .

ونقل أخباره وأشعاره ، فلم يتعرّض واحد منهم على الأقل لهذه الأمور الهامّة من حياة شاعرنا ، إنّما اكتفى معظم الّذين ترجموا له بذكر اسمه ، ومؤلّفاته ، وبعض أخباره وأشعاره متناسين الإشارة إلى نشأته الأولى وطفولته ، الأمر الّذي جعلنا نعود إلى شعره بالقراءة والتحليل علّنا نستطيع أن نعثر على شيء ذي بال ، يرشدنا إلى مثل هذه الأمور الّتي أغفلها شاعرنا نفسه أيضاً في شعره ونثره .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ ابن شرف قد وُلِدَ في أواخر القرن الرّابع الهجريّ والقيروان في أوج ازدهارها العلميّ والثقافيّ حيث كانت زاخرة بالمعارف والعلوم ، ودار العلم والأدب في تلك الفترة ، فأمّها العلماء والأدباء من كلّ مكان لما سمعوه عن تشجيع أميرها للعلم والعلماء ، فكانت القيروان بذلك قبلة لطلّاب العلم والأدب حتّى زهت على مصر ، وعلى بغداد ، والتقى فيها الأفذاذ من الفقهاء والأدباء والعلماء ، وفي هذا يقول ابن رشيق :

كانت تُعدُّ القيروانُ بهم إذا عُدَّ المنابرَ زهرةَ البلدانِ
وزهت على مصرٍ وحُقَّ لها كما تزهو بهم ، وعدت على بغدانِ (١)

ولقد عمل وجود هذه النّخبة من العلماء والأدباء والفقهاء على إحداث نهضة علميّةٍ وفكريّةٍ في ذلك العصر الّذي ولد فيه شاعرنا ، وتفتّحوا سوق العلم والأدب فيه فتفتّحت عينا شاعرنا على هذه النّهضة العلميّة والفكريّة الغنيّة بالعلوم والمعارف المتنوّعة الّتي بثّها أولئك العلماء الّذين اتصل بهم ، وحصّل عنهم معظم علومه من لغةٍ ، ونحوٍ ، وأدبٍ ، وفقهٍ ، حيث كان هؤلاء العلماء يعقدون مجالس العلم والأدب ، ويبثّون علومهم ومعارفهم في أبناء ذلك العصر الّذين كانوا يعطفون إليهم ، ليأخذوا العلم من نبعه الأصيل .

وإذا كنّا قد علمنا أنّ شبان القيروان في ذلك العصر كانوا يجتمعون عند الحصريّ ويأخذون عنه على ما ذكره ابن خلّكان (٢) ، فإنّنا لا نستطيع أن ننكر أنّ ابن

---

(١) ديوان ابن رشيق ، ص : ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٢) أنظر : وفيات الأعيان ، ١ / ٥٤ .

شرف الّذي كان يُعِدُّ نفسه لخوض غمار الشّعر والأدب ،كان يتخلّف عن حضور مثل هذه المجالس ،ومثل هذه الإجتماعات الّتي كان يعقدها شيخه أبو إسحاق المصروف بالحصريّ مثلما تقدّم .

ولم يكن الأمر ليقتصر على مجالس الحصريّ هذه بل إنّ ابن شرف وهو حدث كان يختلف إلى حلقات اللّغة ، والنّحو ،والفقه الّتي كانت تُعقد في تلك الفترة وهذا ما أكّده ياقوت بقوله : ((... روى عن أبي الحسن القابسيّ ، وأبي عمران الفاسيّ وقرأ النّحو على أبي عبد الله محمّد بن جعفر القزّاز ،وأخذ العلوم الأدبيّة عن أبي إسحق الحصريّ .)) (١) .

ففي مثل هذه البيئة العلميّة النّشطة ، وفي مثل هذا الجوّ الحافل بالعلم والعلماء والمعارف المتنوّعة وُلِدَ ابن شرف ،ونشأ ،فأخذ يُعِدُّ نفسه ،ليشارك في هذه النّهضة العلميّة ،وليصل إلى وظيفة تكفل لهُ عيشاً كريماً ، ومكانةً مرموقةً .

ولمّا أحسّ ابن شرف أنّ ثقافته قد نضجت ، وأنّ شاعريته قد اكتملت أخذ يتطلّع إلى عمل رسميّ يشغله في دولة المعزّ بن باديس ،فخصّه بمديحة نالت إعجابه ،فألحقه بديوان المراسلات عنده ،ذلك الدّيوان الّذي كان يضمّ أكثر من مائة شاعر بليغ مثل ابن شرف وابن رشيق ،ويرأسه ابن أبي الرّجّال الشّيبانيّ ، وكانت القصيدة الّتي تقدّم بها ابن شرف للمعزّ فألحقه بديوانه هي :

قِفا فتنشّما عِطْرَ النّسيم ... برَسْمِ الدّارِ مِنْ بَعْدِ الرّسيم
أنيخا النّاعجين ولا تروما ... فما السّلوانُ بالأمر العظيم (٢) .

هذا ولم يزل ابن شرف يتقرّبُ من المعزّ بن باديس بأشعاره ومدائحه حتّى ضمّه إلى حاشية بلاطه ،فأصبح من شعرائه وخلّصائه المحببين إلى نفسه ، المقرّبين

---

(١) معجم الأدباء ، ١٩/ ٣٧ ، وأنظر : المعالم ، ٣/ ١٩٤ ، الصّلة ، ٢/ ٦٠٤ .
(٢) إنباه الرّواه ، ١/ ٣٠٢ .

منه ،قال ياقوت : ((... وكان ابن شرف ،وابن رشيق متقدّمين عنده على سائر من في حضرته من الافاضل الادباء.)) (١) ،وإليه وجّه ابن شرف معظم مدائحه وأشعاره الّتي قالها في هذه الفترة من حياته إلاّ أنّ الزّمن قد أتى على هذه المدائح ،فلم يصلنا منها إلاّ القليل (٢) ،وهذا أمر يدعو إلى التّساؤل ،إذ لا يمكن أنْ يكون ابن شرف ، قد غنّى المعزّ بن باديس ولمّ نعمته بهذه المدائح القليلة من الاشعار والمقطّعات وهو الّذي تعهّده برعايته وقرّبه منه ، فكان لسانه الناطق باسمه إلاّ إذا كانت تلك الأشعار ، وتلك المدائح الّتي رفعها شاعرنا إلى المعزّ قد ضاعت فيما ضاع من شعره ،وذلك بسبب النكبة الّتي أصابت القيروان على أيدى الاعراب الّذين أتوا على حضارتها وتراثها الزّاهر ، فعلى ما يبدو أنّ ابن شرف قد فرّ بنفسه وعياله من القيروان ،تاركاً وراءه كلّ ما يتصل بالمعزّ وبغيره فيها .

ومهما يكن من أمر ،فإنّ ابن شرف كان من الأدباء الشّعراء الّذين شاركوا في شؤون الدّولة والحكم ،فكثيراً ما كان ابن شرف يتدخّل في عزل قاضٍ أو توليته لدى المعزّ بن باديس ،فيأخذ برأيه ،ويفضّله على سواه ،قال الدّبّاغ: ((... لمّا توفّي القاضي ابن هاشم خلّف ولداً خلفاً ، وكان له أشياخ أحبّوا ولايته وراثة لعلّة أبيه ،فأشاروا على السّلطان بذلك ،ومال السّلطان إلى قولهم ، وكان خواص من النّاس ممّن عرف حقيقة هذا الولد قد عظّم الامر عليه ، وتصوّر سوء المآل فيه ،وكان محمّد بن شرف أشدّ النّاس إنكاراً لولايته ، لتخلّف الرأي وسوء التخلّط فيه ،قال : استخرت الله — تعالى — وأفردت النيّة ،لابتغاء وجهه ،فجعلت شعراً أمدح السّلطان ، وأغالطه فيما شاء من توليته ، فلمّا كانت ليلة اجتماع النّاس لحضور توليته استأذنت على السّلطان في إنشاد

---

(١) معجم الادباء ، ١٩/ ٣٧.

(٢) أنظر : البيان المغرب ، ١/ ٢٩٥ — ٢٩٦ ، إنباه الرّواة ، ١/ ٣٠٢.

ذلك فأنشدته على خلوة منه :

للّـــه مِنْ يَوْمٍ أغرّ سعيـــــد مُتميّز مِنْ عَصْرِهِ مَعْـــدودِ

قال محمّد بن شرف : فأنشدته حتّى بلغت إلى قولي :

كَانَ القَضاءُ إرَاثَةً فردتـــه شورى ،ففازَ بِحَقّهِ المـــردودِ

يا فَضْلَها مِنْ سِيْرَةٍ عُمَريّـــة هِيَ للعِبَادِ رِضىً وللمعبـــودِ

قال : فلمّا بلغت في الإنشاد إلى هذا الموضع أكبّ السُّلطان على يده ،وقد قبضها كالمطرق والمفاجأ بأمر يحتاج إلى الفكرة فيه ، وتماديت في الإنشاد ،والسُّلطان لم يزل على حاله فيما أحسب حتّى أتممت الشّعر ،. . . ثمّ رفع رأسه وقال لـــي : أصرف الشّعر وأعد به غداً ثم قُم فأنشده في آخر المجلس ، وإيّاكَ أنْ يعلم أحـــد بما أوجبت لك به ،فانصرفت والنّاس يتواعدون إلى البكور إلى السُّلطان لحضـــور تولية ابن هاشم في ظنّهم ،فلمّا كان في غد ذلك المساء ،حضر النّاس ، وتهيـــأ ابن هاشم في خلعة القضاء ، وتأهب للولاية ، فلمّا استوى المجلس ، دعـــا السُّلطان بابن أبي زيد (١) فقدّمه للقضاء بغتةً ما علم أحد بالأمر حتّى كان .)) (٢) .

وهذه الرواية إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على المكانة الّتي حظي بها ابـــن شرف عنـــد المعزّ بن باديس ، وعلى منزلته منه،هذا مِنْ جانب ، وتدلّ علـــى أنّ ابن شرف لم يكن يعيش في معزل عمّا يدور في عصره ، ومجتمعه مِن جانب آخـــر ، فهو من الأدباء الّذين التزموا بقضايا أمّتهم ومجتمعهم ،فعبّروا عنها خير تعبيـــر في شعرهم ونثرهم الّذي كان صورةً صادقةً عن مجتمعهم .

وعلى أية حال فإنّ ابن شرف قد لزم المعزّ بن باديس وخدمه ، وسخّر لـــه

---

(١) وهو : أبو بكر أحمد بن أبي محمّد عبد الله بن أبي زيد ، روى كتاب التهذيب عن مؤلفه أبي القاسم البرادعيّ تولّى قضاء القيروان في سنة خمس وثلاثيـــن وأربعمائة للهجرة . أنظر : المعالم ،٣/١٨٧ .

(٢) المعالم ،٣/١٨٧—١٨٨ .

شعره وأدبه إلى أنْ هاجم الاعراب القيروان ، وأجبروا ابن باديس على مغادرتها رغماً عنه فغادرها إلى المهديّة ، وقد خرج معه إليها شعراء الحضرة وخاصّته ، ولقد كان شاعرنا من بين هؤلاء الشّعراء الّذين خرجوا مع المعزّ وصاحبوه حتّى بعد ضياع مُلكه ، قال ياقوت : ((... ولم يزل ابن شرف ملازماً لخدمة المعزّ إلى أنْ هاجم عرب الصّعيد القيروان ، اضطرّ المعزّ إلى الخروج منها إلى المهديّة ، فخرج ابن شرف ، وسائر الشّعراء معه ، واستقرّوا بها .)) (١) ، وذلك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة على ما ذكره المؤرّخون (٢) .

وهكذا فقد شاءت الظّروف لشاعرنا أنْ يترك وطنه ، ومسقط رأسه القيروان ، وأنْ يلتحق بالمعزّ بن باديس ويقيم معه بالمهديّة ، ويستمرّ في خدمته ، وخدمة ولده وولىّ عهده الأمير تميم بن المعزّ إلى أنْ تغيّر المعزّ عليه ، وعلى أقرانه من الشّعراء الّذين أخلصوا لَهُ ، وظلوا أوفياء حتّى بعد زوال مملكته وانتقاله إلى المهديّة ، فأصبح المعزّ فيها ضيّق الصّدر بالشّعر والشّعراء ، فلم يَعُدْ يحفل بهم ولا بتلك المجالس الّتي كان يقيمها بالقيروان ، ويدعو إليها مَنْ يحبّ من الأدباء والشّعراء والعلماء ، ذلك لأنّ همومه ومصيبته قد أنسته مجالسة الشّعراء واستمالتهم لا سيّما بعد تلك النّكبة الفادحة الّتي أطاحت بملكه ، فلمّا رأى ابن شرف من المعزّ ذلك التّغيّر ، وذلك الازورار عن الشّعر والشّعراء ، حمل نفسه وشخص إلى صقليّة ، قال ياقوت : ((... فأقام ابن شرف مدّة بالمهديّة ملازماً خدمة المعزّ وابنه تميم ، ثمّ خرج قاصداً إلى صقلية)) (٣) .

---

(١) معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٧ .

(٢) أنظر : الكامل في التّاريخ ، ٩ / ٥٦٩ ، البيان المغرب ، ١ / ٢٩٤ ، تاريخ ابن خلدون ، ٦ / ٣٢٦ ، الإتحاف ، ١ / ١٣٩ ، الحلل السّندسيّة ق ٤ ج ١ / ٩٤١ .

(٣) معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٨ .

ابن شرف وابن رشيق في بلاط المعزّ بن باديس :

لم يكن ابن شرف وابن رشيق على خلاف في الرأي قبل أنْ يضمّهما المعزّ إلى خاصّته ، إنّما كانا على علاقةٍ وثيقةٍ ، وعلى صداقةٍ حميمةٍ ، فكانت هذه العلاقة وهذه الصّداقة تدفع بهما إلى التّراسل والتّزاور في كلّ يوم ، قال ابن رشيق : ((... ولقد شهدته مرّات يكتب القصيدة في غير مسوّدة كأنّه يحفظها ، ثمّ يقوم فينشدها ، وأمّا المقطّعات فما أعصي ما يصنع منها كلّ يوم بحضرتي صاحياً كان أمْ سكرانا .)) (١) ، ويقول في موضع آخر : ((وكان بيننا قبل أنْ يجذبنا ابن باديس إلى محلّ حرمه ، ويشركنا في سابغ نعمه مكاتبات ومجاوبات .)) (٢) ، ومن هذا يتضح لنا أنّ الصّلة كانت بينهما قويّةً وثيقةً ، وأنّ الواحد منهما كان يكتب لصديقه ويجيبه عمّا يكتب .

ولقد كان ابن شرف وابن رشيق عين اجتمعا في بلاط المعزّ بن باديس من اقرب شعراء الحضرة الى نفسه ، فكان يستدعيهما ، الى مجلسه ، ليستمتع الى لطفهما عندما يفرغ من مشاغله السياسيّة ، وأعباء الحكم ، ومن ذلك ما أورده ابن ظافر على لسان شاعرنا الذّي يقول : ((... واستغلانا المعزّ يوما ، وقال لنا : أريد أن تصنعا شعرا تمدحان به الشعر الرّقيق الخفيف الذي يكون على ساقي بعض النّساء ، فاني أستحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر بعضا به ، وكلّهنّ قارئات كاتبات ، فأحبّ أن أريهنّ هذا ، وأدعي أنه قديم لأحتج به على من عابه ، وأسرّ به من عيب عليه ، فانفرد كلّ واحد منّا ، وصنع في الوقت فكان الذّي قلته :

وبلقيسية زيّنتْ بشعرٍ ... يسيرٍ مثلما يهبُ الشحيحُ .

---

(١) مسالك الأبصار ، ج ١١ / ٢٤٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٤١ .

رَقيقٌ في خَدَلَّجَةٍ رَدَاحٍ ... خَفيفٍ مِثْلِ جِسْمٍ فيه رُوحُ .
حكى زَغَبَ الخُدُودِ وكُلُّ خَدٍّ ... بِهِ زَغَبٌ فَمَعْشُوقٌ مَلِيحُ .
فإنْ يَكُ صَرْحُ بلقيسٍ زُجاجاً ... فَمِنْ حَدَقِ العُيونِ لَها صُرُوحُ (١)

وكان الذي قاله ابن رشيق :

يُعَيِّرُونَ بَلْقِيسَيَّةً أنْ رأوا لَها ... كما قد رأى مِنْ تِلْكَ مَنْ نَصَبَ الصَّرْحا .
وقد زادَها التَّزْغِيبُ مُلْحاً كمثلما ... يَزِيدُ خُدُودَ الغِيدِ تَزْغِيبُها مُلْحا (٢)

وليس هذا فحسب بل إنَّ المعزّ كان يقوم بدور الحَكَم في تلك المجالس، والمناظرات ، فكثيراً ماكان يفضّل أحدهما على الآخر ،ومن ذلك ما أخذه على ابن رشيق حِيْنَ قال : ((يَعيبُونَ)) وعلّق قائلاً : ((. . . قد أوجدت لخصمها حجّةً بأنّ بَعْضَ النّاس عابه ، وهذا نَقْدٌ ما كنت فطنت له .)) (٣) ،ومن أجل ذلك فقد دبَّ التنافس والتّسابق بينهما ،فتنافسا ، وتسابقا ليثبت كلّ واحد منهما لسيّده ومولاه أنّه أفضل وأجود من منافسه ، وقرينه ، وعلى ما يبدو أنّ المعزّ بن باديس نفسه كان حريصاً كُلَّ الحرص على أنْ يَجْمَعَ الشُّعراءَ والأُدباءَ مِنْ حَوْلِه وأنْ يقرّبهم منه ، ولكنّه لم يكن ليكتفي بهذا ، بل كان يدفع بهم إلى التّسابق في الإجادة والمباراة في الإتقان فيما يقترحه عليهم من أغراض للقول مثلما كان يبعث فيهم روح التّنافس والتّسابق ، فكان يُساجِلُ بعضهم بعضاً ، ويناظره فيما يفرضه عليهم ويطلب إليهم القول فيه ،ليعمل على شحذ القرائح ،ومن أجل هذا فقد كان المعزّ يقرّب منه شاعرنا مرّة ،ويقرّب ابن رشيق في مرّة أخرى ، قال ياقوت : ((. . . كان المعزّ يقرّب هذا تارةً ،ويدني ذلك تارةً أخرى ، فتنافسا ،

---

(١) البدائع ،ص : ٢٤١ ، وأُنظر : المطرب ،ص : ٧٤ — ٧٥ .
(٢) البدائع ، ص : ٢٤١ ، وانظر المطرب ، ص ٧٥ ، وديوان ابن رشيق ،ص : ٥٤ .
(٣) البدائع ،ص ٢٤٢ ، وأُنظر : المطرب ،ص : ٧٥ .

وتنافرا ، ثمّ تهاجيا .)) (١) .

وهكذا فقد كان التّنافس بين ابن شرف وابن رشيق في بلاط المعزّ بن باديس ، يذكيه المعزّ ، لينعم بثماره ونتاجه تارةً ، وتشعله الرّغبة في التقدّم ، والسّبق تارةً أخرى ، فكلّ واحد منهما يريد أنْ يتفوّق ، وأنْ يصل إلى جانب السّلطان ، وأنْ يتقرّب منه بنظمه ونثره ، لينال العطاء الجزيل ، والهبات الطائلة .

ولقد حاول كلٌّ واحد منهما أنْ يجسد منافسته لقرينه فيما ألفّه من رسائل وأشعار ، ليُظْهِرَ براعته من جانب ، وتفوّقه من جانب آخر ، قال حسن حسني عبد الوهّاب : ((...وقد خصّص المعزّ لصحبته من بين هؤلاء الزّعماء المتقدّمين ابن شرف هذا ، وابن رشيق ، فكان يلتفت تارةً إلى الأوّل ، وأخرى إلى الثّاني ، وجرى بسبب ذلك بين هذين الأديبين مناقضات ، ومهاجاة رسمها كلّ منهما في رسائل مستقلة ، ومقامات متنوّعة ، لم يصل إلينا منها شيء فيما نعلم .)) (٢) ، ومن ذلك ما ذكره ابن شاكر الّذي ذهب الى القول : ((...ولابن رشيق فيه عدّة رسائل يهجوه فيها ، ويذكر فيها أغلاطه وقبائحه منها : رسالة ((ساجور الكلب)) ، ورسالة : ((قطع الأنفاس)) ، ورسالة : ((نُجْح الطلب)) ، ورسالة ((رفع الإشكال ودفع المحال)) ، وكتاب : ((فسخ الطّلح ، ونسخ اللّمح .)))) (٣) . إلاّ أنّ هذه الرسائل الّتي كتبها ابن رشيق لم تصل إلينا ، مثلما لم تصلنا الأشعار والرّسائل الّتي كتبها ابن شرف في الرّد على ابن رشيق .

وعلى أيّة حال ، فإنّ هذه الرسائل الّتي ألفّها ابن رشيق في الرّد على شاعرنا تصوّر لنا تلك المعاناة الشديدة الّتي كان ابن رشيق يجدها من قرينه

---

(١) معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٧ .
(٢) رسائل البلغاء ، ص : ٢٣٣ ، المقتبس م٦ / ٣٥٢ .
(٣) فوات الوفيات ، ٢ / ٤١٠ ، وأنظر : الوافي بالوفيات ، ٣ / ٩٧ ، البساط ، ١٣٣ .

ومنافسه في بلاط المعزّ بن باديس ألا وهو ابن شرف .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ ابن شرف وابن رشيق لم يتغيّرا على بعضهما البعض على الرّغم من تلك المناقضات والمساجلات الّتي أشار إليها القدماء (١) ، والّذي يؤكّد ما ذهبنا إليه هو تلك الرّسائل والخطابات الّتي تبادلها ابن رشيق وابن شرف عندما كان ابن شرف في صقلية وقد تشوّق إلى ابن رشيق ، وإلى تلك الأيّام والذّكريات الّتي قضياها معاً بالقيروان قبل خرابها ، حيث كان ابن رشيق بالمهديّة في هذه الأثناء ، ومن ذلك تلك القصيدة الّتي بعث بها ابن شرف إلى قرينه ابن رشيق ، وقد قدّمها القفطيّ بقوله : ((... وكان بين ابن رشيق وبين ابن شرف الشّاعر مباينة بعد مواصلة ، وذلك أنّهما كانا شاعري حضرته ، ودخلا إليه ، واتّصلا بخدمته في وقت واحد ، وكان ابن شرف ممّن لا ينكر حذقه ولا يدفع في هذا النّوع صدقه ، ولم يزل بينهما مكاتبات ومخاطبات ، فممّن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها إلى ابن رشيق وهو بالمهديّة يتشوّقه أوّلها :

عدمناك من بعد وإن زدتنا قربا ... على أن فيما بيننا سببا سببا .

وكتب إليه ابن رشيق قصيدته الّتي مطلعها :

عتاباً عسى أنّ الزّمان له عتبى ... وشكوى فكم شكوى ألا تبثّ لنا قلبا .

إذا لم يكن إلاّ إلى الدّمع راحة ... فلا زال دمع العين منهملاً سكبا (٢)

وهذه المراسلات والأشعار الّتي دارت بينهما إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أنّ العلاقة الّتي تربط بينهما كانت وطيدة قويّة لا تتأثّر بما يحدث بينهما .

ثمّ إنّ ما حدث بين شاعرنا وقرينه ابن رشيق ما هو إلاّ نتيجة طبيعية لتلك الظّروف ، ولذلك الجوّ الّذي جمعهما معاً في بلاط واحد حافل بالتّنافس والتّسابق ،

---

(١) أنظر : الذّخيرة ، ق٤م١ / ١٧٠ ، ق٤م٢ / ٥٩٨ ، معجم الأدباء ، ٨ / ١١٢ ، فوات الوفيات ، ٢ / ٤١٠ ، الوافي بالوفيات ، ٣ / ١٧ .

(٢) إنباه الرّواة ، ١ / ٣٠٢ ، وأنظر : ديوان ابن رشيق ، ص : ٤٠ .

حيث اجتمعا على هدف واحد ، وغاية واحدة ،فقادهما ذلك إلى التّنافس ، وإلى الاختلاف في الرّأي ،ومع ذلك فقد ظلّت العلاقة فيما بينهما حميمةً طيّبةً ، وهذا ما يؤكّده ياقوت بقوله : ((... ولكن لم يتغيّر أحدهما على الآخر بما جرى بينهما من المناقضات.)) (١) ،ولقد ردّ ابن شاكر هذا الخلاف في الرّأي إلى التّعاصر ،فقال : ((... وكان بينه وبين ابن رشيق مهاجاة ومعاداة جرى الزّمان بها كعادته بين المتعاصرين .)) (٢) .

وممّا يدلّل على طيب العلاقة الّتي كانت بينهما أنّ ابن شرف عندما عزم الأمر على الرّحيل إلى بلاد الأندلس ،كان قد طلب من ابن رشيق أنْ يرافقه إليها ،إلاّ أنّ ابن رشيق لم يجبه إلى طلبه واعتذر عن ذلك ،لأنّ المقام بصقلية قد طاب لهُ ،وفي هذا يقول ابن بسّام : ((... بلغني أنه استنهض صاحبه ابن رشيق في أنْ يجتمعا بالطّريق ،ويجوزا معاً إلى الأندلس ،فأنشده ابن رشيق :

مِمّا يُمِضُّني في أرْضِ أنْدَلُسٍ ... سَماعُ مُقْتَدِرٍ فِيْها ومُقْتَضِدِ
ألْقابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِها ... كالهِرِّ يَحْكِي انْتِفاخاً صَوْرَةَ الأسَدِ

فأنشد ابن شرف :

إنْ تُرْمِكَ الغُرْبَةُ في مَعْشَرٍ ... قَدْ جُبِلَ الدّهْرُ على بُغْضِهِمْ
فَدارِهِمْ ما دُمْتَ في دارِهِمْ ... وأرْضِهِمْ ما دُمْتَ في أرْضِهِمْ .)) (٣)

وكأنّي بابن شرف قد حاول أنْ ينسى كلّ ما حصل بينه وبين ابن رشيق بالقيروان مِنْ قَبْلُ ،فعلى ما يبدو أنّ الخلافات الشّخصيّة الّتي كانت بين شاعرنا وقرينه ابن رشيق قد تضاءلت وعصفت بها تلك الحالة من الخراب

---

(١) معجم الأدباء ، ١٩/ ٣٧ .
(٢) فوات الوفيات ، ٢/ ٤١٠ ، وأنظر : الوافي بالوفيات ، ٣/ ٩٧ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١/ ١٧٢ ، وديوان ابن رشيق ، ص : ٥٩ — ٦٠ .

والدّمار التي أصيب بها وطنهما، فنسيا كلّ ما بينهما من خلافات ومشاكل.

يضاف إلى ما تقدّم أنّ الهجاء في ذلك العصر كان يتّخذ للّهو، وقتل الفراغ، والتّندّر، ومن ذلك ما أورده ابن ظافر حيث يقول: ((واجتمع أبو عبدالله بن شرف يوماً بأبي عليّ بن رشيق، فوصف له منزلاً ضيّقاً كان فيه، ثمّ صنع في صفته، فقال:

ومنزلٍ قُبّحَ مِنْ مَنْزِلٍ ... النَّتْنُ والظُّلْمةُ والضّيقُ
كأنّني في وَسْطِهِ قَيْشَةٌ ... ألوطه والعرقُ الرّيقُ

وكان ابن شرف أعور أصلع فقال ابن رشيق:

وأنتَ أيضاً أعورٌ أصلعٌ ... فوافق التّشبيهَ تحقيقُ (١))).

وليس هذا فحسب بل إنّ الواحد منهم في ذلك العصر كان يهجو نفسه وأصدقاءه عندما لا يجد من يهجوه، ويتندّر عليه، قال الصّفديّ: ((... قال أبو عليّ بن رشيق وكان أحول في نفسه، وفي الطّوسيّ الشّاعر الأعمى، وفي محمّد ابن شرف الأعور:

لابدّ في الدّورِ مِنْ تيهٍ ومِنْ صَلَفٍ ... لأنّهم ينظرون النّاس أنصافا
وكلّ أحول يلفى ذا مكارمةٍ ... لأنّهم ينظرون النّاس أنصافا.
والعمْيُ أولى بحالِ الدّورِ لو عرفوا ... على القياس ولكنْ خافَ مَنْ خافا (٢)

ومهما يكن من أمرٍ، فإنّ هذه المناظرات، وهذه المساجلات والمنافسات التي كانت بين ابن رشيق وشاعرنا من جانب، وبين العلماء والأدباء الذين عاشوا في ذلك العصر من جانب آخر، قد عملت على تشجيع الحركة العلميّة والفكريّة في ذلك العصر، فكان لها أثر كبير على العلم والأدب، وعادت على أفريقيّة في ذلك الوقت بأطيب النتائج والآثار، وهذا ما عبّر عنه الأستاذ حسن حسني بقوله: ((... وكثيراً ما كان المعزّ يظهر الميل إلى أديب

---

(١) بدائع البدائع، ص: ١٢١، والوافي بالوفيات، ٣/٩٧، وديوان ابن رشيق، ص: ١٢١.

(٢) الضبي، ٢/٢٨٨، وأنظر: ديوان ابن رشيق، ص: ١١٦.

دون آخر ،أو يُنشب بين شاعرين فيقع بينهما تنافس أدبيّ ينشأ عنه تسابق في اختراع المعاني وتوليد المبتكرات ، وحصل بسبب هذه المنافسات نهوض في سوق الأدب ،وظهرت حركة علميّة فكريّة اجتنت أفريقيّة من ثمراتها اليانعة ، ما يحقّ لها الافتخار به .)) (١) .

ابن شرف في صقليّة :

لمّا رأى ابن شرف تخيّر المعزّ على الشّعراء والأدباء الّذين لحقوا به إلى المهديّة بعد خراب مملكته على يد الأعراب ، وتردّد عليه فلقي منه انقباضا عن الأدب والأدباء ،وعزوفاً عنهم ، قرّر أن يذهب إلى صقلية حاضرة ابن منكود (٢) ، لاسيّما بعد ما سمعه عن هذا الأمير من إكرام للأدباء والشّعراء ،فحمل نفسه وأهله ، وانطلق إليها راكباً البحر ، وهذا واضح من قوله :

وَثَوْراً على مَوْجِ البِحارِ كأنّنا قَذَى فَوْقَنا أنّنا لَيْسَ نَغْرَقُ (٣)

وهذا ما أكّده لنا الأستاذ حسن حسني عبد الوهّاب حين قال : ((... وأقام ابن شرف بالمهديّة مع زُمْرة شعراء الملك يخدم الأمير المعزّ وابنه تميماً إلى أن رحل عنها قاصداً جزيرة صقليّة لمّا سمع عن كرم أميرها .)) (٤).

وعلى ما يبدو أنّ ابن شرف قد سبق ابن رشيق إلى صقليّة ،إذ لم تشر المصادر إلى أنّهما خرجا من المهديّة إلى صقلية معاً ،قال ابن بسّام : ((... وكان ابن شرف قد سبقه إليها ، ووفد قبله عليها .)) (٥) ،

---

(١) البسائط ،ص : ٨٤ — ٨٥ .
(٢) وهو : القائد أبو محمّد الحسن بن عمر بن منكود ،الّذي استقل بمآزر ، وهو من ملوك الطّوائف في صقلية ،. أنظر : تاريخ ابن خلدون ، ٤ / ٢١٠ ،المكتبة الصقلية ،ص : ٥٩٦ .
(٣) الذّخيرة ،ق ٤م ١ / ٢٢٢ .
(٤) رسائل البلغاء ، ص : ٢٣٥ .
(٥) الذّخيرة ،ق ٤ م ٢ / ٥٩٨ .

وهناك في صقلية يتشوّق ابن شرف الى رفيق صباه ونديم عمره ابن رشيق ، ويخاطبه من صقليّة قائلا :

عدِمْناكَ من بُعْدٍ وانْ زدتنا قربـاً . . . . . .

فيردّ عليه ابن رشيق من المهديّة قائلاً :

عتاباً عسى أنّ الزّمان له عُتبى . . . . . (١)

ويلحق ابن رشيق بشاعرنا الى صقليّة ، لاسيّما عندما أمر المعزّ بتمزيق قصيدته ، وحرقها ، قال ابن بسّام : ((. . . لمّا طلع نجم النحوس بملك المعزّ ابن باديس ، وخرج الى المهديّة بسماء كاسفة الأقمار . . . ، كان أبو عليّ ممن انحشر في زمرته المحروبة ، وتميّز الى فئته المغلولة المنكوبة ، فأقام معه بها ، أنفة من الجلاء ، واشفاقاً من فرقة الأحبّة والخلصاء ، وغشي المهديّة أسطول الرّوم . . . ، فدخل يومئذ على المعزّ حين وضح الفجر ، وقد تمّ الذّعر ، وضاق الصّدر ، فوجده في مصلّاه ، والرّقاع ترد عليه ، فقام على رأسه ينشده :

تثبّت لا يخامرك اضطرابُ فقد خضعت لعزّتك الرّقابُ

فقال له : مه ، أحال عهدك أم تغيّر ، أم قد أدبر بك الزّمان فيما أدبر ؟ ويلك ! متى عهدتني لا أتثبّت ؟ اذا لم تجئنا إلاّ بمثل هذا ، فمالك لا تسكت عنّا ؟ ، وأمر بالرّقعة التي كانت فيها القصيدة فمزّقت .)) (٢) .

وعندما وصل ابن رشيق إلى صقليّة ، وأقام بها ، حاول مَنْ كانوا في بلاط ابن منكود من الخلطاء والجلساء أنْ يدفعوا بشاعرنا وبابن رشيق إلى التناظر والتنافس فيما بينهما حتّى تقوم المناظرات والمساجلات بينهما ، مثلما كانت عليه بالقيروان ، ليحملوا على ترويج الأدب من ناحية ، ويستمتعوا بما يصدر عنهما من نظم ونثر من ناحية أخرى ، ومن أجل هذا فقد حاولوا أنْ يوقعوا بينهما لولا مَنْ تدخّل من أهل القيروان ، وعمل على تهدئة الأوضاع بينهما ، فحسم الخلاف الذي كاد أنْ يقع بينهما بفضل السّماحة

---

(١) أنظر : انباه الرّواة ، ١/٣٠١ .

(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م ٢/٥٩٨ ، وانظر : المسالك ، ج ١١/٢٣٩ ، وديوان ابن رشيق ، ص : ٢٤ .

والمخرضين ، قال ابن بسّام : ((. . . فلمّا اجتمعا يومئذ بصقليّة تنمّر بعضهما لبعض ، وتشوّق أعلام البلد لما كان بينهما من ابرام ونقض ، وقصد ابن رشيق بعض اخوانه ، وقال له : أنتما علما الاحسان ، وشيخا أهل القيروان ، وقد أصبحتما بحال جلاء ، وبين أعداء ، وا لأشبه بكما ألاّ تفريا أديمكما ، ولا تُطيعا الاعداء لحومكما ، فقد كان يحميكما السُّلطان ، ويحو كثيراً من مساويكما الاخوان .)) (١) .

ولقد رضي ابن شرف بهذه الوساطة ، فالتزم جانب الحياد ، ولم يتعرض لابن رشيق ، بل جنح إلى السلم ، وعاهد من توسط بينهما على ذلك ، قال ابن بسّام : ((. . . فقال له ابن رشيق : إئت ابن شرف فخذ عهده بذلك ، فلست أنا أراجعك فيما هنالك ، فأتاه وكان امرأ صدق ، فوجده أجنح إلى السلم ، وأدنى إلى الحِلْم ، برىء إليه من صبه وصعده ، وأعطاه على الوفاء بذلك صفقتي لسانه ويده . (٢))) . وأمّا ابن رشيق فكثيراً ما كان يتعرّض لشاعرنا صاولاً بذلك اثارته ، مستغِلاً منزلته من ابن منكود ، ولكنّ ابن شرف التزم بعهده الذي أخذه على نفسه ، قال ابن بسّام : ((. . . فكان ابن رشيق بعد ذلك ربّما أعرض وعرّض ، وتحلّب إلى شيء من تلك الهفّات أو تلمّظ ، وأمّا ابن شرف فلم يحلّ ما عقد ، ولا حال عمّا عهد .)) . (٣)

ومهما يكن من أمر فإنّ ابن رشيق في صقليّة قد نالَ حظوة كبيرة ، ومكانة مرموقة عند أميرها ابن منكود ، فكان أقرب إلى نفسه من ابن شرف ، حيث أصبح ابن رشيق من خاصّته المقرّبة ، وقرأ عليه كتبه ، قال القفطي : ((. . . ونزل مازر احدى مدنها على أميرها ابن منكود ، فأكرمه ، واختصّه ، وقرأ عليه كتبه ، ومن جُمْلة ما رأيته من قراءاته عليه كتاب العمدة في صنعة

---

(١) المصدر السابق ٥٩٩/ .
(٢) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .
(٣) إنباه الرّواة ، ١/٣٠٣ .

الشعر ،وهو أجلّ كتبه وأكبرها ، ورأيت خطّ ابن رشيق على نسخة منهـــا ، ولم يزل عنده إلى أنْ مات بمآزر.)) (١) ، وأما ابن شرف فقد قرّر أنْ يغـــادر صقليّة إلى الأندلس ،لاسيّما عندما أحسّ أنّه لم يلق من الاهتمام بمؤلفاتـــه وكتبه مالقيه ابن رشيق عند أمير صقليّة ، إلاّ أنّ وفاءه يأبى عليه أنْ يغـــادر صقليّة ، وفيها رفيقه ابن رشيق (٢) خاصّة بعد أنْ تسامحا ، وهدأت الأوضـــاع بينهما ، وتصافيا ،قال حسن حسني عبد الوهّاب : ((فلمّا اجتمعا بصقليّـــة تسامحا ،وأقاما بها زمناً ،ثمّ استنهض يوماً ابنُ شرف رفيقه ، على جواز الأندلس(٣)) .

وعلى أيّة حال ، فإنّ ابن رشيق قد طاب له المقام في صقليّة ، واعتـــذر لشاعرنا قائلا : مما يُبغِضُني في أرضِ أندلسٍ سماعُ مُقْتَدِرٍ فيها ومُعْتَضِدِ (٤) .

الأمر الذي دفع بابن شرف إلى الشخوص وحده إلى الأندلس ،قال ياقـــوت: ((... ثمّ شخص ابن شرف منفرداً إلى الأندلس ، وسكن المريّة .)) (٥) ، ويبدو لي أنّ ذلك كان في حدود سنة أربع وخمسين وأربعمائة للهجرة ، ذلك لأنّ ابـــن رشيق فيما نعلم قد لحق به إلى صقليّة في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة للهجـــرة (٦) وأقاما فيها معاً قبل أنْ يشخص ابنُ شرف إلى الأندلس .

---

(١) إنباه الرواة ، ١/٣٠٣ .
(٢) أنظر : الذخيرة ، ق ٤م١/ ١٧١ —١٧٢ .
(٣) رسائل البلغاء ، ص : ٢٣٥ ، المقتبس م٦ ، ص : ٣٥٤ .
(٤) الذخيرة ،ق ٤م١/ ١٧٢ .
(٥) معجم الأدباء ، ١٩/ ٣٨ ، أنظر : التكملة ، ٢/ ٦٠٤ ، المعالم ، ٣/ ١٩٣ .
(٦) أنظر : البساط ،ص : ٩١ .

ابن شرف في الأندلس :

لمّا وصل ابن شرف إلى الأندلس حيث ملوك الطّوائف فيها ، أخذ يتطلّع إلى بلاط يأوي إليه ، يستقرّ فيه بعد تلك الرّحلة الطويلة الّتي قام بها بعد خراب وطنه ، وخروجه من صقلية ، فأخذ يفكّر بادئ ذي بدء ببلاط المعتضد بالله ((عبّاد)) صاحب إشبيليّة في ذلك الوقت ، محاولاً أنْ يتصل به ، فيخصّه ببعض أشعاره ومدائحه ، ويبعث بها إليه مع الرّسل إلى اشبيليّة مع رقعة مِنْ نثره بعث بها إلى وزيره ابن زيدون ، قال ابن بسّام : ((... وكان أوّل ما بعث إلى المعتضد بإشبيليّة خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن زيدون .)) (١) .

وفي الرّقعة الّتي أرفقها مع القصائد يحاول ابن شرف أنْ يعلّل عدم قدومه إلى الحضرة بنفسه مع قصائده لسبب لا يكشف لنا عنه ، فيقول : ((... وقد كانت النيّة ، لو تمّت الأُمنية ، حضوري بذاتي ، لزفاف بنيّاتي ، فمنع من المراد مانع ، ودفع بيد الاقدار دافع(٢) .)) .

ويلوح لي أنّ شاعرنا عندما أرسل هذه القصائد ، وهذه الرّقعة لم يكن بإشبيليّة ، لذلك فقد أرسلها مع رسول وكّله عليها ، وهذا واضح من قوله : ((.... ولمّا صار الفعل الماضي مستقبلاً ، وبقيت للحاق مؤمّلاً ، وكّلت بهنّ ذا محرمهنّ ، وائتمنت عليهنّ الشيخ أبا فلان .)) (٣)

ولقد حاول المعتضد أنْ يستحثّ ابن شرف على القدوم إلى إشبيليّة ، فكلّف ابن عبد البرّ بذلك ، بعد أنْ أرسل إليه ما يستعين به على الوصول إليه ، وهذا واضح من قول ابن عبد البرّ الّذي خاطب به ابن شرف :

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٢ .
(٢) المصدر نفسه / ١٧٢ .
(٣) المصدر نفسه / ١٧٢ .

((. . . فاقصد قصده ، تحلّ بطائل الافادة ، وأمّه وحده ، تحظ بنائل الرفادة ، ولا تبع في سوق الكساد ، فالنّفاق أمامك ، ولا تسم ببضاعتك ، فالسّوق قدّامك . . . ، وقد خاطبك مستقدماً ، وجدّ معتزماً ، ووجّه نحوك شيئاً يكون من زادك إليه ، ويعين على مؤنة طريقك في قدومك عليه ، وذلك ثلاثون مثقالا من ضرب السكّة قبله ، ولم يرد بها غير ما أعلمك ، حتّى توافي — إن شاء الله — فتستوفي .)) (١) .

ولكنّ ابن شرف يمتنع عن الذّهاب إلى إشبيليّة ، ويرفض أن يلبّي هذه الدعوة ، ويكتفي باهداء كتابه المعروف بـ ((أبكار الافكار)) إلى المعتضد عبّاد ، لينال عطاءه الجزيل ، قال ابن بسّام : ((. . . فتوقّف ابن شرف عن القدوم بقدمه ، وكلّف ذلك سنّ قلمه ، وطرّز تأليفه ((أبكار الافكار)) باسم عبّاد وبعث به إليه على البعاد .)) (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فانّ المعتضد عبّاد لم يفقد الأمل من قدوم ابن شرف على حضرته ، لذلك فقد أرسل إليه صلة أخرى مع الرّسل عندما وصله كتابه ، وقال له : انّ الحسّاد والمغرضين هم الّذين أقنعوه بعدم الاتصال به ، وهذا واضح من قوله : ((. . . لولا من جلا لك الغشّ في بعض النّصيحة إذ حسد ، ولم يشك فيما ترد عليه من صلاح الحال ، فلم يأل أن افسد ، ولا بدّ لعقارب الحسدة من دبيب ، وما كلّ مؤت نصحه بلبيب ، ولك صبح توقفك لدّي المحلّ الكريم .)) (٣) .

ومع ذلك فإنّ شاعرنا لم يتصل به عن قرب ، ولم يجتمع معه في مكان واحد ، كما أنّه لم يزر إشبيليّة ، ولم ينزل فيها ، وهذا واضح من قوله :

---

(١) المصدر السابق ، ص : ١٧٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٨٠ .

لولا هُمُ لحَجَجْتُ أوّلَ حِجَّةٍ حَرَمَ الكِرامِ وطالَ فيه طَوافي
ولَزُرْتُ حِمْصَ(١) الغربِ أغربَ زائرٍ بغرائبٍ كالحُلّةِ الأفوافِ(٢)

وإلى مثل هذا ذهب ابن بسّام حيث يقول : ((. . . وكان ابن شرف هذا ممّن فهم منحاه ، وهمّ عن رثاه ، فلم يجتمع مع عبّاد في صعيد ولا أهدى له السّلام إلاّ من بعيد .)) (٣) .

ونحن نستطيع أنْ نردّ هذا التخوّف الّذي كان في نفس ابن شرف من عبّاد لمّا كان يسمعه عنه من غدر بمن يتصلون به من الخلطاء والندمان ، وتنكيل بهم ، فخشي ابن شرف على نفسه أنْ يتورّط في علاقة مع عبّاد ، فيطيح به ، وينكّل به ، قال ابن شاكر : ((. . . ولمّا وفد أبو عبد الله بن شرف القيروانيّ على الأندلس ، تطلّعت إليه همّ ملوكها ، لبعد صيته فكان ممن استدعاه المعتضد ، وكان ابن شرف قد امتلأت مسامعه من أخباره الشنيعة ، فجاوبه بقوله :

أأنْ تَصَيَّدْتَ غَرْبِيَّ صَيْدَ طائرةٍ أوْسَعْتَها الحَبَّ حتّى ضَمَّها القَفَصُ
حَسِبْتَني قُرْمَةً أخرى ظَفِرْتَ بِها هيهاتَ ما كُلُّ حينٍ تُمْكِنُ الفُرَصُ
وظاهِرٌ حَسَنٌ أيضاً لِقِصَّتِها لكنْ لَها باطِنٌ في طَيِّهِ قِصَصُ
لَكَ الموائدُ للقُصّادِ مُتْرَعَةٌ تُروي وتُشبِعُ لكنْ بَعْدَها غُصَصُ
ولَسْتُ أعجَبُ مِنْ قَوْمٍ بِها انْتَشَبُوا لكنّما عَجَبي مِنْ مَعْشَرٍ خَلَصُوا
ولَمْ يَطِبْ قَطُّ لي مَنٌّ يَلَذُّ ولا سَلْوى إذا كانَ في عُقْباهُما مَغَصُ(٤)

ولقد عقّب ابن بسّام على هذه الأبيات بقوله : ((قال هذا المتواتر الخبر عن المعتضد بازورار ركنه ، وخشونة حزبه ، فأضرب عن غربه ، ولم يتعرّض للنشبة في حبائل نشبه ، خوفاً أنْ يورّطه الهوى في هوان ، ويُسْقِطَ المشاء به على سرحان ، ويطيح في جملة من طاح على يديه من الخلطاء والندمان .)) (٥). ويقول

---

(١) حمص الغرب : إشبيليّة ، قال الحميريّ : ((. . . وإشبيليّة بالأندلس تسمّى حمص أيضا .)) الروض المعطار ، ص : ١٩٩ ، وأنظر البيان المغرب ، ٣ / ١٩٣ .
(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢١ . (٣) المصدر نفسه ، ص : ١٧١ .
(٤) فوات الوفيات ، ١ / ١٤٧ ، وأنظر : الأبيات في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٨٢ .
(٥) الذّخيرة ق ٤ م ١ / ١٨٢ .

ابن بسّام في عبّاد : ((وكانت لعبّاد همّة في اصطحاب الأحرار ، واستهلاب ذوي الأخطار ، ينصب لذلك الحبائل ، ويحمل فيه الحقّ والباطل ، حتّى إذا حشوا إلى سرجه ، واغترّوا بزبرجه ، سامهم ردّ قُبْض على أبيه ، وأخذهم بالسعاية بين الفرقد وأخيه ، فمن أعياه منهم ركوب الصّعاب ، وعمّه التقلّب بين المضايق والرّحاب ، عزّه في الخطاب ، وأطاع به سلطان الارتياب .)) (١) ، ومن أجل ذلك فقد تحاشاه ابن شرف ، وامتنع عن الاتصال به ، وعن الاجتماع به في مكان واحد .

ولمّا أيقن ابن شرف أنّ الذّهاب إلى بلاط المعتضد عبّاد بإشبيلية غير ممكن لما تقدّم ، اتجه إلى غرناطة حاضرة بني زيري في تلك الفترة ، وهذا واضح من قوله : ((. . . ثمّ سفر لي الدّهر عن سفر إلى مغرب الدّنيا ومشرق العليا ، والبقعة المباركة الباديسيّة ، والدّولة المظفريّة ، والمملكة الشّامخة الحميريّة ، والحضرة الشريفة المنيفة الغرناطيّة .)) (٢) .

وفي غرناطة يتصل بباديس بن حبّوس ، ويهدي إليه كتابه المعروف بـ ((أبكار الأفكار)) (٣) ، وعلى ما يبدو أنّ مقامه بغرناطة لم يطُلْ ، فغادرها متجهاً إلى قرطبة حاضرة بني جهور ، وهذا واضح من قوله :

وقرطبةٌ ضمّتْ إليها جوانحي كما ضمّ عِقْراءَ عروةُ تَمْنِيقُ
نزلْنا بها لا تثْتني السّوقَ عِنْدَها فما كانَ بُدٌّ أنْ أُقيمَتْ لنا سُوقُ (٤)

وبقرطبة يتصل ابن شرف بمدبّر الحكم الجهوريّ ابن السقّاء (٥) ، ويخصّه ببعض مدائحه وأشعاره ، ومن ذلك قوله :

---

(١) المصدر السابق ، ص : ١٧٠ — ١٧١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٧٧ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٣٣٦ .
(٥) وهو : أبو الحسن إبراهيم بن محمّد بن يحيى المعروف بابن السقّاء ، مدبّر الحكم الجهوريّ بقرطبة ، (. . . — ٤٥٥ هـ) . أنظر : الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٨ ، البيان المغرب ، ٣ / ٢٣٢ .

وقُرْطُبَةٌ أُعيدَتْ قَيْرَوانـــاً لَنَا لمّا دَعَتْ تِلْكَ الفُتُـــونُ
وكَيْفَ يَضيعُ مِثْلي في مَكَـــانٍ يَكُونُ بِهِ أبو الحسنِ الأَمِيـــنُ (١)

وإذا كنّا قد علمنا أنّ ابن السقّاء هذا قد قُتِلَ في سنة خمسٍ وخمسين وأربعمائة للهجرة (٢)، فهذا يعني أنّ ابن شرف كان موجوداً في قرطبة في هذه الفترة أو فيما قبلها بقليل ، وأنّه قد انطلق إلى طليطلة حاضره ابن ذي النّون (٣) ، وذلك في سنة خمس وخمسين وأربعمائة للهجرة يوم أنْ أقام المأمون حفل ختان حفيده يحيى على ما ذكره ابن بسّام (٤) ، وهناك بطليطلة يتصل شاعرنا بالمأمون بن ذي النّون فيقرّبه منه ، ويضمّه إلى حاشية قصره ، فكان من جلسائه وندمائه ، فتهيّأ له بذلك أنْ يأوي إلى كنف ابن ذي النّون ، وأنْ يستقرّ في طليطلة بعد طول تنقّل وتجوال ، قال ابن سعيد : ((. . . وتغيّرت الحال في عهد ابنه المأمون إذ تمّ بلاطه جماعة من الغرباء منهم : أبو عبد الله بن شرف القيروانيّ ، وابن خليفة المصريّ ، وأبو الفضل البغداديّ ، وكان لديه عدد من مشاهير الكتّاب)) (٥).

على أنّنا نستطيع أنْ نقول : إنّ حياة ابن شرف في بلاد الأندلس قد اتسمت بعدم الاستقرار وبالتنقّل ما بين دول الطّوائف إلى أنْ استقرّ في طليطلة وبقي فيها إلى أنْ لفظ أنفاسه الأخيرة .

شخصيّته وأخلاقه :

أشار الّذين ترجموا لابن شرف من القدماء إلى أنّه كان أعور فابن شاكر يقول في ترجمته له : ((. . . محمّد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيروانيّ الجُذاميّ

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ٢٣٨ .
(٢) انظر : البيان المغرب ، ٣ / ٢٣٢ .
(٣) وهو : المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النّون ، صاحب طليطلة . انظر : البيان المغرب ، ٣ / ٢٢٧ ، المغرب ، ٢ / ١٢ ، تاريخ ابن خلدون ، ٤ / ١٦١ ، تاريخ ابن الأثير ، ٩ / ٢٨٨ .
(٤) انظر : الذّخيرة ، ق ٢ م١ / ١٣٩ .
(٥) المغرب ، ٢ / ١٢ .

أحد فحول شعراء الأندلس والمغرب ، كان أعور .)) (١) ، وهذا ما يؤكّده لنا الصفدي حين يقول : ((. . . أحد فحول شعراء المغرب ، كان أعور .)) (٢) .

هذا ويضيف معاصره وقرينه ابن رشيق إلى هذه الصفة صفة أخرى ألا وهي صفة الصلع ، وهذا واضح في قوله لابن شرف :

وأنتَ أيضاً أعورٌ أصلعُ فوافقَ التشبيهُ تحقيقُ (٣)

ويشير ابن شرف نفسه إلى أنّه كان أشيب وهو في ريعان الشباب ، فيقول :

كُسيتُ قناعَ الشيبِ قبلَ أوانِهِ وجسمي عليه للشبابِ وِشاحُ (٤)

ويقول :

قالتْ : أذو شيبٍ فقلتُ مخادعاً لو جازَ عندَ الغانياتِ خِداعي (٥)

ومما تقدّم فإنّنا نستطيع أن نلاحظ أنّ ابن شرف من الناحية الجسميّة كان أعور ، أصلع ، أشيب ، وأمّا من الناحية النفسية فقد أشارت المصادر التي تعرّضت لترجمته وأخباره إلى أنّه كان ذكياً ، سريع البديهة ، واسع الحفظ ، وفي هذا يقول ابن بسّام : ((. . . وقد أثبت في هذا الفصل من كلام ابن شرف ما يشهد بذكائه ، ويغني عن اطرائه .)) (٦) ويقول ابن بشكوال : ((. . . وقد أثنى عليه أبو الوليد الباجيّ ، ووصفه بالعلم والذّكاء .)) (٧) ، ويقول ابن رشيق في حقّه : ((. . . شاعر حاذق ، متصرّف ، كثير التوليد ، جيّد المقطعات والتقصيد ، لا ينكر حذقه ، ولا يدفع سبقه ، أشعر أهل زمانه ، ولقد شهدته مرّات يكتب

---

(١) فوات الوفيات ، ٢ / ٤١٠ .
(٢) الوافي بالوفيات ، ٣ / ١٩٧ ، الشعور بالعور ، ص : ٦٠ ، والغيث ، ٢ / ٣٨٨ .
(٣) أنظر : البدائع ، ص : ١٢١ ، فوات الوفيات ، ٢ / ٤١٠ ، الوافي بالوفيات ، ٣ / ١٩٧ ، الغيث ، ٢ / ٣٨٨ .
(٤) المسالك ، ق ١ ج ١١ / ٢٤٢ .
(٥) المصدر نفسه ، ٢٤٢ .
(٦) الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧١ .
(٧) التكملة ، ٢ / ٦٠٤ ، والمعالم ، ٣ / ١٩٤ .

القصيدة في غير مسوّدة كأنّه يحفظها ، ثمّ يقوم فينشدها . . .)) (١) .

وهكذا فالمصادر الّتي تصدّت لترجمته وأخباره لم تزد على كونه : أعور أصلع ، ذكيّاً ، سريع البداهة والحفظ ، الأمر الذي دفع بنا إلى استنطاق ما وصلنا من شعره علّنا نستطيع أنْ نرسم معالم شخصيّته في جوانبها المختلفة ، فوجدنا أنّ شعره لم يسعفنا إلاّ بالقليل القليل من خصائص تلك الشخصيّة الفذّة .

ومهما يكن من أمر ، فإنّنا استطعنا أنْ نلمح بعض معالم شخصيّة ابن شرف من خلال ما وصلنا من شعره ، ففيه الكثير من الدّلائل الّتي تشير الى أنّه كان حذراً ، حريصاً ، بل إنّ الحذر والحرص صفتان واضحتان في شخصيّة ابن شرف الّذي لم يكن لينخدع بالكلام الناعم المعسول الّذي يتبعه ألم وندم فيما بعد ، وهذا واضح من قوله :

ولم يَطِبْ قَطُّ لي مَنْ يلّذ ولا سلوى إذا كان في عُقْباه ما مَقَصُ (٢)

وهاتان صفتان يستطيع أنْ يلاحظهما من يتصدّى لدراسة ابن شرف ، ويتتبّع أخباره ، لاسيّما عندما يتعرّض لدراسة موقفه من المعتضد عبّاد صاحب إشبيليّة الّذي تعامل معه ابن شرف بحرص وحذر شديدين (٣) .

ولقد كشف لنا شعره أيضاً عن روح قلقة مضطربة لا تعرف الاستقرار والهدوء ، لاسيّما بعد أنْ فارق وطنه ومسقط رأسه اثر مداهمة الأعراب له ، وهذا واضح من قوله :

فَقَد دَارَتْ عَلَيْنا مِنْ رَحاهَا طَحُونٌ كُلّما لاقَتْ زَبُونُ
فَلا وَطَنٌ لنا إلاّ المطايا وإلاّ الماءُ طَوْراً والسَّفِينُ (٤)

---

(١) المسالك ، ق١ جـ ١١ / ٢٤٠ .
(٢) الذّخيرة ، ق٤ م١ / ١٨٢ .
(٣) انظر : المصدر نفسه ، ص : ١٧٢ — ١٨٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٨ .

وهذه صفة أحسّ بها ابن بسّام في شخصيّة ابن شرف ، فعبّر عنها بقوله : ((. . . ولم يزل على طواف الطّوائف يومئذ يتطوّف ، ويتنقّل في الدّول من منزل إلى منزل ، ومن بلد إلى بلد .)) (١) ، مثلما أحسّ بها الأستاذ إحسان عبّاس، حيث عدّه من الشعراء الجوّالين في هذه الفترة (٢) .

كما كشف لنا عن شخصيّة واعية مجرّبة ، عاركت الأيّام ، وعاركتها ، فأذاقتها من حلوها ، ومرّها ، وأكسبتها خبرة ودراية بطبائع النّاس ، وبعاداتهم وتقاليدهم ، ونفسيّاتهم ، فكان على علم بسلوكهم ؛ لذلك فقد عرف كيف يعاملهم ، ويتعامل معهم بحسن سياسته ، وادارته ، لاسيّما عندما يكون غريباً عنهم وفي وطنهم (٣) .

هذا وفي شعره ما يدلّ على أنّه لم يكن محظوظاً في علاقاته الّتي يقيمها مع النّاس الّذين كانوا يتنكّرون له ، ويغدرون به ، على الرّغم من اخلاصه لهم ، ووفائه لهم ، وهذا واضح من قوله :

وأفقدُ ما طلبتُ فلم أجدْهُ ... رفيقٌ في صحابتهِ رفيقُ
فأصبحَ وهوَ للخلّانِ شانٍ ... وثاوٍ حيثُ فرّختِ الأنوقُ
صحبتُ بهذهِ الدّنيا أناساً ... إذا غدروا فغدرهمُ وثيقُ (٤)

ومن الّذين شهدوا لابن شرف بالوفاء ، وبالتزام العهد ابن بسّام ، حيث يقول : ((. . . فكان ابن رشيق بعد ذلك ربّما أعرض وعرّض . . . ، وأمّا ابن شرف فلم يحلّ ما عقد ، ولا حال مما عهد .)) (٥)

ولقد أكثر ابن شرف من شكوى الزّمان وذمّه في شعره ، فرأيناه ذامّاً له متبرماً منه ، وذلك كما في قوله :

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٨١ .
(٢) أنظر : تاريخ الأدب الأندلسيّ ، ص : ٨٤ .
(٣) أنظر : ص : ٦٤ من هذه الدّراسة .
(٤) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٤ .
(٥) المصدر نفسه ، ق ٤ م ٢ / ٥٩٩ .

سَلْ عن رِضايَ عَنِ الزّمانِ فإنّهُ كَرِهَ الفَرَزْدَقُ عَنْ بَني يَرْبُوعِ
للّهِ حالٌ قد تَنَقّلَ عَهْدُها بِخِلافِ نَقْلِ الدَّهْرِ حالَ صَريعِ
دارَتْ دَارِيَّ الخُطُوبِ قَواصِداً حَتّى نَظَرْتَ إليّ مِنْ تَرْبيعِ (١)

كما أكثر من عبارات الحزن والتوجّع والتلهف والرهبة ، والخوف في شعره (٢) .

وثمة صفة أخرى نستطيع أنْ نثبتها لابن شرف ألا وهي الرّزانة ، فعلى الرّغم من أنّه قد عاش في عهد ملوك الطّوائف بالأندلس ، واتصل بمعظم حكّامها وملوكها الّذين كانوا على خلاف فيما بينهم إلاّ أنّه لم يقف إلى جانب أحدهم ضدّ آخر ، لينال أعطياته الجزيلة ، إنّما كان على علاقة طيّبة مع الجميع ، ونحن نعلم أنّ الفترة الّتي عاشها بالأندلس ، كانت فترة صراع وتناحر بين دول الطّوائف وملوكها .

يضاف إلى هذا أنّ ابن شرف كان يثق بنفسه وبشاعريته ، ويعتدّ بهما اعتداداً كبيراً ، حتّى إنّ هذه الثّقة ، قد سوّلت له ، وهو في بلاط ابن ذي النّون أنْ يرى نفسه أنّه أشعر من المتنبّي نفسه ، قال ابن بسّام : ((. . . وذكرت بهذا ما وصف عن أبي عبد اللّه بن شرف ، وذلك أنّه قال للمأمون بن ذي النّون أيّام خدمته ، واستشفافه صبابة عمره في ذراه ، وقد أجروا ذكر أبي الطّيّب فذهبوا في تأنيبه كلّ مذهب : ((إنْ رأى المأمون — لا فارق العزّة والعلاء — أنْ يشير إلى أيّ قصيدة شاء من شعر أبي الطّيب حتّى أعارضه بقصيدة تنسي اسمه ، وتعفي رسمه .)) (٣) .

وفاته :

اتفق معظم الّذين تحدّثوا عن زمن وفاة ابن شرف من القدماء والمحدثين

---

(١) المصدر السابق ق٤م١/٢٢٦ ، شرح المقامات ، ٤/٨٨ .

(٢) أنظر : الذّخيرة ، ق٤م١/٢١٥ ، ٢١٦ ، ١٢٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، وغيرها .

(٣) المصدر نفسه ، ق٤م١/٢٣ — ٢٤ .

على أنّها كانت في سنة ستين وأربعمائة للهجرة (١) ، ولم يشذّ عن اتفاقهم هذا غير الصّفديّ والسّيوطيّ ، أمّا الصّفديّ فقد بدا لنا شاكّاً في أنّ وفاة ابن شرف قد كانت في هذه السّنة ، فأورد لنا هذا الزّمن بأسلوب الاحتمال ، ولم يقطع القول في ذلك ، وهذا واضح من قوله : ((... توفّي سنة ستين وأربعمائة للهجرة أو فيما قبلها .)) (٢) والّذي يضعّف هذه الرّواية لدينا هو أنّها لم تحدد تحديداً دقيقاً ، وأنّها رواية منفردة تحتاج لدليل آخر ، وأما السّيوطيّ فقد ذهب إلى القول : إنّ وفاة ابن شرف كانت في سنة ثماني عشرة وخمسمائة للهجرة وزعم أنّ ابن بشكوال قد أورد ذلك في زوائده على الصّلة ، فيقول : ((... محمّد بن أبي سعيد بن شرف الجذاميّ القيروانيّ ، كان من جلّة الأدباء وفحول الشّعراء ، وله كتب مؤلّفة ، مات سنة ثمان عشرة وخمسمائة للهجرة ، ذكره ابن بشكوال في زوائده على الصّلة .)) (٣) ، وهذه الرّواية أيضا لا تحظى بالقبول لدينا لعدّة أمور منها : أنّنا عندما نعود إلى زوائد الصّلة لابن بشكوال الّذي ينقل عنه السّيوطيّ ، فإنّنا لن نجد ما أورده بخصوص زمن وفاة ابن شرف ، إنّما نجد أنّ ابن بشكوال قد أغفل الحديث عن هذا الأمر اغفالاً تامّاً ، ولم يشر إليه من قريب أو بعيد ، الأمر الّذي يحملنا إلى الاعتقاد أنّ السّيوطيّ قد وهم في تحديد زمن وفاة شاعرنا .

ومنها أنّ ابن شرف لم يعمّر ، ولم يتجاوز الثمانين من عمره ، لاسيّما إذا كنّا قد علمنا أنّه وُلِدَ في أواخر القرن الرّابع الهجريّ ، ورواية السّيوطيّ هذه تفيد أنّه تجاوز المائة عام ، فهي رواية تخالف الواقع ، ذلك لأنّ شاعرنا

---

(١) أنظر : معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٨ ، فوات الوفيات ، ٢ / ٤١٠ ، كشف الظنون ، ٢ / ٩٨٦ ، هديّة العارفين ، ٢ / ٧٢ ، شجرة النّور ، ص : ١١٠ ، الأعلام ، ٧ / ١٠ ، رسائل البلغاء ، ص : ٢٣٦ ، أعلام الكلام ، ص : ١٢ ، البساط ، ص : ٧٩ ، ابن رشيق القيرواني ، ص : ٩١ ، المقتبس م٦ / ص : ٣٥٤ ، أدب المغاربة ، ص : ٨٦ ، الجمل ص : ١٥٠ ، المنتخب ، ٧٨ .

(٢) الوافي بالوفيات ، ٣ / ١٩٧ ، الشعور بالصور ، ص : ٦٠ .

(٣) بغية الوعاة ، ١ / ١١٤ .

لم يعش مائة وعشرين سنة ، هذا بالاضافة إلى أنّ السّيوطيّ ينفرد بهذه الرّواية من بين المصادر الّتي ترجمت لابن شرف بمن فيهم ابن بشكوال الّذي أخذ عنه ، الأمر الّذي يجعلنا نتحرّج من قبول هذه الرّواية ، رواية السّيوطيّ ، ونطمئن إلى أنّ وفاة ابن شرف قد كانت في سنة ستين وأربعمائة للهجرة ، لاجماع المصادر على هذه السّنة .

وأمّا الّذين تحدّثوا عن مكان وفاته ، فقد اختلفوا فيما بينهم ، فمنهم من يرى أنّها كانت بطليطلة حاضرة ابن ذي النّون ، غير أنّهم لم يشيروا إلى ذلك إشارة صريحة ، ومن هؤلاء ابن بسّام الّذي يقول : ((... واستقرّ أخيراً عند المأمون بن ذي النّون ، فعليه خلع آخر لبوسه ، ونثر بقية كيسه .)) (١) ، ومنهم من يرى أنّ وفاته كانت بإشبيليّة وعلى رأس هؤلاء ياقوت الّذي ذهب إلى القول : ((... سكن المريّة بعد مقارعة أهوال ، ومقاومة خطوب ، وتردد على ملوك الطّوائف كآل عبّاد ، وغيرهم ، وتوفّي بإشبيليّة . (٢) ، وقد تبعه في ذلك عدد من الدّارسين (٣) ، ونحن لا نطمئن إلى هذه الرّواية ، رواية ياقوت لعدّة أمور منها : أنّ ابن شرف في أخريات حياته كان موجوداً بطليطلة ، بعد أن طوّف على ملوك الطّوائف ، وقد استقرّ فيها ، وكان من حاشية ابن ذي النّون مثلما تقدّم ، وهذا ما يؤكّده لنا ابن بسّام حين يقول : ((... وأذن لتلك الحلبة من شعراء الحضرة من طارىء ، وقاطن ، ... فدخلوا إليه على هيئتهم يقدمهم شيخهم المقدّم من جماعتهم ذلك اليوم ، محمّد بن شرف القيروانيّ ، القريب عهده بالهجرة ، بعد خبطه سمرات ملوك الأندلس بمحجنيه ، واعتصارهم بقصعته .)) (٤) ، وذلك في سنة خمس وخمسين وأربعمائة للهجرة ، (٥) أي قبل وفاته بخمس سنين ، يضاف إلى ما تقدّم أنّ ابن شرف

---

(١) الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٠ ، وانظر : المسالك ، ج ١١ / ٢٣٨ .
(٢) معجم الأدباء ، ١٦ / ٣٨ .
(٣) أنظر : رسائل البلغاء ، ص : ٢٣٦ ، المقتبس م ٦ / ٣٥٤ ، أعلام الكلام ، ٧ / ١٠ ، أدب المغاربة ، ص : ٨٦ .
(٤) الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٣٩ .
(٥) أنظر : المصدر نفسه ، ص : ١٢٦ .

كان في طليطلة في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة على ما ذكره الضبي في ترجمته لتلميذه راشد بن عويف ، حيث يقول : ((... وأخذ عنه كتابه ((أعلام الكلام)) ، سنة ثمان وخمسين وأربعمائة .)) (١) ، أي قبل وفاته بسنتين ، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ ابن شرف كان يقيم في طليطلة لا في إشبيلية ، في آواخر حياته .

ومنها أنّ ابن شرف لم يزر إشبيليّة كما تقدّم ، ولم تتصل أسبابه بالمعتضد عبّاد ، صاحب إشبيليّة الّذي ظلّ شاعرنا يخشاه ، ويتحاشى القدوم إليه ، قال ابن بسّام : ((... وكان ابن شرف هذا ممّن فهم منحاه ، وصمّ عن رقاه ، فلم يجتمع مع عبّاد في صعيد ، ولا أهدى له السّلام إلاّ من بعيد .)) (٢) ، وكثيراً ما كان ابن شرف يخاطبه ، وينشده :

أُحِبُّكَ في البَتُولِ وفي أَبِيهَا ولكنّي أُحِبُّكَ مِنْ بَعِيدِ (٣)

ومنها أيضاً أنّ ياقوت ينفرد بهذه الرّواية من بين القدماء الّذين ترجموا لابن شرف إذ لم يشر غيره إلى أنّ وفاة ابن شرف كانت بإشبيليّة حاضرة بني عبّاد ، الأمر الّذي يجعلنا نطمئن إلى رواية ابن بسّام الّتي أشارت إلى أنّ وفاة ابن شرف كانت بطليطلة لا بإشبيلية .

---

(١) الخريدة ، ق٤ ج ٢/٧ ، وأنظر : التّكملة ، ١/٣٢٤ .
(٢) الذّخيرة ، ق٤ م١/١٧١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٨١ .

الفصـــــــل الثانـــــي :

شعـــــــره :

أولا : جمعه وتدوينـــــــــــه .

ثانيا : أغراضه وموضوعاتـــــــــه .

ثالثا : خصائصه الفنيّـــــــــة .

شعره جمعه وتدوينه :

لم يصلنا شعر ابن شرف في ديوان مجموع ، مع أنّ بعض الذين ترجموا له من القدماء أشاروا إلى أنّه قد خلّف ديواناً شعرياً ، فابن بشكوال يقول في أثناء ترجمته لولده جعفر : ((... وله رواية عن أبيه ، وأخذ عنه ديوان شعره .)) (١) ، ويقول ياقوت : ((... وديوان شعر ، وغير ذلك .)) (٢) ، وأمّا بقيّة المصادر الّتي تعرّضت لترجمته وأخباره فلم تشر إلى أنّه قد خلّف ديواناً شعرياً غير كتابه المعروف بـ ((أبكار الأفكار)) الّذي جمع فيه شعره ونثره (٣) . ومن هذه الرّوايات يتضح لنا أنّ لابن شرف ديوان شعر غير ذلك الكتاب المعروف بأبكار الأفكار ، إلاّ أنّ واحداً من هذين الكتابين لم يصل إلينا ، ومعظم ما وصلنا من شعر ابن شرف قد جاء على شكل مقطّعات قصيرة ، وجدناها مبثوثة في كتب الأدب من مثل : الذّخيرة ، والخريدة ، ومسالك الأبصار ، والمطرب ، ومعجم الأدباء ، ونهاية الأرب ، وفوات الوفيّات ، والوافي بالوفيّات ... ، ولعل أفضل مصدر تصدّى لترجمة ابن شرف ، وعني بجمع أشعاره وأخباره هو كتاب الذّخيرة لابن بسّام ، فقد حفظ لنا نخبةً كبيرةً من شعره تنوف على الثلاثمائة بيت من الشعر ، وهذه أكبر مجموعة استطعنا أنْ نعثر عليها في مصدر من المصادر القديمة الّتي عنيت بجمع شعره ، غير أنّه لم يحفظ لنا قصيدة كاملة من قصائد شاعرنا المطوّلة الّتي أشار إليها في المديح ، والنّسيب ، والرّثاء ، وما إلى ذلك ، وتكاد قصيدته اللاميّة الّتي رثا بها وطنه القيروان (٤)

---

(١) الصّلة ، ١ / ١٣٠ .

(٢) معجم الأدباء ، ١٦ / ٤٣ .

(٣) أنظر : الذّخيرة ق ٤ م ١ / ١٧١ ، فوات الوفيات ، ٢ / ٤١٠ ، الوافي بالوفيات ، ٣ / ٩٧ ، الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٠ ، المطرب ، ص : ٧٢ ، هديّة العارفين ، ٢ / ٧٢ ، كشف الظنون ، ٢ / ٩٨٦ ، الأعلام ، ٧ / ١٠ .

(٤) أنظر : هذه القصيدة في الذّخيرة ق ٤ م ١ / ٢٢٧ ، ومطلعها :
آه للقيروان أنّه شجو .....

تكون أطول قصيدة استطعنا أنْ نظفر بها فيما وصلنا من شعره في هذا المصدر، وفي غيره من المصادر الأخرى الّتي ترجمت لهُ ، وهي قصيدة طويلة على ما ذكره ابن بسّام ، حيث يقول في أثناء تقديمه لها : ((قال من قصيدة وصف بها اذلال أهل سوسة جالية القيروان ، وهي طويلة ، قطفت عيونها .)) (١) .

ومهما يكن من أمر فإنّ ما وصلنا من شعر ابن شرف ما هو إلاّ جزءٌ يسيرٌ ممّا جادت به شاعريته الفذّة ، ولدينا ما يدلُّ على ذلك : فالّذين ترجموا له من القدماء أجمعوا على أنّه كان أديباً شاعراً بل من فحول الشّعراء بالمغرب والأندلس ، فهذا ابن بسّام يبدأ ترجمته لابن شرف بقوله : ((الأديب الكامل أبو عبد اللّه محمّد بن شرف ، أحد من نظم قلائد الآداب ، وجمع أشتات الصّواب ، وتلاعب بالمنظوم ، والموزون ، تلاعب الرّياح بأعطاف الغصون .)) (٢) ، ويقول ياقوت : ((الأديب ، الكاتب ، الشاعر .)) (٣) ، ويقول ابن بشكوال في حقّه إنه : ((كان من جلّة الأدباء ، وفحول الشّعراء .)) (٤) ، ويقول ابن بشكوال : ((أحد فحول شعراء الأندلس والمغرب .)) (٥) ، ويقول ابن خلدون : ((لم يكن بأفريقية من مشاهير الشّعراء إلاّ ابن رشيق وابن شرف .)) (٦) .

وممّا تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ سمعة ابن شرف الشّعريّة قد طبّقت الآفاق ، وأنّهُ كان من الشّعراء الأفذاذ المعروفين بفحولة شعرهم ، هذا من جانب ، وبكثرة أشعارهم ومقطّعاتهم من جانب آخر ، وهذا ما شهد له

---

(١) أنظر : الذّخيرة ق٤ م١/٢٢٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٦٩ — ١٧٠ ، وأنظر : المعالم ، ٣/١٩٣ .
(٣) معجم الأدباء ، ١٩/٣٧ .
(٤) الصّلة ، ٢/٦٠٤ ، وأنظر : بغية الوعاة ، ١/١١٤ .
(٥) فوات الوفيات ، ٢/٤١٠ ، وأنظر : الوافي بالوفيات ، ٣/١٩٧ ، الشعور بالصور ، ص : ٦٠ .
(٦) التاريخ ، ١/١٠٩٠ .

به معاصره وقرينه ابن رشيق حيث يقول : ((شاعر حاذق متصرّف ، كثير التوليد جيّد المقطّعات والتقصيد ، لا ينكر حذقه ، ولا يدفع سبقه ، أشعر أهل زمانه ، وأحذقهم ، ولقد شهدته مرّات يكتب القصيدة في غير مسوّدة كأنّه يحفظها ، ثم يقوم فينشدها ، وأمّا المقطّعات فما أحصي ما يصنع منها كلّ يوم بحضرتي صاحياً كان أم سكراناً ، ويأتي بها بديهاً مخترعاً . . .)) (١) ، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ ابن شرف قد كان من الشّعراء المعدودين المكثرين ، وذلك ما يكشف لنا عنه أسلوبه وأشعاره الّتي لا يمكن أن تكون لشاعر مبتدئ ليس له إلاّ مجموعة قليلة من القصائد والمقطّعات ، القصيرة الّتي نراها في كتب الأدب .

ثمّ إنّ ما وصلنا من شعر ابن شرف ما هو إلاّ مقطّعات قصيرة اقتطفت من قصائد كاملة مطوّلة ، وهذا واضح من تقديم ابن بسّام لمقطّعاته ، فكثيراً ما كان يردد عبارة ، قال من قصيدة ، وله من أخرى ، ومنها (٢) . . . ، وهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّ هذه المقطّعات مأخوذة من قصائد كاملة مطوّلة لم تصل إلينا فيما وصلنا من شعر ابن شرف .

يضاف إلى ما تقدم أنّ ما وصلنا من شعر ابن شرف يتسم بنفس شعري طويل ، وهذا أمر لا يتوافر إلاّ لشاعر له تجارب طويلة في فرض الشّعر ونظمه ، شاعر كان قد عانى وكابد في ميدان الشّعر حتّى وصل إلى ما وصل إليه من مكانة ، وشهرة .

ولكنّ هذا لا يعني في حال من الأحوال أنّ شعر ابن شرف يخلو من المقطّعات الشعريّة القصيرة ، فشعره حافل بالمقطّعات المتنوّعة الّتي كانت

---

(١) المسالك ، ج ١١ / ٢٤٠ ، وانظر : الوافي بالوفيات ، ٣ / ٩٨ .
(٢) انظر : الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، وغيرها .

تُنظم في مناسبات متعدّدة تبعاً لطبيعة الموضوعات الّتي كانت تقال فيها ، ويمكننا أنْ نردّ هذه الظاهرة إلى كثرة المجالس الّتي كان ابن شرف يشهدها في مجلس المعزّ بن باديس ، مثلما رأينا في وصف الشعر ، والموز[1] وغيرهما ، وإلى كثرة المجالس ، مجالس اللّهو والطّرب الّتي كانت تُعقد في ذلك العصر ، وكان الشّعراء يتبارون في وصفها ، وفي وصف ما يدور بها وما تتضمّنه من آلات اللّهو والطّرب ، والمنازل الّتي كانت تُقام فيها [2] .

موضوعاته وأغراضه :

يمكننا القول : إنّ ابن شرف قد طرق معظم الأغراض الشّعريّة المعروفة في عهده من مدحٍ، وهجاءٍ، وحِكْمَةٍ ، ووصفٍ ، وغزلٍ ، وخمرٍ ، ولكنّه أجاد أكثر ما أجاد في الرّثاء وفي تصوير تلك النكبة الّتي أُصيبت بها مدينته ، وسقط رأسه القيروان ، مثلما أجاد في بقيّة الأغراض الأُخرى الّتي طرقها ، غير أنّه لم يتخصّص في موضوع واحد منها عُرِفَ به دون غيره من الموضوعات ، فينقطع له ، إنّما قال في أكثر الأغراض الشائعة في عصره .

ولقد تخلّلت شِعْره ظاهرة الحديث عن ذاته ، وعن وطنه المنكوب ، فأكثر من شكوى الزّمان وذمّه ، مثلما أكثر من الحديث عن أولئك الّذين عملوا على تخريب وطنه ، وتشريد أهله ، قال ابن بسّام : ((. . . وقد انتحى منحى القسطليّ في شكوى الزّمن ، والحديث عن الفتن .)) [3] ، ولقد جاء شعره صدىً لحياته ، فجاء رثاؤه مُعَبّراً عن تلك الفتنة الّتي حلّت بوطنه وبأهله

---

(١) أُنظر : البدائع ، ص : ٢٤٠ — ٢٤١ ، والمطرب ، ص : ٧٤ — ٧٥ ، والبساط ، ص : ٧٦ ، ٨٣ .

(٢) أُنظر : المعاهد ، ٢/٥٥ ، المطرب ، ص : ٧٦ ، الوافي بالوفيات ، ٣/١٠٠ ، فوات الوفيات ، ٢/٤١٢ .

(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م١/١٧٠ .

كما جاءت حِكَمُهُ معبِّرة عن تجاربه مع الحياة والنّاس والمجتمع وعلاقته بهم جميعاً ، فعبّر عمّا نظم فيه تعبيراً صادقاً ، ومن أهمّ الأغراض الّتي عالجها ابن شرف في شِعْره ، المديح : فقد كان فنّ المديح من الفنون الهامّة الّتي عالجها ابن شرف في شعره الّذي وصلنا ، ونستطيع أن نقول : إنّ هذا الفن قد مرّ في طورين رئيسيين : الأوّل منهما بالقيروان والمهديّة ، والثّاني منها بالأندلس حيث ملوك الطّوائف ، ففي الطّور الأوّل الّذي عاش فيه تحت كنف المعزّ بن باديس بالقيروان ، فقد رفع فيه معظم مدائحه إلى المعزّ بن باديس ، ولم تُشر المصادر الّتي بين أيدينا إلى أنّ ابن شرف كان قد مدح غيره في هذه الفترة من حياته ، فعلى ما يبدو أنّ المعزّ بن باديس قد خصّص له من المال ما يكفيه التّطلّع إلى غيره من الحكّام والأمراء ، وهذا واضح من قول ابن شرف مخاطباً ابن باديس :

أَصْلَحْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ الدَّهْرِ بَعْدَ وَغَى ... شَطَاءَ فاصْطَلَحَتْ عِبْسٌ وَذُبْيَانُ
وَصِرْتُ فِي عُدَّةٍ تُزْرِي بِعُدَّتِهِ ... وَصَارَ حَوْلِي لِلأَقْرَانِ أَقْرَانُ
حَتَّى اسْتَطَلْتُ عَلَيْهِ فِي مَهَابَتِهِ ... كَمَا اسْتَطَالَ عَلَى النُّعْمَانِ غَسَّانُ (١)

ومن أجل هذا فقد وجّه شاعرنا معظم أشعاره إلى هذا الأمير دون غيره ، إلّا أنّ معظم هذه الأشعار ، وهذه القصائد لم تصل إلينا ، الأمر الّذي يجعلنا نعتقد أنّ الأشعار الّتي قالها ابن شرف في مدح المعزّ بن باديس قد فُقِدَتْ فيما فُقِدَ مِنْ شِعْره ، وأنّ معظم ما وصلنا من شِعْره ، هو ما نظمه بالأندلس ، وذلك بسبب الفتنة الّتي منيت بها القيروان .

وأمّا في الطّور الثّاني من حياته الّذي عاشه في بلاد الأندلس ، فقد اتخذ من شعره وأدبه وسيلة للتكسّب والتعيّش ، فجال على ملوك الطّوائف بالأندلس ، وانتجع كثيراً من الأمراء والحكّام فيها ، طمعاً في نيل أعطياتهم ، وصلاتهم

---

(١) المسالك ، ج ١١ / ٢٤١ .

الطائلة ، قال ابن بسّام : ((. . . لم يزل على ملوك الطّوائف يومئذ يتطوّف ويتنقّل في الدّول من منزل إلى منزل ، ومن بلد إلى بلد .)) (١) ، وهذا مايعبّر عنه ابنُ شرف نفسُهُ حِينَ يقول :

فلاَ وَطَنٌ لَنا إلاّ المطايا . . . . . (٢)

ومن أجل هذا فقد تنوّع مدح ابن شرف ما بين مدح الأمراء ، ومدح الوزراء إلاّ أنّ الغالب على مدائحه أنّها كانت موجّهة إلى الأمراء والحكّام الّذين عاشوا في هذه الفترة من حياته ، وعاصروه ، ومن أشهر الحكّام الّذين مدحهم شاعرنا في الأندلس : المعتضد عبّاد صاحب إشبيليّة ، والمأمون بن ذي النّون صاحب طليطلة ، والمنصور حفيد ابن أبي عامر (٣) صاحب قرطبة ، وابن طاهر (٤) صاحب مرسيّة ، والمظفّر بن الأفطس (٥) صاحب بطليوس ، ومن الوزراء الّذين مدحهم ابن شرف : ابن أبي الرّجّال الشّبيانيّ ، وابن السّقاء ، فقد اتصل ابن شرف بهؤلاء الحكّام ووجّه إليهم بعض قصائده فأجزلوا له العطاء ، وقد يعجبه المقام في بلاط بعضهم ، فيستقرّ فيه ويلازمه ، لاسيّما عندما يُجْرِي لَهُ صاحبه ما يكفل له حياة ميسورة ، ويجعله من خاصّته وندمائه ، وهذا ما وجده ابن شرف في بلاط المأمون بن ذي النّون الّذي جعله من خاصّة قصره ، ومن شعرائه المقرّبين ، فيتهيّأ له أنْ يستقرّ بعد طول تنقّل وتجوال ، فيخصّه بأشعاره ويلهج لسانه بذكره وشكره ، ويبدو لي أنّ ابن شرف يشير إليه حِينَ يقول :

أتى الزّمانُ على يأسٍ به لبني الـدُّ ... نْيا كَبُشْرَى بمولود على الكِبَرِ

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٨ .

(٣) وهو : المنصور عبد العزيز بن النّاصر بن أبي عامر ، (. . . - ٤٥٢هـ) . أُنظر : المغرب ، ٢ / ٣٠٠ ، والكامل في التّاريخ ، ٩ / ٢٨٩ .

(٤) وهو : محمّد بن أحمد بن إسحق بن طاهر ، أمير مرسيّة ، أُنظر : المغرب ، ٢ / ٢٤٧ ، القلائد ، ص : ٥٦ ، الكامل في التّاريخ ، ٩ / ٢٩١ ، الذّخيرة ، ق ٣ م ١ / ٤٤ .

(٥) وهو : أبو بكر ، محمّد بن عبد اللّه بن مسلمة المعروف بابن الأفطس ، كان أديباً عالماً حكم حتّى سنة ٤٥٦هـ ، أُنظر : الذّخيرة ق ٤ م ٢ / ٦٤٠ ، المعجب ، ص : ١٢٧ ، المغرب ، ١ / ٣٦٤ ، الكامل في التّاريخ ، ٩ / ٢٨٨ ، البيان المغرب ، ٣ / ٢٣٦ .

إنّي وَمَجْدِك صَيّرْتُ الورى نَهَراً ... وَقُلْتُ ما قالَهُ طالوتُ في النَّهَرِ
فَأَنْتَ عِنْدِي مِنْهُم غَرْفَةٌ بِيَدِي ... حَلَّتْ وَحُرِّمَ باقِي النَّهرِ في الزُّبُرِ(١)

إلّا أنّ معظم المدائح والأشعار الّتي خصّ بها ابن شرف المأمون بن ذي النّون لم تصل إلينا، فلربّما ضاعت فيما ضاع من شِعْر شاعرنا، وذلك بسبب الفتن والنّكبات الّتي تعرّضت لها بلاد الأندلس بصورة عامّة، وطليطلة حاضرة ابن ذي النّون بصورة خاصّة، إذ لا يمكن أنْ يقيم ابن شرف كلّ هذه الفترة في كنف ابن ذي النّون الّذي أجزل له العطاء، وقرّبه منه، ولا يخصّه إلاّ بهذه الأشعار القليلة، وهذا واضح من قوله:

يُعْطِي الجَزِيلَ مِنَ التّنويل مُعْتَذِراً ... ورُبَّ مُعْطٍ قليلاً غيرُ مُعْتَذِرِ(٢)

وعلى الرّغم ممّا وجده ابن شرف عند ابن ذي النّون إلاّ أنّه لم يكن قانعاً بما حظي به عنده، ولا بالمكانة الّتي وصل إليها في بلاطه، لذلك فقد رأيناه متطلعاً إلى مدح غيره من ملوك الطّوائف بالأندلس، فيرسل لهم المدائح مع الرّسل، وهو في بلاط ابن ذي النّون وفي طليطلة فيجزلون له العطاء وينفذون له صلاتهم وأعطياتهم الطائلة، ومن ذلك ما فعله ابن شرف مع المظفّر بن الأفطس صاحب بطليوس، يوم أنْ أرسل له قصيدة من طليطلة يمدحه فيها، ويتغنّى بها بمآثره الحسنة، وصفاته الحميدة وفيها يقول:

يا مالِكاً أمْسَتْ تُجيبُ بِهِ ... تَحْمِيدُ تَمْطانَ عَلْبُو نِزارْ
لَوْلاكَ لَمْ تَشْرَفْ مَعَدٌّ بِها ... جَلَّ أبو ذَرٍّ فَجَلَّتْ غِفارْ(٣).

ولقد علّق ابن بسّام على هذه القصيدة بقوله: ((... وكان ابن شرف قد كتب بهذه القصيدة من طليطلة إليه، فوصله بمائة مثقال من ضرب السّكّة

---

(١) الذّخيرة، ق ٤م١/٢٢٣.
(٢) المصدر نفسه. الورقة نفسها.
(٣) الذّخيرة، ق ٢م٢/٦٤٣، المسالك، ج ١١/٢٤٠، الحلّة السّيراء، ٢/٩٧.

لديه (١) .))، وهذا مافعله ابن شرف أيضاً مع المعتضد عبّاد صاحب اشبيليّة يوم أن دخل الاندلس إثر خراب وطنه القيروان ، فقد أرسل إليه ابن شرف الاشعار والمدائح مع الرّسل على الرّغم من أنّه كان يخشاه ، ويتحاشى القدوم إلى حضرته ، ويتخوّف من الاتصال به ، إلا أنّه قد عزّ عليه أنْ لا يحظى بجوائزه السّنية ، وأعطياته الجزيلة ، فيرسل إليه المعتضد الهبات والجوائز والأموال مع الرّسل أيضاً (٢) .

وهكذا فعل ابن شرف مع ممدوحيه في الاندلس ، فكان يزفّ إليهم القصائد والمدائح طامعاً في نيل أعطياتهم وهباتهم ، فيجزلون له العطاء ، حتّى وهو بعيد عنهم وفي بلاط غيرهم ، وهذا إنْ دلّ على شيء فإنّما يدلّ على المكانة الّتي تبوأها ابن شرف في ميدان الشّعر ، وعلى شهرته الّتي ملأت الأسماع وسبقته إلى الاندلس .

وفي الحقيقة أنّنا نلتمس لابن شرف العذر لتكسّبه بشعره وأدبه في هذه الفترة من حياته بالاندلس ، حيث كان في ديار غربة ، وقد أجبرته الحياة الصّعبة ، والظّروف القاسيّة الّتي عاشها بعد خروجه من وطنه على ذلك ، ليضمن لنفسه ولأسرته سبل العيش ، وليضمن لنفسه ، مايكفيه سؤال النّاس وحاجتهم ، وقد عاش في بحبوحة من العيش قبل ذلك ، وهذا واضح من قوله :

مَحْمُودُ عَيْشٍ جادَ لي دَهْري بِهِ ثُمَّ استردَّ فكانَ فيهِ خَصِيمي (٣)

ومن قوله في وصف أطفاله :

كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْكُنُوا ظِلَّ نِعْمَةٍ لَها بَهْجَةٌ مِلْءُ العُيونِ وَرَوْنَقُ
إلى أنْ غَدَوا فَيْءَ الغَيافِي فَتارَةً تُباعُ وفي بعض الاحايين تعتق(٤)

---

(١) الذّخيرة ، ق ٢ م ٢ / ٦٤٣ .
(٢) أنظر : الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٧ و ١٨١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٢ .

ويضاف الى ماتقدّم أنّ التكسّب بالشعر في هذه الفترة، فترة ملوك الطوائف بالأندلس كان أمرا عامّاً ، وظاهرة شائعة ،دعت إليها الحياة السّياسيّة الّتي كانت سائدة آنذاك ، فقد حرص كلّ ملك من ملوك الطّوائف في تلك الفترة على أنْ يجمع في بلاطه أكبر عدد ممكن من الأدباء والشّعراء ، وأغدق عليهم الأموال الطائلة ، حتّى يكونوا ألسنة تلهج بذكره وشكره ، وفي هذا يقول أحد الدّارسين : ((لقد كان هؤلاء الملوك، في أوّل أمرهم ، بحاجة إلى تقوية وتثبيت مراكزهم ، بنشر عبارات الحمْدِ والثّناء وآيات التّعظيم والتّفخيم الّتي كانت تذاع بواسطة مَنْ كان يَفِدُ عليهم مِنَ الشّعراء .)) (١) ، فليس غريباً والحالة هذه أنْ نجد ابن شرف قد تكسّب بشِعْره في هذه الفترة ، وهو الّذي تطلّعت إليه هِمَمُ ملوك الأندلس عندما دخلها لبعد صيته ولشهرته على ما ذكره ابن شاكر (٢) .

هذا ولقد أسبغ ابن شرف على ممدوحيه الكثير من الصّفات والفضائل والقيم التقليديّة الّتي ردّدها الشّعراء السّابقون وأسبغوها على ممدوحيهم مثل : الشجاعة ، والكرم ، والسّخاء وسداد الرّأي ، وعراقة الأصل ، والحلم ، والسّماحة ، وغيرها من معاني النبل والشرف الّتي أسبغوها على شخصيّات ممدوحيهم على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الّتي يحلّون فيها ، حتّى وإنْ لم يكونوا يتصفون بها ، ذلك لأنّ ((الشّاعر حِيْنَ يمدح لا يُعْنَى بوصف شخصيّة الممدوح ، ولو كان هذا غرضه لوصف محاسنه ومساوءه ، ولكنّه يحاول أنْ يرسم صورة شعريّة لمَثَلٍ انساني عال تطبعه عليه ظروفه الاجتماعية والطبقيّة ، ومرحلته التاريخيّة ، ثمّ يُعطي هذه الصّورة بعد ذلك ، رسم الممدوح أو يربطها بحوادث وقعت في حياته .)) (٣)

---

(١) رحلة الأندلس ، ص : ١١٤ ، الشّعر في ظلّ بني عبّاد ، ص : ٧٩ .
(٢) أنظر : فوات الوفيات ، ١/١٤٧ .
(٣) الشّعر في ظلّ بني عبّاد ، ص : ٩٤ .

ولمّا كان الغرض من وراء قصائد المديح في هذه الفترة من حياة شاعرنا هو التكسّب ، فإنّ المدح بصفة السّخاء والبذل الجزيل الّذي لا طائل له من الصّفات الّتي تستوقفه ، ذلك لأنّ الصّلة ما بين المدح بصفة الكرم والسّخاء ، وما بين التكسّب بالشّعر قويّة ومتينة ، لذا فإنّ ممدوح ابن شرف كان يعطي العطاء الجزيل الّذي لا طائل له ، ومع ذلك فقد كان يقدّم العذر مع هذا العطاء الكبير ، لأنّه يحسّ أنّ هذا العطاء ، وهذا السّخاء لا يتناسب مع كرمه العظيم ، ونفسه السّخية الّتي تجعله يحسّ بالتّقصير مهما بذل ، وهذا واضح من قوله :

يُعْطِي الجَزِيلَ مِنَ التّنْويلِ مُعْتَذِراً . . . . . (١)

ومن الصّفات الّتي أثبتها ابن شرف لممدوحه ، وأسبغها عليه : المجد ، والرّفعة ، والسّيادة والكرم ، فممدوحه شريف كريم خيّر صاحب فضل وسيادة ، بل إنّ المجد ، والسّيادة ، والكرم تتبعه ، وتتعلّق به مثلما يتعلّق التابع بالمتبوع ويتبعه ، وليس هذا فحسب ، بل إنّ الممدوح اسم على مسمّى ، فهو عليّ في الاسم ، وعليّ في المكانة والمجد ، وهذا واضح من قوله :

إِسْمٌ حَكاهُ المُسَمّى في الفَعالِ فَقَد حازَ العلِيّينِ مِنْ قَوْلٍ وَمِنْ عَمَلِ
فالماجِدُ السّيّدُ الحرُّ الكريمُ لَهُ كالنّعْتِ والعطفِ والتّوكيدِ والبَدَلِ (٢)

وممدوحه هو الّذي يجمّل العلا ويزينه ، وهو بهذا بلا شبه في النّاس الّذين قصّروا عن ادراك فضائله ، فشهرته قد طبّقت الآفاق ، واسمه يجري على كلّ لسان ، وسمعته الطّيّبة تطرق كلّ أذن ، فيقول :

زانَ العُلا وسِواهُ شأنُها وكَذا للشّمْسِ حالانِ في الميزانِ والحَمَلِ
وربّما عابَهُ ما يَفْخَرونَ بِهِ يُشْنا مِنَ الخَصْرِ ما يُهْوَى مِنَ الكَفَلِ

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٢ .
(٣) المصدر نفسه . ص : ٢٢٣ .

سَلْ عَنْهُ وانطِقْ بِهِ وانْظُرْ إليهِ تَجِدْ ... مِلْءَ المَسامِعِ والأفواهِ والمُقَلِ (١)

وكثيراً ما كان ابن شرف يصف ممدوحه بأنه صاحب العلياء الذي يرقى في علياه فوق الشمس ، وهذا واضح من قوله :

وَبِلْقِيسِيَّةٍ في المُلْكِ لَيْسَتْ ... كَمَنْ أومى سُلَيْمانٌ قِوامَا
تَراءَا كُلُّ ذِي بَصَرٍ فَيَمْشُو ... لِبَهْجَتِها إلى أنْ لا تَراهَا
إذا العلْيا يبالغ ناسِبُوها ... عَزَوْها في السُّمُوِّ إلى عُلاهَا
وَمُلْكُ الأرْضِ مِن بَرٍّ وبَحْرٍ ... فَلَيْسَ يروم مَلِكٌ سِواهَا
نُعُوتٌ كُلُّها غَدَتْ نُعُوتاً ... لعبّادٍ سِوى نَعْتٍ غَداهَا
وذلك أنّها مهما أقامَتْ ... بأرْضٍ أيْبَسَتْ مِنْها ثَراهَا
وعبّادٌ إذا ما حَلَّ أرْضاً ... تَفَجَّرَ يَبْسُ تُرْبَتِها مِياهَا (٢)

وهكذا فممدوح ابن شرف في مكانته أعلى من الشمس وأفضل منها ؛ ذلك لأنّه مصدر خير وبركة وعطاء ، يبعث الخير في النّاس ، ويجزل لهم العطاء ، فهو فوق الشمس في علوّه وفضله ، هذا مع أنّ ابن شرف كان يتحاشى عبّاد ، ويخشى جانبه مثلما تقدّم ، ولكنّه مع ذلك يفضّله على الشمس ، ويجعله بلا شبه في النّاس في مكانته وفضله ؛ ذلك لأنّ الهدف من وراء هذه الأشعار ، وهذه المدائح الّتي كان ابن شرف يزفّها إلى عبّاد هذا وهو بعيد عنه ، هدف مادّي ، ليجزل له العطاء ، ويدرّ عليه الأموال الطائلة ، وهذا ما يؤكّد لنا أنّ ابن شرف كان قد تكسّب في شعره في هذه الفترة من حياته في بلاد الأندلس .

هذا ويشير ابن شرف في مدائحه إلى أنّ الارادة الرّبانيّة هي الّتي منحت ممدوحه هذه المكانة العاليّة ، وهذا الشّرف الرّفيع الّذي حلّ فيه ، وخصّ به دون غيره من النّاس ، لذلك فهو محسود على ذلك فيقول :

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٢ .
(٢) الغيث ، ٢ / ٢٦٢ .

يا حاسِدِيهِ على عُلاً حُطَّتْ لَـهُ سَبَقَ القَنَا بالنُّونِ بَعْدَ الكافِ(١)

ويتغنّى ابن شرف في نسب ممدوحه ، فيشير إلى أنّ القبائل الأخرى كانت تحسد قبيلته على وجوده فيها ، فيقول :

يا مَلِكاً أمْسَتْ تُجِيبُ بِـهِ تَحْسُدُ قَحْطانَ مَلْيَةٍ نِـزارْ(٢)

وهذا يكشف لنا عن معرفة ابن شرف بأنساب ممدوحيه ، وبالأصول التي يعودون إليها ، كما يكشف لنا عن علمه بأنساب العرب ، وعن معرفته بأسماء القبائل العربيّة التي كانت موجودة بالأندلس في تلك الفترة .

وليس هذا فحسب ، بل إنّ ممدوحه كان صاحب شرف قديم متأصّل ، فهو قد ورث المجد والعلوّ ، والمكانة الرّفيعة ، والشرف كابراً عن كابرٍ ، لا بل هو الشرف بعينه الّذي يشرّف من يتصلون به ، وهذا واضح من قوله :

هو الشّرفُ الّذي نَسَبَ المعالي إليه وهو ذو الشّرفِ القديمِ(٣)

وكثيراً ما كان ابن شرف يُضْفي على ممدوحه صفة التفرّد بين النّاس ، فيجعله بلا مثيل بينهم ، وإنْ كان من جنسهم ، ومِنْ مادّة خلقهم إلاّ أنّه يختلف عنهم بما يتحلّى به من فضائل وصفات ، ومن ذلك قوله :

أبناءُ جِنْسِكَ في الحُلَى لا في المُلا وأقُولُ قَوْلاً لَيْسَ بالمدْفُوعِ
أبَداً تَرَى البيتين يَخْتَلِفانِ في ال مَعْنَى ويتّفقان في التّقطيعِ(٤)

والنّاس مهما بذلوا ، وتكلّفوا الانفاق والعطاء ، فإنّهم يظلّون مقصّرين عنه شَوْطاً بعيداً ، ولن يصلوا إلى ما وصل إليه ؛ لأنّ ما يتصف به متعمّق في نفسه وأصيل ، وهذا واضح من قوله :

لَوْ كانَ خُلْقُكَ للّيالي لَمْ يَـزَلْ جِسْمُ الثّرى وَعليْـهِ ثَوْبُ رَبِيعِ

---

(١) الذّخيرة ق ٤ م ١ / ٢٢١ .
(٢) المصدر نفسه ، ق ٢ م ٢ / ٦٤٣ .
(٣) الإنباه ، ١ / ٣٠٢ .
(٤) الوافي بالوفيات ، ٣ / ٩٩ .

سَلَكَ الوَرَى آثارَ فَضْلِكَ فَانْثَنَى متكلّفٌ عَنْ سَلْكِهِ مَطْبُوعِ(١)

ولما كان العصر الّذي عاش فيه ابن شرف ، عصر صراع وتناحر بين دول الطّوائف وملوكها فإنّه لم ينس أنْ يتوقّف عند شجاعة ممدوحه ، واقدامه ، وقوّة بأسه ، فهو شهاب الحرب ، ومحرق كلّ شيطان رجيم ، ومن ذلك قوله :

شِهَابُ الحَرْبِ يُهْلِكُ كُلَّ بَاغٍ وَمُحْرِقُ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمِ
تُقَطِّعُ دُونَهُ البِيضُ المَوَاضِي وَتَجْفِلُ عَنْهُ إِجْفَالَ الظَّلِيمِ(٢)

وهو مجنّ في الحرب يحتمي به النّاس من الرّماح والنّبال ، وهذا واضح من قوله :

جَاوِرْ عَلِيّاً وَلا تَحْفِلْ بِحَادِثَةٍ إِذا ادْلَهَمَّتْ فَلا تَسْأَلْ عَنِ الأَسَلِ(٣)

ومن الصّفات الأخرى الّتي أسبغها ابن شرف على بعض ممدوحيه ، القدرة على حلّ المشاكل ، وتلبية حاجات مَنْ يقصدونه ، فهو ملاذ السّائلين ، ومحطّ رحالهم وكعبة آمالهم ، يعمل على تلبية رغباتهم ، وعلى تحقيق أمانيهم : فالفقير الّذي يقصده يعود غنيّاً ، والمذنب يعود بالصّفح والعفو ، والخائف الّذي يتصل به يحظى بالطمأنينة والأمن ، وهذا واضح من قوله :

لِمُخْتَلِفِ الحَاجَاتِ جَمْعٌ بِبَابِهِ فَهذا لَهُ فَنٌّ وهذا لَهُ فَنُّ
فَلِلخَائِفِ الأَمْنُ ، وَلِلمُذْنِبِ العُتْبَى وَلِلمُعْدِمِ الغِنَى(٤)

وشاعر واسع الثقافة مثل ابن شرف عندما يريد أنْ يصوّر لنا هيبة ممدوحه وقوّة شخصيّته ، هذا من ناحية ، وحلمه ، وسعة صدره وسماحته من ناحية أخرى ، فإنّه يلتفت إلى هيبة عمر بن الخطاب ، وإلى حلم عليّ بن أبي طالب وسعة صدره وانبساطه ، ليشبّه ممدوحه بهما ، فيقول :

---

(١) الوافي بالوفيات ، ٣/٩٩ .
(٢) الإنباه ، ١/٣٠٢ .
(٣) الذّخيرة ، ق٤م١/٢٢٢ .
(٤) المعاهد ، ٢/٣١٠ .

فإنْ أفحمتْنا حِمْيَةٌ عَرَبيّةٌ ... لَدَيْكَ لَها في الشِّعْرِ كَسْرٌ وإقواءُ
بَذَلْتَ البساطاتٍ لَنا عَلَويّةً ... لها بَعْدَ مومات المهايه أفيَاءُ(١)

وكرم الأصل من الصّفات الّتي يفتخر بها العربيّ ، وهذا أمر لا يغيب عن ذهن شاعرنا فكثيراً ما كان يركّز على هذا الجانب في مدائحه ، ويحاول أنْ يذكّر ممدوحه بأصله العريق الكريم الّذي ينتمي إليه ، وبحسبه ونسبه الّذي ينتهي إليه ، متطرّقاً إلى سلسلة نسبه وأجداده ، ومِنْ ذلك قوله في مدح المعزّ بن باديس صاحب القيروان :

شَرَفُ الدّولةِ المعزُّ ابنُ باديسٍ ... النّصيرُ المظفّرُ المقدامُ
مَنْ لَهُ في العُلا ثلاثةُ آبا ... ءٍ نميرٌ وعدّةٌ وحُسامُ
وابنُ زيري أبو الفتوح الّذي أعْـ ... ـدَى أعاديهِ في الوَرَى الاحْجامُ(٢)

ومهما يكن من أمر فإنّ التّأكيد على هذه المعاني ، وعلى هذه الأمور مِنْ قِبَلِ شاعرنا لم يأتِ مصادفةً ، إنّما كان يتعمّد الاتيان به تعمّداً ، ذلك لأنّ الوضع السّياسيّ السّائد في ذلك العصر ، وتمزّق البلاد وانقسامها إلى دويلات صغيره كان يتطلّب التركيز على مثل هذه الأمور والتّأكيد عليها .

ولمّا كانت طهارة العرض ونقاؤه ، والسُّمْعَةُ الحسنةُ من الصّفات الّتي تشغل بال العربيّ وتؤرقه فإنّ ابن شرف لم يكن لينسى هذه الصّفة في قصائده الّتي رفعها إلى ممدوحيه ، ومِنْ ذلك قوله في ابن طاهر :

فَتىً طاهريٌّ طاهرُ الثّوبِ ذِكْرُهُ ... مِنَ المِسْكِ أذْكَى أوْ مِنَ الماءِ أطْهَرُ(٣)

حيث يشير هنا إلى أنّ ممدوحه قد جمع ما بين السّخاء والكرم ، وطيب الذّكر والصّيت الحسن ، وإمعانا مِنْهُ في تأكيد هذه الصّفة لممدوحه فقد

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٩ .
(٢) البيان المغرب ، ١ / ٢٩٥ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢١ .

ذهب إلى القول : إنّ عرفه وشرفه أطهر من الماء ، وأطيب من المسك .

وكثيراً ما كان ابن شرف يجعل الطبيعة تشارك فرحته وسعادته بعصر ممدوحه وبحكمه الذي يدخل البهجة والسرور في النفس ، لما فيه من طيب عيش ، ومن بهاء ، ومفاتن ، فها هي الشمس تشارك فرحه وسروره بحكم المنصور حفيد بن أبي عامر حيث يقول :

زَمَنُ المَنْصُورِ قَوَّى مِنَّتِي ... وَسَرَى هَمِّي وأَحْيَا جَذَلِي
وَسُرورُ النَّفْسِ مِنْ بَعْدِ الصِّبا ... نَاشِئٌ عَصْرَ الصِّبا والغَزَلِ
فاسْتَطَابَ العَيْشُ في بَلْدَتِهِ ... فكأنَّ النَّاسَ في قُرْبٍ وَصَلِ
وكأنَّ الشَّمْسَ مِنْ بَهْجَتِهَا ... أَبَداً فيها بِبُرْجِ الحَمَلِ (١)

وقد كان ابن شرف في مدحه يركز على جمال ممدوحه المادي إلى جانب جماله المعنوي ، فممدوحه كان يفوق القمر حُسْناً وجمالاً هذا إلى جانب كونه شجاعاً مقداماً ، ومن ذلك قوله :

شِهَابُ الحَرْبِ يُهْلِكُ كُلَّ بَاغٍ ... وَمُحْرِقُ كُلِّ شيطانٍ رجيمِ
وَيَجْلُو عَنْهُ لَيْلَ النَّقْعِ وَجْهٌ ... كَبَدْرِ التِّمِّ في اللَّيلِ البهيمِ (٢)

وكثيراً ما كان في مدائحه يركز على حُبّ ممدوحه للعلم والأدب ، وبمعرفته بذلك ، وهذا يعود إلى تأثره بالحياة الثقافية والفكرية السائدة في ذلك العصر ، فنتج عن ذلك أن أخذ الشعراء يتغنون بحُبّ ممدوحيهم للعلم وتعلقهم به ، ومن ذلك قوله في مدح المظفر بن الأفطس ، حيث يقول :

سيري قَلَمْ نَقْذِفْكِ في مِجْهَلٍ ... ولا تَمْرَبْنَا بِكِ تَمْرَبَ القِمَارْ
حَيْثُ عُلُوُّ العِلْمِ مَطْلُوبَةٌ ... يُوافِقُ السُّوقَ كِرَامُ التُّجَّارْ (٣)

---

(١) الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٨ .
(٢) الإنباه ، ١ / ٣٠٢ .
(٣) الذخيرة ، ق ٢ م ٢ / ٦٤٣ .

ويشير ابن شرف إلى أن ممدوحه لا ينادم إلا العلماء والأدباء ، وأنه بصير بالأدب ونقده ، فهو صاحب نظر ثاقب ، ورأي سديد ، قادر على معرفة الغث من السمين ، فيقول :

أَقَمْتَ لِلعِلْمِ مَنَاراً وَمَا ... أَظُنُّ في الدُّنْيا لِعِلْمٍ مَنَارْ
فَما نُدامَاكَ سِوى أَهْلِهِ ... وكُلُّهُمْ بَيْنَ نَدامى المَقَارْ
مِيزُكَ مِيزانُ عُقُولِ الوَرَى ... وَفَهْمُكَ العَدْلُ لِكُلِّ عِيَارْ
تبدو لكَ الهِجْنَةُ في لَحْظَةٍ ... وَتَعْرِفُ الأَسنانَ قَبْلَ الفِرَارْ
مِنْ لَفْظِهِم تَعْرِفُ مَا هُمْ وَفِي ... جُمْجُمَةِ العَاثِرِ يَبْدو العِثَارْ (١) .

ولقد نهج ابن شرف في مدائحه نهج أبي الطيب المتنبي حيث كان يفتخر بنفسه من خلال افتخاره بالممدوح ، وهذا واضح من قوله :

إِنّي وَمَجْدِكَ صَيَّرْتُ الوَرَى نَهَراً ... وَقُلْتُ ما قالَهُ طالُوتُ في النَّهَرِ
فأَنْتَ عِنْدِي مِنْهُم غَرْفَةٌ بِيَدِي ... حَلَّتْ وَحُرِّمَ باقِي النَّهَرِ في الزُّبُرِ (٢)

مثلما كان يفتخر بشعره ، ومن ذلك قوله :

خُذْها أَبابَكْرٍ غُرَيْبَةً ... سَرَى بِها الوِدُّ إِلَيْكُم وَطَارْ
لَيْسَتْ مِنَ الشِّعْرِ القَصِيرِ الخُطَى ... وَلا مِنَ المَشْرُوقِ والمُسْتَعَارْ
قَدَّمْتُها قَبْلَ قُدُومِي كَمَا ... قَدَّمَتِ الحُجَّاجُ رَمْيَ الجِمَارْ

ومن خلال هذه الصفات والفضائل التي أثبتها ابن شرف لممدوحه من مثل : السخاء والكرم ، والهيبة والوقار ، والشجاعة والاقدام ، ومضاء العزيمة ، وعراقة الأصل ، وطيب العرق والشرف ، وحب العلم والتعلق به . . . . ، نستطيع أن نتعرف على القيم التي كانت سائدة في عصره وعصر ملوك الطوائف بالأندلس ، ومدى تأثره بثقافة عصره المتنوعة الواسعة من جانب آخر .

---

(١) الذخيرة ، ق ٢ م ٢ / ٦٤٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ق ٤ م ١ / ٢٢٣ .

كما أنّنا نستطيع أنْ نتعرّف إلى نظرة شاعرنا إلى الصّورة المثاليّة الّتي يجب أن يكون عليها الممدوحون ، من كَرَمٍ ، وشجاعةٍ ، وثقافةٍ ، وتقديرٍ للعلم والأدب .

ونستطيع أنْ نلاحظ أيْضاً أنّ ابن شرف في قصيدة المديح قد سار على نهج القصيدة العربيّة التقليديّ ، فوقف على الأطلال ، وتغزّل بالمرأة ، وصوّر لنا طريقه إلى الممدوح ، قبل أنْ يصل إلى الغرض الّذي يريد ، وهذه أمور سوف نتوقّف عندها عندما نتعرّض لدراسة شعره من الناحية الفنيّة — إنْ شاء اللّه — .

الغَزَل :

لم يُكثِر ابن شرف من الغزل في شعره الّذي وصلنا ، وإنّما اقتصر فيه على ما جاء في تلك المقدّمات الغزليّة التقليديّة الّتي يفتتح بها قصائده في المديح ، هذا بالاضافة إلى المقطّعات الغزليّة القصيرة الّتي جاء بعضها في تصوير حالته بعد فراق مَنْ يُحِبّ ، وفي تصوير طيفها الّذي كان يؤرّقه ويمنعه من النّوم والرّاحة ، وجاء بعضها غزلاً بالمذكّر .

ونستطيع أنْ نلاحظ من خلال هذه المقطّعات أنّ ابن شرف قد طرق الغزل بأنواعه المعروفة ، فتحدّث عن مفاتن المرأة الجسديّة ، وعن مواطن الجمال فيها ، وعن مشاعر الهُيام والتعلّق ، وشكا من صدّ المحبوب وهجره ، والتفت إلى أولئك اللائمين والعُذّال الّذين اجتهدوا في لومه وإغرائه بترك مَنْ يُحِبّ ، فأسكتهم وأعرض عنهم ؛ لجهلهم بما يعاني مِنْهُ .

إلّا أنّ الغالب على غزل ابن شرف أنّه غزل حسّيّ تقليديّ ينصبّ على مواطن الجمال الماديّ في المرأة ، ويركّز على مفاتنها الجسديّة المحسوسة مِنْ قوامٍ ، وخصرٍ ، وصدرٍ ، وفمٍ ، وجيدٍ ، وخدٍّ ، وعيونٍ ، وشَعْرٍ ، وما إلى ذلك من مواطن الجمال والفتنة الأنثويّة الّتي دَرَجَ عليها الشُّعَراء العرب مِنْ قَبْلُ .

ويلوح لي أنّ شاعرنا قد طرق هذا الضّرب من الغزل في بداية قصائده المطوّلة في المديح جرياً على عادة القدماء ، ومحاكاةً لهم في قصائدهم ، ومهما يكن من أمر ، فإنّ هذا اللّون من الغزل يكشف لنا عن نظرة شاعرنا إلى الجمال ، وإلى الصّورة المثاليّة الّتي ينبغي أنْ تكون عليها المرأة ، كما يكشف لنا عن نظرة مجتمعه إلى الجمال الأنثويّ في المرأة .

وإذا ما نظرنا في تلك النّماذج الغزليّة الّتي وصلتنا فإنّنا نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف كان يُحبّ في المرأة أنْ تكون طويلة القامة ، جميلة الوجه ، دقيقة الخصر ، ساحرة العينين ، رداء ، ذات فم جميل ، وأسنان بيضاء ناصعة البياض ، وما إلى ذلك من الصّفات التقليديّة الّتي أثبتها الشّعراء للمرأة الّتي تغزّلوا بها من قبلُ .

هذا ومن الجدير بالذّكر هنا ، أنّ ابن شرف كان يحاول أنْ يتوقّف عند كلّ عضوٍ من أعضاء المرأة ، ويضفي عليه قيمة جمالية معيّنة ، فالعيون ساحرة أخّاذة ، صارمة كالسّيف في نظراتها ، وهذا واضح في قوله :

جرّدتْ عيناكِ سيفيْـ ... ـنِ لذا أمرُكِ أمرُ (١) .

والقامة غُصنٌ ، والوجه قمر ، وأمّا الخدود فحمراء مشرّبة بالبياض ، والفم جميل يشبه الدّرّ بما فيه من أسنان ناصعة بيضاء ، والأرداف كثبان ، وأمّا الخصر فدقيق يكاد أنْ ينكسر لدقّته ورقّته ، وهذا واضح في قوله :

بيْنَ أجفانِكِ سِحْرُ ... وعلى غُصْنِكِ بدرُ
فعلى خدّكِ مِنْ نثـ ... ـرِ دمِ العُشّاقِ أثرُ
ومِنَ الكُثْبانِ قطرُ ... لكِ والأغصانِ قطرُ
وسواءٌ قلتُ درٌّ ... ما أرى أو قلتُ ثغرُ

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٥ .

وَبِماذَا أَصِفُ الخَصْـــــــرَ وَما إِنْ لَكِ خَصْـــرُ (١)

هذا ويشير ابن شرف إلى أنه متعلّق مشغول بهذه المحبوبة الفاتنـــة فيقول :

بِلِيَ شُغْلِي واشْتِغالِـــــي وَمَضَـــى زَيْدٌ وَعَمْـــرو (٢)

وكثيراً ما كان ابن شرف يتخذ من القمر وسيلة للتعبير عن جمال وجـــه المرأة ، حتّى أصبح القمر فيما وصلنا من شعره يدلّ دلالةً واضحةً على وجـــه المرأة ، ومن ذلك قوله :

مَرَّبِـــي نُصْـــنٌ عَلَيْـــهِ قَمَـــرُ تَتَجَـــلّ نُـــورُهُ لا يَنْجَلِي (٣) .

وممّا تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ شاعرنا كان يستعير مواطن الجمـــال من طبيعة بلاده الجميلة ، ومن واقع بيئته الّتي يعيش فيها ، ليضفيهـــا على محبوبته الّتي يتغزّل بها ، كما كان يستعيرها مِنَ الحلي ، والـــدّرّ ، والأشجار ، وغيرها من مظاهر الطبيعة الصّامتة والمتحرّكة الّتي تحيط به .

وهذه الصّفات الّتي أسبغها ابن شرف على المرأة الّتي تغزّل بهـــا ، إنّما هي صفات مثاليّة موروثة ، سار فيها على نهج الشّعراء القدامى ، وهـــي بالتالي لا تكشف لنا عن تجربة فعليّة واقعيّة عاشها شاعرنا مع امرأة معيّنـــة بثّ إليها لواعج نفسه ، وخبايا صدره ، ولكنّها تكشف لنا عن نظرتـــه الجماليّة إلى المرأة المثاليّة الّتي وصفها ، وصوّرها لنا كما يجبُ أنْ تكـــون لا كما هي بالفعل .

ومهما يكن من أمـــر ، فإنّ غزل ابن شرف لم يكن ليقتصر على تصويـــر مفاتن المرأة الجسديّة المحسوسة ، إنّما تعدّى ذلك إلى الشكوى مِنْ صَـــدّ

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م١/ ٢١٥ .
(٢) المصدر نفسه والصّفحة ذاتها .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢١٨ .

المحبوب وهجره ، وإلى تصوير حالته المتعبة المؤرّقة المحزونة ، لفراق أحبّته ، فكثيراً ما كان يشير إلى أنّه لم يعُدْ يحتمل البُعْدَ عن أحبّته ، فيقول :

تَصَعَّدُ نَفْسٍ لا صُعُودُ تَنَفُّسٍ ... وَتَرْدِيدُ رُوحٍ في حُشَاشَةِ مَكْرُوبِ
فَلَا القُرْبُ يُحْيِينِي وَلَا البُعْدُ قَاتِلِي ... وَلَا الهَجْرُ يُسْلِينِي وَلَا الصَّبْرُ يلوِينِي(١)

فالشّاعر كما نرى كان يعاني ويتعذّب من شدّة الحنين والشّوق إلى رؤية محبوبته ، ونيران الشّوق والحنين تشتعل في أحشاءه ، فكان لذلك أثره على صحّته ونفسه ، إذ أصبحت صحّته معلولة ، وعلاجه الوحيد ، وخلاصه ممّا هو فيه ، أنْ يرى محبوبته الّتي هجرته وابتعدتْ عنه ، فيقول :

وأَصْبَحْتُ ذَا ضُرٍّ وَلُقْيَاكِ مُجْدِيءٌ ... لِضُرِّي وَلَكِنْ أَيْنَ عِيسَى مِنَ أَيُّوبِ؟(٢)

ويبالغ ابن شرف في تصوير حالته ونفسه بعد فراق محبوبته وهجرها له ، فيشير إلى أنّه أصبح جسداً بلا روح ، مسلوب القلب ، ذلك لأنّ روحه وقلبه لم يعودا مُلْكاً له إنّما هما مُلْكٌ لمن يُحبّ ، وهذا واضح من قوله :

أَتَتْنِي بِإِطْمَاعِ الوِصَالِ عَلَى النَّوَى ... إِذَا لَمْ تُقَاتِلْ يَا جَبَانُ ، فَشَجِّعِ
لَدَيْكَ فُؤَادٌ مَالَهُ مِنْ مُطَالِبٍ ... أَأَطْلُبُ فِي بَعْضِي وَقَدْ بَانَ أَجْمَعِي ؟
وَدِيعَةُ مَيْتٍ أَنْتَ فِيهَا مُحَكَّمٌ ... وَإِنْ شِئْتَ فَاحْفَظْهَا وَإِنْ شِئْتَ ضَيِّعِ
أَرَى مُهَجَاتٍ فِي يَدَيْكِ فَمَا تَرَى ... بِمَنْ شِئْتِ أَوْقِعْ أَوْ بِمَا شِئْتِ وَقِّعِ(٣)

الأمر الّذي جعل شاعرنا يعيش في حالة بين الرّجاء واليأس ، ومن ذلك قوله مخاطباً من أوصله إلى هذه الحالة :

فَيَا قَاطِعاً وَصْلِي وَيَا وَاصِلاً غَدِي ... بِأَمْسِي وَيَوْمِي فِي العَذَابِ المُمَتَّعِ
صَرَفْتَ رَجَائِي عَنْ لَعَلَّ وَعَنْ عَسَى ... وَأَبْعَدْتَنِي بِاليَأْسِ مِنْ كُلِّ مَطْمَعِ(٤)

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٥ .
(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢١٦ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢١٦ .

ولكنّه عند ما يفقد الأمل من لقاء معذبته ، ومن الاتصال بها ، ويداهمه اليأس بسبب صدّها عنه وهجرها له ، فإنّه لا يجد إلاّ الدّموع ليذرفها غزيرة على خيبة أمله ، وعلى حظّه العاثر ، فيقول :

واذْكُرْ لياليَكَ الّتي ذَهَبَتْ لنا ... نَهَباً وعَيْشاً كان كالتّهويمِ
يُسْعِدُكَ وابلُ أدْمُعٍ في أربُعٍ ... شَرِبَتْ مِياهَ الدّمْعِ شُرْبَ الهيمِ
أيّامَ شمسُ المَشْرَقَيْنِ ضَجيعَتي ... فيها وبَدْرُ المَغْرِبَيْنِ نَديمي
ونجومُ كاساتي طَوالعُ بالمُنى ... والسّعْدُ يَسْتَغْني عن التّقويمِ (١)

وهكذا فقد حاول ابن شرف أنْ يرسم لنا صورة حسيّة مجسّمة للمرأة التي أحبّها ، بقامتها ووجهها ، وخدّيها ، وثغرها ، ونهديها ، ثمّ يلتفت بعد ذلك الى تصوير تعلقه ومشاعره نحوها لاسيّما بعد أنْ لقي منها الصدود والهجر ، ولكنه في ذلك كلّه لا يخرج عن الاتجاه الحسّي الذي عهدناه عند القدماء ، ولم يهمل الحديث عن جمال المرأة المعنوي وما كانت تتحلّى به من صفات وفضائل وشيم معنويّة من مثل الدّلال ، والتنعّم ، والرائحة الطيّبة والرفاهية . . . ، بل إنّه لم يكن ليرضى بالجمال الجسديّ المادّي الذي ينصّب على مواطن الجمال في المرأة ، ومفاتنها الانثويّة فحسب ، إنّما كان يرى أنّ الجمال الجسديّ لا قيمة له إذا لم يكن مشرّباً بجمال النفس والخلق ، وهذا واضح من قوله :

احْذَرْ مَحاسِنَ أوْجُهٍ فقدَتْ مَحاسِنَ أنفُسٍ ولو أنّها أقْمارُ
سُرُجٌ تلوحُ إذا نظرْتَ فإنّها ... نورٌ يضيءُ وإنْ مَسَسْتَ فنارُ (٢)

وأما العذّال واللائمون فقد كان لهم نصيب في مقطّعات ابن شرف الغزليّة ، فكثيراً ما كانوا يتطفّلون عليه بنصائحهم الممجوجة ، كي يلتفت الى نفسه ، ويبتعد عن هذه المحبوبة ، فيتجنّب بذلك ما يلاقيه في حبّها من

---

(١) الذّخيرة ، ق٤ م١ / ٢١٦ .
(٢) فوات الوفيات ، ٢ / ٤١١ .

عذابٍ، وصدٍّ، وهجرٍ، غيرَ أنّه لم يكن ليستمع لهم؛ ذلك لأنّ طريقته في الحياة تختلف عن طريقتهم، فيقول:

يقولُ لي العاذلُ في لَوْمِهِ ... وقولُهُ زورٌ وبهتانُ
ما وجهُ مَنْ أحببتُهُ قبلَهُ ... قلتُ، ولا قولُكَ قرآنُ (١)

ويشير إلى أنّ هؤلاء المتطفّلين العذّال لا يعرفون حاله، وما يمتلج في صدره من الحزن والأسى والشوق والتعلّق، ذلك لأنّهم لم يعيشوا تجربته ليحسّوا بما يحسّ به من حبٍّ وتعلّق، وإلّا لما تعرّضوا له باللّوم والتّجريح والإغراء بترك من يحبّ، فيزيده ذلك حبّاً وتعلّقاً به، ومن ذلك قوله:

قُلْ للعَذُولِ لو اطّلعتَ على الّذي ... عانيته لعَذَرْتَ ما يُمْنِينِي
أتعُدّني أمْ للغرامِ تردّني ... وتلومني في الحبِّ أمْ تُغْرِينِي؟
دَعْني فلستَ مُعاقباً بجنايتي ... إذْ ليس دينُكَ في المحبّةِ دِيْنِي (٢)

وأمّا الغزل بالمذكر عند ابن شرف فلم يكن ليختلف اختلافاً كبيراً عن الغزل بالمؤنث في طريقة تصوير الأوصاف الجسديّة والتغنّي بالمفاتن الحسيّة، حتّى إنّه ليخيّل للدّارس في بعض الأحيان أنّ الشّاعر يتغزّل بفتاة جميلة، ويبثّ إليها لواعج نفسه، وخفايا صدره، ويعبّر عن حبّه لها، وتعلّقه بها، فكثيراً ما كان شاعرنا في هذا اللّون من الغزل يتوقّف عند قوامه ورشاقته، وحمرة خدوده، ودلاله وحسنه، وقد يشبّهه بالقمر في حسنه وجماله، ومن ذلك قوله في غلام يدعى عُمَر:

يا أعدلَ النّاسِ اسْماً كمْ تجورُ على ... فؤادِ مُضْناكَ بالهجرانِ والبَيْنِ
أظنّهم سرقوكَ القافَ من قمرٍ ... فأبدلوها بعَيْنٍ خِيفَةَ العَيْنِ (٣)

ويقول في آخر بعد أنْ بلغ مبلغ الرّجال، ونبت العِذارُ على عارضيه،

---

(١) تزيين الأسواق، ٢/٥٦.
(٢) ديوان الصّبابة، ١/١١٧.
(٣) فوات الوفيات، ٢/٤١٢.

فزاده حُسْناً وجمالاً وبهاءً ، ويشير إلى أنّ هذا الغلام قد جمع في شخصيته جمال الخِلْقة والهيئة إلى جمال الخُلُق والفعل ، وهذا واضح مِنْ قوله :

قَدْ كُنْتَ في وَعْدِ العِذارِ فأنْجَزا ... وَقَضى لِحُسْنِكَ بالكَمالِ فأوْجَزا
وافى لِنَصْرِ الحُسْنِ إلاّ أنّهُ ... ولّى إلى فِئةِ الهَوى مُتَحَيِّزا
عَطْفٌ تعلّم مِنْكَ عِطْفُكَ عَطْفَهُ ... وَجَدَ الفُؤادُ بِهِ السّبيلَ إلى العَزا
لم يكْفِ وجهكَ حسنه وبهاؤه ... حتّى اكتسى ثوب الجمال مطرّزا
سُبْحانَ مَنْ أعْطاكَ حُسْناً ثانياً ... وبنالشِ مِنْ فِعْلِ حُسْنِكَ عَزّزا (١)

وعلى ما يبدو أنّ هذا اللّون من الحبّ الشّاذ كان ظاهرة أدبيّة عامّة تفشّت في تلك الفترة ، مارسها الأدباء والشّعراء على مختلف طبقاتهم الثقافيّة في ذلك العصر (٢) ، الأمر الّذي دفع بابن بسّام إلى القول : ((. . . فقد جَرَتْ خيول فرسان هذا الشأن بهذا الميدان ، وتفننوا في ذلك نظماً ونثراً .)) (٣) .

ويمكننا أنْ نردّ شيوع هذه الظاهرة في عصر شاعرنا لأسباب كثيرة منها : كثرة مجالس اللّهو والطّرب الّتي كانت تعقد في ذلك العصر ، وقد كانت تلك المجالس غاصّة بالغلمان مزدحمةً بهم ، فكان الشّعراء يصفونهم ، ويتغنّون بجمالهم مِنْ خلال وصفهم لتلك المجالس ، مثلما كانوا يصفون الخمرة ، ويُصوّرون المجالس وما يدور فيها ، ومنها : أنّ هذا اللّون من الغزل كان نمطاً من أنماط التقليد الأدبيّ ، فقد اتُّخِذَ للمحاكاة والتقليد والتظرّف . الأمر الّذي يحملنا على الاعتقاد أنّ ما وصلنا لابن شرف من هذا اللّون مِنَ الغَزَلِ قد كان من هذا القبيل ، وأنّه قد نَظَمَ في هذا الضّرْب من الغزل الشّاذ

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٥ .
(٢) أنظر : ديوان ابن رشيق ، ص : ٢٧ ، ٤٠ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ١٤٣ ، ١٣٢ ، وغيرها ، والذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، وغيرها .
(٣) الذّخيرة ، ق ١ م ١ / ١٤٤ .

على سبيل المحاكاة والتقليد ، حتّى يثبت لمعاصريه أنّه قادر على القول في معظم فنون الشّعر وأغراضه .

ولكننا لا نستطيع أنْ ندّعي أنّ هذه المقطّعات الغزليّة الّتي قالها ابن شرف في المذكر تمثل جانب الانحراف أو الفسق في شخصيّته أو تنم عن السّوء فيها .

الوصف :

لقد كان فنّ الوصف من الفنون الشّعريّة الّتي طرقها ابن شرف في شعره الّذي وصلنا ، غير أنّ هذا الفن الشّعريّ لم يصل إلينا في قصيدة مستقلة قائمة بذاتها ، تدور حول غرض شعريّ بعينه ، إنّما نستطيع أنْ نلحظه في كافة الأغراض الأخرى الّتي تصدّى لها ابن شرف من مدح ، وهجاء ، ورثاء ، وغزل ، وما إلى ذلك من الموضوعات الشعريّة الأخرى ، ذلك لأنّ الشّعر في معظمه إنّما يرجع إلى هذا الفن ، ويصدر عنه ، قال ابن رشيق : ((. . . الشّعر إلا أقلّه راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصاءه .)) (١) ، وإلى مثل هذا أو قريب منه ذهب أحد الدّارسين ، حيث يقول : ((اتسعت آفاق الوصف أمام شعراء الأندلس بعامّة ، وشعراء الطّوائف بخاصّة ، فنبغوا فيه أيّما نبوغ ، وكانت الطبيعة هي الملهم الأكبر لهم حتّى صارت المنطلق لكثير من فنونهم .)) (٢) .

ولمّا كانت الأغراض الشّعريّة السّابقة الّتي طرقها ابن شرف تُعنى بتصوير الواقع الّذي يعيش فيه ويتفاعل معه بطريق غير مباشر ، فإنّ هذا الفنّ يُعنى بتصويره ونقله بصورة مباشرة ، ويعرض لنا منه صوراً حيّة نابضة بالحياة ، ذلك لأنّ الشاعر في هذا الفن أشبه ما يكون بمصوّر بارع يبحث عن مواطن الجمال

---

(١) العمدة ، ٢ / ٢٩٤ .
(٢) البيئة الأندلسيّة ، ص : ١٠١ .

في كلّ ما يحيط به ، فيلتقط منه صوراً جميلة أخّاذة مؤثّرة ، تصوّر لنا الواقع بأدق تفصيلاته ، وجزئياته مهما صغُرت ، فيجعلنا أمام ذلك الواقع ، وكأنّنا نعيشه ونتفاعل معه ، فنتأثر فيه ويؤثر فينا ، وهذا ما يستطيع الدّارس لآثار ابن شرف الشّعريّة والنثريّة — على حد سواء — أنْ يراه بكلّ وضوح ، فشاعرنا كغيره من شعراء الأندلس والمغرب كان معجباً مفتونا بطبيعة بلاده الجميلة الفاتنة ، فاستوقفه ذلك الجمال ، وتلك الطبيعة الخلّابة ، فوصفها لنا وصفاً دقيقاً ، كما وصف البيئة المحيطة به ، وما فيها من مظاهر مختلفة ، وصفها لنا صامتة ، ومتحرّكة ، وصناعيّة ، فتوقّف عند ما فيها من حدائق ، ورياض ، وبساتين ، وأشجار ، وثمار ونباتات ، وأزهار ، وورود ، وما إلى ذلك ، كما وصفها لنا متحرّكة ، فوصف الحيوان مثل : الزّرافة ، والبرغوث ، وغيرهما ، كما توقّف عند بعض مظاهر الحياة اليوميّة الّتي عاشها ، فصوّرها لنا تصويراً رائعاً متخذاً من اللغز وسيلة لذلك ، فوصف لنا الميزان ، والإبرة ، والمرآة ، ومكدة الثّياب ، وحبل الغسيل ، وغيرها من تلك المظاهر الصّناعيّة البسيطة الّتي كان يراها ، ويتفاعل معها . هذا بالاضافة إلى وصف بعض نواحي الحياة الثقافيّة الّتي كان لها اتصال بحياته ، مثل : الأقلام ، كما وصف لنا وطنه القيروان الّذي مني بالدّمار والخراب على أيدي الأعراب ، فصوّره لنا قبل خرابه وبعده ، مثلما صوّر لنا نفوس أهله وهم في ديار الغربة ، كما سنرى .

ولو أنّ يد الزّمن سمحت لشعره بالوصول إلينا لاستطعنا أنْ نرى وصفاً لمختلف جوانب الحياة الّتي تفاعل معها ، وعملت على شحذ قريحته وشاعريته .

ومن الجدير بالاشارة هنا أنّ طبيعة بلاده الجميلة وما فيها من جبال خضراء ، وسهول واسعة ممتدة غاصّة بما لذّ وطاب من الأشجار والنباتات والثّمار ، وما فيها من أزهار وورود ذات الوان مختلفة ، وروائح شذية عبقة

كانت من أهمّ الأمور التي استوقفته وجذبت انتباهه ، فهام في أحضانها يبثّها الحُبّ والغرام ، ويبثّ إليها لواعج نفسه ، وخبايا صدره ويحبّر إليها عمّا في نفسه لها من حُبّ واعجاب وافتتان وتعلّق ، فجعلته ينطلق في وصفها وتصويرها على سجيته مُعبّراً عن مفاتنها ، ومباهجها ، ومواطن الجمال فيها دونما قيود ، فها هو يصف لنا وادياً جميلاً غطت جوانبه الأزهار اليانعة الخضراء ذات الألوان المتعدّدة التي كان منظرها يبعث البهجة والسرور في نفس من يمتّع نظره برؤيتها ، وبمنظرها الخلّاب ، فيقول :

رِياضٌ غَلائِلُها سُنْدُسٌ ... تَوَشَّتْ مَعاطِفُها بالزَّهَرْ
مَدامِعُها فَوْقَ خَطِّ الرُّبا ... لَها نَظْرَةٌ فَتَنَتْ مَنْ نَظَرْ
وَكُلُّ مَكانٍ بِها جَنَّةٌ ... وَكُلُّ طَرِيقٍ إِلَيْها سَفَرْ (١)

ويصف لنا بستاناً يغصّ بالأشجار والثّمار المتنوّعة المختلفة ، فيتوقّف عند عرائش العنب ذات الظّلال الوارفة الخضراء ، ويشبهها بالدّرّ واللؤلؤ ، ويتوقّف عند حبّات العنب فيشبهها بالعسل الممزوج بالماء الصّافي العذب ، فيقول :

سَقَى اللّهُ عَيْشِي تَحْتَ رَيّانَ يانِعٍ ... مُمَدّاً بأنداءٍ وَبَرْدِ ظِلالِ
كأنّي إذا امتدّتْ عَلَيَّ ظِلالُهُ ... مَسَحْتُ على بُرْدَيَّ رَوْعَ غَوالِي
كأنَّ على أَفْراعِهِ أَدْمُعَ الحيا ... نِظامُ لآلٍ أَوْ نُجومُ لَيالِي
كأنَّ على أَعْنابِهِ سُنْدُسِيَّةً ... سَواتِرُ مِنْ حَرِّ الهَجِيرِ كَوالِي
كأنَّ مَدِيدانِ العَرائِشِ فَوْقَنا ... هَوابِطُ خِلْجانٍ تَلِينُ عَوالِي
كأنَّ جَنَى المَقْطُوفِ مِنْ ثَمَراتِها ... جَنَى النَّحْلِ مَمزوجاً بِماءِ زُلالِ (٢)

ويتوقّف في ذلك البستان عند شجرة الرّمّان ، فيصف لنا أزهارها وثمارها وصفاً دقيقاً ، فيضعنا أمام صورة حيّة نابضة بالحياة ، فيجعل منها فتاة

---

(١) معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٩ .
(٢) مقامات السّيوطيّ ، ص ٣٦ .

جميلةً غيداءَ ممتلئةَ الصَّدرِ ، مخضَّبة الكفّين ذات أنامل مزينة جميلة ، فيقول :

كأنَّ سَنا النّارنجِ فوقَ غصونِهِ سنى الجمرِ يُذكي بالأكفِّ مَالِي
كأنَّ مبادي الجلّنارِ أنامِلٌ مطرّفة من دَامياتٍ نِبَالِي
كأنَّ ذرى الرُّمّانِ غيدٌ نواهِدٌ جلاهُنَّ في أعلى المِنصَّةِ جالِي (١)

ومن اللافت للنّظر هنا أنَّ شاعرنا عندما يصف فإنّه يحرص حرصاً كبيراً على أنْ يقيم تشابهاً مابين مظاهر الطبيعة الساكنة وما بين عناصرها المتحرّكة ، فكثيراً ما كان يشبّه العرائش بالأمواج المتتابعة المتلاحقة في الخليج ، وحبّات الرّمان بنواهد الفتاة الغيداء ، وقطرات النّدى بالنجوم والدّرّ ، متكئاً في ذلك كلّه على التشبيه المستمد من واقع حياته ، ومن بيئته المحيطة به ، فجني العنب عسل ، وورق العنب حرير ، وسنا النّارنج في حمرته يشبه جمر النّار ، وهكذا .

ويتوقّف عند كلّ نبتة أو زهرة أو شجرة في ذلك البستان وقفة الرّسام الحاذق البارع في مزج الألوان ، فيرسمها لنا بألوانها المختلفة الزّاهية ، لينقل لنا في نهاية المطاف صورة كلّيّة متكاملة لذلك البستان الّذي يضمّ فيه أنواعاً مختلفة من الأزهار ، والأشجار والنباتات ذات الألوان والأشكال المختلفة المتنوّعة ، فها هو يتوقف عند أشجار النّبق والخوخ ، فيصورها لنا بألوانها الزّاهية ، وثمارها اللّذيذة الممتعة ، وعند أزهار الياسمين والورد ، فيصفها لنا بروائحها العبقة الشذية ، ويحاول أنْ يعقد مقارنة بين هذه الأمور الخلّابة ، وبين ما يحيط به من مواطن جمال ، فيرى أنَّ حبّات الخوخ خدود مخمّشة ، وأنَّ ثمارَ النّبق عسجد تنبثق عنه أشعة صفراء ذات بريق أخّاذ ، وأنَّ زهرات الورد قلادة جميلة على صدر فتاة جميلة ، وهذا واضح من قوله :

---

(١) المصدر السّابق ، ص : ٣٦ .

كأنّ ثِمارَ النَّبْقِ أنجُمُ عَسْجَدٍ ... بِغَيْرِ سَنا شَمْسٍ ونُورِ هِلالِ
كأنّ ثِمارَ الخَوْخِ يُبْدِي جُنوبَها ... خُدُودٌ مِنَ التَّخْمِيشِ ذاتُ بَلالِ
كأنّ جَنى وَرْدٍ بِهِ جُمِعا مَعاً ... عَقِيقٌ ودُرٌّ في تَرائِبِ حالِي
كأنّ ذَكِيَّ الياسَمِينِ وَمُسْنَهُ ... جَمِيلُ ثَناءٍ عَنْ جَزِيلِ نَوالِ (١)

ومهما يكن من أمر ، فإنّ هذه القصيدة تكشف لنا عن أسماء الأشجار ، والأزهار ، والنباتات والورود الّتي كانت تجود بها بلاد المغرب والأندلس في عصر ابن شرف ، مثلما تكشف لنا عن مواطن الجمال والفتنة في تلك الطبيعة الخلاّبة المعطاء .

ولكنّ الأمر لم يكن ليقتصر على وصف الفواكه والأزهار والرّياض ، إنّما تعدّى ذلك إلى وصف الثّمار والخضار الّتي كانت موجودة في بيئة الشّاعر من مثل : الموز ، والرّطب ، والخسّ ، والبطيخ ، والخيار ، ومن ذلك قوله في وصف الخس :

ورأسٍ قَبّاريّةٍ(٢) برأسِهِ ... أثْوابُهُ تَحْمِيهِ والمَخالِبُ
في مِثْلِ خَلْقِ الخَلْقِ إلاّ أنّهُ ... قَلْبُ عَدُوٍّ كُلُّهُ عَقارِبُ(٣)

وكثيراً ما كان ابن شرف يشبّه هذه الثّمار وهذه الخضار بالزّبرجد والعقيق والزّمرد ، ليضفي عليها قيمة جماليّة معينة ، فيجسّد فيها الحياة ويقتلها ، ذلك لأنّه يجعلها ساكنة لا حراك فيها ، ومن ذلك قوله :

وَمَطْبُوخٍ بِغَيْرِ عَقِيدِ نارٍ ... عَزَمْتُ على جِناهُ بائْتِكارِ
تَوارَيْتُ تَبَدّتْ في عَقِيقٍ ... مُقَمَّعَةٍ بِمَسْبُوكِ النُّضارِ
تَرَى لِصَفاءِ جَوْهَرِها نَواها ... كألسِنَةِ العَصافِيرِ الصِّغارِ(٤)

وكما في قوله عندما وصف البطيخ :

---

(١) المصدر السّابق نفسه ، ص : ٣٦ .
(٢) القبّاريّة : نوع من أنواع الخسّ في المغرب . أنظر : شفاء الغليل ، ص : ١٦٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٨١ .
(٤) نهاية الأرب ، ١١/١٢٨ .

رَتْقاءَ لَمْ يَسْلُكْ بِهَا غَوْرُ الأَشَافِي قَطُّ نَهْجَا
تَزْهو بِلَوْنَي خُضْرَةٍ هَذَا انْتَهَى وَأَخُوهُ أَجَّا
كَزُمُرُّدٍ وَزَبَرْجَدٍ رَصَّعْنَ لِلكَافُورِ دُرْجَا (١)

ويصف لنا ابن شرف النّدى ذلك المظهر الطبيعيّ الخلّاب الّذي يعانق أوراق الأشجار والنباتات والأزهار، لحظة شروق الشّمس، فيراه زَبَرْجَداً قد أثمر دُرَراً، فيقول :

كَأَنَّمَا الأَغْصَانُ لَمَّا عَلَا فُرُوعَهَا قَطْرُ النَّدَى نَثْرَا
وَلَاحَتِ الشَّمْسُ عَلَيْهَا ضُحًى زَبَرْجَدٌ قَدْ أَثْمَرَ الدُّرَّا (٢)

ويصف لنا زُحل، فيراه شيخاً كبيراً قد تقدّمت به السّنون، وقد اتخذ لنفسه، غُرْفَةً فَخْمَةً عاليةً تليق به، فيقول :

وَشَيْخٍ لَهُ غُرْفَةٌ فَخْمَةٌ حَلَّتْ وَهْوَ فِيهَا جَمِيعُ الغُرَفْ
يَمُرُّ وَيَرْجِعُ طُولَ الزَّمَانِ فَكَمْ مَرَّ مِنْ مَرَّةٍ وانْصَرَفْ
وَيُفْسِدُ كُلَّ مَكَانٍ حَوَاهُ عَلَى أَنَّهُ غَايَةٌ فِي الشَّرَفْ (٣)

هذا ولم يكن الأمر في وصف شاعرنا ليقتصر على وصف الطبيعة الصّامتة فحسب، بل تعدّى ذلك إلى وصف الطبيعة المتحرّكة الناطقة، فوصف لنا بعض الحيوانات الّتي عايشته وشاركته في بيئته كالإنسان، والبراغيث، وغيرهما، ومن ذلك قوله في وَصْفِ البرغوث حَيْثُ يقول :

لَكَ مَجْلِسٌ كُلَّتْ سِتَارَتُنَا بِهِ اللَّهْوِ لَكِنْ تَحْتَ ذَاكَ حَدِيثُ
تَغَنَّى الذُّبَابُ وَظَلَّ يَزْمُرُ حَوْلَهُ فِيهِ البَعُوضُ وَيَرْقُصُ البَرْغُوثُ (٤)

ومن الحيوانات الأخرى الّتي وَصَفَها ابن شرف، الزّرافة، وَوَصْفُ الزّرافة ليس شائعاً عِنْدَ العرب الّذين تغنّوا في وصف الخَيْلِ، والناقة، وغيرهما،

---

(١) نهاية الأرب، ١١/١٢٨.
(٢) شفاء الغليل، ص: ٢١.
(٣) الغيث، ٢/٢٨٠.
(٤) المعاهد، ١/٢٢٠.

إذ لم تكن من حيواناتهم المألوفة الشّائعة ، قال ابن رشيق : ((... ومن الأوصاف القليلة المثل قول رؤبة يصف الفيل ... ، وقولي أنا في زرافة أتت في الهديّة من مصر إلى مولانا المعزّ.)) (١) .

ومهما يكن من أمر فإنّ شاعرنا قد أبدع في وصف هذه الزّرافة وتصويرها ، فقد توقّف عند موطنها ، وشكلها ، ولونها ، وضخامة جسمها ، وطول عنقها ، وطول رجليها ، وقصر يديها ، فأشار إلى أنّها غريبة الشكل ، غريبة الموطن فهي غير موجودة في وطنه ، والى أنّها تجمع في هيئتها وصورتها . هيئة وصورة حيوانات مختلفة ، وهذا واضح من قوله :

غريبةُ أشكالٍ غريبةُ دارِ ... لها الوطي فضّةٍ ونُضارِ
فلونٌ لها لونُ البياضِ وصفرةٌ ... كما مزجت بالماء كأسٌ عقارِ
وآخر ما بين اسودادٍ وحمرةٍ ... كما احمرّ مسودّ الدّخان بنارِ
أعيرتْ شخوصاً وهي في شخص واحدٍ ... تحيّرُ في نشزٍ لها وقفارِ (٢)

ومن خلال هذه الأبيات تتجلّى لنا مقدرته الابداعيّة ودقّته في الملاحظة ، على الرّغم من أنّه لا يسير على مثال سابق يحتذى في وصف الزّرافة الذي لم يكن شائعاً عند العرب ، ولكنه مع ذلك كان دقيقاً في تصويرها ووصفها لا سيّما عندما تحدّث عن لون جلدها ، وعن يديها الطويلتين ، وعنقها الطويل ، ورأسها الصّغير ، ورجليها القصيرتين ، فها هو يقول بعد أن أطال التأمّل والملاحظة :

تقوم على ما بين ظِلْفٍ وحافرٍ ... له جِسْم جلمود وصبغة قارِ
وأربعة تحكي سبائك عَسْجَدٍ ... تطير بها في الأرض كلّ مطارِ

---

(١) العمدة ، ٢/٢٩٦ — ٢٩٧ .
(٢) نهاية الأرب ، ٩/٣٢١ .

لَهَا عُنُقٌ قد خَالَطَ الجَوَّ تَحْتَهُ ... طِوَالٌ لَهَا تَخْطُو أَمَامَ قِصَارِ (١)

وبعد أنْ وصفها لنا وصفاً حسيّاً دقيقاً ، التفت إلى صفاتها المعنويّة ، فوصفها بالمسالمة ، والرّزانة والوقار ، فقال :

لها عِجْبَةُ التَّيَّاهِ عُجْباً بِنَفْسِهَا ... ولكنَّ ذاكَ العُجْبَ تَحْتَ وَقَارِ (٢)

على أنّنا نستطيع أنْ نقول : إنّ هذه الصّفات الّتي أثبتها ابن شرف للزّرافة الّتي يصفها قد أتت في مقطوعة مستقلة خاصّة بها لا يشاركها فيها موضوع آخر ، وإنّها مستمدة من واقع حياته ومن بيئته الّتي يعيش فيها .

ولقد حاول ابن شرف أنْ يلتقط من واقع حياته ومن بيئته الّتي يتفاعل معها صوراً حيّة طبيعية لبعض مظاهر الحياة اليوميّة الّتي يعيشها ، ولبعض المصنوعات البسيطة الّتي كان يراها من مثل : الإبرة ، والميزان ، والمرآة ، والباب ، ومكمدة الثّياب ، وحبل الغسيل و . . . ، وقد وصف لنا هذه الأمور على طريقة اللّغز ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك ، حيث يقول في وصف الإبرة ملغزاً :

ضَئِيلَةُ الجِسْمِ لَهَا ... فِعْلٌ مَتِينُ السَّبَبِ
حَافِرُهَا في رَأْسِهَا ... وعَيْنُهَا في الذَّنَبِ (٣)

ويقول في وصف ميزان البناء ملغزاً :

وَمُمَلَّنٍ بِذُؤَابَةٍ في رَأْسِهِ ... مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ بَلْ لَهُ إِحْسَانُ
مَازَالَ يسألُ مُعَذِّبٌ جِسْمِهِ ... فَيُجِيبُهُ وَجَوَابُهُ تِبْيَانُ (٤)

هذا ويصف مكمّدة الثّياب وارزبتها ، فيشخصهما تشخيصاً جميلاً ، متكئاً في ذلك على الصور المستمدّة من واقع حياته ، ومن بيئته الّتي يعيش فيها ،

---

(١) نهاية الأرب ، ٩ / ٣٢١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٣٢١ .
(٣) شرح المقامات ، ٥ / ٧١ .
(٤) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٩ .

حيث استعار صورة الأم الحنون الرؤوم التي تعطف على ابنتها وتحنو عليها على الرغم من أنها تعقها ولا تبادلها الاحترام ، والحب فيقول :

وَمَشْرُوبَةٍ في ظَهْرِها حِينَ تَكْتَسِي ... فإنْ نَزَعَتْ عَنْها كُساهَا فَلا تَثْرُبُ
وَذاتُ أَسَنَّةٍ ما إنْ تَزالُ تَمُقُّها ... وَتَشْرَبُها حَتّى يَرِقَّ لَها القَلْبُ
وَما تَشْتَكِي مِنْها العُقُوقَ ولا الأَذَى ... وَبَيْنَهُما مع ذا وَذا الحُبُّ والقُرْبُ(١)

وهذه الأبيات تكشف لنا عن بعض العادات الإجتماعية اليومية التي كان أبناء مجتمعه يزاولونها ، وتعرّفنا إلى طريقة الغسيل التي كانوا يمارسونها هذا من جانب ، وإلى براعة ابن شرف ومقدرته على التشخيص والتصوير من جانب آخر .

ويصف لنا مجلس لهو وشرب أقيم في ليلة ماطرة مظلمة حضره مع بعض أصدقائه ، فيتوقف عند وصف ساقٍ جميل فيه ، ويشبهه بالفتاة الجميلة الناعمة ، ويتوقف عند الخمرة فيشبهها بحمرة خدوده ، وبلون الذهب الأصفر المشع ، فيقول :

وَلَقَدْ نَعِمْتُ بِلَيْلَةٍ جَمَدَ الحَيا ... في الأرضِ فِيها والسَّماءُ تَذُوبُ
جَمَعَ الهَشاشَةَ المُدَلّي وَانْتَزَى ... فِيها الرَّقِيبُ كأنَّهُ مَرْعُوبُ
والكأسُ كاسِيَةُ القَمِيصِ يُدِيرُها ... ساقٍ كَخُودٍ كُلُّهُ مَخْفُوبُ
حَمْرَاءُ وَرْدَةٌ في خَدِّهِ وَبِكأسِها ... دُرِّيٌّ مِنْها عَسْجَدٌ مَصْبُوبُ(٢)

ويرسم للكأس صورة جميلة وهي في حال تنقلها ما بين الشاعر والساقي فيشبهها بالشمس في حالة شروقها وغروبها ، فيقول :

مِنّي إليهِ وَمِنْ يَدَيْهِ إلى يَدِي ... فالشَّمْسُ تَطْلُعُ بَيْنَنا وَتَغِيبُ(٣)

ويصف بعض آلات اللهو والطرب التي كانت تمدح في مجالس اللهو والطرب فيعبّر عن اعجابه بها ، ومن ذلك قوله في عود الغناء :

---

(١) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٩ — ١٢٠ .
(٢) معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٣٩ .

سَقَى اللّهُ أرْضاً أنْبَتَتْ عُودَكَ الّذي ... زَكَتْ مِنْهُ أغْصانٌ وَطابَتْ مَغارِسُ
تَغَنّى عَلَيْهِ الطّيْرُ والعُوْدُ أخْضَرُ ... وَغَنّتْ عَلَيْهِ الغِيْدُ والعُوْدُ يابِسُ(١)

ويصف لنا تَمْقَى أدوات الكتابة مستوحياً ذلك من بيئته الخاصّة ، حَيْثُ كان كاتباً في ديوان المراسلات عند المعزّ بن باديس ، فيصوره لنا كالإصْبَعِ إلاّ أنّه من غير ظفر أو كالأفعى القصيرة ، ليضفي على جُموده شيئاً مِنَ الحركة ، فيقول :

قَلَمٌ قَلَّمَ أظْفارَ العِدا ... فَهْوَ كالإصْبَعِ مَقْصُوصِ الظُّفُرْ
أشْبَهَ الحَيّةَ حتّى أنّهُ ... كلّما عَمَّرَ في الأيْدي قَصُرْ (٢)

والحق أنّ ابن شرف قد أجاد في تصوير وطنه ومسقط رأسه القيروان اثر خرابه على أيدي الأعراب الّذين عاثوا فيها خراباً ودماراً ، والحقوا بأهله القتل والتشريد والظّلم ، فصوّره لنا قبل الكارثة حَيْثُ كان معموراً بأهله مزدهراً بهم ، فيقول :

يا بَيْدَ رَوْضَةِ والشوارعُ حَوْلَها ... مَعْمُورَةٌ أبداً تَغُصُّ وَتَمْتَلِي (٣)

كما صوّره بعد الكارثة فيقول :

تَرَحّلَ عَنْها قاطِنُوها فَلا تَرى ... سِوى سائِرٍ أوْ قاطِنٍ وَهْوَ سائِرُ
تَكَشّفَتِ الأسْتارُ عَنْهُم وَرُبّما ... أُقِيمَتْ سُتُورٌ دُوْنَهُم وَسَتائِرُ
إذا جاذَبَتْ أسْتارَها تَبْتَلي بِها ... لا قُدامَها سِتْراً تَبَدّتْ غَدائِرُ
تَبِيْتُ على فُرْشِ الحَصى وَغِطاؤُها ... دَوارِسُ أسْمالٍ زَوارٍ حَقائِرُ (٤)

ونستطيع من خلال شعره الّذي وصف به وطنه القيروان أنْ نلمح ببكل وضوح مقدرته على التّشخيص والتّصوير ، ودقّته في الوصف كما سنرى عند ما نتحدّث عَنْ شِعْرِهِ الّذي قاله في رثاء وطنه فيما بعد .

---

(١) المطرب ، ص : ٧٦ .
(٢) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ٨٦ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٣ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٥ .

الحكمـــــــــة :

لمّا كانت الحكمة هي : ((الحقيقة المجرّدة الّتي يختزنها العقل نتيجـــة للثقافة أو التجربة ، أو الاستنباط ، لينتفع بها في مواجهة ما يجابهه مـــن مشكلات الحياة)) (١) ، فهي إذن ثمرة الخبرة والتجارب الطّويلة الّتي عاشهـــا الشّاعر ، واختزنها في نفسه لفترة طويلة من الزّمن ثم يطبقها على مواقـــف الحياة الّتي تواجهه في حياته اليوميّة ، لاسيّما بعد أنْ يقيم بين هـــذه المواقف وتلك التجارب علاقات معيّنة ، ويعكسها على ما يصادفه من احداث ومشاكل ، بعد أنْ يصوغها في جمل وتراكيب معبّرة مؤثرة تخاطب الوجدان البشـــريّ ، وتضرب في أعماقه ، يصوّر فيها الأديب أو الشّاعر معاناته الطّويلة مع النّـــاس ، والمجتمع ، والحياة بكلّ ما فيها من متناقضات .

وهذه المقدرة الفنيّة لاتتأتى إلاّ لشخصيّة واعية ، خصبة ، ذات ثقافـــة واسعة عميقة ، بليغة ، مجرّبة ، عاركت الأيام وعاركتها ، فأذاقتها من أمنهـــا وخوفها ، من فرحها وحزنها ، حلوها ومرّها ، وأكسبتها خبرة ودراية في النّـــاس ، وفي الحياة ، شخصيّة ذات حواس مرهفة ، واحساس دقيق ، فكلّما ازدادت تجارب الأديب ، واتسعت ثقافته ، ونمت ، وكثرت أفكاره ، أصبح قادراً على الابتكـــار والتوّليد .

وهذه أمور ومقوّمات تسلّح بها ابن شرف فقد هيّأ له عمره الطّويـــل الّذي عاشه في المغرب والأندلس ، وتنقّله ما بين مدنهما ، واتصاله بأقـــوام مختلفة ، وشعوب متنوعة أنْ يكوّن موقفاً من كل ما يحيط به ، وأنْ يتصـــل ببيئته ، ومجتمعه ، والنّاس ، اتصالا مباشراً ، فجسدّ لنا معاناته مع هـــؤلاء جميعا في مجموعة من الحكم بثها في طيّات قصائده وأشعاره .

ونستطيع من خلال اتصالنا بحكم ابن شرف الّتي وصلتنا أنْ نلاحظ أنّـــه

---

(١) ابن زيدون ، ص : ٤٣٧ .

قد استوحاها من منابع متعدّدة ذات روافد كثيرة ، فقد استوحاها من الحياة ، ومن الموت ، ومن واقع حياته العمليّ ، ومن تجاربه مع النّاس وعلاقاته بهم ، ومن الزّمن وأحداثه وتقلّباته ، ومن ثقافته الواسعة ، ومن بيئته المحيطة به وما فيها من مواطن الجمال والتأمّل .

كما استوحى معظم حِكَمِهِ من أقوال الشُّعراء الّذين سبقوه من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين ، ولكنّه فُتِنَ أكثر ما فُتِن بأقوال وحكم أبي الطيّب المتنبي الّذي كان مثلاً أعلى له ، قال الصّفديّ : ((وأخذ خمسين بيتاً مفاريد من قول المتنبّي ، وخمسين بيتاً من أشعار العرب ، وغيرهم ، ونظم في معنى المائة بيت المذكورة قصيدةً من روي اللام ألف ، وأتى بما في بيت من معنى الحكمة في بيته هو .)) (١) .

فالنّاس في نظره يتّصفون بالغدر ، والخيانة ، وموت الوفاء ، ولا سيّما الّذين خالطهم واتصل بهم من الأصدقاء ، وهذا واضح من قوله :

وَلَقَدْ يُهَوِّنُ أَنْ يَخُونَكَ كَاشِحٌ ... كَوْنُ الخِيَانَةِ مِنْ أَخٍ وَخَدِينِ
لَقِيَ أَخُو يَعْقُوبَ يَعْقُوبَ الأَذَى ... وَهُمَا جَمِيعاً فِي ثِيَابِ جَنِينِ
ومضى عَقِيلٌ عن عليٍّ خَاذِلاً ... وَرَأَى الأَمِينُ جِنَايَةَ المأمونِ
فعلى الوَفَاءِ سَلَامٌ غَيْرُ مُعَايِنٍ ... شَخْصاً لَهُ إِلَّا عِيَانَ ظُنُونِ (٢)

واضح أنّ ابنَ شرف هنا يصدر عن تجربة عمليّة كان قد عاشها مع أحد النّاس ، فعبّر عنها تعبيراً صادقاً متكئاً في ذلك على ثقافته العربيّة والتاريخيّة الواسعة .

هذا وإذا كان الغدرُ سجيّةً وطبعاً ، فالثّقة بكلّ أحدٍ عجزٌ وأمرٌ يصعب تحقيقه ، ذلك لأنّ النّاس في رأيه يخلفون المواعيد ، ويقولون ما لا

---

(١) الوافي بالوفيات ، ٣ / ٩٩ .
(٢) معجم الأدباء ، ١٩ / ٤٠ — ٤١ .

يفعلون ، وفي هذا يقول :

وَجَدْتُ النّاسَ كُلَّهُمُ طُلُولاً ... فَلَمْ أُطِلِ الوُقُوفَ على الطُّلُولِ
وَتَسْمَعُ مِنْهُمُ ما لا تَراهُ ... كَسامِعِ ضَرْبَةِ السَّيْفِ الصَّقِيلِ
فَمَنْ يَسْتَوِكَ باعَكَ فاغْنَ عَنْهُ ... كما استغنى عليٌّ عَنْ عَقِيلِ (١)

ويتحدّث ابن شرف عن الصّديق الوفيّ المخلص ، فيرى أنّه غير موجود في هذه الحياة ، وأنّ النّاس الّذين يتعاملون معه أصحاب غدر قويّ وثيق ، فيقول :

وأَفْقَدُ ما طَلَبْتُ فَلَمْ أَجِدْهُ ... رَفِيقٌ في صحابته رَفِيقُ
فأَصْبَحَ وَهْوَ للمَنْعَاءِ ثانٍ ... وثاوٍ حَيْثُ فَرَّقَتِ الأُنُوقُ
صَحِبْتُ بِهذِهِ الدُّنْيا أُناساً ... إذا غَدَرُوا فغَدْرُهُمُ وَثِيقُ
وَلَمْ أَصْحَبْهُمُ وُدّاً وَلكِنْ ... كما جَمَعَ العدوَّيْنِ الطَّرِيقُ (٢)

وهو هنا ينظر في حكمته هذه إلى قول المتنبّي الّذي يقول فيه :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيا على الحُرِّ أَنْ يَرَى ... عَدُوّاً لَهُ ما مِنْ مَحَبَّتِهِ بُدُّ (٣)

ونظر إلى الموت فوجده حيواناً مفترساً يتغذّى على هؤلاء النّاس ، فيخطفهم واحداً واحداً ، وهذا واضح في قوله :

والنّاسُ أَقْوَاتُ هذا الموتِ يأكُلُهُمْ ... جِيلاً فجِيلاً إلى أنْ لا تَرَى جِيلاً (٤)

والنّاس متساوون أمام الموت ، فلا فرق بين عالم وجاهل ، إذ لا ينفع العالم علمه ولا الطبيب طبّه ، وهذا واضح من قوله :

سِيّانَ في الموت ذو علمٍ وذو جَهْلٍ ... وربّما زادَ أَهْلَ الجَهْلِ تَجْهِيلا (٥)

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٤ .
(٣) ديوان المتنبّي ، ١ / ٣٧٥ .
(٤) مخطوط خزانة ابن يوسف ، ص : ٢٠٧ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٢١٤ .

وقد يستوحي بعض حكمه من النفس، فكان يدعو إلى صونها وابعادها عن مواطن الذل والهوان، بل إنّ الموت في نظره أهون وأفضل من الذل والهوان، وهذا واضح من قوله :

الموتُ أهْوَنُ مِنْ عَيْشِ الذَّلِيلِ وَمَنْ يَحْسُدْ ذَلِيلاً كَساهُ اللهُ تَنْكِيلا (١)

كما استوحى بعض حكمه من واقع حياته العملي، فوجد أنّ الحسب والحظ كفيلان بحماية الانسان من الخطوب والمكاره، بل إنّهما كفيلان بتحويل مساوئه، وقبائحه إلى محاسن، فيقول :

إذا صَحِبَ الفتى جَدٌّ وَسَعْدٌ تَحامَتْهُ المكارِهُ والخُطُوبُ
وَوافاهُ الحبيبُ بِخَيْرِ وَعْدٍ كَفِيلَيْنِ وَقادَ لَهُ الرَّقِيبُ
وَعَدَّ النّاسُ صَرْعاتِهُ غِناءً وقالوا إنْ قَسا قَدْحاً حَبِيبُ (٢)

وكثيراً ما كان ابن شرف يستوحي الحكمة من طبيعة بلاده الجميلة الغنيّة بالاشجار والأزهار، والثمار، والطيور والأنهار، وهذا واضح من قوله :

والطَّيْرُ لا تَلْقَى إلاّ لِمَزْرَعَةٍ وَهَيْثُ تَلْقَى الثَّرى رَيّانَ مَبْلُولا (٣)

وقد استوحى بعض حكمه من خلال اتصاله بممدوحيه، ومن ذلك قوله :

سأبْقِي على الدُّنيا بِحَوْلَةِ مِحْرَبٍ وَإلاّ على الأُخْرى بِوَصْلَةِ مِحْرابِ
وَلا خَيْرَ في عَيْشٍ يَكُونُ قِوامُهُ بِمِنْحَةِ مَكْذُوبٍ وَمِدْحَةِ كَذّابِ (٤)

ومما لا شك فيه أنّ ابن شرف عندما يستوحي حكمته من ممدوحه، فإنّه يصدر فيها عن تجربة عمليّة كان قد مرّ بها معه، فعبّر عنها تعبيراً صادقاً.

ولقد ضمّن ابن شرف الحكمة في قصيدة المديح، وقد بدا فيها متأثراً بالقرآن الكريم ومن ذلك قوله :

---

(١) المخطوط السابق، ص : ٢١١.
(٢) معجم الأدباء، ١٩ / ٤٠.
(٣) مخطوط خزانة ابن يوسف، ص : ٢٠٧.
(٤) الخريدة، ق ٤ ج ٢ / ١١٨.

مالي كذا كلُّ ما طلبتُه عسرٌ ... وقد أخذتُ بحبِّ المطلبِ العسرِ
مالي أجاذبُ دنيا الدنيا مُوليّةً ... فكلُّ ثوبٍ عليها قدَّ من دُبُرِ (١)

واضح أنّ ابن شرف في قوله هذا ، ينظر إلى قوله تعالى : ((إنْ كانَ قميصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ، فكذبتْ وهُوَ مِنَ الصّادِقينَ . . .)) (٢) .

ويتحدّث عن المال ، فيرى أنّه أساسٌ للرّفعة والمجد ، لاسيّما إذا كان مصاحباً للمجد مقترناً به ، فيقول :

لا مجدَ إلاّ بمالٍ فالتمِسْهُ ... ولا مالٌ إذا لم يكُنْ بالمجدِ مشمولا (٣)

ويرى أنّه يستر عيوب النّاس ، ويغضي على جهلهم وعيوبهم ، فيقول :

والمالُ يستُرُ جهلَ الجاهلين بهِ ... والفقرُ يورثُ أهلَ الفقرِ تجهيلا (٤)

هذا ويمكننا أنْ نلاحظ أنّ الحكمة عند ابن شرف ، كانت تجري على لسانه من غير تصنّع ولا تكلّف ، فكثيراً ما كان يذيّل بعض أبياته بحكمة ، ومن ذلك قوله :

وإنْ أرجُو التخلّصَ من عظيمٍ ... فقد ينجُو من اللّججِ الغريقُ (٥)

وقوله : أودعتُها سرَّ الهوى فوشتْ بهِ ... ما كلُّ منْ منحَ السّرائرَ صانَها (٦)

وقوله : أبا حسنٍ أحسنتَ بدءاً وعودةً ... وللحُسنِ آثارٌ إذا كانَ توريقُ (٧)

وقوله : وأهجرُهُ وهُوَ اقتراحي من الورى ... وقد تُهجرُ الأهواءُ وهْيَ قِراحُ (٨)

وقوله : لم يُلهِكَ العزُّ عن أهلِ الخمولِ على ... أنّ الغنى شاغلٌ والعزُّ فتّانُ (٩)

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٢ .
(٢) سورة يوسف ، آية رقم : ٢٥ .
(٣) مخطوط خزانة ابن يوسف ، ص : ٢١٣ .
(٤) المخطوط نفسه ، ص : ٢٠٦ .
(٥) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٤ .
(٦) معجم السّلفي ، ص : ٣٠ .
(٧) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٦ .
(٨) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٧ .
(٩) المسالك ، ج ١١ / ٢٤١ .

ولقد غلب الصّدق على حكم ابن شرف ، ذلك لأنّها كانت صادرة عن تجارب واقعيّة كان قد عاشها مع الحياة ، والنّاس ، والمجتمع ، فجاءت معبّرة عن شخصيّته أدقّ تعبير .

الرثـــــاء :

إنّ معظم ما وصلنا من شعر ابن شرف في الرّثاء ، يدور حول رثاء وطنه ومسقط رأسه القيروان الّذي سقط على أيدي الأعراب ، فما أنْ حلّت سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة حتّى أخذت القيروان ونواحيها تتهاوى واحدة تلو الأخرى تحت ضربات الأعراب على صورة محزنة مثيرة للرّعب والفزع ، وتكتسح من قبل جموعهم الزّاحفة بسرعة مذهلة ،

الأمر الّذي أرغم المعزّ بن باديس وحاشيته على الانتقال إلى المهديّة ، وقد كان في تلك الحاشية المهزومة شاعرا القيروان في ذلك العصر وهما : ابن رشيق ، وابن شرف ، وغيرهما من شعراء القيروان الّذين رأوا خراب وطنهم ودماره بأمّ أعينهم ، مثلما رأوا التّنكيل بالنساء ، والأطفال ، وهدم المساجد ، وسبي النساء ، وما إلى ذلك من صنوف التعذيب والتخريب فعانوا ما عاناه أبناء وطنهم من قهر ، واذلال ، وقتل ، وتشريد ، وتعسّف ، فترك ذلك كلّه آثاراً طموسة في نفوس هؤلاء الشّعراء ، وفي نفسيّة شاعرنا الّذي حاول أنْ يصوّر هذه النكبة ، وهذه المصيبة الّتي ألمّتْ بوطنه تصويراً حزيناً يفيض ألماً ، وحرقةً ، ولوعةً وأسىً ، مثلما ترك آثاره على شاعريته ، الأمر الّذي دفع بابن بسّام إلى القول في ترجمته لشاعرنا : ((. . . وسال سيل فتنة القيروان اللاعب بأحرارها ، المعفي على آثارها ، فتردّد على طلول الطّوائف بالأندلس ، بعد مقارعة أهوال ، ومباشرة خطوب طوال ، وقد نبت شفرته ، وطفئت جمرته))(١) .

ولقد أنطقته هذه الكارثة بعدّة قصائد ، حاول فيها أنْ يصوّر ما كانت عليه القيروان من أمن ، وهدوء ، وطمأنينة ، واستقرار قبل هذه النكبة الوحشيّة

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٠ .

التي فرّقت أبناء وطنه ، وعطف على تشريدهم ، وكيف أصبح حالها بعد الكارثة ، حيث عمّها الدّمار والخراب ، والتشريد ، فصورها لنا تصويراً حزيناً دقيقاً ، ونقل لنا صوراً حيّة من واقع النّكبة ، ومن واقع الكارثة ، وكأنه مصوّر صحفيّ يعنى بالتقاط المشاهد والصّور المؤثرة المؤلمة التي كان يراها ، وتقع أمامه بدقّة وتفصيل ، مستوحياً تلك الصّور ، وتلك المشاهد ، من ثقافته العربيّة والدّينيّة الواسعة ، فكثيراً ما كان يصوّر لنا خروج أبناء القيروان منها وهم حفاةٌ عراةٌ ، فارّين مذعورين مذهولين ، همّ الواحد منهم أنْ ينجو بنفسه تاركاً وراءه أطفاله ، وكل ما يملك ب ((يوم الحشر)) ، ومن ذلك قوله :

بَعْدَ يَوْمٍ كأنّما حُشِرَ الخَلْـ ... ـقُ حُفاةً بِهِ عَوارِيَ رَجْلَى
وَلَهُمْ زَحْمَةٌ هُنالِكَ تَحْكِي ... زَحْمَةَ الحَشْرِ والصّحائِفُ تُتْلَى
وَعَجِيجٌ وَضَجّةٌ كَعَجِيجِ الـ ... خَلْقِ يَبْكُونَ والسّرائِرُ تُبْلَى
مِنْ أيامى وراءهنّ يَتامَى ... مُلِئوا حَسْرَةً وَشَجْواً وَثُكْلا
وَثُكالَى أرامِلاً حامِلاتٍ ... طِفْلَةً تَحْمِلُ الرّضاعَ وَطِفْلا
وَحَصانٍ كأنّها الشّمسُ حُسْناً ... كَفَّنَتْها الأطمارُ نَجْلاءَ كَحْلا
فاتَ كرسيّها الجَلاءُ فأضْحَتْ ... في ثِيابِ الجَلاءِ للنّاسِ تُجْلَى (١)

وحتّى يضفي على خروج أبناء وطنه مسحة حزينة ، فقد جعل مشاهد الوداع ، تلك المشاهد التي كانت مألوفة في وطنه قبل هذا المصاب ، تختفي من حياتهم وتتلاشى ؛ ذلك لأنّ الكلّ منهم مسافر ، ولا مقيم منهم يشيّع مسافراً ، فيقول :

نائِباتٍ عَفْراءُ تُشْعِدُ سُعْدَى ... وَسُعادٌ تُجِيبُ بالنّوْحِ جُمْلا
لَيْسَ مِنْهُنّ مَنْ يُوَدّعُ جاراً ... لا ولا حُرْمَةٌ تُشَيّعُ أهْلا
كلّهنّ اعتدى الفِراقُ عَلَيْهِ ... فاقْتَحَمْنَ الجَلاءَ حَفْلاً فَحَفْلا (٢)

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٦ .

ومما تقدّم يتضح لنا أنّ ابن شرف يشير إلى عادة اجتماعية كانت شائعة ومألوفة في عصره ، كان أبناء وطنه يقومون بها قبل هذه الفادحة ، ألا وهي تشييع مَنْ يسافر منهم ، وهذه صورة اقتنصها شاعرنا من واقع حياته ، ومن بيئته الّتي يعيش فيها .

ويشير إلى أنّ الظّروف القاسيّة الّتي عاشها أبناء وطنه بعد خروجهم منه ، قد تضافرت عليهم مع الدّهر والإنسان ، والحقت بهم القتل ، والتّشريد ، والقهر ، والاذلال ، والهوان ، وهذا واضح من قوله :

فإذا القَفْرُ ضَمَّهُمْ فَوْقَ الدَّهْـ ... ـرُ لَهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ النَّقْلِ نَبْلا
مِنْ ثَعَابِيْنَ حَامِلِيْنَ نُيُوبَاً ... عُصُلاً ذَابِلاً وَنَبْلاً وَنَصْلا
وَشَيَاطِيْنَ رَاجِمِيْنَ يُلاقُو ... نَ بِجَوْنِ الفَلا مَسَاكِينَ عُزْلا
فَتَرَى للظُّهُوْرِ تُمْتَلُ عَتْلاً ... وَتُشَقُّ البُطُوْنُ تُغْسَلُ غَسْلا
فإذا مَطْمَعٌ أصابُوهُ في أحْـ ... ـشَاءِ قَوْمٍ عَمُّوا بِذَلِكَ كُلّا (١)

ولقد صوّر لنا أبناء وطنه في غربتهم تصويراً يفيض ألماً ، وحرقةً ، وأسىً على هذا المصير الّذي آلوا إليه بَعْدَ خراب وطنهم : مِنْ ذُلٍّ ، وهوانٍ ، وقهرٍ ، وتشرّدٍ ، وتفرّقٍ حَيْثُ تفرّقوا وتشتتوا في كلّ مكان ، ومن ذلك قوله :

فإذا نَجَّتْ المَقَادِيْرُ مِنْهُم ... رَاحِلاً بِالخَلاصِ يَحْمِلُ رَحْلا
لَقِيَ الهَوْنَ في التَّذَلُّلِ أنّى ... كانَ مِنْ سَائِرِ البِلادِ وَحَلّا
لَيْسَ يَلْقَى إلاّ امْرَءاً مُسْتَطِيْلاً ... طَالِباً عِنْدَهُ حُقُوداً وَذَحْلا
فَتَرَى أشْرَفَ البَرِيَّةِ نَفْساً ... نَاكِساً رَأسَهُ يُلاطِفُ نَذْلا
فَهُمُ كُلَّمَا نَبَتْ بِهِمُ أرْ ... ضٌ مَطَايا الفِراقِ خَيْلاً وَرَجْلا
مُزِّقُوا في البِلادِ شَرْقاً وَغَرْبا ... يَسْكُبُونَ الدُّمُوعَ هَطْلاً وَوَبْلا
لا يُلاقِي النَّسِيْبُ مِنْهُم نَسِيْباً ... يَتَعَزّى بِهِ وَلا الخِلُّ خِلّا (٢)

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٩ .

ويصوّر انقلاب الأوضاع ، ويتفجّع على ما أصاب الحرائر المصونات من تكشّف ، وتشرّد بعد ما كُنّ مصوناتٍ منعّمات في وطنهنّ ، فيقول :

أطافِلُ ما سِمتْ بالفَلا ... قَطُّ فَعاينْتُ الفَلا دارَها
ولا رأتْ أبْصارُها شاطِئاً ... ثُمَّ جَلَتْ باللّجِّ أبْصارَها
وكانتِ الأشْتارُ آفاقَها ... فَعادَتِ الآفاقُ أشْتارَها
ولَمْ تكُنْ تَمْلُو سَرِيّاً عَلا ... إلاّ إذا وافَقَ مِقْدارَها
ثُمَّ عَلَتْ كُلَّ عُثُورِ الخُطا ... يَرْمي بِها الأرْضَ وأحجارَها
ولَمْ تكُنْ تَلْحَظُها مُقْلَةٌ ... لَوْ كُحِّلَتْ بالشَّمْسِ أشْفارَها
فأصْبَحَتْ لا تتّقي لَحظَةً ... إلاّ بأنْ تَجْمَعَ أطْمارَها (١)

ويصف لنا القيروان ، وهي خالية من أهلها بعد رحيلهم عنها ، فيتحسّر عليها متمزّقاً ألماً وأسىً ولوعةً على ما آلت إليه هذه المدينة من الخراب ، والدّمار ، والهجران فأصبحت خالية من سكّانها وأهلها ، أخلى من القبور ، فالقبور معمورة بالموتى ، أمّا بيوت القيروان فلا ساكن فيها ، وهذا واضح من قوله :

آهِ للقَيْرَوانِ أنّةَ شَجْوٍ ... عَنْ فُؤادٍ بِجَماحِ الحُزْنِ يَمْلَى
حِيْنَ عادَتْ بِهِ الدِّيارُ قُبُوراً ... بَلْ أقولُ الدِّيارُ مِنْهُنَّ أخْلَى (٢)

ويمضي ابن شرف في تصوير خلاء القيروان ووحشتها ، فيقول :

كأنَّ الدِّيارَ الخالِياتِ عَرائِسٌ ... كَواسِدُ قَدْ أزْرَتْ بِهِنَّ الغَوائِرُ
وتُنْكِرُ بُنْيانَها الأسْرَةُ حُسَّراً ... عَواطِلَ لا تُفْشي لَهُنَّ السَّرائِرُ
إذا أقْبَلَ الليلُ البَهيمُ تمكَّنَتْ ... بِها وَحْشَةٌ مِنْها القُلُوبُ نَوافِرُ
ولا سُرُجٌ إلاّ النُّجومُ وَرُبَّما ... تَغَطَّتْ فَسَدَّتْ جانِبَيْها الدَّياجِرُ
يَمُرُّ عليها المَوْرُ يَسْحَبُ لُحْفَهُ ... ولا كانِسٌ إلاّ الرِّياحُ الغَدائِرُ
ويَقْتَدُّ عُمْرُ الصَّوْتِ فِيْها وَرُبَّما ... تَجُولُ مِرازاً بالكلامِ المَقابِرُ (٣)

---

(١) الذّخيرة ق ٤ م ١ / ٢٣١ ، والمعالم ، ١ / ١٥ — ١٦ .
(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٤ .

ويشير ابن شرف إلى تعلّق القيروان بأصحابها الفاعين عنها ، فيقول :

فَلَوْ نَطَقَتْ ما كان أكْثَرُ نُطْقِهَا سِوَى قَوْلِهَا أيْنَ الخَلِيطُ المُعَاشِرُ(١) ؟

ويتساءل ابن شرف بقلب مُفْعَم بالحرقة والألم والحزن بعد أنْ أرّقته الوحشة والوحدة ، وضايقته الغربة ، فيقول :

ألاَ مَنْزِلٌ فِيهِ أنيسٌ مُخَالِطٌ ألاَ مَنْزِلٌ فِيهِ أنيسٌ مُجَاوِرُ ؟ (٢)

وكثيراً ما كان ابن شرف يتساءل بتوجّع وتلهّف عن العودة إلى موطنه القيروان بعدما حلّ به من خراب ، ودمار ، ومن ذلك قوله :

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ عَوْدَةٌ لي في الغَيْـ ـبِ إلى ما أطَالَ شَجْوِيَ أمْ لا ؟ (٣)

هذا ومن الجدير بالذّكر هنا أنّ ابن شرف قد ردّ هذه النّكبة التي حلّت بالقيروان ، وما أصابَهُ مِنْ دمارٍ ، وخرابٍ ، وتشرّدٍ إلى الزّمن مِنْ جانبٍ ، وإلى ظُلم الحكّام والسّلاطين من جانب آخر ، وهذا واضح من قوله :

جَارَ فيهم زَمانُهُمْ وأولو الأمـ ـرِ فقرّوا يَوْجُونَ في الأرْضِ عَدْلا (٤)

كما ردّها إلى الذّنوب والكبائر الّتي ارتكبها النّاس بالقيروان ، وهذا واضح من قوله :

تُرَى سيئاتِ القيروانِ تَعاظَمَتْ ألَمْ تَكُ قِدْماً في البِلادِ الكبائِرِ (٥) ؟

وكثيراً ما كان ابن شرف في شعره الّذي رثى به وطنه القيروان ، يذكر أسماء أولئك الّذين عملوا على تخريب وطنه ، وتشريد أهله ، وإلحاقوا الظلم والتعسّف والقتل بأهله ، من مثل : بني هلال ، وبني تَرّةَ ، وزُغْبَةَ ، وريـاح ، ومن ذلك قوله :

وللسّهمِ دُوْنَ القيروانِ تَسَهُّمٌ وَما شَوْكُهُ إلاّ ظِبَاءٌ وَرِمَاحُ

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٢٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٩ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٨ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٥ .

وَثَوْرَةٌ قَدْ قَرَّتْ هُنَاكَ عُيُونُهَا ... وَزُغْبَةُ رِيشَتْ زُغْبُهَا وَرِيَاحُ (١)

ويتساءل في موضع آخر مخاطباً أحد ممدوحيه عن أولئك الذين اغتصبوا وطنه ، وشرّدوا أهله ، وأقاموا به بعد طرد أهله ، فيقول :

فَيَا أَخَوَيَّ مِنْ أَسَدٍ وَسَعْدٍ ... أَحَيٌّ حَيٌّ زُغْبَةَ أَمْ دَفِينُ (٢) ؟

ولقد جعل ابن شرف الطبيعة تشاركه حزنه على ما أصاب وطنه ، وعلى ما آل إليه من دمار وخراب ووحشة ، فها هي الكواكب والنجوم حزينة كئيبة ، تسير بخطىً وئيدة يملؤها الكسل والحزن ، وهذا واضح من قوله :

ثُمَّ لا شَمْسَةٌ سِوَى أَنْجُمٍ تَخْـ ... ـطُو عَلَى أُفْقِهَا نَوَاعِسُ كَسْلَى

بَعْدَ زَهْرِ الشَّعَاعِ تُوقَدُ وَقْداً ... وَبِنَانِ الذُّبَالِ تُفْتَلُ فَتْلَا (٣)

ولقد ظلّ الحنين والتلهف لرؤية الوطن والأحباب ملازماً لشاعرنا يؤرّقه ليل نهار ، فكان يتمنّى أن يكون طائراً ليحلّق في أجواء وطنه ، ويتفحّص ذُراه وربوعه بعد هذا الغياب الطويل ، فيقول :

يَا قَيْرَوَانُ وَدِدْتُ أَنِّي طَائِرٌ ... فَأَرَاكِ رُؤْيَةَ بَاحِثٍ مُتَأَمِّلِ

أَمَّا وَأَيَّةُ آهَةٍ تَشْفِي جَوًى ... قَلْبٍ بِنِيرَانِ الصَّبَابَةِ مُصْطَلِي (٤)

ويعبّر عن لهفته وتعلّقه بالقيروان وبأيّامه الجميلة فيها ، فيقول :

فَيَالَيْتَ شِعْرِي القَيْرَوَانُ مَوَاطِنِي ... أَعَائِدَةٌ فِيهَا اللَّيَالِي القَمَائِرُ ؟

وَيَا رَوْحَتِي بِالقَيْرَوَانِ وَبُكْرَتِي ... أَرَاجِعَةٌ رَوَحَاتُهَا وَالبَوَاكِرُ ؟

فالأيام التي قضاها شاعرنا في ربوع وطنه ، وبين أهله وأحبته كانت قصيرة ، وسريعة لدرجة أنّه لم يكن ليحسّ بمرورها لجمالها وحلاوتها .

ولكنّه بعد هذا التوجع ، وبعد هذا التحسّر على أيّامه العذبة الجميلة

---

(١) الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٨ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٣ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٥ .

التي عاشها في وطنه الذي أصبح مأوى للحيوانات والذئاب ، عاد ليتهاوى في هوّة اليأس من العودة إليه ، ذلك لأنّ عجلة الزّمن لا يُمكنُ أنْ تعود إلى الوراء ، وهذا واضح مِنْ قوله :

زَعَمُوا أنَّ ابنَ آوى فيك يَعْوي والصَّدى يذْراكِ يَصْرُخُ كالحزينِ المُثْكلِ
يا بَلْدَةً رَوْطَةَ والشَّوارعُ حَوْلَها مَعْمورةٌ أبداً تَدُفُّ وتَنْتَلي
يا أربعي في القُطْبِ مِنْها كَيْفَ لي بِمَعادِ يَوْمٍ فيكِ لي ومن أيْنَ لي ؟
يا لَوْ شَهِدْتِ إذا رأيْتُكِ في الكَرى كَيْفَ ارتجاعُ صِبايَ بَعْدَ تَكَهُّلي (١)

ويمكننا القول : إنَّ شِعْرَ ابن شرف الذي رثى به وطنه المنكوب ، قد كان بمثابة سجل لحفظ أسماء بعض الضواحي والأماكن التي كانت موجودة في عصره بالمغرب .

وعلى ما يبدو أنّه قد يئس من العودة إلى موطنه ، وإلى أيّامه التي قضاها في ربوعه فعاد ليعبّر عن حُزنه ، وعن لهفته لرؤيته والرّجوع إليه ، فأخذ يؤكّد له أنّه لن ينساه ، وأنّه سيظل وفيّاً له ، مخلصاً مهما كانت الظّروف ، ومهما كانت الأسباب ، وهذا واضح من قوله له :

لا كَثْرةُ الإحسانِ تُنْسِي حَسْرةً حَيْهاتَ تَذْهَبُ عِلّةٌ بتَعلّلِ
وإذا تجدّد لي أخٌ ومُنادِمٌ جَدّدْتُ ذِكْرَ إخاءِ خِلّ أوّلِ (٢)

وهكذا فقد أبدع ابن شرف في تصوير تلك النّكبة الفادحة التي نزلت بوطنه ، وقد صوّرها لنا تصويراً دقيقاً حزيناً مؤلماً ، يكشف لنا عن شاعريّة موهوبة بارعة في التّشخيص والتّصوير ، وقد صدر في ذلك عَنْ تجربة فعليّة ، وعن معاناة حقيقية كان الشّاعر قد عاشها ، وذاق مرارتها ، فعبّر عنها تعبيراً صادقاً مؤثّراً .

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٢ .

الهجـــــــاء :

لم يُكثِر ابن شرف من الهجاء في شعره الذي وصلنا ، ولا سيّما هجـــــاء الأشخاص ، ويمكننا أنْ نرّد ذلك إلى ترفّعه عَنْ ممارسة هذا اللّون مـــــن القول ، واعتباره من الصّفات الشّائنة المعيبة الّتي لا تتفق وروح العصـــــر الّذي يعيش فيه ؛ ومن أجل هذا فإنّ ابن شرف لم يطلق للسانه العنـــــان ، لينهش لحوم الناس ، وينال من أعراضهم ، ومعظم ما وصلنا من شعره فـــــي هذا الغرض يدور حول هجاء البُيوتِ ، والحمّامات ، ومن ذلك قوله فـــــي هجاء منزلٍ اجتمع فيه مع بعض النُّدماء :

لكَ مَنْزِلٌ كُلّتْ سِتارَتُهُ لَنَـــــا ... لِلّهْوِ لكِنْ تَحْتَ ذاكَ حديثُ
غنّى الذّبابُ وَقالَ يَزْمُرُ حَوْلَـــهُ ... فيه البَعُوضُ وَيَرْقُصُ البَرْغُوثُ (١)

وقوله في هجاء حمّام كان فيه :

كأنّما حمّامُنا فَحْمَـــــةٌ ... النّتْنُ والظُّلْمَةُ والضّيْـــقُ
كأنّني في وَسْطِهِ فَيْشَـــــةٌ ... ألوطُها والعَرَقُ الرّيْـــقُ (٢)

وإنْ كان في بعض مقطّعاته الّتي وصلتنا يعرّض بأُناس في عصـــــره سابوا ووصلوا إلى سدّة الحُكْم ، وهم مِنْ أراذل النّاس ، فيقول :

يقولون سادَ الأرذَلُونَ بِعَصْرِنَـــا ... وَصارَ لَهُمْ قَدْرٌ وَخَيْلٌ سَوابِـــقُ
فَقُلْتُ لَهُم ولّى الزّمانُ وَلَمْ تَـــزَلْ ... تُغَرْزِنُ في أُخْرى البُيُوتِ البَيازِقُ (٣)

ويبدو لي أنّ شاعرنا هنا يشير إلى أولئك الّذين اغتصبوا وطنه ، وعملـــوا على تشريد أهله منه ، وحكموا فيه بعد طردهم حكّامه السّابقين .

ويعرّض برجل كان يتجسّس على النّاس ، ويتتبع عوراتهم ، فيقول :

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٧ ، المعاهد ، ٢ / ٢٣٥ .
(٢) فوات الوفيات ، ٢ / ٤١٠ ، الوافي بالوفيات ، ٣ / ٩٧ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٦ .

وَناصِبِهِ وَأفواهِ الوَرى أُذُناً ... كالعُصْبِ يَلْقُطُ مِنْهُم كُلَّ ما سَقَطا
تَراهُ يَلْتَقِطُ الأخْبارَ مُجْتَهِداً ... حتّى إذا ما وَعاها زَقَّ ما لَقَطا (١)

ويعرّض بالمعتضد عبّاد صاحب إشبيليّة ، وقد امتنع عن الوفادة عليه ، لما سمعه عنه من بطش ، وقسوة ، وقتل للندماء والخلطاء الّذين أخلصوا له ، فيقول :

لَكَ العَوائِدُ لِلقُصّادِ مَشرَعَةٌ ... تَروِي وَتُشبِعُ لكنْ بَعْدَها غُصَصُ
وَلَسْتُ أعْجَبُ مِنْ قَومٍ بِها انْتَشَبُوا ... لكنّما عَجَبي مِنْ مَعْشَرٍ خَلَصُوا (٢)

ولقد غلب على ما وصلنا لابن شرف من هجاء طابع ، المقطّعات من بيتين أو ثلاثة أبيات ، ولكنّ هذه المقطّعات لا تكشف لنا عن لسانٍ جارح كان قد اتخذ من أعراض النّاس وخصومهم هدفاً له .

---

(١) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٩ .
(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٨٢ .

خصائصه الفنيّة في الشّعر :

بناء القصيدة :

أشرنا فيما تقدّم إلى أنّ ما وصلنا من شعر لابن شرف ، قد جاء على صورة مقطّعات قصيرة ، وإلى أنّ قصائده المطوّلة الّتي أشار إليها القدماء الّذين عنوا بنقل أخباره وأشعاره في المديح ، والرّثاء ، وغيرهما ، لم يصلنا منها إلاّ بضع قصائد .

ويستطيع الدّارس لآثار ابن شرف أنْ يلاحظ أنّ هذه المقطّعات إنّما هي مختارات مِنْ قصائد مطوّلة كانت قد اتسمت بطول النّفس الشّعريّ ، وهذا واضحٌ من اشارات ابن بسّام الّتي قدّمها بها ، فكثيراً ما كان يشير ، وبطريقة مباشرة إلى أنّ هذه المقطّعات قد أُخِذَتْ من قصائد طويلة ، اقتطف مِنْها عيونها ، ومن ذلك قوله : ((قال من قصيدة . . . ، وهي طويلة ، قطفت عيونها .)) (١) وهكذا كان ابن بسّام يمضي في تقديم أشعار شاعرنا ، مشيراً إلى أنّها أُخِذَتْ مِنْ قصائد طِوال .

ومهما يكن من أمر ، فإنّنا من خلال هذه الاشارات ، نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف قد نظم قصائد مطوّلة تميّزت بطول النّفس ، وبالاتزان الفنّي من أوّلها إلى آخرها ، وفي موضوعات مختلفة ، وأغراض متنوّعة إلاّ أنّ يد الزّمن قد امتدّت إليها ، ولم يصل إلينا منها إلاّ مقطّعات قصيرة مختارة نجدها مبثوثة في طيّات كتب الأدب والتّراجم الّتي بين أيدينا .

ومن خلال تلك القصائد المطوّلة الّتي وصلتنا لهذا الأديب فإنّنا نستطيع أنْ نتبيّن بعض ملامح البناء الفنّي الّذي سار عليه في قصائده المطوّلة ،

---

(١) الذّخيرة ، ق٤ م١ / ٢١٨ ، وأنظر : مثل هذه الاشارات في ص : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، وغيرها .

على أنّنا نستطيع أنْ نلمح بعض أركان هذا البناء من خلال ما وصلنا من مقطّعاته الكثيرة ذات الموضوعات المختلفة المتنوّعة ، فنستطيع أنْ نرى أنّ ابن شرف في بناء قصائده ، كانَ يسير على نهج القصيدة العربيّة التقليديّ ، فكثيراً ما كان يفتتح قصائده المديحيّة بالوقوف على الأطلال والدّمن ، فيذرف الدّموع غزيرة على مَنْ كانوا في هذه الأطلال ، ويشكو من هجرهم ، وبُعدهم ، ومن الحالة الّتي وصل إليها جسمه بعد غيابهم ، وبعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن المرأة ، فيتغزّل بها غزلاً حسيّاً متوقّفاً عند مواطن الجمال فيها جرياً على عادة القدماء من الشّعراء في قصائدهم المديحيّة ، ومن ثم ينتقل إلى الحديث عن الرّحلة ، فيصف لنا طريقه إلى الممدوح فيصوّر لنا أهوال السّفر ومتاعب الطّريق ، وما يعانيه هو وعائلته من تلك المصاعب والمشاق ، وبعد ذلك يتخلّص من هذه المقدّمة التقليديّة تخلصاً موفقاً ، فينتقل إلى الغرض الّذي يريد ألا وهو المدح ، فيتوقّف عند صفات ممدوحه ، ويضفي عليه الكثير من الصفات العربية الأصيلة الممثلة بالشجاعة ، والكرم ، وطيب الأصل وعراقته ، وحُبّ العلم ، وضاء العزيمة ، والإقدام ، وما إلى ذلك من الصّفات والقيم الّتي تغنّى بها الشعراء مِنْ قَبْلُ ، ويحرص حرصاً كبيراً على أنْ تكون المقدّمة الّتي يقدّم بها قصيدته ملائمة للغرض الّذي يريد ، وبعد ذلك ينهي قصيدته بطريقة موفّقة ، وإليك بعض الأمثلة على ما زعمنا إليه من خلال شعره ، ومن ذلك قصيدته الّتي رفعها إلى أمير مرسيّة ابن طاهر ، حَيْثُ استهلّ هذه القصيدة بمقدّمة طلليّة تقليديّة ، تحدّث فيها عن الطلل ، وأكثر من ذكر أسماء الاماكن الّتي يقع فيها ذلك الطّلل ، وتغزّل بالمرأة فشكا من طيفها الّذي ظلّ يؤرّقه ، ويذرف الدّموع غزيرة على مَنْ كانوا في هذا الطلل الّذي هو متعلّق به تعلقاً كبيراً ، معبّراً عن قلقه لعدم اكتراث أصحابه الّذينَ كانوا معه بذلك الطّلل ، فهو وحده صاحب العلاقة الوثيقة به ، وهذا واضحٌ مِنْ قَوْلِهِ :

وَعَاجُوا على عُسْفَانَ والليلُ أليلُ ... وَمَرُّوا بِذَاتِ البَيْنِ والصُّبْحُ مُسْفِرُ
وَحَازَتْهُم هَزوى ضُحَىً وتَرَوَّحُوا ... بِمَنْعَجَ واستَحْلَوْا أبانًا فَنَوَّرُوا
ولمّا تواقَفْنَا بِذِي سَلَمٍ بَدَا ... سَلامٌ لِسَلْمَى ظَلَّ يَخْفَى وَيَظْهَرُ
تَمَرَّتْ لَهُ والرَّكْبُ حَيْرَانُ غَافِلٌ ... وَمَا شَاعِرٌ أمْرأً كَمَنْ لَيْسَ يَشْعُرُ
رَأَتْ ظَبْيَةَ الوَعْسَاءِ عَيْنِي فَهَيَّجَتْ ... لَهَا ذِكْرُهُم والشَّيءُ بالشَّيءِ يُذْكَرُ
سَأَبْكِي طُلُولاً كُنْتِ فِيهَا مُطِلَّةً ... عليها وكلّ الليلِ تَحْتَكِ مُقْمِرُ (١)

وهذه مظاهر جاهليّة ، تقليديّة تغنّى بها الشّعراء القدماء في مقدّمات قصائدهم في المديح ، وهي تعيد لنا صورة امرئ القيس الّذي كان يعاني ويتألّم ، لعدم اكتراث أصحابه لمراقبة البرق ، فكان يأرق وحده ، وبعد هذه المقدّمة الطلليّة الغزليّة التقليديّة ينتقل ابن شرف إلى الغرض الّذي يريده انتقالاً لطيفاً موفقاً لا يجعلنا نحسّ بنشاز أو اضطراب في معماره الفنّي ، فيقول :

تَصَرَّمَ ذَاكَ العَيْشُ إلاّ ادِّكَارُهُ ... وإلاّ كُرُوبًا في المَنَامِ تُزَوِّرُ
فَتًى طَاهِرِيٌّ طاهر الثوب ذكره ... مِنَ المِسْكِ أَذْكَى أَوْ مِنَ الماءِ أَطْهَرُ (٢)

ويمدح المعزّ بن باديس بقصيدة أخرى ، فيستهلّها بمقدّمة تقليديّة موروثة ، فيطلب من رفيقيه أنْ يتوقّفا معه في ذلك الطّلل ، ليرتاحا مِنْ عَنَاءِ السّفر والتّرحال بَعْدَ تِلْكَ الرّحلة الطّويلة المُضْنِيَةِ ، فيقول :

قِفَا فتنسّما عِطْرَ النَّسيمِ ... بِرَسْمِ الدّارِ مِنْ بَعْدِ الرَّسيمِ
أَنِيخَا النَّاعِجَيْنِ وَلاَ تَرُوْمَا ... فَمَا السّلوان بالأمرِ العَظِيمِ
قِفَا تَرَيَا السَّبيلَ إلى التّصابي ... لمغناها وكَيْفَ صِبَا الحَلِيمِ (٣)

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤م ١ / ٢٢٠ — ٢٢١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٢١ .
(٣) إنباه الرّواة ، ١ / ٣٠٢ .

ومما تقدّم يتضح لنا أنّ شاعرنا قد سار على نهج القدماء في عرض قصيدته، ونستطيع أنْ نلاحظ تقليده للقدماء في بناء قصيدته حين طلب من رفيقيه أنْ يتوقفا في ذلك الطّلل، وهو بهذا يعيد لنا صورة امرئ القيس الّذي كانَ يطلب من صاحبيه أنْ يتوقفا معه، ليبكيا على مَنْ كانوا في ذلك الطّلل الّذي يتعلّق به، وبعد هذه المقدّمة ينتقل انتقالاً موفقاً إلى مدح المعزّ بن باديس، فيتغنّى بسيادته، وكرمه، وشجاعته، واقدامه، وعراقة أصله وطيبه، ويشير إلى أنّهُ صاحب شرف قديم، وأنّ الشرف قد تعمّق فيه، فيقول:

هُوَ الشَّرَفُ الّذي نَسَبَ المَعالي ... إليهِ وَهُوَ ذُو الشَّرَفِ القديمِ
شِهابُ الحَرْبِ يُهلِكُ كلَّ باغٍ ... وَمُحْرِقُ كلِّ شَيْطانٍ رَجيمِ (١)

ونستطيع أنْ نلاحظ التلاؤم الّذي أقامه شاعرنا بين مقدّمته الّتي افتتح بها قصيدته، وبين الغرض الّذي نظم هذه القصيدة مِنْ أجله، فيشير في مقدمته إلى أنّه قد ملّ من حياة التنقّل، وعدم الاستقرار الّتي عاشها قبل أنْ يلتحق بديوان المعز بن باديس، وينضمّ إلى حاشيته، وقد آن له أنْ يهدأ في كنفه، وهذه كلّها مظاهر جاهليّة تقليديّة انعكست في شِعْر ابن شرف، لكنّه أعاد صياغتها من جديد وصبّها في قالب حضريّ يتلاءم والحياة الحضاريّة الّتي عاشها في ذلك العصر.

ويمدح ابن أبي الرّجّال وزير المعزّ بن باديس، فيستهل مديحته بالوقوف على الأطلال، ويذرف الدّموع غزيرة على فراق أحبته جرياً على عادة القدماء من الشعراء ويشكو فيها من صدّهم، وهجرهم، ويشير إلى أنّه لم يعد يقوى على تحمّل هجرهم وصدّهم، فيقول:

رَسْمُ الشَّجَى البُكا في الرَّسْمِ والطَّلَلِ ... والدَّمْعُ حِيْلَةُ أهْلِ الفَقْدِ للحِيَلِ

---

(١) إنباه الرّواة، ١/٣٠٢.

أفنى دموعي وجسمي طول هجركم حتّى جرت دمعتي طلّا على طلل
أبكي فلا جسدي أبقى ولا جلدي مالو أصيب به جسم البِلَى لَبَلِي(١)

ويحسن التخلّص من هذه المقدّمة ، فينتقل إلى الغرض الذي يريد انتقالاً لطيفاً لا يجعلنا نشعر باضطراب أو خلل في قصيدته ، فيقول :

وحسّن صبري فلا يغررك عن غيرٍ مثلُ الملاحةِ في أجفانِ ذي السّبلِ(٢)

ويتوقّف عند صفات ممدوحه ، فيصفه بالسّيادة ، والمجد ، والكرم ، والشجاعة ، والاقدام ، وغيرها من الصفّات التقليديّة الموروثة التي درج عليها الشعراء ، وتغنّوا بها فيقول :

جاور عليّاً ولا تحفل بحادثة . . . . . .
اسم حكاه المسمّى في الفعال فقد حاز العليّين مِنْ قولٍ ومنْ فعلِ (٣)

وبعد أنْ يفي الممدوح حقّه في المديح ، يختتم قصيدته بخاتمة لطيفة بليغة ، يقول فيها :

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجدْ ملء المسامع والأفواه والمقلِ (٤)

هذا وكثيراً ما كان ابن شرف يصف لنا رحلته إلى الممدوح ، فيصوّر لنا في أثناء ذلك ما يعانيه من متاعب الطريق وأهوال السّفر قبل أنْ يصل إليه ، ويجتمع به ، ومن ذلك قوله في قصيدة بعث بها إلى صاحب إشبيليّة عبّاد مع الرّسل (٥) ، وقد تحدّث فيها عن تلك المصاعب والمتاعب التي صادفته في طريقه إلى الأندلس بعد فراق وطنه ، وعمّا واجهه هو وأسرته من خوفٍ وارهاقٍ وقلقٍ ، حيث يقول :

---

(١) ألف باء ، ١/٤٩٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٤٩٨ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١/٢٢٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٢ ، ألف باء ، ١/٤٩٩ .
(٥) انظر : الذّخيرة ، ق ٤ م ١/١٧٢ — ١٧٣ .

أُجَشِّمهم لَيْلَ القِفارِ وَظُلْمَةَ ال ... يَحارِ وَكَمْ رَيْعُوا وَلِلسَّيْدِ إِرْخاءُ
وَلي مِنْهُما سَهْمانِ هَذا ابْنُ أَرْبَعٍ ... وهذا ابْنُ سِتٍّ كُلَّما كانَ إِغْفاءُ
أَضَمَّهما والليلُ داجٍ كأَنَّما ... هُما نُقْطَتا ياءٍ وَجِسْمي هُوَ الياءُ
فَطَوْراً يُغَشِّيهِم على ذِكْرِكَ الكَرى ... فَتُمْسِحُ أَنْواءٌ عَلَيْهِم وَلألاءُ
وَطَوْراً يَمُجُّونَ الدُّجى وَمِطالُهُ ... وَما كانَ لِلغاياتِ مَطْلٌ وإِرْخاءُ
فَتَضْجُرُ مِنْهُمْ أَنْفُسٌ رُبَّما بَكَتْ ... بُكاً هُوَ لِلصُّمِّ الجَلاميدِ إِبْكاءُ (١)

وقد يبتعد ابن شرف عن المقدّمة الطلليّة الغزليّة المعروفة ، فيستهل قصيدته المديحيّة بالحديث عن الطّيف ، طيف الوطن الّذي يؤرّقه ويلازمه طِيلَةَ وُجوده في الأندلس ، وهذا أمر طبيعيّ بالنسبة لشاعر ملتزم بقضايا أمّته ومجتمعه مثل ابن شرف ، فهو رجل قد فارق وطنه قهراً ، وعاش في ديار غربة ، فلا مجال لديه والحالة هذه أنْ يلهو بالمرأة ، ويتغزّلَ بها ووطنه مغتصب منتهب ، ومن ذلك قوله في قصيدة يشبّبها إلى المظفّر بن الافطس صاحب بطليوس في ذلك الوقت ، وقد بدأها بالحديث عن طيف وطنه ، حيث يقول :

زارَ وَقَدْ شَمَّرَ فَضْلَ الإِزارْ ... جُنْحُ ظَلامٍ جانِحٍ لِلفِرارْ
وَرَوْنَقُ الأَنْجُمِ قَدْ صَوَّحَتْ ... والفَجْرُ قَدْ فَجَّرَ نَهْرَ النَّهارْ
قُلْتُ لَهُ : أَهْلاً بِطَيْفٍ دَنا ... مِنْ نازِحِ الدّارِ بَعيدِ المَزارْ
كَيْفَ خَطَوْتَ الشَّرَّ ثُمَّ الشَّرى ... وَابْنَيْ هِلالٍ والقَنا والشِّفارْ
أَسَهْوَةَ الغَمْراءِ أَمْ دَاحِساً ... رَكِبْتَ حَتّى خُضْتَ ذاكَ الغِمارْ؟
وَجِئْتَ بِالخَطّارِ أَمْ أَعْوَجٍ ... جُنْبَةً مُعْتَدَّةً لِلخِطارْ؟
وَهَلْ تَقَلَّدْتَ لِدَفْعِ الرَّدى ... صَمائِلَ الصَّمْصامِ أَمْ ذِي الفَقارْ؟
وَأَنْتَ زَيْدُ الخَيْلِ أَمْ عامِرٌ ... وَمالِكُ بْنُ الرَّيْبِ أَمْ ذو الخِمارْ؟

---

(١) الذّخيرة ق ٤ م ١ / ٢١٩ .

ويتخلّص من هذه المقدّمة تخلّصاً لطيفاً لا يشعرنا بخلل أو اضطراب فيقـــــول :

فَقالَ لا عَدَا وَلا ذَا وَلا ... بَلْ كُنْتَ عَنْهُم تَمَرّاً في سِرَارْ (١)

ويتوقّف عند صفات ممدوحه فينعته بكرم الأصل ، وحُبّ العلم ، ومنادمة العلماء والأدباء ، فيقول :

أَقَمْتَ للعِلْمِ مَنَاراً وَمَـــا ... أَظُنُّ في الدُّنيا لعلمٍ مَنَارْ

فما نُدَامَاكَ سِوَى أَهْلِـــهِ ... . (٢)

وكثيراً ما كان شاعرنا يفتتح بعض قصائده المديحيّة بالدّعاء بالسُّقْيَـــا لأماكن وطنه الّذي فارقه رُغْماً عنه ، مستبدلاً بذلك المقدّمة التقليديـــة المعروفة ، وهذا واضحٌ مِنْ قَوْلِهِ :

سَقَى القَصْرَ فالمِيْدانَ أَخْلافُ مُزْنَـــةٍ ... تَرَاحَتْ على الرَّوْحاءِ مِنْها أَفَاوِيقُ

على أنّه مَرْمَـــوّ نَبَتْ عَنْهُ أَسْهُمِـــي ... فلا حَزْلي في الأُفْقِ مِنْهُ وَلا فَوْقُ

أُنادِيه والبَحْرُ المُحيطُ مُجَاوِبِـــي ... وَدُونِي خَلِيجٌ مِنْهُ أَفْيَحُ مَخْرُوقُ (٣)

وقد يبدأ بعض مدائحه بالحديث عن أولئك الأعراب الّذين عملوا علـــى تخريب وطنه ، وتشريد أهله ، فيدعو لهم بالتمزّق والتفرّق ، وعدم الاستقـــرار والاطمئنان وَمِنْ ذلك قوله :

فَيا أخوتي مِنْ أَسَـــدٍ وَسَعْـــدٍ ... أَحَيٌّ حَيٌّ زُغْبَةَ أَمْ دَفِيـــنُ ؟

فلا اشْتَمَلَتْ مساكنها بِشَمْـــلٍ ... وَلا هَدَأَ التَّوارُبِهِ سُكُـــونُ

ولا سَرَتِ الرِّياحُ على رِيَـــاحٍ ... لوائحُ مُزْنَةٍ أَنّي تَكُـــونُ

فَقَدْ دَارَتْ عَلَيْنا مِنْ رَحَاهَـــا ... طَحُونٌ كُلّما لاقَتْ زَبُـــونُ (٤)

---

(١) الذّخيرة ، ق٢ م٢ / ٦٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٧ .

هذا في قصائد المديح ، وأمّا في قصائد الرّثاء التي نظمها في رثاء وطنه ، وتصوير النّكبة الفادحة التي اصيبت بها على ايدي أولئك الطامعين ، فقد ابتعد فيها عن المقدمات التقليديّة المعروفة ، وبدأها بالتّحسّر والتوجّع على المصير الذي آل اليه ذلك الوطن من هدم ، وتخريب ، ووحشة ، وتشريد ، ومن ذلك قوله :

آه للقيروان أنّه شجو ... عن فؤادٍ بجاحِمِ الحُزنِ يَصْلَى
حِينَ عادَتْ به الدّيارُ قبوراً ... .(١)

وقوله :

يا قيروانُ وددتُ أنّي طائرٌ ... فأراك رؤيةَ باحثٍ متأمّلِ
آها وأية آهةٍ تشفي جَوَى ... قلبٍ بنيران الصّبابةِ مُصْطَلي (٢)

وقوله :

كأنّ الدّيارَ الخاليات عرائسٌ ... كواسدُ قد أُزرَتْ بهنّ النّمائرُ (٣)

وكثيراً ما كان ابن شرف يختتم قصيدة الرّثاء بخاتمة تشوبها الحسرة والتمنّي ، والتلهّف لرؤية وطنه ، والعودة اليه ، وهذه الخاتمة غالباً ما تكون ملائمة للجوّ العام للقصيدة ، وذات علاقة وثيقة بها ، واليك بعض الأمثلة على هذه الظّاهرة حيث يقول مختتماً بعض قصائده في الرّثاء :

لَيْتَ شِعْري هل عودةٌ لي في الغَيْـ ... ـبِ الى ما أطالَ شَجْوِي أمْ لا (٤)

ومن ذلك ايضا قوله :

كأن لم يكُنْ كلٌّ ولا كان بعضُهُ ... سَيَمْضِي به عَصْرٌ ويَمْضِي المعاصِرُ (٥)

وقد ينهي قصيدة الرّثاء مضمّناً بعض أبيات غيره ، ومن ذلك قوله مختتماً

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٣ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٩ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٥ .

احدى قصائده في الرّثاء ببيت لجرير ، حيث يقول : (١)

((لو كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِهِم يَوْمَ الرَّحيلِ فَعَلْتُ ما لَمْ أَفْعَلِ .)) (٢)

وأمّا ما تبقّى من شعر ابن شرف الّذي لم ينهج فيه على نهج القصيدة التقليديّة ، فإمّا أنْ يكون بعيداً عن المقدّمات الطلليّة والغزلية ، كما أشرنا فيما تقدّم ، وإمّا أنْ يكون مقطّعات قصيرة لا تتجاوز الثمانية أبيات في معظمها ، نظمها في موضوعات مختلفة متنوعة ما بين وصفيّة ، وخمريّة ، وغزلية ، . . . وهذه تخلو بطبيعتها من تلك المقدّمات التقليديّة ، وهي كثيرة في شعر شاعرنا ، ويمكننا أن نردّ ذلك الى طبيعة المناسبات التي نظمت فيها ، والى كثرة المجالس التي كان يشهدها شاعرنا .

ومهما يكن من أمر ، فانّ شاعرنا قد أدّى ذلك كلّه محافظا على الاتزان الفنّي لقصيدته من أوّل بيت فيها الى آخر بيت مبتعدا عن الرّكاكة والضعف في أي ركن من أركانها ، هذا بالاضافة الى طول النّفس الشعري الذي تحلى به شاعرنا ، وهذا أمر يستطيع أن يلحظه كلّ من تصدّى لدراسة شعره ، واتصل به ، ومن الّذين أثبتوا له هذه الصّفة ممن تصدّوا لشعره ابن بسّام ، حيث يقول معلّقا على احدى قصائده : ((. . . فما ان هي لاحقة بعيون شعره ، أطال فيها التشبيب ، فخلص الى التّهنئة ، وقد استفرغ القريحة ، وطوّل . . . . .)) (٣) .

الألفاظ والأساليب :

لمّا كانت الكلمة تحتل مكانة مرموقة في البناء الفنّي للشعر ، وتعتبر

---

(١) أنظر : المصدر السابق ، ص : ٢٣٣ .
(٢) ديوان جرير ، ٢/ ٩٤٠ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٣٨ .

من أهمّ الأركان الأساسيّة لأيّ عمل أدبيّ ، فقد اهتم النّقاد بالحديث عن الألفاظ وعلاقاتها بالأغراض الشّعريّة الّتي تستخدم لها ، فابن الأثير يرى : ((أنّ الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ، ورقيقة ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقع الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف ، وأشباه ذلك ، وأمّا الرّقيق منها فإنّه يستعمل في وصف الاشواق ، وذكر أيّام الصبا ، وفي استجلاب المودّات وملاينات الاستعطاف ، وأشباه ذلك .)) ، ويرى الأستاذ الشّايب أنّ : ((للغزل أسلوباً يمتاز بالرّقة واللين والسهولة في غير ابتذال ، وللرّثاء أسلوباً رقيقاً ليّناً ، وللمدح والهجاء أسلوباً رقيقاً ليّناً ، وللمدح والهجاء أسلوباً جزلاً واضحاً شديد التأثير ، وللوصف أسلوباً يختلف باختلاف ما يوصف : فهو جزل قويّ في وصف الحروب وأصوات الطبيعة ، وحوادثها المزعجة ، وليّن في وصف العواطف الرّقيقة ، ورائع جذّاب في وصف البروق اللاّمعة ، والكواكب النيّرة ، والأزهار النّضرة .)) (١)

ولكنّ الدّارس لآثار ابن شرف الشّعريّة يستطيع أنْ يلاحظ أنّ ألفاظه بصورة عامّة كانت تميل إلى الجزالة ، وقوّة الجرس حتّى في المواطن الّتي كانت تتطلب الرّقة والعذوبة ولاسيّما أشعاره الّتي قالها بعد نكبة وطنه وخرابه ، ذلك لأنه كان محزوناً مقهوراً ، يعاني مِنْ آلام الغُرْبَة والتشرّد ، والحرمان ، فالعلاقة قوية ما بين نفسية الأديب والألفاظ الّتي يستخدمها (٢) ، ومن أجل هذا فقد مالت ألفاظه في هذه الفترة من حياته إلى القوة والجزالة ؛ لتستطيع أنْ تعبّر عمّا يختلج في صدره من غضب وقهر (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ ألفاظه في بعض الأحيان قد اختلفت تبعاً للأغراض الّتي طرقها ، حيثُ كان يختار لهذه الأغراض ما يناسبها مِنَ الألفاظ

---

(١) المثل السائر ، ق١ / ٢٤٠ .
(٢) الأسلوب ، ص : ٨٤ .
(٣) أنظر : الأسلوب ، ص : ١٩٤ .

والعبارات ، فنراه في أسلوبه يراوح بين الجزالة والرّقة ، فإذا ما مدح فإنّ الفاظه كانت تميل إلى الرّصانة والجزالة وقوة الجرس ، ومن ذلك قوله في إحدى مدائحه :

وَعَاجُوا على عُسْفَانَ والليلُ أليلُ ومرّوا بِذَاتِ البَيْنِ والصبحُ مُسْفِرُ
وَحَازَتْهُم حزوى فُحَيَّ وتروحوا بِمَنْعَجَ واستعلوا أباناً فنوّروا (١)

وقوله :

رَسَمَ الشَّجى البُكا في الرَّسْمِ والطَّلَلِ والدَّمْعُ حيلَةُ أهْلِ الفَقْدِ للجَمَلِ (٢)

وإذا ما وصف الخمرة أو تغزّل بالنساء فإنّ ألفاظه كانت تميل إلى الرّقة والعذوبة ، ومن ذلك قوله :

كَتَمَ الهَوَى فَوَشَى بِهِ كِتْمَانُهُ لِلِلَابِهِ وَتَكَلَّمَتْ أجْفَانُهُ
وَهَبَ الكَرَى لِسُهَادِهِ وَنعيمِهِ لِعَذَابِهِ حتّى أسا إحْسانُهُ (٣)

وقوله :

بَيْنَ أجْفَانِكِ سِحْرٌ وَعَلَى خَدَّيْكِ بَدْرُ (٤)

إلاّ أنّ الفاظه لم تكن لتصل إلى حدّ الرّكاكة والضّعف في أيّة حالة من الحالات . وثمة ظاهرة تلفتنا في شعر ابن شرف ونحن نتحدّث عن الألفاظ ألا وهي اكثاره من المحسنّات اللّفظية والبديعيّة ، من جناس ، وطباق ، وسجع ، وتضمين ، وما إلى ذلك من الزّخارف اللّفظية ، ليعمل على تلوين أسلوبه ، ويضفي عليه رونقاً لفظياً معيناً بزيادة الدّفقة الموسيقيّة في شعره ، ويضفي على المعاني الّتي يستعملها رونقاً ، وجمالاً وقوّة .

فالجناس التام كما في قوله :

يا خَائِفاً مِنْ مَعْشَرٍ لا يُطْلَبُ بِثَارِهِمْ

---

(١) الذّخيرة ص : ٢٢٠ ـ ٢٢١ .
(٢) ألف باء ، ١/٤٩٨ .
(٣) المسالك ق ١ ج ١١/٢٤٣ .
(٤) الذّخيرة ، ق ٤ م ١/٢١٥ .

إنْ تُبْلَ مِنْ شَرارِهِـــــمْ ... على يدي شِرارِهِـــمْ
أوْ تُرْمَ مِنْ أحْجارِهِـــمْ ... وأنْتَ في أحْجارِهِـــمْ
فَما بَقِيْتَ جارَهُـــمْ ... ففي هَواهُـــمْ جارِهِـــمْ
وأرْضِهِمْ في أرْضِهِـــمْ ... ودارِهِمْ في دارِهِـــمْ (١)

حَيْثُ جانس الشاعر هنا جناساً تامّاً بين : ((شَرارِهِمْ)) و ((شِرارِهِـــمْ)) ، وبين : ((أحْجارِهِمْ)) و ((أحْجارِهِمْ)) ، وبين : ((جارِهِمْ)) و((جارِهِـــمْ)) ، وبين : ((أرْضِهِمْ)) و ((أرْضِهِمْ)) وبين : ((دارِهِم)) و ((دارِهِـــمْ)) ، فأضْفَى على المعاني رونقاً وجمالاً وقوّة .

والجناس النّاقص كما في قوله :

أبْناءُ جِنْسِكَ في الحُلَى لا في الحُلَى ... وأقولُ قَوْلاً لَيْسَ بِالمَدْفُـــوعِ (٢)

وكما في قوله :

إذا جاذَبَتْ أسْتارَها تَبْتَغي بِهَـــا ... لأقْدامِها سِتْراً تبدَّتْ غَدائِـــرُ
تَبيتُ على فُرْشِ الحَصَى وغِطاؤُهَـــا ... دَوارِسُ أسْمالٍ زَوارٍ حَقائِـــرُ (٣)

وكما في قوله :

كأنَّ الدِّيارَ الخالياتِ عَرائِـــسٌ ... كَواسِدُ قد أزْرَتْ بهنَّ النَّمَرائِـرُ
وتنكر بقياها الأسرة حســـــرا ... عواطل لا تفشي لهنّ السّرائـــر (٤)

وكما في قولـــه :

ولّى وخلّى جَمْرَةً مَشْبُوبَـــــةً ... . (٥)

حَيْثُ جانس الشّاعر في الأبيات السّابقة جناساً ناقصاً بين : ((غدائـــــر)) و((حقائر)) ، وبين : ((النّمرائر)) و (السّرائر)) ، وبين : ((ولّى)) و((خلّى)) .

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ١٧٢ .
(٢) الوافي بالوفيات ، ٣ / ٩٩ .
(٣) الذّخيرة ق ٤ م١ / ٢٣٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٤ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٢١٧ .

ويكاد الطّباق أنْ يكون ظاهرة مميّزة لشعره ، وإنّني لا أتجاوز الحقيقة إذا ما قلت : إنّه لا يخلو بيت من أبياته من الطّباق ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك حيث يقول :

وَلَقَد نَعِمْتُ بِلَيْلَةٍ جَمَدَ الحَيَا ... في الأرْضِ فيها والسَّماءُ تَذُوبُ (١)

ويقول :

مَنّي إليه وَمِنْ يَدَيْهِ إلى يَدِي ... فَالشَّمْسُ تَطْلُعُ بَيْنَنا وَتَغِيبُ (٢)

ويقول :

فَلا القُرْبُ يُحْيِيني وَلا البُعْدُ قاتِلي ... وَلا الهَجْرُ يُسْلِيني وَلا الصَّبْرُ يَلْوِيني (٣)

ويقول :

فَيا قاطِعاً وَصْلي وَيا واصِلاً غَدِي ... بِأَمْسِي وَيَوْمي في العَذابِ المُمَتَّعِ (٤)

ويقول :

زانَ العُلا وسِواهُ شأنُهُ وَكَذا ... . (٥)

ونستطيع أنْ نلاحظ أنّ الطّباق قد تحقق في الأبيات السابقة ما بين : ((جَمَدَ)) و ((تذوب)) ، وبين : ((تطلع)) و ((تغيب)) وبين ((القُرْب)) ، ((والبُعْد)) ، وبين : ((يحييني)) و ((قاتلي)) ، وبين : ((قاطع)) و ((واصل)) وبين : ((غدي)) و ((أمسي)) ، وبين : ((زانَ)) و ((هانَ)) . والأمثلة على الطباق في شعره كثيرة ، يستطيع الدّارس أنْ يلاحظها بكلّ وضوح فيما وصلنا مِنْ شعره ومقطّعاته .

ونستطيع أنْ نجد السَّجْع في قوله :

---

(١) معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٩ .
(٢) الوافي بالوفيات ، ٢ / ٤١١ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢١٦ .
(٥) المصدر نفسه ص : ٢٢٢ .

خَلِيلَ النَّفْسِ لا تُخْلِ الزُّجَاجَا إذا بَحْرُ الدُّجَى في الجَوِّ مَاجَا (١)

وفي قوله :

وَمَطْبُونٍ بِغَيْرِ عَقِيدِ نَارٍ عَزَمْتُ على جِنَاه بابْتِكَارِ (٢)

وفي قوله :

قد كُنْتَ في وَعْدِ العِذَارِ فَأَنْجَزَا وَتَمَى لِحُسْنِكَ بِالكَمَالِ فأَوْجَزَا (٣)

هذا ولقد تميّز شعر ابن شرف بمظاهر مختلفة من مثل : الحوار ، والتكرار ، والمبالغة ، واستخدام المصطلحات اللّغويّة والعروضيّة ، فنستطيع أنْ نَجِدَ الحوار في قوله :

قالَتْ : أذُو شَيْبٍ ؟ فقلتُ مُخَادِعاً لَوْجَازَ عِنْدَ الغَانِيَاتِ خِدَاعِي
مَا شِبْتُ لكِنْ خِفْتُ يَشْتَهِرُ الهَوَى فَلَبِسْتُ للرُّقَبَاءِ غَيْرَ قِنَاعِي
قالَتْ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِمَّا خِفْتُهُ مَا خِلْتُهُ لَكَ جُنَّةً لِدِفَاعِي (٤)

وفي قوله :

يَقُولُ لِيَ العَاذِلُ في لَوْمِهِ وَقَوْلُهُ زُورٌ وبُهْتَانُ
مَا وَجْهُ مَنْ أَحْبَبْتَهُ قَبْلَهُ قُلْتُ : وَلا تَوْلَاكَ قُرْآنُ (٥)

وكما في قوله :

قَالُوا تَمَاهَلَتِ الحَمِيـ ـرُ فقلتُ إذ عُدِمَ السَّوَابِقْ (٦)

وأما التكرار فيكاد أنْ يكون سمة واضحة في شِعْر ابن شرف ، ومن ذلك قوله :

أَقَمْتَ للعِلْمِ مَنَاراً وَمَا أَظُنُّ في الدُّنْيَا لِعِلْمٍ مَنَارْ (٧)

---

(١) الخريدة ق ٤ ج ٢ / ١١٧ .
(٢) نهاية الأرب ، ١١ / ١٢٨ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٤ .
(٤) المسالك ، ق ١ ج ١١ / ٢٤٢ .
(٥) تزين الأسواق ، ٢ / ٥٦ .
(٦) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٦ .
(٧) المصدر نفسه ، ص : ٦٤٣ .

وقولـــه :

يَرَاهَا كُلُّ ذِي بَصَرٍ فَيَهْشُـــو لِبَهْجَتِهَا إِلَى أَنْ لَا يَرَاهَـــا (١)

وقولـــه :

ولا رَأَتْ أَبْصَارُهَا شَاطِئَـــاً ثُمَّ جَلَتْ بِاللُّجِّ أَبْصَارَهَـــا (٢)

وكما في قوله :

هُوَ الشَّرَفُ الَّذِي نَسَبَ المَعَالِـي إِلَيهِ وَهُوَ ذُو الشَّرَفِ الرَّفِيـعِ (٣)

ولم يكن الأمر ليقتصر في شعر شاعرنا على تكرار الألفاظ بل تعدّى ذلـــك إلى تكرار المعنى ، ومن ذلك قوله :

مَا صَحَّ لِي أَحَدٌ أُصَيِّـــرُه أَخَـــاً فِي اللّهِ مَحْضاً أَوْ فِي الشَّيْطَانِ
إِمَّا مُوَلٍّ عَنْ وِدَادِي مَالَـــهُ وَجْهٌ وَإِمَّا مَنْ لَهُ وَجْهَـــانِ (٤)

وقوله :

وَأَفْقَدُ مَا طَلَبْتُ فَلَمْ أَجِـــدْهُ رَفِيقٌ فِي صَحَابَتِهِ رَفِيـــقُ
فَأَصْبَحَ وَهْوَ لِلْمَنْقَاءِ ثَـــانٍ وَثَاوٍ حَيْثُ فَرَّقَتِ الأَنُـــوقُ (٥)

وكما في قوله :

..... وعلى غُصْنِكِ بَـــدْرُ (٦)

وقولـــه :

مَرَّ بِي غُصْنٌ عَلَيْهِ قَمَـــرُ ..... (٧)

ونستطيع أن نجد المبالغة في قوله حين صوّر لنا خلاء القيروان من أهلهـــا حيث يقول :

حِينَ عَادَتْ بِهِ الدِّيَارُ قُبُـــوراً بَلْ أَقُولُ مِنْهُنَّ أَخْلَـــى (٨)

---

(١) الغيث ، ٢/٢٦٢.
(٢) الذخيرة ، ق ٤ م ١/٢٣١.
(٣) الإنباه ، ١/٣٠٢.
(٤) المسالك ، ج ١١ ق ١/٢٤٢.
(٥) الذخيرة ق ٤ م ١/٢٢٤.
(٦) المصدر نفسه ، ص : ٢١٥.
(٧) المصدر نفسه ص : ٢١٨.
(٨) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٧.

فالشاعر هنا يبالغ مبالغة واضحة في تصوير وحشة القيروان وخلوّها لاسيّما عندما جعل البيوت في القيروان أخلى من القبور وأكثر وحشة .

هذا ولقد كان شاعرنا يبالغ في تصوير جمال محبوبته من ناحية ، مثلما كان يبالغ في تصويره لنفسه بعد هجران أحبّته وفراقهم ، من ناحية أخرى ، التي تغزّل بها كانت صاحبة وجه جميل يشبه القمر في جماله ، وهي فاتنة تصرع بجمالها ، وهذا واضح من قوله :

مَرَّ بي غُصْنٌ عليه قَمَرٌ ... مُتَجَلٍّ نُورُهُ لا يَنْجَلي
هَزَّ عِطْفيهِ فقُلْنا إنَّهُ ... ذو الفَقار اهتزَّ في كفِّ عليّ
ورأيتُ النّاسَ صرعى حَوْلَهُ ... فكأنَّ اليوم يوم الجمل (١)

وأمّا هو بعد فراق أحبته وهجرهم ، فمجرد لحظ يترجم عن قتيل ، فيقول :

بِعَيْشِكِ نادِ أيّامي وَقُلْ هَلْ ... لَدَيْكِ إلى مردّ مِنْ سَبيلِ
أراكِ كما يَرَى المُحتاجُ مالاً ... وَقد مَلَكَتْ عليه يَدُ البَخيلِ
أراحِلَةً وما أبقيْتِ منّي ... سِوى لَحْظٍ يُترجِمُ عَنْ قَتيلِ (٢)

ويقول :

يُسْعِدُكَ وابلُ أدْمُعٍ في أرْبُعٍ ... شَرِبَتْ مياهَ الدَّمْعِ شُرْبَ الهيمِ (٣)

هذا ولقد عكس لنا ابن شرف ثقافته الواسعة المتنوعة في شعره ، فأكثر من استخدام المصطلحات اللغويّة ، والنّحويّة ، والعروضيّة ، فنستطيع أنْ نجد المصطلحات اللغويّة والنحويّة في قوله :

صرفتَ رجائي عن لعلّ وعن عسى ... وأبعدتني باليأسِ عن كلِّ مطمعِ (٤)

وفي قوله :

فالماجِدُ السّيدُ الحُرُّ الكريمُ لَهُ ... كالنّعتِ والعطفِ والتّوكيدِ والبدلِ (٥)

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤م١ / ٢١٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٦ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٦ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٢١٦ .

وفي قولـــه :

وَلي مِنْهُما سَهْمانِ حِذا ابْنُ أَرْبَعٍ ... وَهذا ابْنُ سِتٍّ كُلَّما كانَ إِغْفاءُ

أَضُمُّهما واللَّيْلُ داجٍ كأَنَّمـــا ... هُما نُقْطَتـا ياءٍ وَجِسْمِي هُوَ الياءُ (١)

ونستطيع أنْ نجدَ المصطلحات العروضيّة في قوله :

فإنْ أَفْحَمْتُنا هَيْبَةً عَرَبِيَّـــةٌ ... لَدَيْكَ لَها في الشِّعْرِ كَسْرٌ وإِقواءُ (٢)

وفي قولـــه :

كأَنَّما الأَجْسامُ بَعْدَ رؤوسِهـــا ... أَبْياتُ شِعْرٍ ما لَهُنَّ قَـــوافِ (٣)

وَلَقَدْ أكثر شاعرنا من استعمال بعض العبارات والأساليب اللُّغويّة ، ومـــن ذلك كثرة استعماله لـ ((واوربّ)) ، كما في قوله :

وَدُرَّةٍ تَنِســـارَتْ دُرَى دارِي ..... (٤)

وقولـــه :

وَبِلْقِيسِيَّةٍ في الحُلْكِ لَيْسَـــتْ ..... (٥)

وقولـــه :

وَمَطْبُوخٍ بِمَنْبَرِ عَقِيدِ نَـــارِ ..... (٦)

وقولـــه :

وَناصِبِ نَحْوِ أَقْواهِ الوَرَى أُذُنَـــاً ..... (٧)

وقولـــه :

وَشَمْسٍ تَراخَتْ أَنْ تَغِيبَ لِقِبْلَتِـــي ..... (٨)

وكما في قولـه :

وَشَيْخٍ لَهُ غُرَّةٌ فَخْمَـــةٌ ..... (٩)

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٢١٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص : ٢١٩ .
(٣) المصدر نفســه ، ص : ٢٢١ .
(٤) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٦ .
(٥) الغيث ، ٢ / ٢٦٢ .
(٦) نهاية الأرب ، ١١ / ١٢٨ .
(٧) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٩ .
(٨) الذخيرة ، ق ٤ م ٢ / ٢١٦ .
(٩) الغيث ، ٢ / ٢٨٠ .

وكما في قوله :

وَضَرُورَةٍ في ظَهْرِهَا حِينَ تَكْتَسِي ..... (١)

كما أكثر من استخدام الأسلوب الإنشائي والطّلبي في شعره من مثل : التّمنّي ، والنّداء ، والأمر ، فالتّمنّي كما في قوله :

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ عَوْدَةٌ لي في الغَيْـ ـبِ إلى ما أَطَالَ شَجْوِيَ أَمْ لا ؟ (٢)

وفي قوله :

فَيَالَيْتَ شِعْرِي القيروانُ مَوَاطِنِي أغائِرَةٌ فيها اللّيالي القَمَاءِرُ ؟ (٣)

والنّداء كما في قوله :

يا قيروانُ وَدِدْتُ أَنّي طَائِرُ ..... (٤)

وفي قوله :

ويارُبَّ وَجْهٍ فيه للعَيْنِ مَنْزَهٌ ..... (٥)

وفي قوله :

فَيا أَخَوِيَّ مِنْ أَسَدٍ وَسَعْدٍ ..... (٦)

وفي قوله :

يا رَوْحَتِي بالقَيْرَوانِ وَبُكْرَتِي ..... (٧)

وفي قوله :

فيا قاطِمَاً وَطْلي وَيا واهِلاً غَدِي ..... (٨)

---

(١) الخريدة ق ٤ ج ٢/ ١١٩ .
(٢) الذّخيرة ق ٤ م ٢/ ٢٢٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٥ .
(٤) المصدر نفسه ص : ٢٣٣ .
(٥) المصدر نفسه ص : ٢٣٧ .
(٦) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٧ .
(٧) المصدر نفسه ص : ٢٣٥ .
(٨) المصدر نفسه ص : ٢١٦ .

وفي قولـــه :

يا أرْبُعِي في القُطْبِ مِنْها كَيْفَ لي ..... (١)

وأمّا الأمر ففي قولـه :

أعنّي بإطْماعِ الوِصالِ عَلى النَّوى ..... (٢)

وفي قولـــه :

واذْكُرْ لَياليكَ الّتي ذَهَبَتْ لَنَـا ..... (٣)

وفي قولـــه :

سَلْ عَنْ رِعَايَ عَنِ الزّمانِ فإنّـهُ ..... (٤)

وفي قولـــه :

جَاوِزْ عَلِيّاً وَلا تَحْفَلْ بِحَادِثَـةٍ ..... (٥)

وفي قولـــه :

قِفا فَتَنَسَّمَـا عِطْرَ النَّسيـــمِ ..... (٦)

والأمثلة على هذه الأنواع كثيرة في شعره ، يستطيع الدّارسُ أنْ يلاحظهـا بوضوح في معظم أشعاره الّتي وَصَلَتْنا .

ونستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابْنَ شرفٍ قد استوحى ألفاظه من مصادر متعدّدة ومتنوّعة ، فقد استوحاها من البيئة المحيطة به على اختلاف أنواعها : الطبيعيّة ، والاجتماعية ، والثقافيّة ، والدّينيّة ، ومن ذلك قوله :

ما فـلان إلاّ كجيفةِ كلـبٍ ... والضرورات ألجأتنـا إليـهِ
فَمَنْ اضطر غيرُ باغٍ ولا عـا ... دٍ فلا اثْمَ في الكتابِ عليـهِ (٧)

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٢٣٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢١٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢١٦ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٦ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٢ .
(٦) الإنباه ، ١/٣٠٢ .
(٧) المسالك ، ق١ ج ١١/٢٤٣ .

وقولـــه :

فإذا رأيْتَ لهيبَها وسلاتِـــي فاذكُرْ بذلكَ نارَ ابراهيـم (١)

وقولـــه :

مالِي أُجاذِبُ ذي الدُّنيا موليَّـــةً فكُلُّ ثوبٍ عليها قُدَّ مِنْ دُبُـرِ (٢)

هذا ومن يتصل بآثاره وأشعاره ، يستطيع أنْ يرى شخصيَّةً خِصْبَةً ذات ثقافة واسعة ، بصيره بأحوال النّاس ، وعاداتهم ، وسُبل حياتهم .

المعانـــــي :

يستطيع الدّارس لآثار ابن شرف الشّعريّة ، أنْ يرى أنّه قد اتكأ علـــى مصدرين أساسيين استقى مِنْهُما معظم معانيه الّتي بثّها في قصائده وأشعـــاره ، وهما : ثقافته الشّعريّة الواسعة إذ تأثّر بمعاني الشّعراء الّذين سبقوه مـــن جاهليين ومخضرمين واسلاميين ، وغيرهم مِنْ شعراء المشرق والمغرب مِمَّنْ سبقـوه أو عاصروه ، وبيئته المغربيّة الاندلسيّة الجليلة الّتي عاش فيها ، وتفاعل معهـا حيث تفتحت عيونه على مواطن الجمال والفتنة فيها ، فنهل منها معظم معانيـه الجميلة المؤثرة .

هذا ويستطيع الدّارس أيْضاً أنْ يلاحظ أنّ أشكال المعاني الّتي طرقهـا شاعرنا كانت قد تنوّعت ما بين قديم وجديد ، فمنها القديم الّذي استوحـاه من معاني السّابقين بعد أنْ ملأ عليه نفسه اعجاباً ، فأعاد صياغته من جديـد ، وصبّه في قالب جديد يتفق وروح العصر ، بعد أنْ أضفى عليه من رشاقتـه ، وجمال اسلوبه ، فأتى وكأنه له ، ومنها الجديد الّذي لم يسبقه إليه غيـره

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ٢١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٢ .

من الشعراء فعُرِفَ به دون غيره ، فمن المعاني السّابقة الّتي استوحاها ، وأعاد صياغتها من جديد ، قوله :

مَحْمُودُ عَيْشٍ جادَلي دَهْرِي بِهِ ثُمَّ استردَّ فكان فيه خَصِيمي (١)

وهو في هذا ينظر إلى قول ابن هاني :

وَهَبَ الدَّهْرُ نَفِيسًا فاسترد رُبَّما جادَ لئيمٌ فحَسَد (٢)

وأما قوله :

وَنُجُومٌ كاساتي طوالعُ بالمُنَى والسَّعد يستغني عن التّقويم (٣)

فإنه يلتفت فيه إلى قول المتنبّي :

يُقَرِّبُ بالفَضْلِ مَنْ لا يَوَدُّهُ وَيَقْضِي لَهُ بالسَّعْدِ مَنْ لا يُنَجِّم (٤)

وهو في قوله :

فَما جَشَأَتْ نَفْسِي عَشِيَّةَ مُشْرِفٍ ولا احتَلَبَتْ عَيْنَيَّ حُزْوَى وَقَيْفَاء (٥)

ينظر فيه إلى قول ذي الرّمة :

لَقَدْ جَشَأَتْ نَفْسِي عشيّةَ مُشْرِفٍ وَيَوْمَ لَوى حُزْوَى فَقُلْتُ لَها صَبْرا (٦)

وأمّا قوله :

ولا لِغُرَابَي يِمْنَةِ الدّارِ ظَلْتُ ذا سُؤالٍ وَما عِنْدَ الغُرابَيْنِ أَنْبَاءُ
مَقامُ زَمانٍ ماتَ عُرْوَةُ حَسْرَةً عَلَيْهِ وَظَلَّتْ تَسْفَحُ الدَّمْعَ عَفْرَاءُ (٧)

فإنّه يَلْتَفِتُ فيه إلى قول عروة بن حزام :

ألا يا غُرابَي يِمْنَةِ الدّارِ خَبِّرا أَبا الهَجْرِ مِنْ عَفْرَاءَ تَنْتَحِيانِ ؟

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٧ .
(٢) ديوان ابن هاني ، ص : ٣٥ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٦ .
(٤) ديوان المتنبّي ، ٣ / ٣٥٥ .
(٥) الذّخيرة ق ٤ م ١ / ٢١٩ .
(٦) ديوان ذي الرّمة ، ص : ٢٣٦ .
(٧) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٦ .

فإنْ كانَ حقّاً ما تقولانِ فانْهضا بلحمي إلى وكريكما فكلاني
ولا يعلمنّ الناسُ ما كان ميتتي ولا يأكلنّ الطيرُ ما تذرانِ

فالدّارس يستطيع أنْ يرى أنّ شاعرنا قد أدّى هذا المعنى مع شيء من الزيادة ، لا سيّما بعد أنْ أعاد صياغته ، وصبّه في قالب جديد ، وأسلوب جديد ، يتفق مع ما يريد ومع روح العصر الّذي يعيش فيه .

وهو في قوله :

أتى الزّمان على يأسٍ به لبني الدُّنيا كبُشْرى بمولودٍ على الكِبَرِ (١)

ينظر إلى قول أبي تمّام الّذي يقول فيه :

بُشْرى الغَنِيِّ أبي البَناتِ تتابَعَتْ بشراؤه بالفارسِ المولودِ (٢)

وكذلك قوله :

عجبتُ بهذه الدّنيا أُناساً إذا غدروا فغدرهم وثيقُ
ولم أحْسَبْهُم وُدّاً ولكنْ كما جمعَ العدوّينِ الطّريقُ (٣)

واضح الصّلة بقول المتنبّي :

ومِنْ نكدِ الدّنيا على الحرِّ أنْ يرى عدوّاً له ما مِنْ صداقتِهِ بُدُّ (٤)

وهو في قوله :

حيثُ عادَتْ به الدّيارُ قبوراً بل أقولُ الدّيارُ منهنّ أخلى (٥)

يلتفت إلى قول أبي تمّام الّذي يقول فيه :

وما القفرُ بالبيدِ القواءِ بل الّتي نبتْ بي وفيها ساكنوها هي القفرُ (٦)

---

(١) شعر عروة ، ص : ١٦ — ١٧ .
(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ٢٢٣ .
(٣) ديوان أبي تمام ، ١ / ٣٩٩ .
(٤) الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ٢٢٤ .
(٥) ديوان المتنبّي ، ١ / ٣٧٥ .
(٦) ديوان أبي تمّام ، ٤ / ٥٧٠ .

ولعله في قوله :

ثُمَّ لا شَمْعَةٌ سِوى أنجُمٍ تَخْـ ... ـطُو على أُفْقِها نَواعِسُ كَسْلَى (١)

ينظر إلى قول ابن هاني :

وَبَاتَ لَنا سَاقٍ يَقُومُ عَلى الدُّجى ... بِشَمْعَةِ صُبْحٍ لا تُقَطُّ ولا تُطْفَا (٢)

وأمّا في قولـه :

إذا أفزَعَتْهُم نَبْوَةٌ زاحَمُوا لَهَا ... خُلُوعِي حتّى وُدُّهُم لو تَفَتَّقُ (٣)

فإنّه يلتفت فيه إلى قول امرئ القيس الّذي يقول فيه :

اذا أخذتها هزّة الرّوع أمسكت ... بمنكب مقدام على الهول أروعا (٤)

ولقد علّق ابن بسّام على قول ابن شرف بقوله : ((... بناه على قول امرئ القيس ، إلاّ أنّ الوجد لذعه لذعةً أنطقته بالحال ، وقوّلته السّحر الحلال ، فعلّمته كيف يفتّ الاكباد ، ويفتّ في الاعضاد .)) (٥) ، ومن هذا يتضح لنا أنّ ابن بسّام يفضّل قول شاعرنا على قول امرئ القيس .

وهو في قولـه :

وإذا تجدّدَ لي أخٌ ومُنادِمٌ ... جَدَّدْتُ ذِكْرَ اخاءِ خِلٍّ أوّلِ (٦)

ينظر إلى قول أبي تمّام الّذي يقول فيه :

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيْثُ شِئتَ مِنَ الهَوى ... ما القَلْبُ إلاّ للحبيبِ الاوّلِ (٧)

وأمّا قولـه :

كأنّ الدّيارَ الخالياتِ عرائسٌ ... كَواسِدُ قَدْ أُزْرَتْ بِهِنّ الغَرائِرُ (٨)

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٨ .
(٢) ديوان ابن هاني ، ص : ٧٨ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٢ .
(٤) ديوان امرئ القيس ، ص : ٢٤٢ .
(٥) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٣ .
(٦) المصدر نفسه ، ص : ٢٣٣ .
(٧) ديوان أبي تمام ، ٤ / ٢٥٣ .
(٨) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٤ .

فانه يلتفت فيه إلى قول أبي تمّام :

وَكَذاكَ لَمْ تُفْرِطْ كَآبَةُ عَاطِلٍ ... حَتّى يُجَاوِزَهَا الزَّمانُ بِحَالِي (١)

ولعلّه في قولـه :

وأَهْجُرُهُ وهو اقْتِرَاحِي مِنَ الـوَرَى ... وَقَدْ تُهْجَرُ الأَهْوَاءُ وَهْيَ قَرَاحُ (٢)

ينظر فيه إلى قول أبي العلاء المعرّيّ :

لو اخْتَصَرْتُم مِنَ الإحْسَانِ زُرْتُكُـمُ ... والعَذْبُ يُهْجَرُ للإفْرَاطِ في الخَصَرِ (٣)

ويبدو لي أنّه في قوله :

أراكِ كما يَرَى المُحْتَاجُ مَـالاً ... وَقَدْ مَلَكَتْ عَلَيْهِ يَدُ البَخِيـلِ (٤)

يلتفت إلى قول معاصره وقرينه ابن رشيق حيث يقول :

والصُّبْحُ قَدْ مَطَلَ اللَّيْلُ العُيُونَ بِـهِ ... كَأَنَّهُ حَاجَةٌ في كَفِّ ضِنِّيـنِ (٥)

وممّا سبق يتضح لنا أنّ ابن شرف قد استقى معظم معانيه من معانـي الشّعراء الّذين سبقوه من جاهليين، ومخضرمين، واسلاميين، وغيرهم ممّن عاصروه في المشرق والمغرب، إلاّ أنّه تأثّر أكثر ما تأثّر بمعاني المتنبّي الّذي كان يعد مثلا أعلى له، وكان يعجب به اعجاباً كبيراً، ويرى فيه صورة نفسه المغامـرة الطّموح الحكيمة، وهذا ما أكّده لنا ابن شرف نفسه حين يقول في كتابه المعروف بـ ((أبكار الأفكار)) : ((... إنّا اخترعنا مائة بيت مثلاً ممّا يستعمله النّـاسُ في أثناء كلامهم ومحاوراتهم : منها خمسون للعرب والمخضرمين، ومنهـا خمسون لأبي الطّيب المتنبّي خاصّةً لمّا مُنِحَ له من ذلك وتُحُكِّيَ له، وهـذه المائة على شتّى قوافي، وشتى أعاريض، فنظمت جميعها على أهمّ معنـى

---

(١) ديوان أبي تمّام، ٤/٢٥٣.
(٢) الذّخيرة ق٤ م١/٢٣٧.
(٣) شروح سقط الزّند، ق١/١٢٠.
(٤) الذّخيرة، ق٤ م١/٢٢٥.
(٥) ديوان ابن رشيق، ص: ٢٢١.

ومشابهة في قصيدة واحدة فيها مائة بيت لكلّ بيت بيت مثله ، ولو شئنا نزيد على هذه العدّة .)) (١) .

ولا يفهم من هذا أنّ شاعرنا لم يأت بجديد ، وأنّه كان مقلّداً لمن سبقوه في معانيه والفاظه ، وصوره ، إنّما كانت له معانيه الخاصّة به الّتي لم يسبقه إليها أحد ، ومن ذلك قوله :

لَمْ يَكْفِ وَجْهَكَ حُسْنُهُ وَبَهَاؤُهُ ... حتّى اكتسى ثَوْبَ الجَمالِ مُطرّزا
سُبْحانَ مَنْ أعْطاكَ حُسْناً ثانياً ... وبثالثٍ مِنْ فِعْلِ حُسْنِكَ عَزّزا (٢)

ومن ذلك قوله :

يُسْعِدكَ وابلُ أدْمُعٍ في أرْبُعٍ ... تَرِبَتْ مِياهُ الدَّمْعِ شُرْبَ الهيمِ
أيّامَ تَمْرِ المَشْرِقَيْنِ تَجِيئُني ... فيها وَبَدْرُ المَغْرِبَيْنِ نَدِيمِي (٣)

وقد يستوحي بعض معانيه من طبيعة بلاده الجميلة ، ومن مواطن الفتنة والجمال فيها ، ومن ثقافته العربيّة والدّينية الواسعة ، ومن ذلك قوله :

بَعْدَ يَوْمٍ كأنّما حُشِرَ الخَلْـ ... ـقُ حُفاةً به عَوارِيَ رُجْلَى
وَلَهُمْ زَحْمَةٌ هُنالِكَ تَحْكِي ... زَحْمَةَ الحَشْرِ والصَّحائِفُ تُتْلَى
وَعَجِيجٌ وَضَجّةٌ كَعَجِيجِ الـ ... خَلْقِ يَبْكُونَ والسَّرائِرُ تُبْلَى (٤)

وممّا تقدّم يتضح لنا أنّ معاني الابيات السابقة الّتي يصوّر فيها ابن شرف خروج أبناء وطنه منه فارين مذعورين مستوحاة من حال النّاس يوم القيامة ، وهم ينتظرون حسابهم .

ومهما يكن من امر فإنّ المعاني الّتي طرقها شاعرنا ، تشكف لنا عن شخصيّة متنوّعة الثقافة ، واسعة الاطلاع .

---

(١) مخطوط خزانة ابن يوسف ، ص : ٢٠٥ .
(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢١٦ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢١٦ .

الموسيـــــقـــى :

يرى ابن رشيق أنّ : ((الوزن أعظم أركان حدّ الشّعر ، وأولاها بـــــه خصوصيّة ، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة ، إلاّ أنْ تختلف القوافـــي فيكون ذلك عيباً في التّقفية لا في الوزن .)) (١) ، ذلك لأنّ الوزن يعد : ((مـــن أخصّ ميزات الشّعر ، وأبينها في أسلوبه ، ويقوم على ترديد التفاعيل المؤلّفـــة من الأسباب والفواصل ، وعن ترديد التفاعيل تنشأ الوحدة الموسيقية للقصيـــدة كلّها .)) (٢) . ولعلّ هذا يعود إلى تأثير الوزن الّذي يعمل على دعـــم فاعلية الكلمات ، ويعمل على تقوية العلاقات بينهما ، فيبرزها ، ويوجّه العنايـــة إلى صوتها ، ثم تأتي القافية بإيقاعها ، وحسن تلائمها مع القيمة الصّوتيـــة للقصيدة ككل ميزة أخرى للجوانب الموسيقية في الشّعر (٣) .

وأمّـــا الشاعر فيستطيع بما أوتي من مقدرة فنيّة خلّاقة أنْ يؤثر فـــي نفوس المتلقّين بوسائله المتعدّدة ، وذلك بأنْ يعمل على تعزيز أنغامـــه ، وتقويتها عن طريق ايجاد تقفية في حشو البيت : ((بتقسيم عباراته فـــي البيت الواحد إلى جُمَل متموّجة تكاد كلّ موجة منها تماثل زميلتها ، وترتبـــط بها أوثق ارتباط .)) (٤) ، وقد يُعْنَى بجرس الألفاظ ، ووقعها في الأسمـــاع فيعمل على زيادة موسيقى الشّعر ، ذلك لأنّ : ((العناية بِحُسْن الجَـــرْس ، ووقع الألفاظ في الاسماع ، يزيد من موسيقى الشّعر ، وذلك لأنّ الأصـــوات الّتي تتكرر في حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر في القافية ، تجعل البيت أشبـــه بفاصلة موسيقيّة متعدّدة النّغم ، مختلفة الألوان ، يستمتع فيها من له درايـــة بهذا الفن ، ويرى فيها المهارة والمقدرة الفنية .)) (٥) ، وقد يهتم باقامـــة

---

(١) العمدة ، ١ / ١٣٤ .
(٢) الأسلوب ، ص : ٦٦ .
(٣) أنظر : الشعر في عهد المرابطين ، ص : ٣٤٧ .
(٤) ابن زيدون ، ص : ٤٧١ .
(٥) موسيقى الشّعر ، ص : ٣٩ .

التّوازن والتّقابل بين كلّ لفظ صوتيّ مع اللفظ الذي يقابله في العبارة التالية، وسوف نرى مثل هذه الظاهرة بوضوح في شعر شاعرنا.

ونحن إذا ما نظرنا في شعر ابن شرف، فإنّنا نجده حريصاً على تحقيق هذه المقدرة الفنيّة في شعره، فكثيراً ما كان يُعْنَى بجرس الألفاظ، وبوقعها في الأسماع مثلما يُعْنَى باقامة التّوازن والتقابل بين الفاظه وتراكيبه؛ ليزيد في جمال الموسيقى، وليضفي على النغمة ألواناً مختلفة، وإليك بعض الأمثلة على ما ذهبنا إليه، ومن ذلك قوله:

لمختلفي الحاجاتِ جُمْعٌ بَبابِهِ ... فَهذا لَهُ فَنٌّ وَهذا لَهُ فَنُّ
فللخائفِ الدُّنْيا وللمُعْدَمِ الغِنَى ... وللمُذْنِبِ العُتْبَى وللخائفِ الأَمْنُ (١)

ومن ذلك قوله أيضاً:

سَلْ عَنْهُ وانْطِقْ بِهِ وانْظُرْ إليه تَجِدْ ... مِلءَ المَسامِعِ والأَفْواهِ والمُقَلِ (٢)

هذا ويستطيع الدّارس أنْ يلاحظ حرصه على التنغيم في شعره، حين يقيم توازناً وتقابلاً بين الالفاظ في الشطر الأول من البيت الواحد، وبين مثيلاتها في الشطر الثاني، وهذا واضح في قوله:

فالماجِدُ السّيّد الحرُّ الكَريمُ لَهُ ... النَّعْتِ والعَطْفِ والتّوكيدِ والبَدَلِ (٣)

ولقد تميّز أسلوب شاعرنا بالدّقة في اختيار الكلمات، ووضعها في المكان الملائم لها لاسيّما بعد أنْ يجعل بينها وبين الالفاظ الأخرى التي تجاورها تآلفاً، وتناسقاً يعطيها جرْساً، وايقاعاً في ذهن السّامع.

---

(١) المعاهد، ٢/٣١٠.
(٢) الذّخيرة، ق ٤ م ١/٢٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ص: ٢٢٢.

ومهما يكن من أمر ، فإنّ شاعرنا قد نظم شعره على بحور الشّعر المعروفة الّتي كانت شائعة في عصره ، غير أنّه أكثر من استخدام البحور الطّويلة المتدّة ذات السّير البطيء : الطّويل ، والبسيط ، والكامل ، والوافر ، فالدّارس لأشعاره ، يستطيع أنْ يلاحظ بوضوح أنّ البحر الكامل يحتل المرتبة الأولى في شعره (١) إذ نظم على هذا البحر معظم أشعاره الّتي وصلتنا ، ولا سيّما في الرّثاء ، ويأتي بعده على الترتيب الطّويل (٢) ، والبسيط (٣) ، والوافر (٤) ، على تفاوت فيما بينها .

---

(١) وذلك كما في قوله : قد كُنْتَ في وَعْدِ الحِذارِ فأنْجَزا .....
أنظر : الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٤ . وكما في قوله :
واذكر لياليك التي ذهبت لنا .....
المصدر نفسه ، ص : ٢١٦ . وكما في قوله :
يا حاسِدِيهِ عَلى مُلاً خطّت لـــه .....
المصدر نفسه ، ص : ٢٢١ . وكما في قوله :
يا قيروانُ وددْتُ أنّي طائِرُ .....
المصدر نفسه ، ص : ٢٣٣ .

(٢) وذلك كما في قوله : سَقَى اللّه أرْضاً أنبتت عودك الّذي .....
أنظر : الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٩ . وكما في قوله :
وَعاجُوا عَلى عُسْفانَ والليلُ أليلُ .....
الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٠ . وكما في قوله :
غَرْبيّةُ أشْكالٍ غَرْبيّةُ دارِ .....
نهاية الأرب ، ٩ / ٣٢١ .

(٣) كما في قوله : مالِي كذا كُلّ ما طَلَبْتُهُ عَسِرُ .....
الذّخيرة ق ٤ م ١ / ٢٢٢ . وكما في قوله :
أهْلُ الصّفاءِ نأيْتُمْ بَعْدَ قربكـــم .....
المصدر نفسه ، ص : ٢٢٦ . كما في قوله :
رَسم الشّجى البُكا في الرّسْمِ والطّلـلِ .....
ألف باء ، ١ / ٤٩٨ .

(٤) وذلك كما في قوله : بِمَثْلِكَ نادِ أيّامِي وَقُلْ هَلْ .....
الذّخيرة ، ق ٤ ، م ١ / ٢٢٤ . وكما في قوله :
إذا تَحِبّ الفتى جِدّ وسَعْـــدُ .....
معجم الأدباء ، ١٩ / ٤٠ . وكما في قوله :
فِقا فَتَنَسّما عِطْرَ النّسيـــمِ .....
الإنباه ، ١ / ٣٠٢ .

وهذه البحور من أكثر بحور الشعر العربي دوراناً في دواوين الشعراء، وعلى مختلف العصور، وفي هذا يقول المعرّيّ : ((إنّ البسيط، والطّويل ليس في الشعر أشرف منهما وزناً، وعليهما جمهور شعر العرب، ويقال : إنّ العرب كانت تسمي الطّويل الرّكوب لكثرة ما كانوا يركبونه في أشعارهم ... وأنّ الاوزان الّتي تتقدّم في الشعر هي : الطّويل، والبسيط، ويليهما الوافر والكامل.)) (١)
ويقول الاستاذ عبد المنعم خفاجي : ((... أكثر أشعار العرب من الطّويل، والبسيط، والكامل، كما يدّل الاستقراء.)) (٢).

ولقد حاول بعض الدّارسين أنْ يعلّل هذه الظاهرة، فذهب إلى القول : ((... إنّ الشّاعر في حال اليأس والجزع، يتخيّر وزناً طويلاً كثير المقاطع، يصبّ فيه من أشجانه ما ينفّس عنه حزنه وجزعه.)) (٣)

وهذا أمر نستطيع أنْ نلمسه بوضوح فيما وصلنا من شعر ابن شرف الّذي أكثر من النّظم على هذه البحور الطّويلة ذات السّير البطيء لما تتمتع به هذه البحور من قدرة على تحمّل همومه الثقيلة، ولتعبّر عن نفسه الحزينة المتعبة الّتي عانت من صنوف القهر، والاذلال، والغربة.

ولكنّ هذا لا يعني أنّ ابن شرف لم ينظم على البحور ذات الاوزان القصيرة المجزوءة، بل ان معظم مقطعاته القصيرة قد نظمها على البحور القصيرة المجزوءة (٤)، الا أنه اكثر من النّظم على البحور الطويلة بصورة عامّة.

---

(١) الفصول والغايات، ص : ٢٦٦ — ٢٦٨.
(٢) البناء الفني، ص : ٣٢٣.
(٣) موسيقى الشعر، ص : ١٧٤.
(٤) فنستطيع أن نجد مجزوء الرّجز في قوله : يا خائفا من معشر .....
الذّخيرة، ق٤ م١ / ١٧٢. وفي قوله : هل لك في موز اذا .....
البدائع، ص : ٢٤٠. وفي قوله : غنيلة الجسم لها .....
شرح المقامات، ٥ / ٧١. ونستطيع أن نجد مجزوء الرمل في قوله :
بين أجفانك سحر ..... الذّخيرة، ق٤ م١ / ٢١٥.
وفي قوله : مايقول الشيخ في شيء ..... شرح المقامات، ٥ / ٧١.
ونستطيع ان نجد مجزوء الكامل في قوله : قالوا تحاملت الحمير ....
الذّخيرة، ق٤ م١ / ٢٢٦. وفي قوله : ماأطفأت حمر الوقيد .....
الارب، ١١ / ٣٣.

الصّور والأخيلة :

إذا كان الخيال هو : ((الملكة الّتي يستطيع بها الأدباء ، أنْ يؤلّفوا صورهم ، وهم لا يؤلّفونها من الهواء ، إنّما يؤلّفونها من احساسات سابقة لاحصر لها ، تختزنها عقولهم ، وتظلّ كامنة في مخيلتهم حتّى يحين الوقت فيؤلّفوا منها الصورة الّتي يريدون .)) (١) ، بل هو الأداة اللاّزمة لاثارة العواطف واشعالها ، وهو الّذي يملك به الشاعر أو الأديب نفس القارئ والسّامع ويجعلها تتعجّب وتطرب من مشاهد الصّور في القصيدة .)) (٢) ، فإنّ الصّورة هي وسيلة من وسائل التّعبير عن التجربة الشّعرية ، وحتى تحقق الصّورة غايتها تلك فإنّها تتطلب تآلف الصّور الجزئية في القصيدة ككل فيما بينها لتكوّن الصّورة الكلّيّة الّتي هي التجربة الشّعريّة ، وتنقلها لنا نقلاً فنيّاً صادقاً واقعيّاً (٣) .

ويستطيع الدّارس لشعر ابن شرف أنْ يلمح بوضوح ظاهرة ازدحام الصّور الشعرية ، واكتظاظها فيه ، حيث اتخذ من الخيال والصّور الشّعريّة وسيلة له ليعبّر بها عما يعتمل في نفسه من عواطف ، ومشاعر ، وأفكار ، فأخذ يعرض لنا الصّور الأدبيّة الرّائعة ، متكئاً في ذلك كلّه على أشكال البيان المعروفة : من تشبيه ، واستعارة ، وكناية ، ومجاز ، فالشّعر من غير هذه الأمور يصبح كتلةً جامدةً ، ذلك لأنّ هذه الصّور المجازيّة جزء ضروري من الطّاقة الّتي تمدّ الشّعر بالحياة (٤) . ومن أجل هذا فقد أكثر ابن شرف من استخدام هذه الأنواع من التشبيهات والاستعارات ، حتى إنه لا يكاد يخلو بيت من أبياته من تشبيه أو استعارة أو مجاز .

---

(١) في النّقد الأدبي ، ص : ١٦٧ .
(٢) النّقد العربي الحديث ، ص : ٤٤ .
(٣) أنظر : المرجع نفسه ، ص : ٤٤٣ .
(٤) أنظر : الشّعر كيف نفهمه ، ص : ٥٩ .

ولقد تعدّدت مصادر الصورة الشّعريّة عند شاعرنا ، فقد تكون مأخوذه من بيئته الجميلة الخلّابة ومن مظاهرها المختلفة ، كما في قوله :

كأنّما الأغصانُ لمّا علا ... فُرُوعَها قَطْرُ النَّدى نَثْرا
وَلاحَتِ الشَّمْسُ عَلَيْها ضُحًى ... زَبَرْجَدٌ قَدْ أَثْمَرَ الدُّرَّا (١)

وكما في قوله :

هِيَ وَرْدَةٌ في خَدِّهِ وَبِكأسِها الـ ... دُرِّيِّ مِنْها عَسْجَدٌ مَصْبُوبُ (٢)

وكما في قوله :

كأنَّ الجُلّنار آنامِلٌ ... مطرّفة مِنْ دَامِيَاتِ نِبَالِ (٣)

وقد تكون الصّورة عند شاعرنا مأخوذه مِنْ تغزّله بالمرأة وبمواطن الجمال والفتنة فيها مستوحياً ذلك من طبيعة بلاده الجميلة الخلّابة وما فيها مِنْ جمال ، فكثيراً ما كان يشبّه وجه محبوبته بالقمر ، وطولها بالغُصنّ ، وأردافها بالكثبان ، ومن ذلك قوله :

بَيْنَ أَجْفانِكِ سِحْرٌ ... وَعلى غُصْنِكِ بَدْرُ
وَمِنَ الكُثْبانِ شَطْرٌ ... لكِ والأغصانُ شَطْرُ (٤)

وكما في قوله :

مَرِّبي غُصْنٌ عَلَيهِ قَمَرُ ... . (٥)

وكما في قوله :

كأنَّ ذُرَى الرُّمّانِ غِيْدَ نَواهِدٍ ... حَلاهُنَّ في أعلى الجِنَّةِ جالِي (٦)

وقد يستمدّ بعض صوره وتشبيهاته ، من واقع النّكبة المؤلمة التي

---

(١) شفاء الغليل ، ص : ٢١ .
(٢) معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٩ .
(٣) مقامات السّيوطي ، ص : ٣٦ .
(٤) الذّخيرة ق ٤ م ١ / ٢١٥ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٢١٨ .
(٦) مقامات السّيوطي ، ص : ٣٦ .

تعرّض لها وطنه القيروان ، حيث كان يرى الأجسام بلا رؤوس ، وهذا واضح من قوله في احدى قصائده التي نظمها بعد هذه النكبة ، حيث يقول :

يُخْلِي الدِّيَارَ مِنَ الجُسُومِ وَيَجْتَنِي ثَمَرَ الرُّؤُوسِ وَطَرْفَةَ الأَطْرَافِ
فَكَأَنَّمَا الأَجْسَامُ بَعْدَ رُؤُوسِهَا أَبْيَاتُ شِعْرٍ مَا لَهُنَّ قَوَافِ (١)

وبكلّ دقّة يحاول ابن شرف أن يرسم لنا صورة مزعجة بشعة لأعداء وطنه الذين اغتصبوه وخرّبوه ، فيراهم ثعابين مفترسة ذات أنياب قاتلة ، ويراهم شياطين مدجّجة بالرّماح ، فيقول :

فَإِذَا الثَّغْرُ ضَمَّهُمْ فَوْقَ الدَّهْـ ـرُ لَهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ النَّبْلِ نَبْلَا
مِنْ ثَعَابِينَ حَامِلِينَ نُيُوبًا عُصُلًا ، ذَابِلًا ، وَنَبْلًا ، وَنَصْلَا
وَشَيَاطِينَ رَامِحِينَ بِلَا تَنْـ ـوِينَ يَجُونَ الفَلَا تَسَاكِينَ عُزْلَا
فَتَرَى لِلظُّهُورِ تُدْلِي عَثَانِينًا وَتَشَقُّ البُطُونَ تُغْسَلُ غَسْلَا (٢)

ويرسم صورة أخرى لنفسه وأولاده بعد غربتهم اثر تلك الفاجعة المؤلمة ، فيلتفت إلى صورة تلك المخلوقات الوديعة المسالمة عندما يداهمها الخطر ، أو عندما تفقد أعشاشها ، ليشبّه نفسه وأولاده بها وهم في غربة ، فيقول :

كَأَنِّي وَأَفْرَاخِي إِذَا اللَّيْلُ جَنَّنَا بَيَاتَ الكَرَى يَهْفُونَ وَيَطِيرُ
حَمَائِمُ أَخْلَلْنَ الوُكُورَ فَضَمَّهَا تَجَانُسُهَا حَتَّى تَرَاءَى المُفَرَّقُ (٣)

وقد تكون الصورة عند شاعرنا مستوحاة من ثقافته العربيّة والتاريخيّة الواسعة ومن ذلك قوله :

فَمَنْ يَسْوَاكَ بَاعَكَ فَاغْنَ عَنْهُ كَمَا اسْتَغْنَى عَلِيٌّ عَنْ عَقِيلِ (٤)

---

(١) الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٢٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .

وقوله :

وَرأيْتُ النّاسَ حَوْلَي حَوْلَهُ فكأنَ اليَوْمَ يَوْمُ الجَمَلِ (١)

حيث استعان هنا ببعض الحوادث الاسلاميّة من مثل موقعة الجمل ليصوّر لنا جمال محبوبته الفتّان الّذي يصرع النّاس .

وقد يستمدّ بعض صوره من ثقافته اللّغويّة ، وذلك كما في قوله :

وَلِي مِنْهُمَا سَهْمَانِ هذا ابْنُ أرْبَعٍ وهذا ابْنُ سِتٍّ كلّما كانَ إغْفَاءُ
أنَمّهما والليلُ دَاجٍ كأنّمَا هُمَا نُقْطَتَا ياءٍ وجِسمي هُوَ الياءُ

ومن حيوانات الأرض الّتي وصفها ، وهواها ، ويبدو هذا واضح في شعره الّذي وصف به قلم الكتابة ، حيث يقول :

أشبه الحيّة حتّى أنّه كُلّما عمّر في الأيدي قَصُرْ (٢)

هذا ولقد كان القرآن الكريم من أهمّ المصادر الّتي اتكأ عليها ابن شرف في صورة الّتي رسمها لنا ، ومن ذلك قوله :

فأنْتَ عِنْدِي مِنْهُمْ غُرْفَةٌ بِيَدِي حلّت وحرّم باقي النّهرِ في الزُّبُرِ (٣)

وكما في قوله :

بَعْدَ يَوْمٍ كأنّما حُشِرَ الخَلْـ ـقُ . . . . . .

ومما تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ شاعرنا قد استوحى معظم صوره من مصادر متعدّدة ومتنوّعة ، كان من أهمها البيئة المحيطة به ، وما فيها من مظاهر مختلفة ، وقد احتلت البيئة في صوره المرتبة الأولى ، فعلى ما يبدو أنّه كان مفتوناً بها ، وبما فيها من مواطن فتنة وجمال ، وبما يحيط به من شجر ، وثمر ، وورود ، وأزهار ، ومواطن جمال ، ومن تلك النّكبة المؤلمة

---

(١) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ٨٦ .
(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٣ .
(٣) انظر : المصدر نفسه ، ص : ٢٢٨ .

التي أصيب به وطنه ، وما رآه من قتل ، وتشريد ، ودمار ، ومن تغزّله بالمرأة وما فيها من مواطن الجمال والفتنة ، ومن ثقافته العربيّة والتاريخيّة الواسعة ، ومن القرآن الكريم . الأمر الذي كشف لنا عن شخصيّة مثقّفة ذات معرفة متنوّعة ، وعن خيال واسع محلّق ، وقريحة متفتحة تنمّ عن تفكير عميق ، وذهن متفتح .

وثمّة ظاهرة أخرى نستطيع أنْ نلاحظها في صوره التي رسمها لنا ألا وهي اكثاره من تشبيه الثمار ، والخضار ، والأزهار بالمعادن الثمينة كالزبرجد ، والذهب ، والياقوت ، وغيره ، وكأنّه بهذا يريد أنْ يبرز لنا قيمتها الكبيرة الغالية ، وجمالها الفتّان الذي ليس له حدود ، ومن ذلك قوله في وصف بطيخة :

ما أطفأتْ جمْرَ الوَقيـ ... ـدِ لمُشْتكٍ وَقداً ووهجا
كإداوةٍ أكريّـةٍ ... مملوءةٍ ماءً وَثلجا
وتقاءَ لَمْ يَسْلُكْ بِهَا ... غَوْرُ الأفافي قطُّ نَهْجَا
تزهو بِلَوْني خُضْرَةٍ ... هذا انتهى وأخوه لجّا
كزُمرّدٍ وَزبرْجَدٍ ... رَصّعْنَ للكافُورِ دُرْجَا (١)

وقوله :

كأن جنى وَرْدٍ بِهِ جُمِعَا مَعَاً ... عَقيقٌ وَدُرٌّ في تراعيبِ جَالِي (٢)

وقوله :

كأنّ ثِمارَ النّبْقِ أنجُمُ عَسْجَدٍ ... بِتَبْرٍ سنا شمس ونود هِلالِي (٣)

ولم يكن شاعرنا ليكتفي بهذا ، بل كان يحاول أنْ يبعث الحياة في صورته التي يرسمها ، وكأنّه مصوّر حاذق ينقل لنا الحياة على لوحة أوْ في صورة بأدقّ تفصيلاتها وجزئياتها ، فكان يكثر من ايراد الصّور الحسيّة على اختلاف انواعها : السمعيّة ، والبصريّة ،

---

(١) نهاية الأرب ، ١١/٣٣ .
(٢) مقامات السّيوطيّ ، ص : ٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٣٦ .

واللمسيّة ، والشمسيّة ، ومن ذلك قوله :

كأنّ ثِمارَ الخَوخِ بيدي جُنوبِها خُدودٌ مِنَ التَّخْمِيشِ ذاتِ بَلالِ (١)

وقوله :

رَقيقٌ في خَدَلَّجةٍ رَداحٍ خَفيفٍ مثل جِسْمٍ فيه رُوحُ (٢)

وقوله :

تَرى لِصَفاءِ جَوْهَرِها نَواها كألْسِنَةِ المصافيرِ الصِّغارِ (٣)

وقد يتفوّق ابن شرف على المصور البارع في بعض الأحيان وخاصّة ، عندما يصوّر لنا الصّدى ، ذلك الصّوت الذي لا هيئة له ، فيقول :

زَعموا أنّ ابنَ آوى فيك يَعْوي والصّدى لا يُذْرَاك يَصْرُخُ كالحَزينِ المُثْكَلِ (٤)

وهنا تتجلّى لنا براعة ابن شرف ، ومقدرته على التشخيص والتصوير أيضا .

ولقد أكثر من استخدام الكنايات في شعره ، ومن ذلك قوله :

لها عُنقٌ قد خالطَ الجَوَّ تَحْتَه طِوالٌ لها تَخْطو أمامَ قِصارِ (٥)

وقوله :

مَحمودُ عَيْشٍ جادَ لي وَرْدي بِهِ ثُمّ استردّ فكانَ فيه خَصيمي (٦)

وقوله :

فتضجّرَ مِنهم أنفُسٌ ربّما بَكَتْ بُكاءَ هو للصُّمِّ الجَلاميدِ ابكاءُ (٧)

---

(١) مقامات السّيوطيّ ، ص : ٣٦ .
(٢) البدائع ، ص : ٢٤١ .
(٣) نهاية الأرب ، ١١/١٢٨ .
(٤) الذّخيرة ، ق ٤ م ١/٢٣٣ .
(٥) نهاية الأرب ، ٩/٣٢١ .
(٦) الذّخيرة ، ق ٤ م ١/٢١٧ .
(٧) المصدر نفسه ، ص : ٢١٩ .

أغراضه في النّثر :

لقد طرق ابن شرف في نثره الّذي وصلنا معظم الأغراض النّثرية الّتي كانت شائعة في عصره من مديح ، وهجاء ، ووصف ، وحكمة ، ورسائل اخوانيّة ، وشفاعات ، ومقامات نقديّة وأدبيّة ، فتجلّت لنا من خلال ذلك موهبته الفنّية ومقدرته على معالجة النّثر معالجة فنيّة لا تقل في حالة من الأحوال عن معالجته للشعر ، وفي هذا يقول ابن بسّام في مستهل ترجمته له : ((كان أبو عبد الله بن شرف بالقيروان من فرسان هذا الشان ، وأحد من نظم قلائد الآداب ، وجمع أشتات الصّواب ، وتلاعب بالمنظوم ، والموزون تلاعب الرّياح بأعطاف الغصون .)) (١) .

المديح :

يقتصر مدح ابن شرف في النثر على مدح الأمراء والوزراء ، وإذا ما نظرنا في مقطّعاته النّثريّة الّتي توافرت لنا فإننا نجده قد خصّ في بعضها باديس بن حبّوس صاحب غرناطة في عهده ، فأخذ يتغنّى بصفاته ومناقبه الحميدة الممثلة بالكرم ، والحزم ، وقوّة البأس ، ومضاء العزيمة ، وسداد الرأي . فيقول : ((... حتّى سافرت إلينا رفاق الأخبار بشهادات زكاها مرور الأيّام ، ودؤوب الدّوام ، تشهد بسؤدد بان عن السؤدد العصامي (٢) وحزم فاق الحزم الهشاميّ وجود جاوز الجود (٣)

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٦٩ — ١٧٠ .

(٢) وهو : عصام بن شَهْبَر بن الحارث الجَرْميّ ، حاجب النّعمان بن المنذر ، كان شاعراً شجاعاً ، ضرب المثل به . أنظر : العقد ، ٣ / ٢٨٩ ، مجمع الأمثال ، ٢ / ٣٣١ ، الأعلام ، ٥ / ٢٦ — ٢٧ .

(٣) وهو : هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيره المخزومي ، د (ت ، ٨٧هـ) من أعيان المدينه وقد وليها ، وكانت بنته زوجة الخليفة عبد الملك بن مروان . أنظر : الكامل في التاريخ ، ٤ / ٥٢٦ ، نسب قريش ، ص : ٤٧ — ٤٩ .

الكعبيّ (١) ، وبأس أنس البأس المصعبيّ (٢) .)) (٣)

وهكذا نستطيع أنْ نلاحظ أنّ الصّفات الّتي يسبغها ابن شرف على ممدوحه ، إنّما هي صفات تقليديّة أسبغها الأدباء والشعراء على ممدوحيهم في الشعر والنّثر على حد سواء ، إلاّ أنّ كاتبنا كما نرى يبالغ في اثبات هذه الصّفات ، فيجعل ممدوحه يفوق مَنْ عُرِفُوا بهذه الصّفات من قبل .

هذا ويشير ابن شرف إلى أنّ ابن حبوس هذا صاحب علم واسع ، وإلى أنّه متعلّق بطلب العلم والأدب تعلقاً عظيماً ، فهو أمير قد سخّر ماله وثروته لذلك ، فيقول : ((. . . مُغْرىً بالأدب المهجور بل المطرود ، سالياً عن المال المعشوق بل المعبود ، منفقاً للحمد الدّفين المرسوس إلى صنوف من الفضائل ، وأنواع من الجلائل ، لا يحيط بها الوصف ، ولا يجمعها الرّصف .)) (٤).

وهذه المقطوعة النّثريّة تكشف لنا عن نظرة مجتمعه إلى المال ، وعن مدى اهتمام حكّام الأندلس وملوكها بالعلم والثّقافة .

---

(١) وهو : كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي ، كريم جاهلي . يضرب به المثل في حسن الجود ، فيقال : ((أجود من كعب بن مامة .)) . أُنظر : الشّعر والشعراء ، ١/٢٣٧ ، ومجمع الأمثال ، ١/١٨٣ ، أمثال العرب ، ص : ٦١ — ٦٢ ، والأعلام ، ٦/٨٥ — ٨٦ .

(٢) وهو : مصعب بن الزّبير بن العوام بن خويلد الأسديّ القرشيّ ، أبو عبد الله ، أحد الولاة الأبطال في صدر الاسلام ، (ت ، ٧١ هـ) . أُنظر : تاريخ بغداد ، ١٣/١١٢ ، الأعلام ، ٨/١٤٩ .

(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١/١٧٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص : ١٧٨ .

وليس هذا فحسب بل إنّ ممدوحه متفرّد في النّاس بلا شبه فيهم في صفاته ، وأفعاله ، وأخلاقه ، وعلمه ، وهذا واضح في قوله في ابن حبّوس : ((... فعاينت عالماً في عالم . قد شركوه في النّسبة إلى آدم ، وانفرد من مناسبتهم ، وشذّ عن مجانستهم بجميل طرائق ، وحميد خلائق ، انفردت انفراد سهيل (١) وجمعت في الرأي والسمع مازاد على زيد الخيل (٢) .)) (٣) .

ولمّا كان الهدف من هذه المدائح هو التكسّب فإنّ صفة العطاء الجزيل ، والكرم الّذي لا طائل له من الصّفات الّتي استوقفت كاتبنا ليثبتها لممدوحيه ، ومن ذلك قوله : ((صرم الجود على العلات والوجود . كفّه غيث ، لا يبالي من حيث ماله ، أكثر جوده على جنوده .)) (٤) .

وكاتب مثل كاتبنا واسع الثّقافة ، كثير الاطلاع عندما يتحدّث عن كرم ممدوحه و جوده فإنّه لا ينسى أنْ يلتفت إلى أجود العرب وأكرمهم حاتم الطّائي ،

---

(١) سهيل نجم في السماء ، قيل عند طلوعه تنضج الفواكه ، وينقضي القيظ ، وهو من النجوم اليمانيّة . أنظر : اللسان ، مادة : (سهل) ، والمعجم الوسيط ، ٢/٤٦١ .

(٢) وهو : زيد بن مهلهل بن زيد بن منهب بن عبد رضى بن المحتلس ابن ثوب بن كنانة بن غوث ، من طيّء ، جاهلي أدرك الاسلام ، ووفد على النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وسمّاه زيد الخير ، كان فارساً ، مغواراً ، مظفّراً ، شجاعاً ، وهو مقلّ مخضرم . أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٤٠٣ ، وشعار القلوب ، ص : ٧٨ ، والشعر والشعراء ، ١/٢٨٦ ، والأغاني ، ١٧/١٧٢ .

(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م١/١٧٧ — ١٧٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص : ١٨٥ .

وكعب بن مامة ، ليشبّه ممدوحه بهما ، بل ليفضّله عليهما ، ومن ذلك قوله : ((... لذّاته في الاكثار والايثار ، والاخذ بالثأر ، يزيح الاغلال ، ويبلّغ الآمال ، يحدّث بمكارمه الرّكب ، وينسى بفرط سماحه حاتم وكعب.)) (١) .

ومن الصّفات الّتي أثبتها ابن شرف لممدوحيه السّماحة والحلم ، ومن ذلك قوله : ((أمير يأمره حلمه فيطيع ، ويحمّله ما لا يستطيع فيستطيع : كم أعطي الظّفر ففضر ، وجرّع الصّبر فصبر . له حلم معاوية على الاعداء العاديـة . له ثبات يلملم (٢) ، وتحنّك الجذع الازلم (٣) . قلبه قليب واسع ، وغوره بعيد شاسع.)) (٤) .

ولمّا كانت طهارة العرض ونقاؤه من الامور الّتي تشغل بال الانسان العربيّ وتهمه ، فإنّ كاتبنا لن ينسى أنْ يذكر ممدوحه بطهارة عرضه وعراقة أصله وحسبه ؛ ومن ذلك قوله مخاطباً الوزير ابن زيدون في احدى رسائله ، حيث يقول : ((... فللوزير الاجل علوّ الرّأي في قبول ما عزمه وليّه المدلّ على اكرامه ومكارم أخلاقه ، بما ينمّ عليه من طيب أعراقه .)) (٥) .

وهذه الصّفات الّتي يسبغها ابن شرف على ممدوحيه ، تعكس لنا نظرة المجتمع الّذي عاش فيه إلى الصّورة الّتي ينبغي أنْ يكون عليها الممدوح ، مثلما تكشف لنا عن سعة اطلاع وثقافة واسعة .

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٨٥ .
(٢) اليلملم : الجيش الكثير المجتمع . أُنظر : اللّسان ، مادة (لَمَمَ) .
(٣) الجذع الازلم : الدّاهية المجرّب . انظر : اللّسان ، مادة (جَذَعَ) .
(٤) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٨٦ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ١٧٣ .

مجتمع ابن شرف من خلال رسائله :

أشرنا فيما تقدّم إلى أنّ ابن شرف قد عاش في أخريات حياته ببلاد الأندلس حيث دول الطّوائف بعد خراب موطنه القيروان ، وإلى أنّه قد تنقّل ما بين هذه الدّول ، وطوّف على ملوكها وحكّامها الّذين عاصروه في تلك الفترة ، فلم يترك ملكاً من ملوك الطّوائف إلاّ وقد اتصل به ، ونال رفده ، فمكّنه هذا التجوال وهذا التطواف من الاتصال بحكّام مختلفين ، ووزراء كثيرين ، وبغيرهم من القائمين على شؤون الدّولة والحكم على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم ، ويسّر له أنْ يتعرّف إلى أسرار هذه الطّبقات وخفاياها عن كثب .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ ابن شرف عندما دخل الأندلس وجدها ممزّقة إلى دويلات متعددة ونيران الفتن فيها تتأجّج وتتسع ، ووجد الحكّام فيها يتربّص كلّ واحد منهم بأخيه ، ليطيح به ، ويتمنّى زواله متناسياً ما يربطه به من دم ودين ، بل إنّ الواحد منهم كان يستعين على أخيه بأعداء الدّين والوطن ، ورأى المدن الأندلسية تتهاوى وتسقط في أيدي الأعداء الواحدة تلو الأخرى ، وحكامها مشغولون بملذّاتهم ومشاكلهم الدّاخلية وبتناحرهم فيما بينهم ، وكأنّ الأمر لا يعنيهم من قريب أو من بعيد ، ورأى الأوضاع السّياسيّة ، والعسكريّة ، والقضائية قد فسدت ، لأنّها لم تعد تسند لمن يستحقّونها ، فأثر فيه هذا الواقع المؤلم ، وعزّ عليه أنْ تؤول بلاد الأندلس لما آلت إليه بلاده ، لاسيّما وأنّه قد ذاق مرارة النكبة الّتي مُنِيَ بها وطنه ، ولسعته مرارة التشرّد وسقوط الوطن ، وآلمه أنْ تتكرّر تلك المأساة الّتي عصفت بوطنه ، وشرّدت أهله .

ومن أجل ذلك فقد وقف ابن شرف من المجتمع الأندلسيّ موقف النّاقد البصير الّذي لا تفوته دقائق الأمور ، وأخذ يحرّض بطبقاته ، وبمن يشرفون على تدبير أمور ، محذّراً أيّاهم من مغبة ما هم فيه ، راسماً لهم الصورة المثالية

الحقة الّتي ينبغي أنْ يكونوا عليها من أجل النهوض بوطنهم ، وحمايته من كل خطر يتربّص به .

فتوقف أول ما توقف عند الحكّام والأُمراء ، وصوّرهم لنا منشغلين عن أعداء الدّين والوطن الّذين يتربّصون بهم وبوطنهم بالملذّات والمظاهر البرّاقة ، وبانتحال ضروب التفخيم والأبّهة ، وبناء القصور والمنتزهات ، فيقول : ((همّه جواز يومه ، وحلاوة نومه . أعلى همّه ، ارجال جمته [1] ، واعتدال عمّته ، وأسر سروره ، تناهي قدوره ، وترويق خموره . أعداؤه سمان في أمان ، أولياؤه في هزال ، وانتظار النّكال . حسن الظّنّ بالزّمان ، وضروب الحدثان ، رائح الفرائح ساكن الجوارح .)) [2]

ويشير إلي أنّ الغرور والانشغال بالملذّات والملاهي ، قد دفع بهم إلى الاهتمام بالعبيد والعناية بهم أكثر من عنايتهم بالجيش ، محذّراً إيّاهم من مغبّة هذا الغرور ، وهذا التعامي ، فيقول : ((. . . مسرور مغرور ثاني العطف عن النّاصح ، متعام عن الأمر الواضح . مستغن بعبيده عن جنده ، متشاغل بالانياب الطّاحنة في فمه عن الانياب الوالغة في دمه ، ينام عن مسهرات الانام ، ومن جبّ الغارب والسّنام . فكرته ساهية ، وخواطره لاهية ، وقواعده واهية ، حتّى تبغته الدّاهية .)) [3] .

ويمضي ابن شرف في تعريضه بالحكّام والأمراء متهماً إيّاهم بعدم العدل بين أفراد الرّعية فيقول : ((سلطان يشتري بدينه ودمه رضى ابن عمّه ، خاسر التجر ، محروم الأجر ، لا يساوي بين أهل القبلة وهم سواء ، ولا يتكافأ

---

(١) الجمّة : مجتمع شَعْر الرّأس . أُنظر : اللّسان ، مادة ((جَمَمَ)) .
(٢) الذّخيرة ، ق٤ م١ / ١٨٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٨٩ .

عنده المسلمون وهم عند الله أكفاء .)) (١)

ويشير إلى أنّهم قد عملوا على اثارة العصبيّات القبليّة ، فخالفوا تعاليم الإسلام ، وساعدوا على خراب الأوطان وضياعها ، فيقول : ((. . . وجبلّة التفاوت أفاتت جبلّة الرّشد ، وحميّته أحمت عليه دار الخلد . تعصّب جاشت له صدور الجيش ، وتكدّر به صفاء العيش ، وللمساعدة في العصبيّة طارت الرّؤوس والسّواعد وتهدّمت الذّرى والقواعد .)) (٢) .

وكاتب واسع الثقافة مثل ابن شرف عندما يتحدّث عن العصبية والتعصب لابدّ وأنْ يلتفت إلى ثقافته العربيّة والتاريخيّة الواسعة ، ليتحدّث عن أبي نواس ذلك المولى الّذي تعصّب لليمن ضد مضر ، وهو من مواليها ، فيقول : ((أضرمها على الانام على قديم الأيّام ، العصبيّة في الجاهليّة والاسلام ، فما لهذا السّلطان وخراب الأوطان ؟ والعصبيّة تفسد بين الأولياء وتكثر في الأدعياء . وأبو نواس(٣) كان أشدّهم فيها قولاً ، وهو قنّ(٤) مولى ، تعصّب لليمن على مضر لكون سعد العشيرة(٥) من اليمن ، وهم من مواليه ، فهجا قبائل مضر ، وعفّ من قريش ، هذا وهو مولىً مُلْصَق ، وليست سعد العشيرة له بعشيرة ، بل لها منه الجريرة .)) (٦) .

وهذه المقطّعات النثرية تكشف لنا عن سعة ثقافة كاتبنا ، وعن معرفته

---

(١) المصدر السّابق ، ص : ١٩١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٩١ .
(٣) وهو : الحسن بن هانيء مولى الحكم بن سعد العشيرة من اليمن . أنظر : الشعر والشعراء ، ٢ / ٧٩٦ .
(٤) القن : العبد الخالص العبوديّة . أنظر : اللّسان ، مادة : ((قين)) .
(٥) وهو : سعد العشيرة بن مالك بن أدد بن يشجب بن عُرَيْب بن زيد بن كهلان بن سبأ ، . . . وضمهم الجرّاح بن عبد الله بن مادرة بن أفلح بن الحارث بن مُرّة ، وآسه سفيان بن الحكم بن سعد العشيرة ولي خرسان ، وكان أبو نواس الشّاعر مولى الجرّاح هذا : أنظر جمهرة أنساب العرب ، ص : ٤٠٨ .
(٦) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٩١ .

بأنساب العرب مثلما تكشف لنا من جانب آخر عن موقف ابن شرف من بعض العادات الاجتماعية الذّميمة الّتي كانت في مجتمعه من مثل : العصبيّة القبليّة الّتي تقطّع اواصر الاخوة والمحبّة بين أفراد المجتمع ، وتثير النّعرات والأحقاد .

ويتوقّف عند طبقة الوزراء ، فيشير إلى أنّ هذا المنصب أصبح مجرّد لقب يطلق على الّذين سخّروا أنفسهم للسعي وراء الملذّات واللّهو ، بدلاً من الاهتمام بشؤون الدّولة والرّعية والسّهر على أمنها وسلامتها ، فيقول : ((قد يتسمّى بوزير من شغله البمّ[1] والزّبّر[2] ، يعجبه اللّهو ، ويغلبه السّهو . دمار من أوى إليه ، وبوار من عوّل عليه ، إنْ دبّر أدبر ، وإنْ ترك هلك ، خِدْنُ لواعب ، وزير كواعب ، ليله ناعس ، ونهاره بالس[3] ، لم يعلق من الوزارة إلاّ حسن الشّارة ، وركوب الهماليج[4] المسيارة ، وشدّة الاعجاب ، والدّخول على سلطانه بلا حجاب ، والاكل بملء فيه ، هذا جميع ما فيه .))[5] .

هذا ويؤكّد ابن شرف أنّ هذا الصّنف من الوزراء سيقود الرّعية إلى الهلاك والدّمار ، ذلك لأنّه لا يعتمد عليه في تدبير الأمور ، وتصريفها ، فيقول : ((... حتّى إذا طرقت السّرايا ، وسيقت السّبايا ، ونفر النافر ، وهجّ البادي والحاضر ، ونزع ثقات الأجناد ، فتفرّقوا في البلاد ، فُزِعَ إلى الوزير في وجه التدبير ، فكان جوابه دموه ، وصوابه هلوه ، فحينئذ دارت الدّائرة ، وانطرحت النّائرة ، وانصرفت الدّول ، وتبدّلت الحلل . [6])) .

---

(١) البمّ : الوتر الغليظ من أوتار العود . أنظر : اللّسان ، مادة ((بمم)) .
(٢) الزّبّر : الّذي يكثر من زيارة النّساء ، ويحبّ مجالستهنّ ومصادقتهنّ . أنظر : اللّسان ، مادة ((زبر)) .
(٣) بالس : ساكت . أنظر : اللسان ، مادة ((بلس)) .
(٤) الهماليج : المركبة أو الدّابة السّريعة . أنظر : اللسان ، مادة ((هملج)) .
(٥) الذّخيرة ق ٤ م ١ / ١٩١ — ١٩٢ .
(٦) المصدر نفسه ، ص : ١٩٢ .

ويتعرّض لطبقة القيادة ، فيشير إلى أنّ هذه المهمّة الخطيرة لم تعد تسند إلى مَنْ هم أهل لها من الأبطال الصناديد الشجعان الّذين يدافعون عن الوطن ، ويجنبونه كلّ خطر قد يلم به إنّما أصبحت تسند لِمَنْ اتخذوا منها وسيلة للجاه والسّلطان ، لا لشيء إلاّ لأنّهم من خاصّة السّلطان وأقربائه ، وهذا واضح في قوله : ((هو يوم المطاعنة ، ولد الملاعنة ، لا حسب يقاتل عنه ، ولا نسب يستحي منه ، يراعة ترعد ، تقوم وتقعد ، إذا الحرب دعت أبطالها ، وزلزلت الأحشاء زلزالها ، نخب ما بين جنبيه ، وغاب السّواد من عينيه . مهزمة لجنوده ، ومهدّة لعدّته وعديده ، يوسّع أعذار الفرار ، ولا يرى على الجبناء من عار ، بيناه في أوّل الرّعيل ضارب إذا به وراء السّاقة هارب ، يزحف عند الزّحف إلى خلف ، ويروعه الواحد ، وهو في ألف ، لو كان سور مدينة لسار .)) (١) .

وكثيراً ما كان ابن شرف يستغلّ ثقافته الواسعة ليصوّر لنا جُبْن مَنْ يتحدّث عنه وهذا واضحٌ في قوله : ((. . . إنّ هذا في الحرب مِنْ بني المنبر (٢) وأدهش مِنْ مستطعم الماء على المنبر (٣) . إذا ثار القتام ، سقط مِنْ كفّه الحسام .)) (٤) .

ويعرّض بالقضاة فيصفهم بالظّلم ، والانحلال ، والرّشوة ، فيقول : ((ولا ينته القضاء ، من سوء القضاء ، جائر حائر إنْ جار فمن تعمّد ، وإنْ حار فمن قلّة تعهد . ليله منتش ونهاره سرتش .)) (٥) .

---

(١) المصدر السّابق ، ص : ١٩٠ .
(٢) أنظر الخبر في الذّخيرة ق ٤ م ١ / ١٩٠ .
(٣) وهو : خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر بن عبدالله بن عبد شمس بن جرير القسري ، عامل هشام بن عبد الملك على العراق ، دهش يوم الجمعة في حرب الخوارج ، وهو على المنبر ، فقال : ((أطعموني ماء)) . أنظر : الذّخيرة ق ٤ م ١ / ١٩١ ، والأغاني ، ٢٢ / ٥ .
(٤) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٩٠ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ١٩٣ .

ويشير إلى أنّهم قد تخفّفوا بأمور الدّين ، وانحرفوا سعياً وراء الملذّات والملاهي ، فحطهم ذلك لى السّخرية والاستهزاء بالفقهاء الّذين عاصروهم ، فيقول : ((. . . تُعْجِبه العين في النّقاب ، ولا يفكر في العقاب ، إذا رأى الأمرد تمرّد على خصمه ، ومال عليه بحكمه ، يُزري باختيار سلطانه ، ويستخفّ بفقهاء زمانه . يجور في نظره المقسوم ، ويبصق في وجه الخصوم ، ويركلهم برجله ويلطمهم بنعله .)) (١) .

وفي هذه المقطوعة النّثرية نلمس مقدرة ابن شرف على التشخيص والتصوير الساخر ، كما نستطيع أنْ نلمس فساد الأوضاع الاجتماعية والقضائية في ذلك العصر .

ويتوقّف عند الكتّاب فيشير إلى جهلهم بأمور الكتابة والبلاغة ، فيقول : ((كاتب ما عرف قط ، كيف البَرْيَةُ والقَطُّ ، ولا نسخ قط سطراً إلاّ مسخ منه شطراً .)) (٢)

ويأخذ عليهم جهلهم بقواعد اللّغة ، وبأساليب البيان العربي ، ويسخر منهم ومن كتاباتهم ، فيقول : ((ألفاظه ملحونة ، ومعانيه ملتونة ، ومقاصده خفيّة مكنونة ، وحروفه مطمونة . إنْ تهجّى هجا ، وإنْ تكلم شج وشجى ، ألفاته سجود ، ولاماته رقود ، ومنماته عقد لا عقود ، وقافاته واوات ، ونوناته راءات ، يرفع بالنّواصب ، ويكثر من النّقط الكواذب ، ويعمي عين المعنى الجليّ ، ويخاطب العدوّ مخاطبة الوليّ . وتقرّ كتبه بما فيها من الفساد ، بأنّه قرّة عيون الأعداء والحسّاد .)) (٣) .

وأمّا الأصدقاء والاخوان فلم يكونوا أكثر حظّاً من الّذين سبقوهم لدى

---

(١) المصدر السّابق ، ص : ١٩٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٩٢ .
(٣) المصدر نفسه ، المكان نفسه .

كاتبنا ، فهم في نظره يتصفون بالخيانة والغدر ، ولا خير يرتجى منهم ، لأنّهم يتصفون بالخذلان ، وهذا واضح في قوله : ((إخوان أخون من السّراب للعين ، ومن أهل الكوفة للحسين ، وأشدّ من طالب دين على صفر اليدين ، ليس فيهم نفع ولا دفع ، إنْ استنصرتهم خذلوك ، وإنْ سئلوا اسلامك بذلوك .)) (١)

وممّا تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف في ذمّه هذا لا يعرّض بشخص معيّن ، فيطلق للسانه العنان كي ينال منه وينهشه ، إنّما يتخذ - كما يبدو لي - من بعض أصحاب هذه الطبقات الّتي يعرّض بها مثالاً ليدلل به على فساد وانحراف تلك الطبقة الّتي ينتمي إليها ، ومن أجل هذا فقد رأيناه يقف من طبقات المجتمع الّذي يعيش فيه موقف النّاقد الاجتماعيّ البصير الّذي يعرف دقائق الأمور ، وخفايا الأشياء عن الطبقات والمناصب التي يعرّض بها ، فكشف لنا بذلك عن العيوب والمفاسد الّتي كان مجتمعه في ذلك الوقت يعج بها من جرّاء وجود هذه العناصر الشّاذة المنحرفة الّتي كانت تقف في طريق وحدة المجتمع والنّهوض به .

ولكنّ ابن شرف لم يكن ليكتفي برسم الصورة السلبية لأصحاب تلك الطبّقات والمناصب الّتي يعرّض بها ، وباظهار عيوبها ومساوئها ، إنما حاول أنْ يرسم الصّورة الايجابية الّتي ينبغي أنْ يكون عليها أصحاب تلك الطبقات من حكّام ، ووزراء ، وقوّاد ، وقضاة ، وغيرهم من أصحاب المناصب الهامّة في المجتمع ، مستمداً تلك الصورة من تعاليم الاسلام السمحة ، ومن سير الحكّام والصّالحين ، ومن ثقافته العربية والدينيّة الواسعة .

فهو يريد من الحاكم أنْ يكون حازماً ، مقداماً ، شجاعاً ، كريماً ، غير مستبد في رأيه ، ساهراً على مصلحة الرّعية والوطن ، وهذا واضح في قوله : ((يقدّم الحزم ، ويثني بالعزم ، يواكب الكواكب ، ويتعقب العواقب ، يشاور

---

(١) المصدر السّابق ، ص: ١٩٣ .

ذوي الالباب ، على أنّ رأيه لباب ، يثب وثوب اللّيث ، ويتدفّق دفوق الغيث ، ويراوح بين العجل والرّيث . نومه غرار واضطرار ، وحاجاته سرار ثم اقتدار . لاتثبطه الظّلل ، ولا تطّبّيه الكلل ولا يثنيه الكلال ، عزمه فرسه ، بصيرته بصره . وصدره ورده وصدره .)) (١)

وأما الوزير فينبغي أنْ يكون عوناً للحاكم في تصريف شؤون الدّولة وتدبيرها هذا الى جانب نشاطه وحيويته ، وحسن ادارته وتدبيره ، فيقول : ((وزير ينيم أميره ، مستوطناً سريره ، متحرّك وهو قارّ ، ويرى جالساً وهو مارّ ، كالنّجم يرى وهو ساكن ، وقد تحرّكت به أماكن .)) (٢)

وأمّا القائد فيجب أنْ تتوافر له جلّ صفات القائد الحقّة من شجاعة ، واقدام ، وثبات في ساحة الوغى ، يتقدّم إلى أعدائه بكلّ عزيمة وجأش ، غير هيّاب ، ولا خوّاف ، وهذا واضح في قوله : ((قائد عليه عبء التحويل في أول الرّعيل إذا الصبر عيل ، لا يباح ما حمى ولا يُشْوي(٣) إذا رمى . عود إذا زحف ، وطود إذا وقف ، وسيل إذا حمل ، وكتيبة إذا اعتزل . حسامه امام يهدي في ظلمة القتام ، ويهتدي إلى مسالك الحمام . لا تردعه لامعة السّيوف ، ولا تفزعه صارمة الحتوف ، رماحه نجوم ظلام القتام ، ونجومه رجوم شياطين الانام ، لاتُرَدّ حاجات مواضيه ، ولا تمطلُه عند تقاضيه المفافر الحتينة ، ولا الدّروع الموضُونة(٤) .)) (٥) .

ويريد من القاضي أنْ يكون عادلاً في حُكْمِه بين النّاس منصفاً ، نزيهاً ، يتحرّى الحقيقة ويسعى وراءها ، ليوصلها إلى أصحابها ، متريّثاً في أحكامه ،

---

(١) المصدر السابق ، ص : ١٨٤ .
(٢) المصدر نفسه ص : ١٨٦ .
(٣) يصيب المقتل إذا رمى ، أنظر : القاموس المحيط ، ٤/٢٢٢ .
(٤) الدّروع المتقاربة النّسج ، أو المنسوجة حلقتين حلقتين بالجواهر . انظر : القاموس المحيط ، ٤/٢٧٨ .
(٥) الذّخيرة ، ق ٤ م ١/١٨٦ — ١٨٧ .

فيقول : ((قاض يشهد له عدله أنّ ظلّه سريع ظلّه . يقسم نظره بالقسطاس بين جميع النّاس ، حفظ رسالة عمر[1] ، وعمل فيها بما نهى وأمر . لا يبيع القضايا بالهدايا ، به عشا من الرّشا . ينام الخصمان ، وهو يقظان . إنْ عجّل فعن استدلال ، وإنْ عجز فلتأمّل اشكال .)) .

ويطلب من الكاتب أنْ يكون فصيحاً ، بليغاً ، عالماً بمواطن الجمال والتأثير ، ملتزماً بقضايا أمته ودولته ، فيقول : ((كاتب فضله راتب[2] ، وحقّه واجب . أقلامه رماح ، ورسائله صفاح ، وألفاظه فصاح ، وأخلاقه فساح ، إنْ قرطس أصاب ، وإنْ سئل أجاب ، وأصاب عين الصّواب ، لسانه لسان الملك ومكانه واسطة السّلك .)) [3] .

وهذا يكشف لنا عن مدى تأثره ببيئته الخاصّة ، وبثقافة عصره ، إذْ عمل كاتباً في ديوان المراسلات في دولة المعزّ بن باديس كما تقدّم .

وهكذا فقد رسم لنا ابن شرف الصّورة الايجابية المثلى الّتي يجدر بأصحاب هذه المناصب والطبّقات ، لاسيّما بعد أنْ رأى انقلاب الأوضاع ، وتغيّر القيم ، وتفرّق الأمّة واختلافها ، والعدوّ على أبوابها يتربّص بها ، ويتحيّن الفرصة المواتية للاطاحة بها ، فأراد أنْ ينبّه الحكام والنّاس لما هم فيه ، ويحذرهم من مغبّة هذا الانقسام ، وهذا الخلاف ، وكأنّي به بعد أنْ رأى مجتمعه يعجّ بالفساد ، والانحلال ، والتفرّق ، والتناحر ، يريد أنْ يقول : إنّ الأمّة بحاجة ماسّة وملحّة لوجود مثل هؤلاء الحكّام والوزراء ، والقادة ، والكتّاب ،

---

(١) وهي الرّسالة الّتي بعث بها عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعريّ في القضاء . أنظر : البيان والتبيين ، ٢ / ٤٨—٤٩ .
(٢) الرّاتب : الثابت الدّائم ، أنظر اللسان ، مادة (رتب) .
(٣) الذّخيرة ، ق٤ م١ / ١٨٦ .

والقضاة ،ليعيدوا لها عزّتها ،ومجدها ، وكرامتها ،ويعملوا على تخليصها مما تعاني منه ، متناسين شهواتهم الخاصّة ،وهمومهم الذّاتية وهو في كل ذلك يريد لمجتمعه أنْ يكون قويّاً ،متحابّاً ، متآخياً ، يسوده العدل، المساواة، تجمعه كلمة واحدة ،وراية واحدة ،يأتمر بأمرة رجل واحد يسعى به إلى المجد والخير .

وهذا إنْ دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ ابن شرف كان صاحب موقف من المجتمع الّذي يعيش فيه ،ومن القضايا الّتي تستجد به ،وأنّه لم يعش بمعزل عنه ،وعن قضاياه ، ولكنّه لم يكن سوداويّاً في نظرته إلى مجتمعه الّذي يعيش فيه متشائماً من صلاحه ،بل كان يرى فيه الخير كلّ الخير إذا ما طبّق تعاليم الاسلام ،وتخلّص من عوامل التفرقة والضعف .

على أنّنا نستطيع أنْ نقول : إنّ ابن شرف في تعريضه هذا بطبقات المجتمع قد كشف لنا عن بعض المساوىء والعيوب الّتي كان يعاني منها مجتمعه على مختلف مناحيه السّياسيّة ، والعسكريّة ،والقضائيّة ،والثقافيّة ... الخ .

الوصف :

وأمّا الوصف فإنّنا نستطيع أنْ نجده في معظم الأغراض النّثريّة الّتي طرقها ابن شرف ، نجده في رسائله ،ومقاماته ،ومقطّعاته النّثريّة الّتي أنشأها في المديح ،والهجاء ،وغيرهما من الموضوعات الّتي ترجع في معظمها إلى هذا الفن النّثريّ الّذي تجلّت فيه مقدرة ابن شرف وبراعته في التشخيص والتّصوير ،ومن أجل ذلك فقد احتل الوصف في نثره المرتبة الاولى من بين الاغراض النّثريّة الّتي طرقها .

ولقد تعدّدت موضوعات الوصف في نثره ،وتنوّعت ما بين وصف الانسان كما رأينا في حديثه عن طبقات المجتمع حيث صوّر لنا الامراء والوزراء ،والقضاة

والقوّاد ،وغيرهم من طبقات المجتمع الأخرى ،ووصف الحيوان ومن ذلك وصفه للبرغوث ذلك الحيوان الحقير ،الصّغير الّذي يكثر أذاه وازعاجه أكثر ما يكثر حين يشتدّ هطول المطر ،وهذا واضح في قوله : ((أذى البراغيث إذا البَرَا (١) غِيثَ(٢) براغيل برانا ، وانثر فقد ثرانا . وتاريخ ذلك انصرام ناجر (٣) بجمارة اسمرّت لها خضرة السماء ، واغبرّت مرآة الماء .)) (٤) . ووصف السّجن فصوّرة لنا داعياً للهموم والأحزان مُجْلياً لها ، ويشير إلى أنّ الموت أهون من عذاب السّجن ، وقهره ، فيقول : ((. . . فالحبس نزّاع الأرواح ، الغفلة أخت القِطّة ، وكلاهما معتد ومهر للخطوب ونقد ،وإنّما بينهما نَفَسٌ متصاعد ، وأجل متباعد ،فألحِقْ منهما ما أجلّت بما عجلّت ،وقد أخرنا طلب الدّين إلى يوم الدّين .)) (٥) . وهذا يكشف لنا عن نظرة كاتبنا إلى السّجن ،وعن حبّه للحريّة ،وتعلّقه بها . ووصف مجالس اللّهو والطّرب ،ومن ذلك وصفه لمجلس لهو كان قد حضره ليلاً مع بعض النّدماء ليكون بعيداً عن أعين الرّقباء ، حيث لعبت آلات الطّرب دورها في تشنيف آذان الحاضرين ، وأمتعتهم بألحانها الخلّابة الساحرة حتّى سكروا ، وفي هذا يقول : ((لمّا فني عمر الأُنْس ، وطفيء سراج الشّمس ، لاحت بروق الثغور اللوامع ، وجلجلت وعود الأوتار في المسامع ، وبعثت مخارق (٦) وابن

---

(١) البرا : التراب ،المعجم الوسيط ، ١/ ٥٣ .
(٢) غيث : أصابه الغيث . أنظر : اللّسان ،مادة : ((غيث)) .
(٣) ناجر : كلّ شهر في صميم الحرّ . أنظر : القاموس المحيط ، ٢/ ١٤٤ .
(٤) الخريدة ق ٤ ج ٢/ ١١٠ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ١١٢ — ١١٣ .
(٦) وهو : أبو المهنا مخارق بن يحيى بن ناووس الجزاز ،مولى هارون الرّشيد ، من أشهر المغنين في الدّولة العبّاسية . اشتراه إبراهيم الموصليّ ،ولقّنه الغناء والموسيقى ،وأهداه إلى الفضل بن يحيى ، فأخذه منه هارون الرشيد ، وأعتقه . أنظر : الأغاني ، ١٨/ ٢٥٣ .

جامع[١] ، فلم يزل ذلك دأبنا ، ما أقلع سحابنا حتّى متنا بالهجعة[٢] ، وكلّنا يقول بالرّجعة[٣] .)) [٤] .

ويصف لنا مجلساً آخر شهده مع بعض النّدماء ، فيشير إلى أنّهم قد شربوا حتّى امتلأت بطونهم ، ليطفئوا حرّ الصّيف الشديد ، في ليلة اشتدّ مطرها ، فيقول : ((شربنا وقد سحبت أذيال السّحب ، وضمّخت ترائب الترب ، وبكت عين المزن من غير حزن ، مطلنا القيظ[٥] بالرّاح[٦] إلى برد الرّواح ، وعجّلنا بالمصير إلى الليل القصير ، فسألنا عزيم النّوم النّظرة إلى اليوم ، فأجابنا ولم يهتك حجابنا .)) [٧] .

ولقد كان ابن شرف يتلذّذ بشرب الخمرة أكثر ما يتلذّذ عندما يهطل المطر ، وهذا واضح في قوله : ((... إذا انحلّت عُقَد السّماء ، انتظم عِقْدُ النّدماء .)) [٨] .

---

(١) وهو : أبو القاسم إسماعيل بن جامع بن عبدالله بن المطلب ، كان من حفظة القرآن وترتيله ، اشتغل بالغناء ، وكان إبراهيم بن المهدي لا يقدّم عليه أحداً ، غنّى الخليفة هارون الرّشيد . أنظر : ترجمته وأخباره في الأغاني ، ٦/٢٧٣ ، البداية والنهاية ، ١٠/٢٠٧ ، والأعلام ، ١/٣٠٦ .

(٢) الهجعة : النوم الخفيف ، أو السّكر . أنظر : اللّسان ، مادة (هجع) .

(٣) الرّجعة : الرجوع إلى الدّنيا بعد الموت . أنظر : المعجم الوسيط ، ١/٣٣١ .

(٤) الخريدة ، ق ٤ ج ٢/١١٤ .

(٥) القيظ : شدة الحرّ . أنظر : اللّسان ، مادة . ((قيظ)) .

(٦) الرّاح : الخمرة . أنظر : اللّسان ، مادة . ((روح))

(٧) الخريدة ، ق ٤ ج ٢/١١٤ .

(٨) المصدر نفسه ، ص : ١١٦ .

ويصف لنا الطبيعة في فصل الربيع ، وقد اكتست بحلل خضراء ذات ألوان مختلفة ومتنوّعة ، فيقول : ((. . . وجُليت عروس الشّمس معتذرة عن مغيبها بالأمس، وطفقت ترشف ريّق الغدران ، حتّى جفّت عبراتها ، وتعانق أعناق الغدارن حتّى جفّت حسراتها ، فغدت ما مُزّق عن الدّقعاء (١) صحيح إهابها ، واختزن دُرّ البَرْء في أصداف ترابها ، فلا وأبي الأيّام ما مرّت بهنّ عاشرة إلاّ والقيعان مسدسة ، والآكام (٢) مُطرّسة (٣) .)) (٤) .

ويتوقّف عند أثر ذلك في نفوس النّاس وما يبعثه فيها من أمل ، وخير وطمأنينة ، فيقول : ((. . . قد تجدّد الشّمل ، وتفسح الأمل ، وحمل الشّمس الحَمَل ، وظهرت تباشير النّهاية في شمائل البداية ، فرجاؤنا في التّمام أخذاً بقول أبي تمّام (٥) :

إنّ الهلال إذا رأيت نموّه ... أيقنت أنْ سيكون بدراً كاملاً

مِنْ أعباء الهموم ماآد ، واطمأنّ قلب القانط وما كاد .)) (٦) .

هذا ومن الجدير بالذكر هنا أنّ ابن شرف لا يقصر وصفه على ما تقدّم إنّما تجاوز ذلك الى وصف المظاهر الحضاريّة والاجتماعيّة ؛ ومن ذلك وصفه ((للعبة الشطرنج)) ، حيث صوّر لنا هذه اللعبة على أنّها حرب يتسابق فيها الفرسان بخيولهم السريعة المعدّة لهذه الغاية ، ويتبارون للفوز بهذه الحرب ، فيقول : ((حرب سِجالٌ ، وخيل عِجالٌ ، وفرسان ورجال تربية الآجال ، سريعة عودة المجال .)) (٧) .

---

(١) الدّقعاء : الأرض الّتي لا نبات بها . أُنظر : القاموس المحيط ، ٣/٢٢ .
(٢) الآكام : مفردها أكمة ، وهي المنطقة المرتفعة من الأرض . أُنظر : القاموس المحيط ، ٤/٧٦ .
(٣) مطرّسة : متأنقة مختالة . أُنظر : القاموس المحيط ، ٢/٢٣٤ .
(٤) الخريدة ، ق٤ ج٢/١١٠ .
(٥) ديوان أبي تمّام ، ٤/١١٥ .
(٦) الخريدة ق٤ ج٢/١١٠ .
(٧) الغيث ، ٢/٩٧ .

ويتحدّث عن صفات هذه اللعبة وخصائصها ، فيشير إلى أنّها لعبة تحتاج إلى تفكير سديد ، وذهن متفتح ، وأنّها تُسْقِطُ الفوارق الإجتماعيّة والطبقيّة من بين اللاعبين ، فيقول : ((تستغرق الفكرة ، وتسلب اللّب استلاب السّكرة ، وتترك اللسان وما أراد ، أساء أو أجاد ، إلاّ أنّها تُدْني مجلس الصّعلوك من أشرف الملوك ، حتّى لا يكون بينهما في أقرب بقعة إلاّ عرض الرّقعة ، وربّما التفت ثيابهما في بيت القطعة ، ولسانهما على بيت القطعة .)) (١) .

ويلتفت ابن شرف إلى نفسيّة اللاعب في هذه اللعبة ، فيصوره لنا منفعلاً ، حريصاً ، يقظاً ، وهذا واضح في قوله : ((... مظفّر الفئة يراها عن مائة ، بيوته حصينة ، وشاهه مصونة ، ودوابه مجتمعة ، جيد النّظر ، شديد الحذر ، لا يُبْقي ولا يذر ، عينه تَخْلي ، وفكرته تُمْلي ، ويده تُبْلي .)) (٢) .

هذا ومما لا شك فيه أنّ هذا الوصف يمثّل لنا نمطاً مِنْ أنماط الحياة الاجتماعية الّتي كان النّاس يزاولونها في عصر كاتبنا آنذاك ، ويوضّح لنا كيف كان بعض أبناء مجتمعه يقضون أوقاتهم ، ويقتلون فراغهم ، مثلما يكشف لنا عن معرفة كاتبنا بأصول هذه اللعبة وقواعدها ، وإلاّ لما استطاع أنْ يصفها مثل هذا الوصف الدّقيق .

ونستطيع أنْ نلاحظ أيضا أنّ ابن شرف قد استوحى معظم صفاته الّتي أثبتها لهذه اللعبة من ميدان الفروسيّة ، ومن واقع حياته العمليّة ، وبيئته الخاصّة .

ولقد بدا لنا ابن شرف من خلال مقطّعاته النّثريّة الّتي وصلتنا أشبه ما يكون برسّام بارع أو مصوّر فنان يعرف من أين يلتقط صورة ، ومشاهدة

---

(١) المصدر السّابق ، ص : ٢/٩٧ .
(٢) المصدر نفسه ، والمكان ذاته .

الجميلة المؤثرة ، وكيف يوجّه آلته ، ليلتقط لنا صوراً أخّاذة ، بل هو أبرع من المصوّر الفنّان فيما يصوّره أو يصفه ، ذلك لأنّ الفنان يكتفي بنقل الواقع الخارجيّ أو الشكل الخارجيّ ، ولا يستطيع أنْ يتعمّق في نفسيّة المصوّر لينقل لنا انفعالاته النفسيّة ، وما يحتمل فيها من مشاعر ، وأحاسيس ، وانفعالات كما فعل ابن شرف عندما صوّر لنا ذلك القائد الجبان ، حيث تسلل إلى نفسيته المضطربة القلقة ، فوصفها لنا وصفاً دقيقاً (١) .

الحكمة :

أشرنا فيما تقدّم إلى أنّ شعر ابن شرف ونثره لا يخلوان من نظرة فلسفية حكيمة ، كان قد كوّنها من خلال تجاربه الكثيرة الطويلة مع النّاس ، والحياة ، والمجتمع الّذي يعيش فيه ويتفاعل معه ، فهو رجل عارك الأيّام وعاركته ، فأذاقته من حزنها وفرحها ، من أمنها وخوفها ، من استقرارها وتشرّدها ، ومن حلوها ومرّها ، فأكسبته بذلك خبرةً ودرايةً بها ، وبمَنْ يعيشون فيها ، فحاول أنْ يتخذ منها ومن النّاس الّذين يحيطون به موقفاً ، فعبّر عن ذلك كلّه بمجموعة من الأقوال الحكيمة ، مُجسّداً فيها معاناته الطويلة الّتي عاشها مع النّاس ، والحياة ، والمجتمع ، وقد ساعدته على ذلك حياته الطويلة الّتي عاشها في بلاد المغرب والأندلس متنقلاً مابين مدنهما وقراهما ، فساعده ذلك على الاتصال بأقوام مختلفة وشعوب متنوّعة ، وأكسبه خبرة بالنّاس ، وعاداتهم ، وطبائعهم المختلفة ، هذا فضلاً عن ثقافته العربيّة الواسعة ، وسعة اطلاعه على دواوين الشّعر العربي ، وكتب الأدب ، فنهل منها معظم حكمه ، وحمل منها مصدر تأمّلاته .

ونحن إذا ما نظرنا في تلك الأقوال الحكيمة الّتي وصلتنا لابن شرف فإنّنا نجده ، قد استوحاها من مصادر متعددة ، فقد استوحاها من

---

(١) أنظر : ص ١٩١ من هذه الدّراسة .

واقع حياته العمليّة الّتي عاشها مع النّاس ، ومن تجاربه الكثيرة معهم ، فقد علّمته هذه الحياة ، وهذه التجارب أنْ يلاطف عدوّه الّذي لا طاقة له به ، وأنْ يعامله بالصبر والحلم ، حتّى تتهيأ له الفرصة المناسبة ليتخلّص منه ، وهذا واضح في قوله : ((تبسم للعدوّ العابس ، ولن لتخلق اليابس . عامل ظالمك بالصبر ، واجعل صدرك له كالقبر ، لا يَدْري ما فيه رحمة أم نقمة ، وبلاء أم نعمة ، حتّى تُمْكِنَكَ الوثبة عليه ، فَقُلّه لجبينه وَيدْيه .)) (١) .

وقد علمته خبرته وتجاربه الطويلة مع النّاس أيْضاً أنْ يكونَ حَذِراً في تعامله معهم ، متيقظاً ، وهذا واضح في قوله : ((. . . . احذر الكريم إذا افتقر ، واللئيم إذا قدر ، احذر التقي إذا أنكر ، والذّكي إذا فكر .)) (٢) وأنْ ينقطع عمّن جافاه ، وانقطع عن مواصلته ، وهذا واضح في قوله : ((. . . من كَثُرَ هجره وجب هجره ، ومن كرمت خِصَالُه وَجَبَ وِصَاله .)) (٣) ، وأنْ لا يماطل في سداد دينه ، طالما أنّه قادرٌ على سداده ، فيقول : ((إيّاكَ وإخلاف العدة مع إسعاف الجدّة ، فقد ينجز المَطُولُ* ، ويؤخّر المُطيلُ* ، فالمَطْل أحد المنعين .)) (٤) .

هذا ولقد استوحى بعض حِكَمِهِ من خلال علاقاته مع أصدقائه واتصاله بهم ، وهذا واضح في قوله : ((. . . كم قاطعك من راضعك ، وقابحك من مالحك ، ونافقك مَنْ وافقك ، وناصبك مَن صاحبك ، وعادّك مَنْ وادّك .)) (٥) .

وممّا تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف في أقواله الحكيمة هذه يصدر عن تجارب عمليّة واجهته في واقع حياته العمليّة ، كان قد عاشها مع مثل هؤلاء النّاس ، وتفاعل معها ، فعبّر عنها تعبيراً صادقاً .

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٦٣ .
(٢) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١١٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ١١٥ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ١١٤ . *المطول : الّذي يماطل ، ويؤخّر أداء ما عليه . أنظر : اللّسان مادة مطل *المطيل : المُنْعِم المتفضّل . أنظر : المصدر السابق نفسه .

وقد يستوحي بعض حكمه من خلال علاقاته مع النّساء ومطارحتهنّ الحُبّ والغرام ، وهذا واضح في قوله : ((... العِشْقُ أحد الرِّقّين ، والسُّلوّ أحد العتقين .)) (١) .

وكثيراً ما كان ابن شرف يستوحي بعض حكمه من طبيعة بلاده الجميلة ، وممّا فيها من أنهار ، وأشجار ، وثمار وجداول ، وهذا كما يبدو في قوله : ((الغُصْنُ يثمر ، والأفق يقمر .)) (٢) ، وكما في قوله : ((الوجه بين أقاربه ، كالوادي بين مذانبه .)) (٣) ، وهو هنا أيضاً يصدر عن تجربة فعليّة عليه كان قد عاشها في واقع حياته ، فعبّر عنها بمثل هذا التعبير الصّادق .

وقد تكون الحكمة مستوحاة من ميدان الفروسيّة ، ومن واقع المعركة ، وذلك كما في قوله : ((الجُود أنصرُ من الجُنود ، ومَنْ بَخُلَ بماله سمح بعرض آله .)) (٤)

وقد تأتي الحكمة في نثر ابن شرف مستوحاة من صفات بعض ممدوحيه الّذين اتصل بهم ، وذلك كما يبدو في قوله : ((... لا كرم لمن حَرَمَ ، كيف يُنجِز مَنْ يَعْجِز ؟ ، البَاذِلُ كثير الماذِل ، والكريم كثير الغريم .)) (٥) ، وكما في قوله : ((بقاء الذّكر أحد الخلودين ، وبقاء الثناء أحد العمرين . ما أحسن الألسن لمن أحسن .)) (٦) .

وهكذا نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف يصدر في أقواله الحكيمة هذه عن تجارب عمليّة كان قد مرّ بها في واقع حياته .

---

(١) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١١٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١١٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ١١٤ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ١١٥ .
(٦) المصدر نفسه ، ص : ١١٥ .

رسائلـــــــــه :

تقتصر رسائل ابن شرف واخواناته في النّثر على ما أرسله إلى ملـــــوك الطّوائف ووزرائهم بالأندلس ، فقد أنشأ بعض هذه الرسائل في الشّفاعات ، وبعضها الآخر كان يرسله مع كتبه وأشعاره الّتي بعث بها إلى الأمراء ، ومنْ ذلك رسالته الّتي رفعها إلى باديس بن حبّوس — صاحب غرناطة — مع كتابه المعـــروف بـ ((أبكار الأفكار)) ، وفي هذه الرسالة يشير إلى كثرة المؤلّفين والكتّـــاب الّذين سبقوه ، ويذكر أنّهم قد أكثروا من التأليف في الموضوعات المختلفـــة المتنوّعة ، وأنّهم لم يتركوا للمتأخرين باباً مقفلاً يطرقونه ، فيقول : ((ما ظننـــت الابتداع إلاّ بلغ ، ولا حسبت الاختراع إلاّ فرغ ، حتّى إذا استأثرتُ بُنيّـــات صدري ، ولطائف فكري ، ببنيت واحد الجنسيّة ، ومصنوعَ غريب الابنية ، قلـــت لنفسي : هيهات لا شك أنّكَ سُبِقْتَ إلى هذه الغاية ، وعلّتك قلّة الرّوايـــة ، وكثْر سبّاق الرّواد ، وفرّاط الورّاد ، فما تركوا للمتأخرين من الرّياض زهـــرة ، ولا من الحياض قطرة .)) (١) .

ولمّا كان الهدف من انشاء هذه الرّسالة هو التكسّب ونيل العطـــاء فإنّ ابن شرف لن ينسى أنْ يتوقّف عند صفات ابن حبّوس وسناقبه الحميـــدة بصورة عامّة ، وعند كرمه وسخائه الجزيل بصورة خاصّة ، وليس هذا فحســـب بل إنّه يفضّله على أجود العرب وأكرمهم كعب بن مامة ، لينال عطاءه الجزيـــل ، ويستدرّ كرمه ، فيقول : ((كما أنّ جيش الكرم قد انهزم ، وزائر الشّرف قـــد انصرف ، ومركوب المجد قد ندّ ، فصمت أظنّ هذا الظّنّ ، حتّى سافـــرت إلينا رفاق الاخبار بشهادات زكّاها مرور الأيّام ، ودؤوب الدّوام ، تشهـــد بسؤدد بان عن السؤدد العصاميّ ، وحزم فاق الحزم الهشاميّ ، وجـــود جاوز الجود الكعبيّ ، ويأس أنسى اليأس المصعبيّ .)) .

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٧ .

ويتوقّف ابن شرف في هذه الرّسالة عند حبّ ابن حبّوس للعلم وتعلّقه به ، فيشير إلى أنّه من الحكّام العلماء المولعين بالعلم والأدب ، وإلى أنّ الوصف يعجز عن وصف مناقبه وصفاته الحميدة الكثيرة ، وعن بذله الأموال الطائلة في خدمة العلم والأدب ، فيقول : ((... مُغْرًى بالأدب المهجور بل المطرود ، سالياً عن المال المعشوق بل المعبود ، مُنْفِقاً للحمد الدّفين المرسوس إلى صنوف مِنَ الفضائل ، وأنواع من الجلائل ، لا يحيط بها الوصف ، ولا يجمعها الرّصف ، يُغْنِي النّقل الكافيّ ، والتّواتر الاجماعيّ عن تأتيتها على ألسنة الاقلام إلى أفهام الانام .)) (١) .

ويتحدّث عن كتابه المُهْدَى ، فيشير إلى أنّه يَجْمَعُ بين الشّعر والنّثر ، وأنّه اتبع في تأليفه أُسلوب السّجع ، وأنّه ابتكر معانيه وأفكاره ، فيقول : ((... فرقمت في هذا المجموع من الكلام المنثور المسجّع الأوساط والأطراف ، والمنظوم ، المكلّل بتيجان القوافي ، ما استنبطه من ذوات صدري ، واستنتجته مِنْ بنات فِكري ؛ فِقراً ابتدعتها وسجعتها ، ومعاني حكايات اخترعتها ، تطرّزها الاقلام ، وترقم بها أردية الكلام ، وأنا أستغني بقراءة القارئ أصنافها ، عن أنْ أُقدّم أوصافها ، وهي بنات مؤلّفها ، وأسجاع مصنّفها .)) (٢) .

ويحاول أنْ يقارن بين أسجاعه هذه ، وأسجاع ابن أبي الزّلازل (٣) ، فيشير إلى أنّ أسجاع ابن أبي الزّلازل ما هي إلاّ حكايات مبتورة ، وأنّها لا تتمتع

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٨ .
(٢) المصدر نفسه والمكان نفسه .
(٣) وهو : الحسين بن عبد الرّحيم بن الوليد بن عثمان بن جعفر ، أبو عبد الله الكلابيّ ، الشاعر الأديب ، الكاتب ، (ت ، ٣٥٤ هـ) ، أخذ عن أبي القاسم الزّجّاجيّ ، وأبي بكر الخرائطيّ ، وغيرهما ، له مصنّفات منها : ((أنواع الأسجاع)) . أُنظر : معجم الأدباء ، ١٠ / ١١٨ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ٤ / ٣٠٩ .

بالوحدة الموضوعية وأنّ ابن أبي الزّلازل هذا دخيلٌ على الأدب ، متصنّع فيه ، فيقول : ((... وهي ليست كالأسجاع المنسوبة لابن أبي الزّلازل ، وهي بنات شتى قبائل ، لم يزد على أنْ بتر حكاياتها ، وطمس معالم آياتها ، ليصحّ له ما شرط في السّجع من الأعداد ، فأضاع ما يراد لصون ما لا يراد ، وقد تجمّل بغير ثيابه ، وأنفق من غير اكتسابه .)) (١) .

وفي ختام هذه الرّسالة يشير ابن شرف إلى أنّ مؤلّفه هذا قد نال الشرف والشهرة باهدائه إلى هذا الأمير العالم ، فيقول : ((... وعلى أيّ حالٍ كان مجموعنا هذا ، فيشرّفه شرف من له يُجمع ، وإلى يديه العليّة يرفع ، فمسّته يمناه ، ولحظته عيناه .)) (٢)

ومهما يكن من أمر ، فإنّ هذه الرّسالة قد كشفت لنا عن سعة اطلاع ، وعن ثقافة واسعة ، وتعمّق في كتب الأدب العربيّ ، ومقدرة على نقده ودراسته .

رسالته لابن زيدون :

ومن رسائله الّتي أرفقها مع بعض أشعاره تلك الرّسالة الّتي بعث بها لابن زيدون وزير المعتضد صاحب إشبيليّة عندما دخل الأندلس ، قال ابن بسّام : ((وكان أوّل ما بعث إلى المعتضد بإشبيلية خمسُ قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن زيدون .)) (٣) .

وفي هذه الرّسالة يحاول ابن شرف أنْ يرسم لنا طبيعة العلاقة الّتي ينبغي أنْ تكون بين العلماء وأرباب الأدب ، فيقول : ((الآداب — أعزّك الله — لأربابها ، كالمحارم لذوي أنسابها ، تُبْدي البنت زينتها لأبيها ، وترفّ الأخت لأخيها ، ولمَنْ كان لَهُ في المَحْرم شبيهاً ، وكذلك

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٧٢ .

حُكم ذوي الآداب فيها ، يرفعون بينهم حُجُب التحفّظ بيد الاسترسال ، ويدفعون ستر التقبّض بأكف البِشر والإقبال .)) (١)

ويحاول كاتبنا أنْ يقسّم مديته التي بعث بها إلى المعتضد فيشير إلى أنّه قد خصّ المعتضد بالقصائد الخمس ، وخصّ ابن زيدون بالرقعة ، مستغلاً ثقافته الدينية ، ليعلل لنا سبب اختياره لهذا العدد ، فيقول : ((. . . وقد رفعت إلى حضرته الرّفيعة خَمْسَ أبكارِ عُرُبٍ . تخدمهنّ وليدة ذات حسن وأدب ، خصّصت بالخمس القرائض خير الملوك ، وبالوليدة برّ الحرّ المطوك . وهن وإنْ زِدْنَ على أربع الشّرع واحدة ، فليست في دين الشّعر بزائدة ، ولمّا جاز أكثر من أربع لخير الأنام ، اقتدينا بذلك في خَيْرِ الكرام .)) (٢) .

ويبرر لابن زيدون عدم تمكنه من الحضور إلى إشبيليّة بنفسه لأسباب لا يفصح عنها ، ويشير إلى أنّه قد أرسل هذه القصائد والرّسالة مع رسول ثقة كلّفه هذه المَهمّة ، فيقول : ((وقد كانت النيّة لو تمّت الأُمنية حُضُوري بذاتي ، لزفاف بُنيّاتي فمنع مِنَ المراد مانع ، ودفع بيد الاقدار دافع ، ولمّا صار الفعل الماضي مستقبلاً ، وبقيت للحاق مؤمّلاً ، وكلّت بهنّ ذا محرمهنّ وأتمنت عليهنّ الشّيخ أبا فُلان .)) (٣) .

وكاتب واسع الثقافة مثل كاتبنا عندما يخاطب وزيراً مثل ابن زيدون ، فإنّه لا ينسى أنْ يلتفت إلى ما يتحلّى به هذا الوزير من صفات عربيّة أصيلة ممثلة في كرم الأصل ، وطيب الأخلاق ، وعلوّ الرّأي وسداده ، ليشيد بها ، وليذكّر ممدوحه بها ، وهذا واضح في قوله : ((. . . فللوزير الأجلّ علّو الرّأي في قبول ما عرضه وليّه المُدِلّ على إكرامه ومكارم أخلاقه ، بما ينمّ عليه

---

(١) المصدر السابق ، ص : ١٧٣ .
(٢) المصدر نفسه ، والمكان نفسه .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ١٧٣ .

من طيب أعراقه .)) (١) .

وفي ختام هذه الرّسالة يكشف لنا ابن شرف عن الغرض الّذي أنشأ من أجله رسالته الّتي رفعها لابن زيدون وزير المعتضد ، فيقول : ((وأنا وإنْ بَعُدْتُ بالأقمار في الأطمار ، وبالشّموس في خشن الملبوس ، فهو برفقه دقيق حذقه يلطّف الهُجْنَ ويُحسّن الخشن ، ويقدّم في الغيبة ، ما يُعين عند اللقاء على الهيبة ، يقوّي مُنّته ، وعظيم مِنّته ، — إنْ شاء اللّه — .)) (٢)

رسالته إلى المظفر بن الأفطس :

وأمّا رسائله في الشفاعة فتقتصر على تلك الرّسالة الّتي رفعها إلى المظفّر بن الافطس صاحب بطليوس يتشفّع بها لرجل كان قد أُخِذ بوشاية عنده ، وقد استهلها بالحديث عن صفات ابن الافطس وشمائله الممثلة في السّماحة ، والعدالة ، وعلّو المكانة والرّفعة ، فيقول : ((لي رغبة إلى مفاخره ، وتطارح بين يدي مآثره ، وادلال على سماحة سجاياه ، وتحامل على احتمال علياه .)) (٣)

ويبيّن ابن شرف أنّ السبب الّذي من أجله أنشأ هذه الرّسالة يتمثّل في أنّ رجلاً من رعيّة ابن الافطس طلب إليه أنْ يتشفّع له لدى الامير ابن الافطس ، فيقول : ((. . . وذلك أن شيخا يفنا قصد فنائي ، فبكى حتّى بلّ بفضل دموعه ردائي ، ومنعه الشوق بشجاه ، من الكلام على ما ارتجاه . ثم ذكر أنّه كاسب نسيّات ، وأبو بنين وبنيّان .)) (٤) .

---

(١) المصدر السابق ، والمكان نفسه .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٧٣ — ١٧٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٧٤ .
(٤) المصدر نفسه ، والمكان نفسه .

ويعرض لنا المشكلة التي من أجلها أُبْعِد ذلك الرّجل عن وطنه وأهله ، فيقول : ((وذكر مولانا المظفّر ، فوصف خيراً كثيراً ، هو أكثر منه ، ودعا بخير اجابه اللّه عنه ، ووصف أنّ بُغاةً بغوه ، وحسدة آذوه ، وتنصّل من ذنوب قرفوه بها ، ومولاي أعلم بصدقها من كذبها .)) (١) .

ويشير ابن شرف الى أنّه قد رقّ لذلك الرّجل الذي تاب عن ذنبه وأظهر حرصاً شديداً ، وتعلقاً كبيراً بأهله ، ووطنه ، ليموت فيه ، ذلك لأنّه كان يعاني مما يعاني منه الرّجل من غربةٍ ، وقهرٍ ، وتشرّدٍ ، فقد ذاق لذعة الغربة ومرارتها ، وهذا واضح في قوله : ((. . . ولم يظهر حرصاً إلاّ في الميتة الأهليّة والتربة الوطنيّة ، فبكى — علم الله — مع باك ، وشكا منّي الى شاك ، وذو الشّكوى يرحم الشكوى ، لعلمه بمرارة البلوى !)) (٢) .

ومما تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ الدّوافع التي دفعت بكاتبنا في شفاعته هذه ، تتمثّل في طلب ذلك الرّجل اليه ، كما تتمثّل في مشاركته العاطفيّة والوجدانية له ، ويعبّر ابن شرف عن أمله في تحقيق رغبته بالعفو عن هذا الرّجل ، فيقول : ((. . . ولا شك أنّه سيلفه تفضّل المظفّر بالالتفات الى ذكري ، والعناية ببعض أمري ، وقد تلطفت له باذن اللّه في القول ، وبرعت اليه تعالى من القوّة والحول ، ووقفته على رأيّ المظفّر الموفّق ، وحكمه العدل المحقّق . ويودّ لو تكلّفت بآماله ، وجمعت بينه وبين أطفاله (٣) .)) .

وفي الختام يشير ابن شرف الى أنّه لا يعترض على الحُكْم الذي اتخذه المظفر ضدّ هذا الرّجل ، ولا يطعن في رأيه وعدله ، فهو رجل يعرف حدود نفسه ولا يريد أنْ يتخطاها ، وهذا واضح في قوله : ((. . . فلا

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٩٥ .
(٢) المصدر نفسه ، والمكان نفسه .
(٣) المصدر نفسه ، والمكان نفسه .

يُظَنُّ أنَّ ذلك باستحقاقي ، وإنْ رقّاني من الشّرف هذه المراقي ... إلاّ أنّي لا أوثر مرادي على مراده ، ولا أشاركه في العلم بأهل بلاده ، إلاّ أنْ يتفضل بالأحسن الأجمل عليّ وعلى أبي جعدة نهشل (١) ، فيعود — أيّده اللّه — بفضيلة الإيثار .)) (٢) .

وعلى الرّغم من تلك المشاركة العاطفيّة والوجدانية الّتي أبداها ابن شرف لذلك الرّجل إلاّ أنّه كان يسعى إلى المجد والشهرة من وراء هذه الشفاعة ، وهذا واضح في قوله : ((... ويُكْسبني في النّاس أطيب الأخبار والآثار .)) (٣) .

وعلى أيّ حال فإنّ هذه الرسالة تعكس لنا المكانة المرموقة الّتي حظي بها ابن شرف لدى ملوك الطّوائف الّذين اتصل بهم وكاتبهم بصورة عامّة ، ولدى المظفّر بن الافطس بصورة خاصّة ، ويكفينا للتدليل على ما ذهبنا إليه أنْ نشير إلى أنّ المظفّر بن الافطس قد قبل شفاعة ابن شرف في هذا الرّجل ، وعفا عنه نزولاً عند رغبة كاتبنا ، وهذا واضح في الرّسالة الّتي ردّ بها ابن الافطس على كاتبنا ، وقد جاء فيها : ((... ورأيتك قد شفعت القريض بشفاعة ، وقرنته برغبة أعطتك مقاليد البلاغة والبراعة ، وأسعفتك في الشيخ اليفن ، والأشيب البدن ، نهشل . فليسرع بالإقبال إلى بلده ، وليلحق بأهله وولده ، وليأت إليهم ذألانا ، وليشكرنا سرّاً واعلاناً . واللّه المانّ بك بردّه إلى وطنه وأهله ، يبلغك ما ترتجيه ، ويعيد حالك إلى عهدها .)) (٤) .

---

(١) يشير هنا إلى مَنْ طلب إليه أنْ يتشفّع لَهُ ، أُنظر : الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ١٩٤ .
(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ١٩٥ .
(٣) المصدر نفسه ، والمكان نفسه .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ١٩٦ .

مقامـــــاتـــــه :

أشار الذين تصدّوا لأخبار ابن شرف وعنوا بنقل أدبه وأشعاره إلـــى أنّه قد خلّف لنا مقامات كثيرة ، وهذا واضح في رواية ابن بسّام الّتي أورد فيها : ((ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه ، وصبّ فيها على قالبـــه .)) (١) إلاّ أنّ هذه المقامات الكثيرة الّتي تحدّث عنها ابن بسّام ، لم يصلنـــا منها إلاّ مقامتان ، هما : رسائل الانتقاد (٢) ، والجرهانيّة .

مقامة رسائل الانتقـــاد :

وهي مقامة نقديّة ألّفها ابن شرف في نقد الشّعر والشعراء علـــى غرار تلك المقامات النقديّة الّتي أنشأها بديع الزّمان الهمذانيّ ، ليتحـــدّث من خلالها عن صفات وخصائص بعض الشعراء المتقدمين (٣) ، وهذا واضـــح في قول ابن شرف : ((... وزوّر بديع الزّمان ، الحافظ الهمذانيّ مقامـــات كان ينشئها بديهاً في أواخر مجالسه ، وينسبها إلى راوية رواها لـــه ، يسميه عيسى بن هشام ، وزعم أنّه حدّثه بها عن بليغ يسميه أبا الفتـــح الإسكندريّ ، وهي متضمنة معاني مختلفة ، ومتينة على معاني شتى غيـــر مؤتلفة ، لينتفع بها من الكتاب والمحاضرين من صرفها من هزل إلى جـــد ومن ندّ إلى ضد ، فأتمت من هذا النّحو عشرين حديثاً ، أرجو أنْ يتبيـــن فضلها ، ولا تقتصّر عمّا قبلها .)) (٤) .

ولقد أسند رواية هذه المقامة إلى بطل أسماه أبا الرّيان ، وقـــد

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ١٩٦ .
(٢) نشرها الخانجيّ باسم ((أعلام الكلام)) .
(٣) أنظر : مقامات بديع الزّمان ، ص : ٥ ، ص : ٥١ ، ص : ١٠٢ ، ص : ١٧٤ .
(٤) أعلام الكلام ، ص : ١٣ — ١٤ .

جعله بليغاً ، فصيحاً ، بارعاً في اللغة والأدب ، خبيراً بالأيّام ، عاركها وعاركته فأكسبته معرفة بها ، ودراية واسعة ، وفي هذا يقول ابن شرف :

((.... وعزوتها إلى أبي الرّيان الصّلت بن السّكن من سلامان(١) ، وكان شيخاً همّاً في اللّسان ، وبدراً تمّاً في البيان ، قد بقي أحقاباً ، ولقي أعقاباً ، ثمّ ألقته إلينا من باديته الأزمات ، وأوردته علينا العزمات ، فامتحنا من علمه بحراً جارياً ، وقدمنا من فهمه زنداً وارياً ، وأدرنا من برّه طرفاً ، واجتنينا من ثمره طرفاً .)) (٢) .

ومما تقدّم نستطيع أن نلاحظ أنّ شخصية أبي الرّيان هذه الّتي اخترعها ابن شرف لرواية مقامته هذه ، تتفق في معظم صفاتها وملامحها مع تلك الشخصية الخيالية الّتي أسند إليها بديع الزّمان الهمذانيّ مقاماته (٣) ، وأطلق عليها اسم (عيسى بن هشام) ، ويبدو لي أنّها شخصيّة خيالية ابتكرها ابن شرف ، ليعبّر من خلالها عن موقفه من القضايا النقديّة والأدبيّة الّتي كانت تشغل بال معاصريه ، ويكشف لنا من خلالها عن ثقافته الواسعة وتعمقه في دواوين الشّعر العربيّ .

هذا ويشير ابن شرف في مقدّمة مقامته هذه إلى أنّه قد ألّفها في الأندلس بعد خروجه من موطنه القيروان اثر الفتنة الكبرى الّتي منيت بها ، فيقول : ((... ولعمري ما أشكر من نفسي ولا أثني على شيء من حسّي ، إلاّ ظفري بالأقل مما حاولته على ما أغرمته نيران الغربة عن قلبي ، وشلته صعقات الفتنة من لبيّ ، وقطّعت أهوال البرّ والبحر من خواطري ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزي وبصائري .)) (٤)

---

(١) سلامان بفتح أوّله : ماء لبني ثعيّان على طريق مكّة إلى العراق . أنظر : معجم ما استعجم ، ٣ / ٧٤٥ ، مادة سلامان .

(٢) أعلام الكلام ، ص : ١٣ .

(٣) أنظر : مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ ، وفن المقامات ، ص : ١١١-١١٥ ، رأيٌ في المقامات ، ص : ١٥ و ص : ٤٨ ، ٦٧ .

(٤) أعلام الكلام ، ص : ١٤ .

ويفتتح ابن شرف مجلسه الأوّل من هذه المقامة ، فيطلب من راويته أبي الرّيان أنْ يعرّفه إلى طبقات الشعراء في الجاهلية والإسلام ، وأنْ يحدّثه عن الشّعر والشعراء ، فيقول : ((جاريت أبا الرّيان في الشّعر والشعراء ، ومنازلهم في جاهليتهم وإسلامهم ، واستكشفته عن مذهبه فيهم ، ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم [1] .)) ، إلاّ أن أبا الرّيان يعتذر لكاتبنا عن القيام بهذه المهمّة ، لكثرة عدد الشعراء الّذين عاشوا في الجاهليّة والإسلام ، فيكتفي منه بذكر أسماء المشهورين منهم ، وبالتعرّف إلى بعض خصائصهم وميزاتهم ، فيقول : ((الشّعراء أكثر من الاحصاء ، وأشعارهم أبعد من شقة الاستقصاء ، فقلت : لا أعنتك بأكثر من المشهورين ولا أذاكر رأيك إلاّ في المذكورين ، مثل الخليل [2] والقتيل [3] ، ولبيد [4] ، وعبيد [5] . . . [6])) .

وهكذا يمضي أبو الريان في ذكر أسماء المشاهير من الشّعراء الجاهليين والإسلاميين في المشرق والمغرب من مثل : ابن عبد ربه ، وابن هانيء الأندلسي ، وأحمد بن دراج القسطّلي ، وغيرهم ، وقد جاوز عددهم الستين شاعراً .

---

(١) المصدر السّابق ، والمكان السابق .

(٢) وهو : امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكنديّ ، شاعر جاهليّ معروف . أُنظر : الشعر والشعراء ، ١ / ١٠٥ ، خزانة الأدب ، ١ / ١٦٠ ، الأغاني ، ٩ / ٧٦ ، طبقات فحول الشعراء ، ص : ٤٢ .

(٣) وهو : طرفة بن العبد بن سفيان ، شاعر جاهلي مشهور . أُنظر : الشّعر والشعراء ، ١ / ١٨٥ ، خزانة الأدب ، ١ / ٤١٤ .

(٤) وهو : لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامريّ ، من شعراء الجاهلية وفرسانهم ، أنظر : الشّعر والشعراء ، ١ / ٢٧٤ ، خزانة الأدب ، ١ / ٣٣٤ — ٣٣٩ .

(٥) وهو : عبيد بن الأبرص بن عوف ، من شعراء الجاهلية المعمرين . أُنظر : الشعر والشعراء ، ١ / ٢٦٧ .

(٦) أعلام الكلام ، ص : ١٤ .

وموقف ابن شرف من هذه القضية ، يذكرنا بموقف ابن قتيبة منها حيث يقول : ((والشعراء المعروفون بالشّعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهليّة والإسلام ، أكثر من أنْ يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفذ عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال .)) (١) .

ولمّا فرغ ابن شرف من سرد أسماء الشّعراء الّذين يرغب في معرفة أخبارهم وصفاتهم طلب من أبي الرّيان أنْ يحدّثه عن المشهورين منهم ، وأنْ يبيّن له رأيه فيهم واحداً واحداً ، فأخذ أبو الرّيان يتحدّث عنهم واحداً تلو الآخر مبتدئاً بامرئ القيس أقدمهم عصراً وشعراً من غير مراعاة للتسلسل الزّمني في ذكرهم ، فيتوقّف عند ما هو معروف ومتداول من صفات هؤلاء الشعراء ، وميزاتهم الّتي عرفوا بها بأسلوب تقريريّ لا يتخطى ما عُرِفَ به ذلك الشّاعر ، وما تفرّد به عن غيره ، ومن ذلك قوله في امرئ القيس : ((أمّا الفحل مؤسس الأساس وبنيانه عليه النّاس ، كانوا يقولون : أسيلة الخدّ ، حتّى قال امرؤ القيس : ((أسيلة مجرى الدّمع)) ، وكانوا يقولون : تامّة القامة وطويلة القامة ، وأشباه هذا ، وجيداء ، وتامّة العنق ، حتّى قال امرؤ القيس : ((جيداء مهوى القُرْط)) ، وكانوا يقولون في الفرس السّابق يلحق الغزال ، ويسبق الظليم ، وأمثال هذا حتّى قال : ((بمنجرد قَيْد الأوابد هَيْكَلِ)) (٢) ، ولم يكنْ قبله من فَطِنَ لهذا ، وبنى مَنْ بعده على هذه الاستعارات . . .)) (٣) .

وقوله في طرفة بن العبد : ((وأمّا طرفة فلو طال عمره لطال ذكره ، وعظم في الشّعر ذكره ، ولقد خُصّ بأوفر نصيب من الشّعر على أنزر نصيب من

---

(١) الشعر والشعراء ، ١ / ٦٠ .
(٢) عجز بيت لامرئ القيس ، وصدره : وَقَدْ أغتدي والطّيرُ في وُكناتِها . أُنظر : ديوانه ، ص : ١٩ .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ١٥ — ١٦ .

العمر ، فملأ أرجاء ذلك النّصيب بصنوف من الحِكْمَة ، وأصناف من عُلوّ الهِمّة ، والطبع معلم حاذق ، والذكاء جواد سابق .)) (١) .

وقوله في النابغة الذّبياني : ((وأما النابغة زياد فأشعاره المعققات الجياد لم تخرج عن نار جوانحه ، حتى تناهى نضجها ، ولا قطعت على منوال خاطره حتى تكاثف نسجها ، لم تهلهلها سَيْرَةُ الشباب ، ولا وهاء الاسباب ، ولا لوم الاكتساب ، فشعره وسائط سلوك ، وتيجان ملوك .)) (٢)

وقوله في بشار بن برد ، حيث يقول : ((وأما بشار فأوّل المولّدين ، وآخر المخضرمين ومن لحق الدّولتين ، عاشق سمع ، وشاعر جمع . وشعره ينفق عند ربّات الحجال ، وعند فحول الرجال ، فهو يلين حتى يستعطف ، ويقوى حتى يستكثف ، وقد طال عمره ، وكثر شعره ، وطما بحره ، وبقي في البلاد ذكره . (٣))) .

وهكذا يمضي ابن شرف في حديثه عن الشعراء على لسان بطله وراويته أبي الرّيان ، فلا يتجاوز في حديثه عنهم ما وصف به كل شاعر منهم (٤) ، وما عرف به ، الأمر الّذي جعل من راويته أبي الرّيان راوية عادياً لا يختلف في مهمته عن مهمة الرّاوي في أيّ خبر من الاخبار المعروفة ، لاسيّما بعد أنْ جرّده ابن شرف من دوره الدرامّي ، وجعل منه شخصية جامدة تكتفي بايراد الافكار والصفات الّتي حصّلها ابن شرف من ثقافته العربية والشعرية الواسعة ، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد أنّ الافكار والاراء الّتي يقررها ابو الرّيان إنّما هي آراء ابن شرف وافكاره الّتي توصل إليها ، وتبنّاها .

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ١٥—١٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٨ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥—٢٧ .

هذا وثمّة أمر ينبغي لنا أنْ نشير إليه هنا ، وهو أنّ ابن شرف في هذا المجلس من مقامته الّتي بين أيدينا لم يكتف بالوقوف عند المشاهير من شعراء المشرق فحسب ، بل تجاوز ذلك ليتحدث عن الشعراء المشاهير بالمغرب والأندلس ، ويبدو لي أنّه أراد بذلك أنْ يثبت لنا أنّ بلاد المغرب والأندلس قد أنجبت شعراء جهابذة لا يقلّون عن شعراء المشرق في شهرتهم ومكانتهم ، ولكنّه لا يبرز ذلك الأسلوب التقريريّ الذي الزم نفسه به في هذه المقامة ، وفي هذا يقول : ((قال أبو الريّان : هذا ما عندي في شعراء المشرق ، وقد سمّيت لي من متأخري شعراء المغرب مَنْ لعمري لا يُبْعَد عن معاصره ، ولا يُقصّر عن سابقه .)) (١) .

ويتوقّف عند بعض مشاهير الشعراء في المغرب والأندلس ، فيقول : ((وأمّا ابن عبد ربّه الأندلسيّ ، وإنْ بَعُدَتْ عنّا دياره فقد صافتنا أشعاره ، ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة ، وتكفيرات توبته الصّدوقة ، ومدائحه الروانية ، ومطاعنه في العبّاسيّة ، فوجدناه في كلّ ذلك فارساً ممارساً ، وطاعناً مداعساً ، واطّلعنا في أشعاره على مادة علم واسع ، ومادّة فهم مضيء ناصع ، ومن تلك الجواهر نظم عِقْدِهِ (٢) ، وتركه لِمَنْ يتجمّل به بعده .)) (٣) .

وهذا أمر يكشف لنا ثقافة ابن شرف الواسعة ، وسعة اطلاعه على كتب الأدب العربيّ .

ويقول في ابن درّاج القسطليّ : ((وأمّا ابن درّاج الأندلسيّ القسطليّ فشاعر ماهر ، عالم بما يقول ، تشهد له العقول ، بأنّه المؤخّر في العصر ، المقدّم في الشّعر ، مَنْ تصفّح أشعاره دلّته على أنّه عالم

---

(١) المصدر السّابق ، ص : ٢٦ .
(٢) يشير إلى كتابه المعروف بـ ((العِقْد الفريد)) .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ٢٦ .

بالأخبار والأنساب ، والآثار والأحساب ، حاذق يضع الكلام في مواضعه ، لاسيّما إذا ذكر ما أصابه في الفتنة ، وشكا ما دهاه في أيّام المحنة ، وبالجملة فهو أشعر أهل مغربه في أبعد الزّمان وأقربه .)) (١)

ويحاول ابن شرف في نهاية هذا المجلس أنْ ينفي عن نفسه صفة التعصّب فيقول : ((. . . وقد وصفت المتأخرين فعرفت وأنصفت على احتقار المعاصر ، واستصغار المجاور ، فحاشى لله من الأوصاف لقلّة الانصاف للبعيد والقريب ، والعدوّ والحبيب .)) (٢) .

وهو بهذه النظرة يؤكّد لنا قاعدة نقديّة عامّة من قواعد النّقد الأدبيّ وهي ألاّ يحكم الناقد عواطفه ومشاعره فيما يعرض عليه للنقد .

ولقد كشفت لنا هذه المقامة النقديّة عن ثقافة ابن شرف الواسعة ، ومن سعة اطلاعه ، وتعمقه في دواوين الشّعر العربيّ ، وكتب الأدب العربي على اختلاف العصور الّتي مرّت بها ، وليس أدلّ على ذلك في مقامته الّتي بين أيدينا وفي القسم الأوّل منها على وجه التحديد مِنْ أنّه على صغره قد اشتمل على أكثر من ستين شاعراً تعرّض لهم فيه ابن شرف بالحديث والنقد .

هذا في المجلس الأوّل من مقامته ، وأمّا المجلس الثاني منها فقد جعله ابن شرف للحديث عن نظريات وقواعد عامّة في النقد كانت قد شغلت النقاد العرب على مرّ العصور بصورة عامّة ، ونقاد عصره بصورة خاصّة ، من مثل : اللّفظ والمعنى ، والقِدَم والحداثة ، والسّرقات الشعريّة ، وعيوب الشعر .

ولقد استهل ابن شرف هذا المجلس برغبة شديدة في أنْ يقف على رأي أبي الريان في النقد ، وأنْ يقتبس من علمه الصائب ، فيقول : ((قلت لابي

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٢٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٧ .

الريّان في مجلس عقب هذا المجلس : يا أبا الرّيان ، لقد رأيت لك نقداً مصيباً ، ومرمىً عجيباً ، ولقد أرغب في أنْ أنال منه نصيبا . (١)

فيجيبه أبو الريان بأنّ النّقد موهبة من اللّه — تعالى — تولد مع الانسان ، وأنّ مَنْ يحظى بهذه الموهبة يصبح قادراً على نقد الشّعر ، ويميّز غثه من سمينه ، وأمّا مَنْ لم يرزق بها فإنّه لا يحظى بهذه المقدرة ، ويشير إلى أنّ رواية الشّعر ، والعلم به من غير هذه الموهبة لا يسعفان النّاقد ، فيقول : ((النقد هبة في الموالد ، وفيه زيادة طارق إلى تالد ، ولقد رأيت علماء بالشّعر ورواة له ليس لهم نفاذ في نقده ، ولا جودة فهم في رديه وجيده ، وكثير ممّنْ لا علم له يفطن إلى غوامضه وإلى مستقيمه ومتناقضه .)) (٢)

وطفق ابن شرف في هذا المجلس يتحدّث على لسان بطله أبي الريّان عن توجيهات عامّة في ميدان النقد ، فيدعو النقّاد إلى التروي والتريث قبل اصدارهم الحكم على العمل الأدبي ، ويحذّرهم من مغبّة التسرع ، ويحثّهم على التأنّي واعمال الفكر قبل الحكم فيقول : ((قلت : أنا شديد الرّغبة إلى فضلك ، في أنْ تسهمني من ميزك وعقلك ، ما استهدي بسراجه على مستقيم منهاجه ، فأقف مِنْ سرائره على بعض ما وقفت ، وأعرف مِنْ مفاخره ومعانيه جزءاً ممّا عرفت . قال : نعم أوّل ما عليه تعتمد ، وإيّاه تعتقد ألاّ تستعجل باستحسان ، ولا باستقباح ، ولا باستبراد ، ولا باستملاح حتّى تنعم النّظر ، وتستخدم الفكر ، واعلم أنّ العجلة في كل شيء مركب زلوق ، وموطيء زهوق .)) (٣) .

ويحاول ابن شرف في هذا القسم من مقامته أنْ يكشف لنا عن موقفه من بعض القضايا النقديّة العامّة التي شُغِلَ بها النقاد العرب على مر العصور

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٢٧ .
(٢) اعلام الكلام ، ص : ٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢٧ .

مثلما شُغِلَ بها نقاد عصره ،فيتوقّف عند قضيّة اللّفظ والمعنى ،ويرجح جانب المعنى على جانب اللفظ ،وهذا واضح في قوله : ((... وأنّ من الشّعر ما يملأ لفظه المسامع ،ويرد على السامع منه قعاقع فلا تُرْعك شماخة مبناه ، وانظر إلى ما في سكناه من معناه ،فإنْ كان في البيت ساكن ،فتلك المحاسن ، وإنْ كان خالياً فاعدده جسماً بالياً .)) (١)

ويتوقّف عند قضية القِدَم والحداثة ،فيدعو إلى التحفّظ من اجلال القديم لمجرّد قدمه ،ومن ذمّ الحديث لحداثته ،وينادي بأنْ تكون الجودة هي المقياس الّذي ينبغي أنْ يحكم فيه على الشّعر والشاعر ،فيقول : ((... وتحفّظ من شيئين : أحدهما ،أنْ يحملك اجلالك القديم المذكور على المجلة باستحسان ما تسمع له ،والثاني أنْ يحملك اصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما أنشدت له ،فإنّ ذلك جَوْرٌ في الاحكام ، وظُلْم من الحكّام ،حتّى تمحّص قوليهما ،فحينئذ تحكم لهما أو عليهما .)) (٢)

ويتوقف ابن شرف في هذا القسم من مقامته النقديّة هذه عند بعض الهنّات والسقطات الّتي وقع فيها بعض المشاهير من الشعراء (٣) الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين من مثل امرىء القيس ،وسحيم عبد بني الحسحاس ،والفرزدق ،وغيرهم من مشاهير الشعراء ،ويتتبّع أخطاءهم ،وسقطاتهم الّتي وقعوا فيها على الرّغم من شهرتهم وقدمهم ،مشيراً إلى أنّ الهدف من وراء ذلك إنّما هو التوضيح والارشاد إلى مواطن الصّواب ، فيقول : ((قال أبو الريان : وفضلاء الشعراء كثير جداً ،ولكلّ سقطات ،وسأقف على بعضها ،لعظيم المؤونة في الاحاطة بها ،ليس إلاّ ،لأوضح لك بذكرها منهجاً مِنْ مناهج النقد لا حرصاً على نقص الفضلاء ،ولا قصداً إلى تهجين الصرحاء ،وأية

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٨ .

(٣) انظر : المصدر نفسه ، ص ص : ٢٨ — ٣٦ .

رغبةٍ لنا في ذلك ، وهم جُرثومة فروعنا ، وبهم افتخار جميعنا . [١])) .

وحتّى يدلّل ابن شرف على ما ذهب إليه فقد اتخذ من زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهليّ المشهور مثالاً لتتبع أخطاء القدماء وسقطاتهم ، فتوقّف عند بعض أبياته الّتي وردت في معلّقته الشهيرة ، ونقدها نقداً صائباً كشف لنا عن ثقافة واسعة ، وتفكير سليم ، فذهب إلى القول إنّ زهيراً على الرّغم من شهرته الّتي وصل إليها ، ومكانته الّتي حظي بها قد غلط وخالف العقل والمنطق حين يقول :

رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ [٢]

وينقده بقوله : ((... وقد غلط زهير في وصفها بخبط العشواء على أنّنا لا نطالبه بحكم ديننا ، لأنّه لم يكن على شرعنا ، بل نطالبه بحكم العقل ، فنقول : إنّما يصحّ قوله : لو كان بعضُ الناس يموت وبعضهم ينجو . وقد علم هو ، وعلم العالم حتّى البهائم أنّ سهام المنايا لا تخطئ شيئاً من الحيوان حتّى يعمها رشقها ، فكيف يوصف بخبط العشواء رام لا يقصد غرضاً من الحيوان إلاّ أقصده حتّى يستكمل رمياته في شواكل رُميّاته .)) [٣] .

وهكذا يمضي ابن شرف في نقده لزهير ، ويحاكمه محاكمةً خلقيّة منطقية ، فيشير إلى أنّه قد وَهِمَ فيما ذهب إليه ، فيقول : ((... وإنّما أدخل الوهم على زهير موتُ قومٍ عَبْطَةً ، وموتُ قومٍ هَرَماً ، فظنّ طول العمر إنّما سببه إخطاء المنيّة ، وسبب قصره ، إصابتها . وهيهات الصّواب من ظنّه لم يؤخّر الهرم ، إلاّ أنّها ما قصدته ، فحين قصدته أصابته ، ولو أنّ الرّماة تهتدي كاهتدائها ، لملأت أيديها بأقصى رجائها .)) [٤] .

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٣٣ .
(٢) شرح ديوان زهير ، ص : ٢٩ .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ٣٣ — ٣٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٣٤ .

ولمّا فرغ ابن شرف من الحديث عن سقطات وعيوب القدماء من الشعراء، أخذ يتحدّث عن حسنات وسقطات المحدثين منهم والمولّدين، مثل بشّار، وأبي تمّام، وغيرهم، وهذا واضح في قوله: ((ولفضلاء المولّدين سقطات مختلفات في أشعارهم إذا كرك منها في أشياء، لتسدلّ بها على أغراضك لا لطلب الزّلّات، ولا لاقتفاء العثرات. كان بشّار تتباين طبقات شعره فيصعد كثيرها، ويهبط قليلها كثيراً. وكذلك كان حبيب الطّائي، فإذا سمعت جيدهما، كذبت أنّ رديهما لهما، وإذا صحّ عندك أنّ ذلك الرّديّ لهما، أقسمت أنّ جيدهما لغيرهما.)) (١).

ويلوح لي أنّ ابن شرف بحديثه هذا عن سقطات الشّعراء القدماء والمحدثين منهم، يريد أنْ يردّ على أولئك المتعصبين الّذين تعصّبوا للقديم لمجرد قِدَمه، وسخطوا على الحديث لحداثته، وليثبت لهم أنّ الجودة موجودة في الشّعر بغضّ النّظر عن قِدَمه أو حداثته، وأنّ الرداءة والهنّات قد توجد في القديم والحديث.

ويتحدّث عن عيوب الشّعر (٢)، فيذكر منها اللّحن، وتعقيد الكلام، وخشونة حروف الكلمة، والافتتاحات الثقيلة، والقوافي المصحمة، والجفاء في النّسيب على الحبيب، والسرّقات، وهذه أمور عالجها معظم البلاغيين والنّقاد وأشبعوها بحثاً، وحذروا الشعراء والأدباء من الوقوع فيها (٣).

ويحاول ابن شرف أنْ يعلّل لنا سبب توقفه عند نقد المشاهير من الشعراء، فيشير إلى أنّ شهرتهم والاحتجاج بأشعارهم كانا من أقوى الدّوافع إلى ذلك، فيقول: ((... ولعلّ قائلاً يقول: مال على

---

(١) المصدر السابق، ص: ٣٩.
(٢) أنظر: المصدر نفسه، ص ص: ٣٧ — ٤٢.
(٣) أنظر: الشعر والشعراء، ١/ ٩٥ — ١٠٣، والموشح، ص: ٩٢.

هؤلاء ، وترك سواهم لميله على من بكت ، وتفضيله من عنه سكت ، فقل لمن قال ذلك : الأمر على خلاف ما ظننت ، لم أذكر إلا الأفضل فالأفضل ، والأشهر فالأشهر ، إذ كانت أشعارهم هي المرويّة ، فالحجّة بهم وعليهم هي القوية ، فقد نقلته على من ميلي عليهم إلى ميلي بالحقّ إليهم .)) (١)

وهو بهذا يعيد لنا تعليل ابن قتيبة في كتابه الشّعر والشّعراء ، حيث يقول معللاً توقّفه عند المشاهير من الشّعراء : ((وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء ، الّذين يعرفهم جلّ أهل الأدب ، والّذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب ، وفي النّحو ، وفي كتاب الله — عزّ وجلّ — وحديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .)) (٢) .

ويختتم ابن شرف مجلسه هذا مشيداً بشخصيّة راويته وبطله أبي الرّيان ، فيقول : ((. . . فقلت لله درك يا أبا الريان فما ألين جانبك ! ، وما أقرب غائبك ! ، وما أنجح طالبك ! وما أسعد بك صاحبك ! فقال : أنجح الله مطالبك ، وقضى مآربك ، وصفّى من القذى مشاربك ، وبثّ في الحواضر والبوادي مناقبك .)) (٣) .

وأمّا المجلس الثالث والأخير من هذه المقامة فقد خصّصه ابن شرف للحديث عن مذهب أبي الرّيان في انتقاء الأشعار ، وعن طريقته في اختيارها ، فيطلب من أبي الرّيان أن ينشده من مستحسن الأشعار ، الّتي يحفظها ، فيجيبه الى هذه الرّغبة ، ويلبّي له هذا المطلب ، وفي هذا يقول ابن شرف : ((. . . وطلبتني نفسي بمعرفة مذهب أبي الرّيان في اختيار الشّعر ، واغتنمت جوده بما أردته ووجوده متى طلبته ، فقلت له يوماً :

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٤٥ — ٤٦ .
(٢) الشّعر والشعراء ، ١ / ٥٦ .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ٤٦ .

يا أبا الرّيان ، أبت نفسي أنْ ترتوي من ماءك ، ولا أنْ تسأم من طيب غذائك ، وقد أدلّني لين جانبي عليك ، وسهّل عليّ مباحثتك يسر الأشياء لديك ، فتبسّم ، ثمّ قال ما الفنّ الّذي تريد ؟ ، ومن أيّ صنف تستزيد ؟ قلت : اقتراحي على فهمك وكرمك أنْ تنشدني ولا تملّ ، وتملي عليّ ولا تكل مِنْ مستحسن الأشعار عندك ، ما أجمع بين ميزك فيه ، ونقدك على الاختيار ، قال : نعم ونعمّا أنشدك ما حضرني . (١)» .

ويحدّثنا ابن شرف عن منهج أبي الريّان وطريقته في اختيار الأشعار فيقول : « . . . ولا تخلني أقدّم الأجود فالأجود ، لكنّي أقدّم ما اعتفاني ، وأؤخر ما عفاني ، وسأبدأ بالأبيات المفردات ، والمزدوجات ، وأؤخر القطع المشريّات ، والقصائد المعرّبات ، فقد رويت منها ما استغربت معناه ، واستظرفت مغزاه ، قلت : هات لا فضّ فوك ، ولا انفضّ معتفوك ، فقال : خذ الأشعار الحكيمة والأبيات المثليّة . . . » (٢) .

وينشده قول طرفة بن العبد الّذي يقول فيه (٣) :

سَتُبْدِي لَكَ الأيّامُ ما كُنْتَ جاهِلاً ... وَيأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ (٤)

وينشده قول دريد بن الصّمة (٥) :

أَمَرْتُهُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللّوى ... فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلاّ ضُحَى الغَدِ (٦)

وقول حسّان بن ثابت الّذي جاء فيه (٧) :

وَرُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ المَالِ ... وَجَهْلٍ غُطِّيَ عليهِ النَّعِيمُ (٨)

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٤٧ ،
(٢) المصدر نفسه ، والمكان نفسه .
(٣) ديوان طرفه ، ص : ٤٨ .
(٤) أعلام الكلام ، ص : ٤٧ .
(٥) جمهرة أشعار العرب ، ص : ٥٨٤ .
(٦) أعلام الكلام ، ص : ٤٧ .
(٧) شرح ديوان حسّان ، ص : ٤٣٤ .
(٨) أعلام الكلام ، ص : ٤٧ .

وقول زهير (١) :

وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يَسْتَحْمِلُ النَّاسَ نَفْسَهُ ... ولا يُغْنِيَها يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ يَسْأَمُ

وَمَنْ يَجْعَلِ المعروفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمُ (٢)

وقول النابغة (٣) :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تلمُّهُ ... على شَعَثٍ أيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ (٤)

ومما تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ الابيات التي يوردها ابن شرف في هذا المجلس، من مقامته، إنّما هي أبيات مشهورة، ولشعراء مشهوريين، وقد كثر دورانها وترديدها في معظم كتب الأدب، ومجامع الشّعر العربي (٥).

وأمّا في الغزل فقد أنشده قول عروة بن حزام (٦) :

وَعفراءُ أدْنَى النّاسِ عِنْدِي مَوَدَّةً ... وَعفراءُ عنّي المُعْرِضُ المُتَوانِي

جَعَلْتُ لِعرّافِ اليمامةِ حِكْمَةً ... وعرّافِ نَجْدٍ إنْ هُما شَفَيانِي (٧)

وقول العبّاس بن الأحنف الذي يقول فيه : (٨)

سَمّاكِ لي قَوْمٌ وَقالوا إنّها ... لهيَ الّتي تَشْقَى بها وتُكابِدُ

فَجَحَدْتُهم ليكون غيرُكِ ظَنَّهم ... إنّي ليُعْجِبُني المُحِبُّ الجاحِدُ

واللّه لو عَلِمَتْ القُلوبُ كقلبِها ... ما رَقَّ للولدِ الصّغيرِ الوالِدُ

يَقَعُ البلاءُ وينقضي عن أهلِهِ ... وبلاءُ حُبِّكِ كُلَّ يومٍ زائِدُ (٩)

---

(١) شرح ديوان زهير، ص : ٣٢.
(٢) أعلام الكلام، ص : ٤٨.
(٣) ديوانه، ص : ١٨.
(٤) أعلام الكلام، ص : ٤٧.
(٥) أنظر : شرح المعلّقات السبع، ص : ٩٧، ص : ١١٩، وجمهرة أشعار العرب، ص ص : ١٢٥ — ٢٢٤.
(٦) شعر عروة، ص : ١٢ — ١٤.
(٧) أعلام الكلام، ص : ٤٨.
(٨) ديوانه، ص : ٨١ — ٨٢.
(٩) أعلام الكلام، ص : ٤٨.

وينشده في الرّثاء قول ليلى ابنة طريف التغلبيّة في رثاء أخيها ، حيث تقول (١) :

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحبّ الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من فتى وسيوف (٢)

وقول أبي تمّام في رثاء إدريس بن بدر الشّاميّ الذي يقول فيه (٣) :

ولم أنس مشي الجود حول سريره ... بأكسف بال يستقيم ويظلع
وتكبيره خمساً عليه معالناً ... وإن كان تكبير المصلين أربع
وما كنت أدري — يعلم الله — قبلها ... بأنّ الندى في أهله يتشيّع (٤)

وأمّا في المديح فقد أنشده قول المتنبّي الذي رفعه إلى عليّ بن إبراهيم التنوخي ، الذي يقول فيه (٥) :

قوم بلوغ الغلام عندهم ... طعن نحور الكماة لا الحلم
إذا تولّوا عداوة كشفوا ... وإن تولّوا صنيعة كتموا
تظنّ من فقدك اعتداد هم ... أنهم أنعموا وما علموا
أعيذكم من صروف دهركم ... فإنّه في الكرام متّهم (٦)

وقوله أيضاً في مدح سيف الدّولة الحمدانيّ الذي جاء فيه (٧) :

متصعلكين على كثافة ملكهم ... متواضعين على عظيم الشّان
يتقبّلون ظلال كلّ مطهّم ... أجل الظّليم ورقّة السّرحان

---

(١) ديوان الحماسة ، ١ / ٥٣٠ .
(٢) أعلام الكلام ، ص : ٥٠ .
(٣) ديوانه ، ٤ / ٩٥ - ٩٦ . والعمدة ، ٢ / ١٤٩ .
(٤) أعلام الكلام ، ص : ٥١ .
(٥) ديوانه ، ٤ / ٦٤ — ٦٥ .
(٦) أعلام الكلام ، ص : ٥٤ .
(٧) ديوانه ، ٤ / ١٧٩ — ١٨٥ .

يَا مَنْ يُقَتِّلُ مَنْ أرادَ بِسَيْفِهِ ... أَصْبَحْتُ مِنْ قَتلاكَ بالإحْسانِ (١)

وقول أبي تمّام الّذي يقول فيه (٢) :

إذا افْتَخَرَتْ يَوْماً تَمِيمٌ بِقَوْسِهَا ... وَجَاءَتْ بِمَا قَدْ وَطَّدَتْ مِنْ مَنَاقِبِ

فَأَنْتُمْ بِذِي قَارٍ أَمَالَتْ سُيُوفُكُمْ ... عُرُوشَ الَّذِينَ اسْتَرْهَنُوا قَوْسَ حَاجِبِ

إذا العِيسُ لاقَتْ بي أبا دُلَفٍ فَقَدْ ... تَقَطَّعَ ما بيني وبَيْنَ النَّوائِبِ

يدي أَقْبَحَ الأشياءِ أَوْبَه آمِلٍ ... كَسَتْهَا يَدُ التَّأْمُولِ حُلَّةَ خَائِبِ

وأحسن مِنْ نُورٍ تَفَتَّحَه الصَّبَا ... بياضُ العطايا في سوادِ المَطَالِبِ (٣)

وهكذا يمضي ابن شرف في عرض الأبيات الشعرية الّتي كان يُعجب بها على لسان راويته وبطله أبي الرّيان ، فيكشف لنا بذلك عن سعة اطلاع ، وسعة حفظ ، وتعمّق في دواوين الشّعر العربيّ ، وعناية بدراسته ، وتتبّع أخبار الشعراء ، وقد أنهى مقامته هذه بهذا المجلس ، وهذا واضح في قوله : ((. . . وانقضى هذا المجلس ، وبه تم الكتاب ، . . . وهو على لسان أبي الريان الصلت بن السكن من سلامان .)) (٤) .

وبعد فهذه هي مقامة ابن شرف المعروفة بـ ((رسائل الانتقاد)) ، وقد أنشأها على غرار المقامات النقديّة الّتي صاغها بديع الزّمان الهمذانيّ ، وتصدّى فيها للحديث عن الشّعر والشعراء (٥) فموضوع مقامة ابن شرف هذه يذكّرنا بموضوع المقامة القريضيّة الّتي تحدّث فيها البديع على لسان راويته وبطله عيسى بن هشام عن خصائص وميزات بعض الشعراء الجاهليين والإسلاميين

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٥٤ .
(٢) ديوانه ، ١ / ٢٠٣ — ٢٠٧ .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ٥٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٥٥ .
(٥) أنظر : مقامات بديع الزّمان ، ص : ٥ ، ص ٥١ ، ص : ١٧٤ ، وغيرها .

من مثل : امرئ القيس ، وزهير ، والنابغة ، وطرفة ، والفرزدق ، وجرير وغيرهم (١) .

وحديث ابن شرف في مقامته التي بين أيدينا عن هؤلاء الشعراء لا يتجاوز ما أثبته لهما بديع الزمان من صفات ومزايا ، إلا أن ابن شرف في حديثه عنهم كان أكثر اطالة ، وأدق معالجة من البديع ، فالبديع قد قصر حديثه على الشعراء المشاهير منهم في الجاهلية والإسلام ، أما ابن شرف فقد تحدث عن المشاهير في الجاهلية والإسلام ، هذا فضلاً عن حديثه عن الشعراء المخضرمين ، والمولدين في المشرق والمغرب ، كما تحدث عن الشعر ونقده ، فكشف لنا عن موقفه من القضايا النقدية والأدبية التي كانت تشغل نقاد عصره .

على أننا نستطيع أن نقول : إن ابن شرف في مقامته النقدية هذه ، قد شذ عن القالب التقليدي الذي صب فيه البديع مقاماته ، كما أنه لم يهتم بالبناء الدرامي الذي عني به البديع ، وركز عليه في مقاماته ، فقد اختفت منها قصة الكدية والحيلة ، وأصبحت تروى على لسان كاتبها ،

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ص : ٦ . حيث يقول في حديثه عن امرئ القيس : ((... ما تقول في امرئ القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، واقتدى والطير في وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغباً ، ففضل من تفتق للحيلة لسانه ، وانتجع للرغبة بنانه .)) .
وص : ٦ — ٧ ، حيث يقول في طرفة : ((قلنا : فما تقول في طرفة ، قال : هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغلاق خزائنه .)) .

وفي هذا يقول الدّكتور إحسان عبّاس في أثناء حديثه عن المقامات الأندلسيّة والمغربيّة : ((ومن مجموع ما وصلنا من هذه المقامات يستطيع الدّارس أنْ يتبين حقائق محدده عن طبيعة المقامة الأندلسيّة . فقد انتفت مِنْ بعضها قصة الكُدية والحيلة المقترنة بها ، وأصبحت صورة من رسالة يقدّمها شخص بين يدي أمرٍ يرجوه أو أملٍ يحبّ تحقيقه ، كما أنّ كثيراً من المقامات الأندلسيّة أصبح وصفاً للرّحلة والتنقل في داخل بلاد الأندلس ، وفي هذا أيْضاً شاركت الرسالة . وكان بعضها يمثل الاتجاه النقديّ ، أو يؤدي بعض الموضوعات الشعرية كالغزل ، والمدح ، والهجاء . ولمّا التبست المقامة بالرّسالة وأصبحت تؤدي مهمتها ، فقدت ((العقدة)) ، وفقدت الشخصيتين الخياليتين فيها ، وأصبحت على لسان كاتبها ، وإذا لم تكن قصة لرحلة فقدت العناصر ((الدراميّة)) جملة .)) . (١)

وهذا ما نجده في مقامة ابن شرف الّتي تصدّى فيها للحديث عن الشّعر والشعراء ، وإنْ كنا نميل إلى أنّه بهذه المقامة أراد أنْ يكتب رسالة أدبيّة ونقديّة ، وقد أطلق عليها اسم مقامة ، لأنّ الأشكال الأدبيّة في ذلك العهد لم تكن قد اكتملت (٢) .

المقامة الجرجانيّة :

وأمّا المقامة الجُرجانيّة فقد جعل ابن شرف موضوعها يدور حول قصة شيخ هرم ضرير حاول أنْ يعتدي على مضيف له من أبناء العظام المشهورين بجرجان ، وقد أدار أحداثها في بيت ذلك الفتى الّذي جمع في شخصه الجمال والغنى ، وجعل من بيته مأوىً للأدباء

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، ص : ٣٠٨ .
(٢) أنظر : فن المقامات ، ص : ٢٧٦ .

والغرباء والفقراء ، ولقد أسند روايتها إلى راوية أطلق عليه اسم ((الجرجانيّ)) ، فبدأها بقوله : ((حدّثني الجرجانيّ قال : كان فتىً بجرجان من أبناء الأقيال (١) ، قد جمع إلى النهاية في المال الغاية في الجمال ، وكان مألفاً للأدباء ، ومأوىً للغرباء ، ورزقاً للفقراء ، فلا يخلو بيته من أهل الإعدام (٢))) .

وينتقل بعد ذلك انتقالاً لطيفاً وموفّقاً ، ليمهد لظهور بطله ببراعة وحذق لا يؤديان إلى أيّ خلل أو اضطراب في مقامته ، فيضعنا أمام شخصيّة لا تختلف في جوهرها عن تلك الشخصية الّتي رسمها الهمذانيّ لبطله أبي الفتح الإسكندريّ في مقاماته ، فيكشف لنا بذلك عن براعة في التشخيص والتصوير ، وعن مقدرة فنيّة على ادخال الشّخوص في الاحداث وجعلها تتفاعل معها ، وهذا واضح في قوله : ((... فإنّي لعنده في بعض الليالي إذ استؤذن عليه لضرير فقير فأمر بإكرامه وإطعامه . فلمّا فرغ من شأنه ، استدعاه إلى إيوانه ، فدخل علينا رجل شيخ وافر السبّال (٣) ، قد عمّه البياض بالكمال ، مطموس العينين ، مسترخي الحاجبين ، قد طأطأت هامته ، وركعت قامته ، وقصرت مسافة خطاه ، وثقل جسمه على عصاه ، فسلّم بصوت ضئيل ، ودعا بلسان ثقيل ، وأقبل يذكر شبابه ، ويتذكّر أحبابه ، وينوح على سالف زمانه ، ويندب ثقات إخوانه (٤) .)) .

ولمّا فرغ ابن شرف من إدخال الشخصيّات بطريقة فنيّة لبقة ، ورسمها لنا رسماً واضحاً دقيقاً ، انتقل إلى عرض القضيّة الّتي أراد أن يجعل منها محوراً لمقامته هذه ، فكان بارعاً في إدارة الحوار بين شخصيّاتها

---

(١) الأقيال : جمع قيل ، وهو الملك من ملوك حمير دون الملك الأعظم . أنظر : اللّسان ، مادة (قيل) .
(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٢ .
(٣) السبّال : الشوارب ، أنظر : اللّسان ، مادة (سبل) .
(٤) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٢ .

بأُسلوب قصصيٍّ كشف لنا عن مقدرته على التّعبير الفصيح البليغ ، وهـــذا ما نستطيع أنْ نراه في قوله : ((... فرقَّ له الفتى فأدناه ، حتّى أجلسه على يمناه ، وصبّره وسلّاه ، ثُمَّ سمرنا إلى وقت النّوم ، فرقد سائر القوم ، ونام الفتى في مكانه ، مراعاة لحق ضيفانه ، وكنت أدنى من الفتى مرقداً ، كما كنت أدنى منه مقعداً ، ولي عين أخفّ العيون هجعةً ، وأقربها إلى الانتباه رجعة . فأيقظتني نبرة لم أكن عهدت من الفتى مثلها ، ولا أجراها مع ضيف قبلها . فعجبت من خرق العادة ، وأصغيت ألتمس استزادة . فسمعت الأعمى يقول : ياسيّدي ، أنا صرورة[1] ، وثَمَّ ضرورة ، وقد طالت الغربة ، واضطرتني العزبة . فقال الفتى له : فما وجدت لضرورتك سِوايَ ، ولا لِعزبتك حاشايَ ؟ قال له : فإنْ أبيت إلاّ أنْ تمنع ، فدلّني على ما أصنع . قال له الفتى : أرى أنْ تتسرّى . قال : ومن للمعلول بالمطول ؟ قال : فتتزوج . قال : والمحموم كيف يتزوّج ؟ قال له الفتى : فإنّك لو خفخفت ، لكان أشبه ممّا إليه تعرّضت . قال الأعمى : واللّه يامولايَ لا يسعه خُفّي ، فكيف كفي ؟ فصاح الفتى : السلاحَ السلاحَ : ((ألا أيُّها النوّام ويحكم هُبّوا .)) [2] .

وحتّى يضفي ابن شرف على مقامته طابع السخرية والظرف فقد ذهب إلى القول : ((فقال الفتى : أسمعت العَجَبَ العُجاب ؟ قلت نعم ، وحفظت الجواب . وجعلت أقول : ما سألك الشيخ في عسير ، ولا حطّك على خطير ، فهلاّ قضيته فأرضيته ؟ قال : فحسب الأعمى كلامي ردّاً ، وظنّه جِدّاً ، فقال : فديتك أيُّها النّاصر ، حين خذلني الأواصر ، واحتقدني المعاصر ، ثُمّ تنهّد وقال : آه واحرّماه ! بقينا حتّى شقينا . آه ، طاح أهل البذل والسّماح ، وبقي أهل البُخْلِ والجِماح .)) [3] .

---

(١) الصَّرورة : الّذي لم يتزوّج . أُنظر : اللّسان ، مادة : ((صرر)) .
(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ص : ٢١٢ — ٢١٣ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢١٣ .

ويمضي كاتبنا في إدارة الحوار بين راويته وبطله محاولاً أنْ يعرِضَ لنا الحجج الّتي أتى بها بطله ، ليبرر اعتداءه على ضيفه بأسلوب فصيح بليغ ، فيقول : ((. . . أنظر أيّ أجناس ، بعد أيّ ناس ، لكنّ الفقير حقير ، قلّ المال ، وذهب الرّجال . سمعنا فطمعنا ، يافتى ، أخبِرْنا عنك خبراً ، مارأينا له أثراً ، ورُبّ منسوب إلى حال ، مرجوعها إلى مُحال ، أين الكرم الّذي ذُكِرَ ! ، والخُلُق الّذي شُكِر ؟ حسب ما سألناك يَشُقّ ، أينَ الحقّ الّذي يحقّ ؟ كذب رائدنا ، وقلّتْ فوائدنا . فقال له الفتى : ويحك ! اتق الله خالقك ، فقد آنَ أنْ تترك خلائقك . فقال : يامولايَ ، لوتركتني الشهوة لتركت . لكنْ حرّكتني فتحرّكت . إنّي وإنْ سبقني جمهور الأتراب إلى التراب ، فلي قلب لهبّي ، وجسم ذهبي ، لايغيّرهما إدمان الزّمان ، ولا يؤودهما حديث الحدثان . ولو عادت إليّ ساعة من أيّامي ، أو حَصَلَت في يدي إبرة من حُسامي ، لسبَقَتْ كُلُومي فيكم كَلامي .)) (١) .

ومن الطّريف في الأمر أنّ ابن شرف قد أنهى مقامته هذه بموت بطله ، وهذا أمر لم نعهده مِنْ قبلُ في مقامات الهمذانيّ ، وكأنّي به يريد أنْ يقول : إنّ الشرّ والفساد مصيرهما الموت ، وإنّ الخير لابدّ وأنْ ينتصر على الشرّ والمنكر ، وهذا واضح في قوله : ((. . . ثم اهتزّ كأنّه نَسْرٌ مقصوص ، أو حمار مَرْعوص ، فقمنا وتركنا جانبه ، وجعل يضرب بعصاه ما قاربه . فتركناه وشأنه ، وأدمنا هيانه ، نصعّد فيه ونصوّب ، ونُعَجّبُ ونُعَجّب . فلم تزل شقشقته تهدر ، وعصاه تتكسر ، حتى كلّت يداه ، وانحلت قواه . ولاح وجه الصّباح ، وجئنا إليه بالمصباح ، فإذا هو كالجدار المهدوم والخِدْر المهشوم ، قد فارق النّفسَ النّمرودّية ، ومات الميتة الجاهليّة ، فدفنه الفتى في أطماره ، وسألنا كتمان أخباره .)) (٢) .

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٢١٣ — ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢١٤

ومّا تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ هذه المقامة في غايتها وموضوعها وهدفها تختلف اختلافاً واضحاً عن مقامته السابقة ، فقد ابتعد فيها ابن شرف عن ذلك الأسلوب التقريريّ ومن تلك الصّياغات المعروفة في الأخبار الأدبيّة ، فنسجها على غرار المقامات الهمذانيّة ، وضمّنها الكثير من عناصر الطرافة ، والتشويق ، واختار لها بطلاً يلتقي في معظم صفاته مع بطل المقامات الهمذانيّة ، ولعلّ هذا عينه ما دفع بابن بسّام إلى القول : ((... ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه ، وصبّ فيها على قالبه ...)) (١) .

خصائصه في النّثر :

رسائله الاخوانيه :

لم تحفظ لنا المصادر الّتي بين أيدينا رسائل ابن شرف الاخوانية المطولة الّتي بعث بها إلى ملوك الطّوائف ووزرائهم في تلك الفترة ، ومعظم ما وصلنا من هذه الرسائل ما هو إلاّ مقطّعات قصيرة ومختارات اختارها الّذين تصدّوا لأخبار كاتبنا ، وعنوا بترجمته ، وهذا واضح من اشارات ابن بسّام إلى هذه الظاهرة ، حيث يقول : ((... وكان أوّل ما بعث إلى المعتضد بإشبيليّة خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن زيدون ، يقول في فصل منها .)) (٢) ، ويقول في موضع آخر : ((... ومن ترسيله فصل له من رقعة خاطب بها المظفّر بن الأفطس .)) (٣) ويقول : ((... ومن كلامه في صدر كتابه المترجم بـ ((أعلام الكلام)) ، فصل يقول فيه .)) (٤) ، وهذا واضح أيضا من خلال تقديمه لتلك الرسائل

---

(١) الذّخيرة ، ق٤ م١ ، ص : ١٩٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٧٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٩٣ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ١٧٩ .

حيث كان يردد عبارة ، ((وله من أخرى ... ومن أخرى ... الخ (١) .

ومن هذه الاشارات نستطيع أنْ نتبيّن أنّ كاتبنا قد خلّف لنا رسائل مطوّلة كثيرة إلاّ أنّ المصادر التي وصلتنا لم تحفظ لنا تلك الرّسائل كاملة بل حفظتها لنا على صورة مقتطفات قصيرة فأضاعت علينا فرصة التعرّف إلى طريقة كاتبنا ومنهجه الفنّي في رسائله .

ومهما يكن من أمر ، فإننا من خلال الرسائل التي تبادلها كاتبنا مع ملوك الطّوائف ووزرائهم بالأندلس نستطيع أنْ نلمح بعض أركان منهجه الفنّي في رسائله من حيث البدء والعرض والختام ، ففي الرسالة التي ردّ بها أبو مروان بن قزمان على كاتبنا ما يشير إلى أنّه كان يستهل بعض تلك الرّسائل بالشّعر ، وأنّه كان يكثر فيها من الحكم والأمثال ، وهذا واضح من قوله ((... ورد كتابك المبتدأ خطابه من الشّعر بما هو السّحر الحلال ، والمصدّر من التقريض بما شهد لك بالجلال ، لو قصد الطّائعيان قصده لأجيلا ، أو هذا الحمّادان (٢) هذوه لأدبرا وما أقبلا ، لم تدع فيه فنّا من الحكمة إلاّ أعديته ولا معنى لطيفاً إلاّ أبديته ، ولا نوعاً من الأدب إلاّ جلبته ، ولا غريباً من المثل إلاّ ضربته ، فلله بلاد غذّاك هواؤها !)) (٣)

وقد يستهلّ بعض رسائله الاخوانيّة بالحديث عن لهفته وشوقه لمن يكتب له ، ومن ذلك رسالته التي بعث بها إلى المظفّر بن الافطس ، وقد بدأها بقوله : ((... كتبت وشوقي إلى شرف لقياه ، وشيم سقياه ، شوق

---

(١) الذّخيرة ، ص : ١٩٤ .

(٢) وهما : حمّاد عجرد ، وحمّاد بن الزبرقان . أنظر : طبقات الشعراء ، ص : ٦٩ .

(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٩٦ .

القارطين [1] الى سكون وسكنى ، والقيسين [2] إلى ليلى ولبنى [3] ، واعتلاقي بذكره اعتلاق مالك بعقيل [4] ، وقفا نبك بالطلل الضليل ، وبلال بشاشة

---

(١) وهما : قارظان كلاهما من عنزة الأكبر منهما يذكر بن عنزة والأصغر : عوزرهم بن عامل بن عنزة ، كل منهما خرج يطلب القرظ ولم يعد ، وفيهما يضرب المثل : ((حتى يؤوب القارظان)) ، أنظر : مجمع الأمثال ، ١/٢١١ ، فصل المقال ، ص : ٣٧٣ ـ ٣٧٤ ، وغيرهما .

(٢) وهما : قيس بن الملوح صاحب ليلى ، يضرب به المثل في الحب ، أنظر : ثمار القلوب ، ص : ٨٦ ، وفوات الوفيات ، ٣/٢٠٨ ، الأغاني ، ٢/٥ . وقيس بن ذريح صاحب لبنى ، أنظر : الأغاني ، ٩/١٧٤ ، فوات الوفيات ، ٣/٢٠٤ ، وغيرهما .

(٣) وهما : ليلى بنت مهدي بن سعد أم مالك من بني كعب بن ربيعة صاحبة المجنون " قيس بن الملوح " ، أنظر : الأغاني ، ٢/١٢ ، النجوم الزاهرة ، ١/١٧٠ ، فوات الوفيات ، ٣/٢٠٩ ، أعلام النساء ، ٤/٣٠٨ . ولبنى بنت الحباب الكعبية صاحبة قيس بن ذريح ثم زوجته فطلقته ، قيل : ماتت قبل قيس فرثاها ومات بعدها بأيام (ـ ٧٠ هـ) ، أنظر : الأغاني ، ٩/١٧٥ ، فوات الوفيات ، ٣/٢٠٤ ، النجوم الزاهرة ، ١/١٧٠ ، أعلام النساء ، ٤/٢٧٦ .

(٤) وهو : مالك بن فارج بن مالك بن كعب من بني القين من أسد ، نديم جاهلي ، كان هو وأم له اسمه ((عقيل)) من خاصة ((جذيمة)) الأبرش الأزدي ملك العراق ، نادماه أربعين سنة ، قيل لم يعيدا عليه فيها حديثاً ، يضرب بهما المثل في طول الصحبة .
أنظر : ثمار القلوب ، ص : ٢٤ ، الأعلام ، ٦/١٤ ، وغيرهما .

وطفيل [١] ، والله ببلوغ الأمل غير كفيل .)) [٢] ، وبعد أن يعبّر عن تعلّقه وشوقه لرؤية هذا الأمير ، ينتقل انتقالاً لطيفاً وموفقاً إلى الحديث عن نفسه ، وعن المحنة التي تعرّض لها ، فيشير إلى أنّ وضعه الاجتماعي قد تغيّر ، وإلى أنّ محنته وغربته قد طالتا ، فيقول : ((... وحال وليّه بالناحية التي استقدرتها حال من ذهبت منه اللذاذة ، الفتاء ، والشيخ بهدفه الشتاء)) [٣] ، ويختتم هذه الرسالة ببيت من الشّعر . فيقول : ((... وقد رأيت طوفان قرطبة يقيم دهراً ، وإنّما أقام طوفان نوح شهراً ، وأمّا صيفها فكما قال :

لَمْ أَسْتَتِمَّ عِنَاقَهُ لِقدومِهِ حتّى ابتدأتُ عِنَاقَهُ لِوَدَاعِهِ [٤]

الألفاظ والأساليب :

أشرنا فيما تقدّم عندما تحدّثنا عن الألفاظ في الشّعر إلى أنّ الألفاظ تحتلّ مكانة مهمة في المعمار الفنيّ للشّعر والنّثر على حد سواء ، ذلك لأنّ ((الكلمة عنصر من عناصر العمل الأدبيّ وعامل من أقوى العوامل التي تتوقّف عليها قيمته الجمالية ، والأداء الفنيّ الجميل

---

(١) جبلان مشرفان على مجنه وهي بريد من مكة ، عندما هاجر المسلمون الى المدينة كان بلال يحن اليهما ويقول :
..... وهل يبدون لي شامة وطفيل .
أنظر : معجم ما استعجم ، ٢/٨٩٢ ، الروض المعطار ، ص : ٣٩٦ ، وغيرهما .

(٢) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٩٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٩٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص : ١٩٤ .

أساسه الدّقة في اختيار الكلمة ووضعها في بيئتها وامتزاجها مع معناها ، اذ ليس هو في مجموعة إلاّ طائفة من الكلمات المؤتلفة المعبّرة .)) (١) ، ومن أجل هذا فقد عُني كاتبنا باختيار كلماته وتنسيقها ووضعها في بيئتها المناسبة ومكانها الملائم حيث كان يختار لموضوعاته الّتي يطرقها ما يناسبها من الألفاظ ، فهو إذا ما تحدّث عن البخيل وتعرّض لشخصيته ونفسيته بالوصف والتحليل فإنّه يتخير لذلك من الألفاظ الّتي تناسب طبيعته ، وتصوّر حياته بما فيها من بُخْلٍ وشُحّ وحرص ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك ، حيث يقول في وصف بخيل : ((... يجود الجُلْمُود ولا يجود ، ويعود إلى إشاره يابس العود ، وهو لا يبدي ولا يعيد ، كيسه مغلق ، وبنانه مطبق ، وداره سطّق ، وجيشه مطّق ، وميزانه حبيس لا يطلق ، كفتاه ككفيه لا تذيبهما النّار ، ولا يعرفان الدّرهم ولا الدّينار ، وأكياسه كالنقود ، قد خنقتها العقد ، يده حافرٌ وقّاح ، وقفله ليس له مِفْتاح ، تمرّ الأيّام ولا يُشمّ له طعام ، لو ملك طوفان نوح ، لم يسمح منه بشربه لظمآن .))(٢) وأمّا عندما يتحدّث عن الكريم فإنّه يتخيّر له من الألفاظ أيضاً ما يناسب شخصيته وصفاته ، وما يناسب موضوعه الّذي يكتب فيه ومن ذلك قوله في وصف رجل كريم : ((... مَرِحُ الجُود ، على الدِيلاّت والوجود ، كفّه غَيْث ، لا يبالي من حيث ماله ، أكثر جوده على جنوده ، أغنى جيشه ...)) (٣)

وهكذا فإنّ الدّقة في اختيار الكلمة ووضعها في بيئتها الملائمة لها كانت من أبرز خصائص أسلوب كاتبنا ، وهذا أمر يستطيع الدّارس أنْ يلاحظه فيما وصلنا من نثره وأدبه .

ولم يكن الأمر ليقتصر على الاهتمام بالكلمة في نثر كاتبنا الّذي

---

(١) النثر الفني ، وأثر الجاحظ فيه ، ٢١٦ .
(٢) الذّخيرة ق ٤ م ١ / ١٨٦ — ١٩٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٨٥ .

كان يهتم بجملته وبإقامته التناسق والتعادل فيما بينها وبين الجمل الأخرى التي تتصل بها ، فقد عُنِيَ عناية كبيرة بإقامة التعادل والتوازن بين جمله التي ألفها ، حتى إننا نستطيع أن نلاحظ هذه الظاهرة في معظم ما وصلنا من نثره ؛ ذلك لأن ((... مهمة الأديب إنما هي الأداء والامتاع ، وان من الواجب أن يوفر عنايته بتنسيق الجمل ، وايجاد التعادل بينها حتى يستطيع أن يحقق عنصر الامتاع من هذه المهمة ...)) (١) وهذا أمر يستطيع أن يلاحظه بوضوح كل من يتصل بنثره وأدبه ، واليك بعض الأمثلة على ذلك حيث يقول : ((... غوره أقرب قريب ، وقلبه مورود التقليب ، فسرائره مكشوفة ، ودخيلته معروفة ، كتمانه إخبار ، وتدبيره إدبار ، رأيه وراء ، وساحته عراء ، حسه هامد ، وفهمه جامد ، لا يعرف الرشد من الغي ، ولا يفرق بين التقبيل والكي ، طلل بال ، لا يخطر على بال ، الشمس عنده سهى ، والحمق نهى ، لا يعلم رأسه من أين أنفاسه ، ولا يدري دماغه من أين أصداغه .)) (٢) .

ولقد أكثر كاتبنا من استعمال المحسنات اللفظية والمعنوية في نثره من سجع وجناس وطباق ، ليعمل على تلوين أسلوبه ، ويضفي عليه رونقاً لفظياً بزيادة الدفقة الموسيقية عليه ، فالسجع كما في قوله : ((... عَوْدٌ إذا زَحَف ، وَطَوْدٌ إذا وقف ، وسيل إذا حمل ، وكتيبة إذا اعتزل ، حسامه إمام ، يهدي في ظلمة التتام ، ويهتدي إلى مسالك الحمام لا تردعه لامعة السيوف ، ولا تفزعه مصارعة الحتوف ...)) (٣) ، فعلى ما يبدو أن كاتبنا كان من الذين أغرموا بالسجع وفتنوا به حتى انك لا تستطيع أن تجد في نثره جملة واحدة غير مسجوعة ؛ ذلك لأن السجع

---

(١) النثر الفني ، وأثر الجاحظ فيه ، ص : ٢٢٤ .
(٢) الذخيرة ق٤ م١ / ١٨٨ — ١٨٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٨٦ .

كان أُسلوباً عامّاً للكتابة في ذلك العصر ،وقد التزم به معظم الكتّاب في تلك الفترة ،وهذا ما عبّر عنه الدّكتور شوقي ضيف بقوله : ((. . . وكان الكتّاب في العصر الأُمويّ يتخفّفون من السّجع أحياناً كما رأينا عند ابن شهيد ، أمّا في هذا العصر (عصر ملوك الطّوائف) فإنّهم يلتزمونه التزاماً ،بل قد يجد الإنسان في عصر الأُمويين كاتباً لا يسجع مطلقاً ،أمّا في هذا العصر فإنّ الكتّاب جميعاً يسجعون.)) (١)

وأمّا الجناس فقد أكثر منه كاتبنا في نثره ،ومن ذلك قوله ((. . . وأنا وإنْ بعثت بالأقمار في الأطمار.)) (٢) ، حيث جانس هنا ما بين لفظتي ((الأقمار)) و ((الأطمار)) جناساً ناقصاً ،وكما في قوله : ((. . . وكثر سبّاق الرّواد ،وفرّاط الورّاد .)) (٣) ، وهنا جانس أيضاً جناساً ناقصاً ما بين لفظتي ((الرّواد)) و ((الورّاد)) ،وكما في قوله : ((. . . عزوتها إلى من لم يَحْكِها ،وأضفت نسجها إلى مَنْ لم يَحْكُها .)) (٤) ،وقد جانس هنا جناساً ناقصاً ما بين كلمة ((يَحْكِها)) وكلمة ((يَحْكُها)) ، وكما في قوله : ((. . . زهّاد تركوا المَرَضَ ،وأصابوا المَرَضَ ،اقترحوا المَنا ، واطّرحوا الغِنَى .)) (٥) ،وقد جانس كاتبنا هنا جناساً ناقصاً مابين الكلمات التالية : ((المَرَضَ)) و ((المَرَضَ)) وبين ((المَنا)) و((الغِنَى)) ،والأمثلة على هذه الظاهرة كثيرة في نثر ابن شرف ،يستطيع الدّارس أنْ يلاحظها بوضوح فيما وصلنا من نثره ومؤلّفاته.

وأمّا الطّباق فلم يكن حظه لدى كاتبنا بالقليل ،فقد أكثر منه في نثره ،وإليك بعض الأمثلة على ما ذهبنا إليه ،ومن ذلك قوله : ((. . . واختلقت

---

(١) الفن ومذاهبه في النّثر العربيّ ،ص : ٣٢٥.
(٢) الذّخيرة ق٤ م١/ ١٧٣.
(٣) المصدر نفسه ،ص : ١٧٧.
(٤) المصدر نفسه ،ص : ١٧٩.
(٥) المصدر نفسه ،ص : ١٨٧.

فيها أخباراً فصيحات الكلام ، بديعات النظام ،لها مقاصد ظِراف ،وأسانيد ظِراف ، يروق الصّغير مغناها ، والكبير مغزاها .)) (١) حيث طابق كاتبنا هنا ما بين كلمة ((الصّغير)) وكلمة ((الكبير)) ،وكما في قوله : ((. . . ليله منتشٍ، ونهاره مرتشٍ .)) وقد طابق هنا ما بين لفظتي ((نهاره)) و((ليله)) ، وكما في قوله : ((. . . يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال ، وحكايات قصار ،وطوال .)) (٢) وهنا طابق ما بين كلمة ((قِصار)) وكلمة ((طِوال)) ، ومن أمثلة الطبّاق في نثره أيضا قوله : ((. . . وقد طُرِّزَتْ بِلُمَعِ الجِدِّ والهَزْل ،وحُسِّنَتْ بمقابلة الضّدِّ للمثل ،ليس في ذلك كلّه رواية رويتها عن قديم ولا جديد ،ولا حُدِّثْتُ بها عن قريب ولا بعيد .)) (٣) ، حيث طابق كاتبنا في هذا النّص ما بين ((الجِدّ))(والهَزْل)) وما بين كلمتي ((الضّدّ)) و ((المِثْل)) ،وبين كلمتي : ((قديم)) و ((جديد)) وبين ((قريب)) ، و((بعيد)) . وهكذا فقد أثقل كاتبنا نثره بالمحسنات اللّفظيّة والمعنويّة ،فعُنِيَ بتزيين الألفاظ ،وتزويق العبارات ،وحشد فيها كل ما يستطيع أنْ يأتي به من تلك المحسنات حتّى إنّنا لا نجد عبارة واحدة فيما كتبه لا تثقلها المحسنات البديعيّة ، وهذا أمر يستطيع الدّارس أنْ يلمحه في مقاماته الّتي التزم فيها السجع وأثقلها بالمحسنات البديعيّة كما رأينا .

ولقد تميّز أُسلوب كاتبنا في نثره بمظاهر مختلفة من مثل الحوار كما في قوله : ((. . . قال أبو الريّان : لقد سميت مشاهير وأبقيت الكثير ، قلت : بلى ولكن ما عندك فيمَنْ سميت لك ؟ قال أمّا الخليل مؤسس الأساس وبنيانه . . .)) (٤) ، وكما في قوله : ((. . . قلت لأبي الريّان في مجلس

---

(١) أعلام الكلام ،ص : ١٣ .
(٢) الذّخيرة ق ٤ م١ / ١٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٨٠ .
(٣) أعلام الكلام ،ص : ١٥ .

عقب هذا المجلس ، يا أبا الرّيان ، لقد رأيت لك نقداً مصيباً ، ومرمىً عجيباً ، ولقد أرغب في أنْ أنال منه نصيباً ، فقال : النّقد هبة في الموالد ، وفيه زيادة طارف إلى تالد ، . . . قلت أنا شديد الرّغبة إلى فضلك ، . . . قال نعم : أوّل ما عليه تعتقد ، وإيّاه تعتمد ، ألاّ تستعجل باستحسان ولا باستقباح .(١))) .

والتكرار كما في قوله : ((. . . متشاغل بالانياب الطّاحنة في فمه ، عن الانياب الوالغة في دمه .)) (٢) ، حيث كرر لفظة الانياب مرتين في هذه العبارة ، وكما في قوله : ((. . . فأكلته تغور الاعوام ، قبل شغور الانام .)) (٣) وقد يكرر كاتبنا اللّفظة عينها أكثر من مرّة في النّص الواحد ، ومثال ذلك قوله : ((. . . أخفى من نقطة الجيم ، ومن بياض الميم ، أخفى من الأسرار عند الاحرار ، أخفى من السُّهى ومنديل الرّها ، أخفى من تفسير شِعْر لبيد على فهم البليد ، أخفى من مطارد على المطارد ، أخفى من السوسة في العود)) (٤) . حيث كرر لفظه أخفى في هذا النصّ أكثر من سبع مرّات .

ولقد أكثر ابن شرف من استعمال الجمل المعترضة في نثره ، ومن ذلك قوله : ((. . . فبكى — علم اللّه — مع باكٍ ، وشكا منّي إلى شاكٍ .)) (٥) ، وفي قوله : ((. . . إلاّ أنّي — أيّده اللّه — لا أوثر مراديّ على مراده .)) (٦) وفي قوله : ((. . . فيعود — أيده اللّه — بفضيلة الايثار .)) (٧) ، وكما في قوله : ((. . . ولمّا كنت — أعزك اللّه — حسّانة المقدّم . . .)) (٨) .

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٢٧ .
(٢) الذّخيرة ق ٤ م ١ / ١٨٩ .
(٣) الخريدة ق ٤ ج ٢ / ١١٢ .
(٤) الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٨٤ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .
(٦) المصدر نفسه ، ص : ١٩٥ .
(٧) المصدر نفسه ، ص : ١٩٥ .
(٨) المصدر نفسه ، ص : ١٧٣ .

ويستطيع الدّارس أنْ يلاحظ أنّ ابن شرف قد مال الى اسلوب السّخرية والاستهزاء فيما وصفه لنا ، وهذا أمر يمكننا أنْ نراه في تصويره للقادة ، والقضاة، والكتّاب ، وغيرهم من طبقات المجتمع التي عرّض بها كما اسلفنا .

وأما المصادر التي استقى منها ابن شرف الفاظه ، فكثيرة ومتعددة ، فقد استقى بعضها من القرآن الكريم ، وذلك كما في قوله : ((... فهو بدري إذا ليلي عسعس ، وشمسي إذا صبحي تنفّس .)) [1] ، ومن خلال هذا النّص نستطيع أنْ نلاحظ أنّه في قوله هذا ينظر إلى قوله — تعالى — : ((والليل إذا عسعس ، والصبّح اذا تنفّس .)) [2] ، وكما في قوله : ((... يراعة ترعد ، تقوم وتقعد ، إذا الحرب دعت أبطالها ، وزلزلت الاحشاء زلزالها ، نخب ما بين جنبيه ، وغاب السّواد من عينيه ...)) [3] ، وهو في قوله هذا ينظر الى قوله — عزّ وجلّ — : ((إذا زلزلت الارض زلزالها .)) [4] وكما في قوله : ((... فاطلاق باهتنان ، وتسريح باحسان ، أو نزل من حميم وتصلية جحيم .)) [5] . فهذه كلّها ألفاظ مستمدّة من القرآن الكريم ، ومن ثقافته الدّينية الواسعة .

وتأتي بيئة ابن شرف وما فيها من مواطن جمال ، فتكوّن مصدراً ثانياً من المصادر الهامّة الّتي استمدّ منها معظم الفاظه ، وهذا واضح في قوله : ((... وكثر سبّاق الرّواد ، وفرّاط الورّاد ، فما تركوا للمتأخرين من الرّياض زهرة ، ولا من الحياض قطرة .)) [6] ، وفي قوله : ((... وقد

---

(١) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٣ .
(٢) سورة التكوير ، آية / ١٦—١٧ .
(٣) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٩٠ .
(٤) سورة الزّلزال ، آية / ١ .
(٥) الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٣ .
(٦) الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٧ .

رفعت إليه البكر ابنة الفكر ، في هودجها الفرج ، وجلبابها الأرج ، وأنت الكفؤ الكريم ، وأشرف من أهدي له الحريم .)) [١] ، وفي قوله : ((. . . وقد قدحت زند الفكر فأورى شرراً ، وأفتحت قليب القلب فأجرى نهراً .)) [٢] ، وكما في قوله : ((يجود الجلمود ، ولا يجود ، ويعود إلى أشاره يابس العود ، وهو لا يبدي ، ولا يعيد ، كيسه مغلق ، وبنانه مطبق . . .)) [٣] .

وهذه ألفاظ استقاها ابن شرف من بيئته التي عاش فيها على اختلاف أنواعها الطبيعية ، والإجتماعية ، والثقافية ، ومن طبيعة بلاده الجميلة وما فيها من مباهج ومفاتن .

كما استقى بعض ألفاظه من ثقافته الواسعة ومن ذلك قوله : ((. . . أشهر في العطاء من الطائي [٤] وفي الأيادي من الإياري [٥] ، أشهر من الآس [٦] في الأغراس ، أوضح من النجوم لبطليموس [٧] والطب

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٨٩ .

(٤) وهو : حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني ، أبو عدي ، فارس ، جواد ، جاهلي ، يضرب المثل بجوده ، كان من أهل نجد . أنظر : ترجمته وأخباره في ، تهذيب ابن عساكر ، ٣ / ٤٢٤ ، الأغاني ، ١٧ / ٢٧٨ ، ثمار القلوب ، ص : ٧٥ .

(٥) كل شيء كان واقياً لشيء أوكل محقل أو جبل حصين ، وإياد اسم رجل وهو : إياد بن معد وهو اليوم باليمن . أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص : ١٢ ، اللسان مادة : ((أيد)) .

(٦) الآس : شجر دائم الخضرة ، بيضي الورق ، أبيض الزهر ، عطري . أنظر : المعجم المحيط ، ٢ / ٢٠٦ . والمعجم الوسيط ، ١ / ١ ، وغيرهما .

(٧) وهو : بطليموس القلوزي ، فلكي جغرافي يوناني الأصل ، مصري النشأة ، عاش بالإسكندرية أبان القرن الثاني الميلادي ، من مشاهير علماء الإغريق ، وممن كان لهم أثر في تاريخ الفكر الإسلامي ، أنظر : القاموس الإسلامي ، ١ / ٣٢٥ .

لجالينوس[1] ، والعاج في الابنوس .)) [2] ، وكما في قوله : ((. . . فلم يُحِط بوصفها ابن صفوان [3] ، ولا سحب فيها لسانه سحبان [4] ، وأين لسان باقل من سحبان وائل ؟ فالفصحاء في العجز عنها معذورون ، فكيف المعذّرون ؟)) [5] الأمر الذي يكشف لنا عن ثقافة واسعة متنوّعة كان كاتبنا قد تسلّح بها ، وعن سعة اطلاع .

---

(١) وهو : طبيب يونانيّ مشهور ، أُنظر ترجمته وأخباره في عيون الأنباء ، ص: ١٠٩ ، دائرة المعارف ، ٦/٢٥١ ، القاموس الإسلاميّ ، ١/٥٥٨ ، وغيرهم .

(٢) الذّخيرة ق ٤ م ١/١٨٣ .

(٣) وهو : خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم بن سمي ابن سنان بن خالد ابن منقر التميميّ ، كان مشهوراً بالبلاغة والفصاحة ، نشأ بالبصرة وطالت أيامه حتّى قيام الدّولة العبّاسيّة . أُنظر : وفيات الأعيان ، ٣/١٢ ، الشّعر والشعراء ، ٥٢٩ ، القاموس الإسلامي ، ٢/٢٠٥ .

(٤) وهو : سحبان بن زُفَر بن إياس الوائليّ الباهليّ ، أحد فصحاء الخطباء ، كان يضرب به المثل في الخطابة والبلاغة والفصاحة ، أُنظر : ثمار القلوب ، ص: ٧٩ ، القاموس الإسلامي ، ٣/٢٧١ ، دائرة المعارف ، ٩/٥١٥ .

(٥) الذّخيرة ، ق ٤ م ١/١٨٣ .

الفصـــــــل الرّابـــــع :

نقـــــــــده :

أولا : نظراته النّقديـــــــــة .

ثانيا : مقاييسه في نقد الشعـــــر .

ثالثا : نقـــــده التطبيقـــــيّ .

نظرته النقدية :

لقد تجسّدت آراء ابن شرف ونظراته النقديّة في مقامته النّقدية التي وسمها بـ ((رسائل الانتقاد)) (١) ، حيث بثّ في هذه المقامة الكثير من القضايا النقديّة التي كانت تشغل بال مَنْ سبقوه وعاصروه من النّقاد العرب، وبيّن موقفه منها .

وَمِنْ أهمّ القضايا النقدية الكبرى التي استوقفت ابن شرف ، وشغلت باله مثلما شغلت بال من سبقوه ، قضيّة القِدَم والحداثة ، وهي قضيّة قديمة في الأدب العربيّ ، وقد استأثرت باهتمام كبير من النقّاد العرب ، فأولوها مزيداً من العناية والبحث ، وحاول كلّ واحد منهم أنْ يتخذ منها موقفاً ، فمنهم مِنْ ناصر القديم وتعصّب له (٢) ، ومنهم مَنْ ناصر الحديث وتعصب له (٣) ، وثالث وقف موقفاً وسطاً منها (٤) .

ولقد كان ابن شرف من أنصار المذهب الثالث الذي وقف من هذه القضيّة موقفاً معتدلاً ، ودرس الشّعر دراسة فنيّة تقوم على أنّ الجَوْدَةَ موجوده في القديم والحديث معاً ، وعلى النّظر في طبيعة الشّعر نفسه ، بغضّ النّظر عن قِدَمِه أو حداثته ، وهذا واضح في قوله : ((وتحفّظ من شيئين : أحدهما أنْ يَحْمِلَكَ إجلالُكَ القديم المذكور ، على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثّاني أنْ يَحْمِلَكَ اصغارُكَ المعاصر المشهور على التهاون بما أُنْشِدْتَ له ، فإنّ ذلك جَوْرٌ في الأحكام ، وظُلْمٌ مِنَ الحكّام ، حتّى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما أوْ عليهما (٥) .)) .

وَمِنْ أجل هذا فقد رفض أنْ يكون تقدّم الزّمن أو تأخّره بالشّعر

---

(١) نشرها الخانجي تحت عنوان : أعلام الكلام ، وهي هي .

(٢) وعلى رأس هؤلاء علماء اللّغة . أنظر : فحولة الشعراء ، ص : ١٨—٢٠ ، الصناعتين ، ص : ٥١ ، العمدة ، ١ / ٩٠ .

(٣) أنظر : الصّولي في أخبار أبي تمّام ، ص : ٢٨ .

(٤) أنظر : الشعر والشعراء ، ١ / ٦٢-٦٣ ، الكامل في اللّغة ، ١ / ٢٩ .

(٥) أعلام الكلام ، ص : ٢٨ .

والشاعر مقياسا لقبول الشّعر أو رفضه ، وحمل على علماء اللّغة والنّحو الذّين تعصّبوا للقديم لمجرّد قدمه حملة عنيفة لافتا أنظارهم الى أنّ القديم كان جديدا في عصره ، وهذا واضح في قوله :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا ... ويرى للأوائل التّقديما
ان ذاك القديم كان جديدا ... وسيغدو هذا الجديد قديما (١)

ويحاول أن يعلّل تعصّب علماء اللّغة للقديم لمجرّد قدمه ، فيشير الى أن التشبّث بالقديم ، والتعلّق به ، واستصغار الحديث المعاصر لمعاصرته ، يكاد يكون صفة ملازمة للنّاس ، وطبيعة فطروا عليها ، فيقول : ((. . . فهذا باب في اعتلاقه استصعاب ، وفي عرف العامّة ، وبعض الخاصّة عنه اتعاب ، وقد وصف تعالى في كتابه الصّادق تشبّث القلوب بسيرة القديم ، ونفارها عن المحدث الجديد . فقال حاكيا لقولهم : ((انّا وجدنا آباءنا على أمّة وانا على آثارهم مهتدون .)) (٢) ، وقال أيضا : ((. . . بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا (٣) .)) (٤).

ويؤكد ابن شرف أنّ الذّين حطّوا من قيمة الحديث ، وتعصّبوا للقديم ، كانوا مدفوعين بدافع الحسد ، فيقول :

أنوى النّاس بامتداح القديم ... وبذمّ الجديد غير ذميم
ليس الا لأنّهم حسدوا الحيّ ... ورقوا على العظام الرّميم (٥)

ويستمر ابن شرف في مهاجمته للمتعصبين للقديم متهما اياهم بالتعصّب الاعمى ، والسّذاجة والجهل وهذا واضح في قوله : ((وستجد ناصرا لا يصدّق معاصرا ، ولا يفضّل على متقدم عصر متأخراً ، يبني على ضعف اسمه ، ويفديه من الجهل والعيب بنفسه ، فاذا اعترضك من هذا النّمط معترض ، فأعرض

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٢٨ .
(٢) سورة الزّخرف ، آية : ٢٢ .
(٣) سورة البقرة ، آيه : ١٧٠ .
(٤) أعلام الكلام ، ص : ٢٨ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٢٨ .

عنه ، ودعه على أخلاقه مستمتعاً بخلاقه ، واتبع المسلك الذي أوضحته لك (١) .)) .

ويدعو النقاد إلى تحرّي العدل والصّواب في أحكامهم ومقاييسهم الّتي يحكمون بها على الشّعر ، وإلى الابتعاد عن العواطف والمشاعر السابقة ، وإلى الإقبال على دراسة الشّعر دراسة فنّية من حيث هو أثر فنيّ بغضّ النظر عن زمنه وقائله ، وبعد ذلك يمكنهم الحكم على الشّعر ، وتمييز غثّه من سمينه ، وجيّده من رديئه ، فيقول : ((فلا يرعك أنْ تجري على منهاج الحق في جميع الخلق ، فبه قامت السموات والأرض ، وبه أُحكم الابرام والنقض .)) (٢) .

وممّا تقدّم نستطيع أنْ نرى أنّ ابن شرف قد رفض مبدأ التعصب سواء للقديم او الحديث ، مشيراً إلى أنّ الجودة الفنيّة هي المقياس الذي يجب أنْ يحكم فيه على الشّعر ، لا القِدْم والحداثة .

وحتّى يؤكّد لنا ابن شرف نظرته هذه ، فقد عرض لنا أمثلة تطبيقيّة من الشّعر القديم ، والشّعر الحديث ، ليثبت لنا أنّ القدماء يخطئون ، وفي أشعارهم الكثير من الأخطاء والعيوب الّتي تؤخذ عليهم على الرّغم من قدمهم وشهرتهم ، وأنّ المحدثين يخطئون ، وفي أشعارهم مايعابون به ، وهذا واضح في قوله : ((ولفضلاء المولّدين سقطات مختلفات في أشعارهم .)) (٣)

ومن أجل هذا فقد توقّف عِنْد أمرئ القيس أقدم الشعراء عصراً ، وأكثرهم شهرةً ، وطفق ينعى عليه بعض الهنّات والسقطات الّتي وقع

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٣٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٨ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٣٩ .

فيها ، على الرّغم من أنّ النّاس يعتقدون أنّ الخطأ لا يتطرّق إلى شِعْـــــــره ، وهذا واضح في قوله : ((هذا أمرؤ القيس أقدم الشعراء عصراً ، ومقدمهـــم شعراً ، وذكراً ، وقد اتسعت الأقوال في فضله اتساعاً لَمْ يَفُزْ غيره بمثلـــه ، حتّى إنّ العامّة تظنّ بل تُوقن أنّ جواد شِعْره لا يكبو ، وأنّ حُسام لفظـــه لا ينبو . وهيهات من البشر الكمال ، ومن الآدميين الاستواء والاعتدال .[1])) .

ويتوقّف عند بعض الأمثلة من شِعْرِهِ ، فيقول : ((ومن كلام امرئ القيـــس المخلخل الأركان الضّعيف الاستمكان ، المتزلزل البنيان قوله :

أَمْرُخٌ خِيامُهُم أَمْ عَشَـــرُ ... أَمِ القَلْبُ في أثْرِهِم مُنْحَـــدِرُ
وَهِيَ تَصيدُ قُلوبَ الرِّجـــالِ ... وأُفْلِتَ مِنْها ابن عمرو وحُجـــر (٢)

ويعلّق على هذه الأبيات ، فيقول : ((فأنت تسمع هذا الكلام الّذي لا يتناسب ولا يتواصل ، ولا يتقارب ، ولا يحصل منه معنىً ولا فائدة سِوى أنّ السامـــع يدري أنّه يذكر فرقة من أحباب ، لكنّ ذلك عَنْ ترجمة معجمة مضطربة منقلبـــة . سأل عن الخيام أمَرْخٌ هي أم عَشَرٌ ، وليست الخيام مرخاً ولا عشراً . إنّمـــا هما عودان ، فإن أراد في مكان هذين الخيام فقد نقض عمدة الكلام ؛ لأنّ مَرْخَهُ وعَشَرَهُ بهما نكرتين فأشكل بذلك . وإنّما يجوز لو جعلهما معرفـــة بالألف واللام الوزن لا يساعده على ذلك . ثمّ قال : أم القلب في أثرهـــم مُنْحَدِرُ ، وليس هذا السؤال الأول في شيء إلاّ من بُعْدٍ بعيد ، واحتيـــال شديد . وقال بعد هذا :

وَشاقَكَ مِنَ الخَليطِ الشَّطْـــرُ ... وَمِمَّنْ أقامَ مِنَ الحَيِّ هِـــرّ (٣)

فأتى بكثير كلام لا يفيد إلاّ قليل معنى ، وذلك القليل لا غريب ولا عجيـــب .

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٣٨ .
(٢) ديوان امرئ القيس ، ص : ١٥٤ — ١٥٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ١٥٥ .

وهو كلّه ذكر فراق ، ثمّ رجع إلى أنّ هرّة مقيمة تصيد قلبه وقلب غيره ، فأبطل باقامتها كلّ ما قال من أخبار الفراق ونقضه ، وجعل بكاءه المتقدّم لغير شيء . ثمّ قال : ((وأفلت منها ابن عمر وحُجر)) ، فحسن عنده أنْ يخبر أنّ النّاس قد صادت هرّ جميع قلوبهم ، إلاّ قلب ((حُجْر)) أبيه . وهذا من الأحاديث الرّكيكة ، والأخبار الّتي ما بأحد حاجة إليها ، ومع هذا فقد أورد أصحاب الأخبار أنّ ((هِرّ)) هذه كانت زوجة أبيه حُجْر . فانظر ما في جملة هذه الأبيات من الرّكاكات ، وقلّة الافادات . فانّها لا تفيد قُلامة ، ولا تهزّ ثُمامة .)) (١) .

ومما تقدّم فإنّنا نستطيع أنْ نرى أنّ الشّعر الجيّد في نظر ناقدنا هو الشّعر الّذي يوازن فيه صاحبه بين ألفاظه ومعانيه ، فيجعل الألفاظ على قدر المعاني .

وامعاناً من ابن شرف في اثبات نظرته الّتي ذهب إليها ، فقد توقّف عند علم آخر من أعلام القدماء ، يقدّمه النقاد لقدمه ، ولشهرته ألا وهو زهير ابن ابي سلمى وحاول أنْ يُظهر لنا بعض هناته وسقطاته الّتي وقع فيها ؛ ليثبت أنّ القدماء يخطئون مثلما يخطيء المحدثون ، وهذا واضح في قوله : ((قال زهير على ما وصفناه به ، ووصفه غيرنا من العلوّ والرفعة في هذه الصنعة من مذهّبته الحكمية ، ومعلّقته العلميّة (٢) :

رَأَيْتُ المَنايا خَبْطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ وَمَنْ تُخطيء يُعَمَّرْ وَيُهْرَمِ .)) (٣)

فتوقّف عند هذا القول طويلاً ، وأخذ على زهير مخالفته للمنطق ، ومعارضته للعقل فيما ذهب إليه ، ونقده بقوله : ((وقد غَلِطَ في وصفها بخبط العَشْواء على أنّنا لا نطالبه بحكم ديننا ، لأنّه لم يكن على شرعنا بل نطلبه بحكم العقل

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٣٢ - ٣٣ .
(٢) شرح المعلّقات السبع ، ص : ١١٨ ، وجمهرة أشعار العرب ، ص : ٢٠٤ .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ٣٣ .

فنقول : إنّما يصحّ قوله ! لو كان بعض النّاس يموت وبعضهم ينجو . وقد علم وهو العالم حتّى البهائم أنّ سهام المنايا لا تخطىء شيئاً من الحيوان حتّى يعمها رَشْقُها ، فكيف يوصف بخبط رام لا يَقْصِد غرضاً من الحيوان إلاّ أقصده حتّى يستكمل رَمْياتِه في شواكل رُمَيّاته ، وإنّما أدخل الوهم على زهير موت قوم عبطة ، وموت قوم هرما ، فظنّ طول العمر إنّما سببه اخطاء المنيّة ، وسبب قصره اصابتها . وهيهات الصواب مِنْ ظنّه لم يؤخّر الهرم إلاّ أنّها ماقصدته ، فحين قصدته أصابته ، ولو أنّ الرُّماة تهتدي كاهتدائها ، لملأت أيديها باقصى رجائها . (١))) .

ويشير ابن شرف إلى أنّ لزهير هذا على الرّغم من شهرته وقدمه أخطاء كثيرة ، وعيوباً جمّة غير هذه ، معلناً سخطه مِنْ جديد على أولئك الّذين يتعصّبون له ولغيره من القدماء دونما تمييز أو تمحيص في أقواله سعياً وراء الجودة لمعرفة الغثّ من السمين ، ويصفهم بالتعصّب الأعمى ، وبعدم البحث والتدقيق ، فيقول : ((. . . ولزهير غير هذا من السقطات لولا كلفة الاستقصاء ، هذا على اشتهاره بأنّه أمدح الشعراء ، وأجزل الوافدين على الأشراف والأُمراء ، وسيتعامى المتعصّب له عن وضوح هذا البيان ، ويجعل التفتيش عن غوامض الخطأ والصواب استقصاءً وظلماً ، ومطالبة وهضماً ويزعم أنّ جميع الشّعراء لو طُلِبَ هذه المطالبة لبطل صحيحه ، وانهجم فصيحه . والباطل الّذي زعم ، والمُحال الّذي به تكلّم . فالسليم سليم والكليم كليم . . . فعامل هذا الصنف بعطفك عنه العطف ، ورفعك عليه الانف ، وأعرض عنه بالفكر والذّكر كِبْراً ، وإنْ لم تكن من أهل الكِبْر . (٢))) .

ولكنّ هذا لا يعني أنّ ابن شرف كان يتعصّب ضدّ القديم لقدمه ، ويحطّ

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٣٣ — ٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٣٦ — ٣٧ .

من شأنه وشأن شعرائه ، ويضغط حقهم في السبق إلى المعاني والصور الشعرية ، لينتصر للحديث ، وهذا واضح من قوله في امرئ القيس : ((. . . وأما الضّليل مؤسس الأساس وبنيانه عليه النّاس ، كانوا يقولون أسيلة الخد حتّى قال امرؤ القيس : ((أسيلة مجرى الدّمع)) ، وكانوا يقولون : تامّة القامة ، وطويلة القامة ، وأشباه هذا ، وجيداء ، وتامّة العنق . حتّى قال امرؤ القيس : ((بعيدة مهوى القُرْط . وكانوا يقولون في الفرس : السّابق يلحق الغزال ، ويسبق الظليم ، وأمثال هذا حتّى قال : ((بمنجرد قيد الأوابد هيكل)) . ومثل هذا له كثير ، ولم يكن قبله من فطن لهذا ، وبنى مَنْ بعده على هذه الاشارات والاستعارات ، فحسنت به أشعارهم جدا ، وسلكوا منهاجاً قصداً ، فتطرّزت أقوالهم وكانت الأشعار قبلها سوادج ، فبقيت هذه جُدَداً وتلك نواهج وكلّ شِعْر بعدها خلا منها فغير رائق النسج ، وإنْ كان مستقيم النّهج . ولامرئ القيس استعارات في أشعاره رائقة ، وتشبيهات صحيحة لائقة ، تركنا ذكرها لشهرتها ، ولئلا يطول الكتاب بها .)) (١) ويقول في موضع آخر في حقّ امرئ القيس : ((. . . ولسنا ننكر هذه العيوب ، ونزارتها ، ما أقررنا له به من الفضائل وندارتها .)) (٢) . وإلى مثل هذا ذهب في زهير (٣) .

وليس القدماء وحدهم هم الّذين يعابون في بعض أقوالهم على ما وقعوا فيه من هَنَات وسقطات أُخِذَتْ عليهم ، فالمحدثون أيْضاً يخطئون ، وفي شِعْرِهِم ما يعابون عليه من السقطات والهنّات ، وهذا واضح في قوله : ((ولفضلاء المولّدين سقطات مختلفات في أشعارهم ، اذكراك مِنْها في أشياء لتستدلّ بها على نزعك لا لطلب الزّلات ، ولالاقتفاء العثرات . كان بشار تتباين طبقات شِعْره ، فيصعد كثيرها ، ويهبط قليلها كثيراً ، وكذلك كان حبيب الطّائي ، فإذا سمعت جيّدها ، كذّبت أنّ رديهما لهما ، وإذا صحّ عِنْدَك

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ١٥ — ١٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٣٣ .
(٣) أنظر : المصدر نفسه ، ص : ١٧ .

أنّ ذلك الرّديّ لهما ، أقسمت أنّ جيّدهما لضبوهما .)) (١)

وممّا يؤكّد لنا أنّ ابن شرف قد نظر إلى الشّعر نظرةً موضوعيةً تقوم على النظر في طبيعة الشّعر ودراسته دراسة فنيّةً على أنّه عمل فنيّ بغضّ النظر عن الزمن الّذي قيل فيه ، وعن شهرة قائله ومكانته ، قوله في أبي الطّيّب المتنبّي : ((وكان لحنه وشعره شريفين ، وعقله ودينه ضعيفين ، ومع ذلك فسقطاته كثيرة إلاّ أنّ محاسنه أكثر وأوفر . (٢)) .

وحديث ابن شرف هذا عن الشّعراء القدماء والمحدثين ، يكشف لنا عن تعمّق في دواوينهم ، وأشعارهم ، فنستطيع أنْ نرى من خلاله أنّه قد أقبل على دراسة الشّعر القديم ، واتصل به اتصالاً وثيقاً ، وعرّف عقله وذوقه عليه ، مثلما أقبل على دراسة الشّعر الحديث ، وحاول أنْ يوازن بينهما من حيث المعاني والمبتكرات الّتي تضمّنها كلّ منهما ، فانتهى إلى أنّ الجودة فيهما معاً ، ورفض فكرة التعصّب للقديم لمجرد قِدَمِهِ ، والعزوف عن الحديث لحداثته . وهو بهذه النظرة النقدية يلتقي مع ابن قتيبة الّذي يقول : ((. . . ولا نظرت إلى المتقدّم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخّر منهم بعين الاحتقار لتأخّره . بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلاًّ حقّه ، ووفرت عليه حقّه . فإنّي رأيت من علمائنا من يستجيد الشّعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيّره ، ويُنزل الشّعر الرّصين ، ولا عيب له عنده إلاّ أنّه قيل في زمانه ، أو أنّه رأى قائله . ولم يقصر اللّه العلم والشّعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره ، وكل شريف خارجياً في أوّله ، فقد كان جرير

---

(١) المصدر السّابق ، ص : ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٤٥ .

والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدّون مُحدثين .

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثُر هذا المُحدَث ، وحَسُن حتّى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا بِبُعْدِ العهد مِنْهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمَنْ بَعْدَنا ، كالخريميّ والحمّابيّ والحسن ابن هانئ وأشباههم . فكلّ مَنْ أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخُّر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنّه ، كما أنّ الرّدي إذا ورد علينا للمتقدّم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدّمه .)) (١) .

هذا ومما تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف قد تأثّر بنظره ابن قتيبة هذه تأثراً واضحاً وملموساً إلاّ أنّه استطاع أنْ يحولها من نظريّة مجرّدة إلى واقع تطبيقيّ لاسيّما عندما أقبل على دراسة الشّعر القديم والشّعر الحديث ، وأخذ يوازن بينهما ، فأعطى كلّ ذي حقّ حقّه بناءً على جَوْدة شِعْره ، لا على أساس شهرته أو تقدّم عصره .

ويبدو لي أنّ هذه النظرة كانت شائعة في عصره بالقيروان ، فقد تبناها معظم نقاد عصره وعلى رأسهم معاصره وشيخ عصره عبد الكريم النهشليّ (٢) الذي يقول : ((قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيَحْسُن في وقت مالا يَحْسُن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد مالا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الحذّاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه ، وكثر استعماله عند أهله بعد أنْ لا تخرج من حُسْن الاستواء ، وحدّ الاعتدال ، وجودة الصنعة ، وربّما استعملت في بلد الفاظ لاتستعمل كثيراً في غيره . (٣))) .

وإلى مثل هذا ذهب معاصره وقرينه ابن رشيق ، حيث يقول : ((إنّما

---

(١) الشّعر والشعراء ، ١ / ٦٢ — ٦٣ .

(٢) وهو : عبد الكريم بن إبراهيم النّهشليّ ، أبو محمّد ، ت ٤٠٥ هـ ، كان شاعراً مقدّماً عارفاً متقدماً باللّغة خبيراً بأيّام العرب وأشعارها ، أنظر : مسالك الأبصار ق١ ج ١١ / ٢٩٢ ، والعمدة ، ١ / ٩٣ .

(٣) العمدة ، ١ / ٩٣ .

مَثَلُ القدماء والمحدثين كَمَثَلِ رجلين : ابتدأ هذا بناءً فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه . (١))) .

اللّفظ والمعنى :

ومن القضايا النقديّة الكبرى الّتي تصدّى لها ابن شرف ، وبدأ بمعالجتها ومناقشتها ، محاولاً أنْ يحدّد موقفه منها ، قضية اللّفظ والمعنى ، وهي من القضايا النقديّة الّتي شُغِل بها النقاد على مرّ العصور ، فحاول كلّ واحد منهم أنْ يتخذ منها موقفاً ، وأنْ يدلي برأيه فيها ، فجاءت آراؤهم متباينة مختلفة ، فمنهم من وقف إلى جانب اللّفظ ، وقدّمه على المعنى ، ومنهم من وقف إلى جانب المعنى وقدمه على اللّفظ ، وثالث وقف من هذه القضيّة موقفاً وسطاً ، فذهب إلى أنّهما توأمان لا انفصال بينهما ، وفي هذا يقول ابن رشيق : ((ثم للناس فيما بعد آراء ومذاهب : منهم من يؤثر اللّفظ على المعنى فيجعله غايته ووكْده ، ومنهم من ذهب إلى سهولة اللّفظ فعُنِيَ بها ، واغتفر له فيها الرّكاكة واللين المفرط ، ومنهم من يؤثر المعنى على اللّفظ فيطلب صحته ، ولا يبالي حَيْثُ وقع من صحة اللّفظ وقبحه وخشونته (٢) .)) .

وبهذا يلخصّ لنا ابن رشيق آراء النقاد العرب الذين سبقوه وعاصروه ، ويصوّر لنا خلاف النقاد حول هذه القضية في عصره ، وفي العصور الّتي سبقته .

وأمّا موقف ابن شرف من هذه القضية فيتجلى في قوله : ((وإنّ مِنَ الشّعْر ما يملأ لفظه المسامع ، ويرد على السامع منه تماقع ، فلا ترعك ضماخة مبناه ، وانظر إلى ما في سكناه من معناه ، فإنْ كان في البيت ساكن ، فتلك المحاسن ، وإنْ كان خالياً فاعدده جسماً بالياً ، وكذلك إذا سمعت الفاظاً

---

(١) العمدة ، ص : ٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ١ / ١٢٤ - ١٢٦ ، وانظر : النقد الأدبي الحديث ، ص : ٢٥٤ .

مستعملة ، وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها حتّى ترى ما في أضعافها فكم من معنى عجيب في لفظ غير غريب .)) (١)

وفي هذا القول ما يدل دلالة واضحة على أنّ ابن شرف كان ممّن ينتصرون للمعنى ويكبرونه اكباراً شديداً ، ومن أجل هذا فقد أخذ على ابن هانىء الأندلسيّ أنّه لم يكن مكين المعاني ، وهذا واضح في قوله : ((وأمّا ابن هانىء الأندلسيّ ولادة القيروان ، وفادة وإفادة ، فرعديّ الكلام سُرديّ(٢) النظام ، متين المباني ، غير مكين المعاني ، يجفو بعضها عن الأوهام ، حتّى تكون كنقطة النظام ، إلاّ أنّه إذا ظهرت معانيه في جزالة مبانيه رمى عن منجنيق يؤثر في النيق(٣) .)) (٤) .

ومن الأدلة الّتي تشير إلى أنّ ابن شرف قد أكبر المعنى وفضّله على اللّفظ ، قوله في كشاجم : ((وأمّا كشاجم فحكيم شاعر ، وكاتب ماهر ، له في التشبيهات غرائب ، وفي التأليفات عجائب ، يجيد الوصف ويحققه ، ويسبك المعنى فيرققه ، ويرونقه . (٥))) .

ولعلّ ميله إلى جانب المعنى ونصرته له ، هو الّذي ملأ عليه نفسه اعجاباً بابن الروميّ ، صاحب توليد المعاني الجديدة المبتكرة ، وهذا واضح في قوله : ((وأمّا ابن الروميّ فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع .)) (٦)

ولقد اتخذ ابن شرف من المعنى مقياساً وحكماً لقبول الشّعر أو رفضه ، فكثيراً ما كان يبدي إعجابه بالبيت الشّعريّ ، لمّا يتضمنه من معنى ، وهذا واضح في قوله : ((. . . ولا تخلني أقدّم الأجود فالأجود ، لكنّي أقدّم

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٢٧ .
(٢) السّرديّ : أي يجيد سياق الحديث . أنظر : القاموس المحيط ، ١ / ٣١١ ، والمعجم الوسيط ، ١ / ٤٢٨ .
(٣) النّيق : الطويل من الجبال . أنظر اللّسان ، مادة (نوق) .
(٤) أعلام الكلام ، ص : ٢٦ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٢٤ .
(٦) المصدر نفسه ، ص : ٢٤ .

اما اعتفاني ، وأؤخّر ما عفاني ، وسأبدأ بالابيات المفردات ، والمزدوجات ، وأؤخّر القطع العشريات ، والقصائد المعرّبات ، فقد رويت منها ما استغربت معناه ، واستطرفت مغزاه .)) (١) .

هذا وعلى الرّغم من أنّ ابن شرف قد انتصر للمعنى وقدّمه على اللّفظ إلاّ أنّه لم يكن ليهمل اللّفظ ويسقطه ، إنّما كان يرى أنّ الجوْدة في الشّعر تكتمل وتتحقق باجتماعهما معاً ، وأنّ ما يعتري أحدهما من ضعف أو خلل ينعكس على الآخر ، ويؤثّر فيه ، ذلك لأنّ العلاقة الّتي تربط بينهما وثيقة ، فالألفاظ قوالب وأجسام للمعاني ، تقوى بقوّتها وتضعف بضعفها وهذا واضح في قوله : ((. . . والمعاني هي الارواح ، والألفاظ هي الاشباح ، فإنْ حَسُنا فذلك الحظّ المصدوق ، وإنْ قَبُحَ أحدهما فلا يكن الرّوح .)) (٢)

ومما تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف كان يكبر اللّفظ كما يكبر المعنى ، وينادي بضرورة الموازنة بينهما في العمل الادبيّ ، لأنّ في ذلك الغاية المنشودة الّتي يسعى إليها الشّعر ، ولأنّ الجوْدة الفنيّة في الشّعر لا تتحقق إلاّ بهما مجتمعين ، وهذا ما نصّ عليه ابن شرف في طيّات مقاماته النقديّة عندما تعرّض لنقد الشّعر والشعراء ، فكثيراً ما كان يفضّل الشاعر الّذي يُعْنَى باللّفظ والمعنى معاً ، ويوازن بينهما ، وهذا واضح في قوله : ((وأمّا الشيخ أبو عقيل (٣) فشعره ينطق بلسان الجزالة عن جنان الاصالة ، فلا تسمع له إلاّ كلاماً فصيحاً ، ومعنىً متيناً صحيحاً (٤) .)) ، وفي قوله : ((وأمّا البحتريّ فلفظه ماء ثجاج ، ودرّ رجراج ، ومعناه سراج وهّاج على أهدى مِنْهاج .)) (٥) ، وفي قوله : ((وأمّا أبو فراس بن حمدان ففارس هذا المَيْدان

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٧ — ٢٨ .

(٣) وهو : لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامريّ ، كان من شعراء الجاهلية وفرسانهم ، أدرك الإسلام ، ووفد على النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أنظر : الشعر والشعراء ، ١/ ٢٧٤ . والخزانة ، ١/ ٣٣٧-٣٣٩ .

(٤) أعلام الكلام ، ص : ١٦ . (٥) المصدر نفسه ، ص : ٢٤ .

إنْ شئت ضرباً وطعناً ، أو شئت لفظاً ومعنىً .)) (١) .

ويكاد ابن شرف في نظرته النقديّة هذه يتفق مع قرينه ومعاصره ابن رشيق الّذي نظر إلى اللّفظ والمعنى على أنّهما شيء واحد لا ينفصل بعضه عن بعض ، وهذا واضح في قوله : ((اللّفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوّته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللّفظ كان نقصاً للشّعر وجُنْة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العَرَجِ والشَّلَلِ والعَور ، وما أشبه ذلك من غير أنْ تذهب الروح ، وكذلك إنْ ضَعُفَ المعنى واختلّ بعضه ، كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذي يعرض للاجسام من المرض بعرض الأرواح ، فإنْ اختلّ المعنى كلّه وفسد بقي اللّفظ مواتاً لا فائدة منه ، وإنْ كان حسن الطّلاوة في السّمع ، كما أنّ الميت لم ينتقص من شخصه شيء في رأي العين ، إلاّ أنّه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك إنْ اختلّ اللّفظ جملة وتلاشى لم يصحّ له معنى ، لأنا لا نجد روحاً في غير جسد البتّة .)) (٢) .

ويتضح لنا من خلال ما تقدم أنّ ابن شرف كان قد اطلع على آراء النقاد الّذين سبقوه (٣) وعاصروه في هذه القضية ، وناقشها مناقشة دقيقة قادته إلى نظرته الّتي تقوم على تقديم المعنى والعناية به ، ولكنّها لا تهمل اللّفظ ولا تسقطه في حالة من الأحوال ، وهو بهذه النظرة شديد التأثّر بموقف المرزوقيّ منها ، حيث يقول : ((. . . فلمّا كان الشّاعر يعمل قصيدته بيتاً بيتاً ، وكلّ بيت يتقاضاه بالاتجاه ، وَجَبَ أنْ يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى وأنْ يبلغ الشاعر في تلطيفه ، والأخذ من حواشيه ، حتّى يتسع اللّفظ

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٢٥ .

(٢) العمدة ، ١ / ١٢٤ .

(٣) أنظر : الحيوان ، ٣ / ١٣١ ـ ١٣٢ ، عيار الشّعر ، ص : ١١ ـ ١٢ ، نقد الشّعر ، ص : ١٥ ـ ٢٥ ، وأخبار أبي تمّام ، ص : ٨٧ ـ ٨٨ ، الصناعتين ، ص : ١٦٧ ، إعجاز القرآن ، ص : ٨٨ .

له ، فيؤديه — على غموضه وخفائه — حداً يصير المدرك له والمشرف عليه ، كالفائز بذخيرة اغتنمها والظافر بدفينة استخرجها .)) (١) .

ولكنّه مع ذلك لم يفقد استقلال شخصيته النقديّة بتأثره بنظرة المرزوقيّ ، ذلك لأنّه استطاع أنْ يحوّل هذه النظرة النقديّة إلى واقع عمليّ ، فجعلها مقياساً عامّاً مِنْ مقاييس الجودة في الشّعر ، بل مقياساً أساسياً لقبول الشّعر أوْ رفضه كما أسلفنا .

السرقات الشعرية :

لقد شغلت قضية السرقات النقاد العرب على مختلف العصور التي مرّ بها الأدب ، ((فموضوع السرقات الشعريّة يشغل جانباً كبيراً في الأدب العربي وتاريخه ، فلا تكاد تجد كتاباً في البلاغة أوْ في النقد الأدبي خالياً من البحث في هذا الموضوع ، ومن الجدل الشديد في مسائله والعناية به . (٢))) .

ولقد حاول كل ناقد من النقاد أنْ يدلي برأيه فيها ، وأنْ لا يخلي كتابه من الحديث عنها ، ذلك لأنّ معرفتها كانت تُعَد دليلاً على أنّ الناقد صاحب كفاية واطلاع ، وفي هذا يقول القاضي الجرجاني : ((. . . ولَسْتَ تُعَدّ مِنْ جلة أهل الكلام ، ونقاد الشّعر حتّى تميّز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علماً برتبه ومنازله ، فتفصل بين السّرق والغصب ، وبين الإغارة والاختلاس ، وتعرف الإلمام من الملاحظة . . .)) (٣) .

ولمّا جاء ابن شرف في القرن الخامس ، ووجد أنّ النقاد قد شغلوا بقضية السرقات ، بدأ بمناقشتها ، وحاول أنْ يتخذ منها موقفاً ، فانتهى

---

(١) شرح ديوان الحماسة ، ١/١٨-١٩ .
(٢) أصول النقد الأدبي ، ص : ٢٦٠ .
(٣) الوساطة ، ص : ١٨٣ .

إلى أنّها من العيوب الّتي تقع في الشّعر ، وهذا واضح في قوله : ((ومن عيوب الشّعر السّرق ، وهو كثير الأجناس في شعر النّاس .)) (١) .

ويتحدّث ابن شرف عن أنواع السرقات الّتي تأتي في الشّعر ، فيرى أنّها على نوعين : سرقة لفظ ، وسرقة معنى ، فيقول : ((فمنها سرقة ألفاظ ، ومنها سرقة معنى ، وسرقة المعنى أكثر ، لأنّها أخفى من الألفاظ . (٢))) .

ويتحدّث عن السرقة الممدوحة الّتي تقع في الشّعر ، فيشير إلى أنّ السرقة الّتي تكون بزيادة المعنى على اللّفظ هي من أفضل السّرقات ، فيقول : ((... ومنها سرقة المعنى كلّه ، ومنها سرقة البعض ، ومنها مسروق باختصار في اللّفظ وزيادة في المعنى ، وهو أحسن السّرقات . (٣))) .

وأمّا السرقة الّتي يلجأ فيها الشّاعر إلى سرقة البيت باختصار معناه وزيادة لفظه فهي من السرقات المذمومة ، وهذا واضح في قوله : ((ومنها مسروق بزيادة ألفاظ وتقصير عن المعنى ، وهو أقبحها . (٤))) .

وفي هذا القول ما يدلّ دلالة واضحة على أنّ ابن شرف كان يقدّم المعنى على اللّفظ ، ويعنى به عناية كبرى .

ويشير ابن شرف إلى أنّ الشاعر الّذي يأخذ قولاً لغيره بلفظه ومعناه لا فضل له في ذلك ، وإنّما يكون الفضل والسبق فيه لمن أخذ عنه ، ويمثّل على هذا ببيت لأبي نواس أخذه بتمام لفظه ومعناه عن أبي الشيص(٥) ، فيقول : ((... ومنها سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص والفضل في ذلك للمسروق منه ،

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٤٢ .
(٢) المصدر نفسه ، والمكان ذاته .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٤٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٤٢ .
(٥) وهو : محمّد بن عبد الله بن رزين . أنظر : الشّعر والشعراء ، ٢ / ٨٤٢ ، والأغاني ، ١٥ / ١٠٤ — ١٠٨ .

ولا شيء للسارق كسرقة الحسن أبي نواس في هذه القصيدة التي ذكرتنا معنى أبي الشيص بكماله . قال أبو الشيص[1] :

وَقَفَ الهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدَّمُ

فسرقه الحسن بتمامه ، فقال :

فَمَا جَازَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَسِيرُ الجُودُ حَيْثُ يَسِيرُ

فهذا على أنَّ بيت أبي الشيص أحلى وأطبع ، ومع حلاوته جزالة . [2])) .

ويؤكّد أنَّ سرقة المعاصر لِمَنْ يعاصره ضرب من أضرب العجز والتقصير فيقول : ((وقد ذُكِرَ عن الحسن أنّه قال : مازلت أحسد أبا الشيص على هذا البيت حتى أخذته منه ، وسرقة المعاصر تصور عمّة .)) [3]

وابن شرف بهذه النّظرة يردد ما أكّده أبو هلال العسكريّ ، حيث يقول في هذه القضية : ((إنَّ مَنْ أخذ معنىً بلفظه كان له سارقاً ، ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخاً ، ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده أجود من لفظه كان أولى به ممّن تقدّمه . وقالوا إنَّ أبا عُذْرَةَ الكلام مَنْ سبك لفظه على معناه ، وَمَنْ أخذ معنىً بلفظه فليس له فيه نصيب . على أنَّ ابتكار المعنى والسّبق إليه ليس هو فضيلة ترجع إلى المعنى ، وإنّما هو فضيلة ترجع إلى الذي ابتكره وسبق إليه .)) [4] .

ومهما يكن من أمر فإنَّ حديث ابن شرف عن قضية السرقات هذه يكشف لنا عن سعة اطلاع ، وتعمّق في دواوين الشّعر وكتب الأدب والنقد .

---

(١) الشّعر والشعراء ، ٢/٨٤٣ .
(٢) أعلام الكلام ، ص : ٤٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٤٢ .
(٤) الصّناعتين ، ص : ٢٠٣ .

نقده النّفسي ، ((المبدأ التعويضي)) :

لقد تحدّث النّقاد في طبيعة العلاقة الّتي تربط بين الشّعر وعقائد الدّين ، وقواعد الخلق (١) ، إلاّ أنّهم لم يلمحوا العامل النّفسي الّذي لمسه ابن شرف عندما تصدّى لهذه القضيّة . فهو يرى أنّ الشخص الّذي يعاني من وجود عيب أو نقص في شخصيّته يحاول أن يتغلّب عليه ، ويغطيه بكثرة الحديث عنه ، والتباهي به ، وهذا واضح في قوله : ((والممنوع من الشيء حريص عليه ، مدّع فيه .)) (٢) ، وفي قوله : ((وكلّ من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلاً ، ادّعاه قولاً .)) (٣) .

وحتى يثبت ابن شرف هذه النظرة النفسيّة فقد استغلّ الروايات والأخبار (٤) الّتي كانت تشير إلى أنّ امرأ القيس كان مفرّكاً عند النساء ، غير مرغوب في مواصلته ومعاشرته ، لذلك فقد أخذ يخلي ويكل صراحة عن مغامراته معهنّ ، ويتغنّى بوصلهنّ ومطارحتهنّ الغرام ؛ ليغطي ما يحسّ به من نقص ، ويخفي ما يعتلج في نفسه من حرمان . وهذا واضح في قوله : ((قال امرؤ القيس :

سَمَوتُ إليها بعدَ ما نامَ أهلُها ... سُموَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ
فقالَتْ لكَ اللهُ إنّكَ فاضِحي ... ألستَ ترى السُّمّارَ والنّاسَ أحوالي
حَلفتُ لها باللهِ حِلفَةَ فاجِرٍ ... لنامي فما إن مِن حديثٍ ولا صالِ (٥)

فأخبرها هنا أنّه هيّن القدر عند النساء ، وعند نفسه

---

(١) جمع الجواهر ، ٣٣—٣٤ ، أخبار أبي تمّام ، ص : ١٧٣ ، الوساطة ، ٦١ - ٦٢ ، نقد الشّعر ، ١٣-١٤ .
(٢) أعلام الكلام ، ص : ٣١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٣٠ .
(٤) أنظر : الشّعر والشعراء ، ١ / ١٢١ .
(٥) ديوان امرئ القيس ، ص : ٣١ —٣٢ .

برضاه قولها ((لحاك الله)) ، فحصل على ((لك الويلات)) مِنْ تلك (١) ، وعلى لحاك الله من عذره ، فشهد على نفسه أنّه مكروه ، مطرود ، غير مرغوب في مواصلته ، ولا محروص على معاشرته ، ولا مرضي بمشاكلته .)) (٢) .

ويشير ابن شرف إلى أنّ امرأ القيس بهذه الأقوال قد خرج على قواعد الخُلُق ، واستهان بها خاصّة عند ما أعلن عن فسقه ، وصرّح بفجوره مِنْ غير تحرّج فيقول : ((ثمّ أخبر عن نفسه أنّه يرضى بالحنث والفجور وهذه أخلاق لا خلاق لها . وأقرّ بما يكتمه الأحرار ، ولا ينمّ بقبحه إلاّ الأوضاع الأشرار فقال (٣) :

فلمّا دنوتُ تَسَدَّيْتُهَا ... فَثَوْباً لِبِسْتُ وَثَوْباً أجُرّ (٤)

وأيّ فُجْرٍ في الاقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حبّه (٥)!

ويحاول ابن شرف في أثناء حديثه عن امرئ القيس أنْ يقارن بين موقفه من معشوقته وتصريحه بمغامراته المفضوحة معها ، وبين موقف أبي يعقوب الخريميّ (٦) من جارته ، وتمنّعه من النظر حتّى إلى وجهها ، فيقول : ((... وأين هذا من قول أبي يعقوب الخريمي (٧)) :

ولا أسْأَلُ الوِلْدَانَ عَنْ وَجْهِ جَارَتِي ... بَعِيْداً ولا أرْعَاهُ وَهْوَ قَرِيْبُ .)) (٨)

ويؤكّد ابن شرف أنّ اعتراف امرئ القيس بهذه القصص الصريحة المكشوفة ، إنّما يعود إلى فشله مع النساء ، وإلى ما يحسّ به من حرمان ، فيقول : ((وإنّما سهّل عليه كلّ هذا حرصه على ما كان ممنوعاً منه ، وذلك أنّه كان مُبْغَضاً للنساء

---

(١) يشير إلى قوله : وَيَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ ... فقالَتْ لَكَ الوَيْلاتُ إنّكَ مُرْجِلي
أنظر : ديوانه ، ص : ٢٣ .
(٢) أعلام الكلام ، ص : ٣٠ .
(٣) ديوان امرئ القيس ، ص : ١٥٩ . (٤) أعلام الكلام ، ص : ٣٠ .
(٥) المصدر نفسه ،
(٦) وهو : إسحاق بن حسّان ، ويكنّى أبا يعقوب ، عُمِيَ بعد ما تقدمت به السن . أنظر : الشّعر والشعراء ، ٢/٨٥٣ .
(٧) ديوانه ، ص : ١٤ . (٨) أعلام الكلام ، ص : ٣٠ .

جداً ، مفروكاً ممّن ملك عصمتها ، لأسباب كثيرة ذكرته وكلّ مَنْ حرص على نيل شيء فمنع منه فعلاً ، ادّعاه قولاً .)) (١) .

وامعاناً من ناقدنا في اثبات هذه النّظرة النفسيّة فقد توقّف عند الفرزدق ذلك الشاعر الذي كان محروماً من معاشرة النّساء ، ومن مواصلتهن ، لموانع في شخصيّته كانت تحول دون ذلك ، ولكنّه مع ذلك كان يدعي الزّنا ويتغنّى بمغامراته الفاضحة مع النساء ، حتّى يشبع حرمانه ، ويغطي ما يعتمل في نفسه من نقص وحرمان ، وفي هذا يقول ابن شرف : ((وله أشباه فيما أتاه ، يدّعون ما ادّعاه افكاً وزوراً ، وكذباً وفجوراً ، ومنهم الفرزدق ، وهو القائل (٢) :

هما دلّياني مِنْ ثمانينَ قامةً كما انقضّ بازٍ أقتمُ الرّيشِ كاسرُهْ .)) (٣)

ويتوقّف ابن شرف عند هذا البيت وقفة النّاقد المدقق البصير الّذي يعنى بدقائق الأمور ، وخفايا الأشياء ، وينقده بقوله : ((فهذا أوّل كذبه ، ولو قال من ثلاثين قامةً لكان كاذباً ، لتقاصر الأرشية عن ذلك . وكان مفرماً بالزّنا مدّعياً فيه ، وقد بلي بموانع تصرفه عنه ، منها : ما شهربه من النّميمة بمن ساعده ، والادّعاء على من باعده ، ومنها دمامته ، ومنها اشتهاره ، والمشهور يصل إلى شهوة يتبعها ريبة ، فكان يكثر في شعره من ادّعاء الزّنا ، واستدعاء النّساء ، وهنّ أغلظ عليه من كبد بعير ، وأبغض فيه وأهجى له من جرير .)) (٤) .

ومثل هذين الشّاعرين في افتخارهما بالزّنا ، وادّعائهما فيه على الرّغم من حرمانه من مواصلة النّساء ، سحيم عبد بني الحسحاس الّذي كان المقرور يترفع عن مجالسة تقززاً ، ولكنّه مع ذلك كان يتغنّى بقصصه الصّريحة المكشوفة مع النساء ، ويدّعي الزّنا معهنّ ، ليشبع حرمانه ، وفي هذا يقول ابن شرف : ((وهذا طرق هؤلاء الأخناس ، سحيم عبد بني الحسحاس ، أسود

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٣٠ .
(٢) العقد الفريد ، ١ / ٢٨٥ ، والموشّح ، ص : ١٥١ .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ٣١ .
(٤) المصدر نفسه .

في شَمْلَةٍ دَنِسَة قملة ، لا يؤاكله الخُرْثان تقززاً ، ولا يصاليه الصّرد المريان .
وهو مع ذلك يقول (١) :

وأقبلْنَ مِنْ أقصى الخِيام يَعُدْنَني ... نَواهِدُ لا يَعْرِفْنَ خَلْقاً سوائيا
يَعُدْنَ مريضاً هُنَّ هيَّجْنَ داءَهُ ... ألا إنّما بَعْضُ العوائدِ داءُ
تُوسِّدُني كَفّاً وتحْنُو بمِعْصَمٍ ... عَلَيَّ وتُرْخي رِجْلَها مِن ورائيا .)) (٢)

ويشير ابن شرف إلى أنّ الدّافع الّذي يكمن وراء هذا التصريح بمثل هذه الأمور ، إنّما هو حرمانه ممّا يتغنّى به ، ويدّعيه ، فيقول : ((فأنْتَ تسمع هذا الأسود الشنّ ، وادعاءه ، وتعلم أنّ الله لو أخلى الأرض ، فلم يُبْقِ رجلاً في الطول والعرض لم يكن هذا العبد زَلَمَةً عند أراذل السودان إلاّ كبعرة بعير في معرّس عير . والممنوع من الشيء حريص عليه ، مدّع فيه . . .)) (٣)

وحتّى يؤكّد ابن شرف نظريته النفسية الّتي ذهب إليها فقد أتى بأمثلة أخرى لشعراء يمثّلون النقيض لهؤلاء كانوا يتمتعون بصفات ومزايا تشدّ النساء إليهم ، وتقربهنّ منهم ، ولكنّهم مع ذلك تحفّظوا بأسرارهنّ ، ولم يلجأوا إلى التصريح بمغامراتهم معهنّ ، ويمثّل على ذلك بالمرقّش الأكبر (٤) الّذي كان جميلاً ، وللنساء فيه تعلّق ورغبة ، ومن أجل هذا فقد استغنى عن التّصريح بمغامراته المكشوفة ، وعن التّظاهر بالافصاح عمّا كان يجري له معهنّ ، وهذا واضح في قوله : ((. . . والمُسْعَدُ بما يهواه كاتِمٌ لَمَعُ مستغن ببلوغ مناه . والدّليل على ذلك أنّ المرقّش الأكبر كان من أجمل الرّجال ، وكانت للنساء فيه رغبة وشدّة محبّة ، وكان كثير الاجتماع بهنّ ، والوصول إليهنّ ، وله في ذلك أخبار مرويّة ، ولم يكن في أشعاره صفة شيء

---

(١) ديوان سحيم ، ص : ٢٠ — ٢٣ .
(٢) أعلام الكلام ، ص : ٣١ .
(٣) المصدر نفسه ، والمكان نفسه .
(٤) وهو : ربيعة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، وهو أحد عشّاق العرب المشهورين بذلك ، وصاحبته أسماء بنت عوف . انظر : الشّعر والشعراء ، ١ / ٢١٠ .

من ذلك .)) (١) .

وهذه نظرة جديدة في النّقد الأدبي تحاول أنْ تفسّر الشّعر تفسيراً نفسيّاً على أساس الحرمان أوْ الفشل ، ولعلّ ابن شرف بهذه النظرة النفسية النقديّة أوّل ناقد عرض الفكرة بمثل هذا المفهوم النقديّ ، وحاول أنْ ينقد الأدب ، ويفسّر بعض الظواهر الشعريّة الّتي وردت فيه — ولكنّه لم يتوسّع في تطبيقها على الشّعر ، ولو أنّه فعل ذلك ، وحاول أنْ يفسّر الشّعر بهذا المفهوم النفسي ، لأتى بنظرية نفسية نقدية لم يسبقه إليها غيره من النّقاد .

ولكنّ هذا لا يمنعنا من القول إنّ ابن شرف بهذه النظرة التعميميّة ، قد خالف الواقع والمألوف خاصّة عندما ذهب إلى أنّ الفرزدق لا يمكن أنْ يُحَبّ لدمامته ، وسوء خلقه ، وأنّ سحيماً لن يجد امرأة في الدّنيا تحبّه وتواصله ، فقادته هذه النظرة التعميمية إلى الحكم على الطبائع المختلفة بمعيار واحد ، فالواقع يقتضي أنْ يجد كلّ واحد منهما من تحبّه وتبادله العِشْق والغرام .

يضاف إلى ماتقدّم أنّنا نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف كان من النقّاد الّذين يتخذون من عقائد الدين ، وقواعد الخلق مقياساً لتقييم الشّعر ونقده ، ويحثون الشعراء على التقيّد بهما ، ولا يبيحون لهم الخروج عليهما ، وإنْ كان يحاول أنْ ينفي عنه ذلك ، فيقول : ((فإنْ قال قائل : إنّما وصفت عن امرئ القيس عيوباً في خُلقه لا في شعره ، قلنا : هل أراد بما وصف في شعره إلاّ الفخر . فإنْ قال : لم يرد ذلك ، وإنّما أراد اظهار عيبه ، قلنا : فأحمق النّاس إذن هو .)) (٢) ، ويقول : ((. . . على أنّنا لا نطالبه بحكم ديننا لأنه لم يكن على شرعنا ، بل نطالبه بحكم العقل . . .)) (٣)

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٣١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٣٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٣٣ .

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه النّظرة تكشف لنا عن شخصيّة ناقد مدقق بصير، واسع الثقافة، كثير الاطلاع، قادر على عرض الأمور ومعالجتها معالجة منطقية مقنعة.

الاستهلال والخاتمة :

لقد اهتمّ النقاد العرب بالحديث عن بدايات القصائد ومطالعها اهتماماً كبيراً، فحثّوا الشعراء والكتّاب على اتقانها وتجويدها، لما لها من تأثير كبير في نفسيّة المتلقّي والقارئ، فالقاضي الجرجانيّ يرى أنّ حسن الاستهلال والتخلّص والخاتمة من صفات الشّعر الجيّد، فيقول : ((والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلّص، وبعد مما الخاتمة، فإنّها المواقف الّتي تستعطف أسماع الحضور، وتستميلهم إلى الإصغاء.)) (١)، وأبو هلال العسكريّ يرى أنّها من دلائل الاعجاز والبيان، فيقول : ((أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات فإنّهنّ من دلائل الاعجاز.))(٢)، وأمّا ابن رشيق قرين ناقدنا ومعاصره فيرى : ((أنّ الشّعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أنْ يجوّد ابتداء شِعْره.)) (٣).

ومن أجل هذا فقد أوصى ناقدنا الشعراء بتجنب البدايات الثقيلة الغامضة، وعدّ ذلك عيباً من العيوب الرديئة المذمومة الّتي يجبّ على الشاعر أنْ يبتعد عنها في شِعْرِه، وهذا واضح في قوله : ((ومما يعاب من الشّعر الافتتاحات الثقيلة.)) (٤)، ويمثّل على هذه الظاهرة المذمومة بقصيدة أبي تمّام الّتي استهلها بقوله :

هُنّ عوادي يُوسُفَ وصواحِبُهُ ... فَمُزْماً فقدْماً أدْرَكَ الثّأرَ طالِبُهُ (٥)

---

(١) الوساطة، ص : ٤٨.
(٢) الصناعتين، ص : ٤٥١.
(٣) العمدة، ١/٢١٨.
(٤) أعلام الكلام، ص : ٣٩.
(٥) ديوان أبي تمّام، ١/٢١٦، والصناعتين، ص : ٤٥٤.

وبقصيدة ديك الجنّ التي بدأها بقوله :

كأنّها ما كأنّها خلل الخِـــــا ـــةِ وَقْفَ الهُلوكِ إذ بَغَتا (١)

ويشير إلى أنّ هذه البدايات تقود إلى التعقيد والغموض لأنّ أسلوبها غير واضح ، ومعناها غير بيّن ، وهذا واضح في قوله : ((فابتدأ هو وحبيب بمضمرات على غير مظهرات قبلها ، وهو رديء .)) (٢)

ويشترط ابن شرف في البداية الجيّدة أنْ تكون صادرة عن الذّوق المرهف ، بعيدة عما يوحي بالتشاؤم والتطيّر ، ملائمة للغرض الذي نظمت القصيدة من أجله ، وهذا ما عرف بمبدأ اللياقة عند العرب (٣) ، لذلك فليس من اللياقة في نظر ابن شرف أنْ يبدأ أبو نواس قصيدته التي رفعها إلى جعفر البرمكيّ مهنئاً ببناء بيت جديد بقوله :

أربَعَ اليلَى إنّ الخُشوعَ لبَـــادٍ عليك وإنّي لم أخُنْكِ وِدادِي (٤)

ذلك لأنّ أبا نواس في هذا المطلع ، قد خالف الغرض الذي نظم قصيدته من أجله ، وأوحى لممدوحه بما يشعر بالتشاؤم والتطيّر ، وفي هذا يقول ابن شرف : ((وتُعاب الافتتاحات المتطيّر بها والكلام المضاد للغرض ، كابتداء أبي نواس قصيدته التي أنشدها جعفر بن يحيى بن خالد البرمكيّ يهنئه ببناية الدّار الجديدة . . .)) (٥) .

ويسوق ابن شرف على هذه الظاهرة المذمومة أمثلة أخرى لشعراء سبقوه وعاصروه ، فيشير إلى أنّ المتنبي في قوله :

كَفَى بِكَ داءً أنْ تَرَى الموْتَ شافِيَـــاً وَحَسْبُ المنايا أنْ يكُنّ أمانيا (٦)

---

(١) ديوان ديك الجن ، ص : ١٨٧ .
(٢) أعلام الكلام ، ص : ٤٠ .
(٣) أنظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص : ٤٥ .
(٤) ديوان أبي نواس ، ص : ٢٢٠ .
(٥) أعلام الكلام ، ص : ٤٠ .
(٦) ديوان المتنبّي ، ٤/٢٨١ .

قد استفتح ببداية خشنة ، تنفر منها النّفس لما فيها من طَيَرَةٍ وتشاؤم ، وهذا واضح في قوله : ((. . . فهذا خطاب بالكاف يقبح ، ولاسيّما في أوّل القصيدة ، وفي ابتداء استعطاف ورد به .)) (١) ويؤكّد ابن شرف أنّ المتنبّي بمطلعه هذا قد خالف الأدب ، وخرج على مبدأ اللياقة عند ما استهلّ قصيدته بمثل هذا البيت ، ذلك لأنّه جعل ممدوحه داءً عظيماً ، فأدخل في نفسه التشاؤم ، والجفاء ، وهذا واضح في قوله : ((وقد تأدّب خواصّ النّاس وكثير من عوامهم في أمثال هذا المكان ، فهم يقولون عند مخاطبات بعضهم بعضاً بما يخشن ذِكْرُهُ ، قلت للأبعد كذا وكذا . . .)) (٢) .

هذا ولم يكن ابن شرف في نقده ليكتفي بالاشارة إلى مواطن الخطأ فيما يتصدّى له ، بل كان يحاول بما أوتي من ذوق شعريّ ونقديّ أنْ يرشد الشاعر إلى التعبير الصحيح ، والأسلوب الأفضل ، وهذا واضح في قوله : ((. . . واصلاح هذا الفساد ، وبلوغه إلى المراد أنْ يقول :

كَفَى بالمنايا أنْ يكنَّ أمانيا وَحَسْبُكَ داءً أنْ تَرَى الموتَ شافياً

فيعود الداء المستعظم كما أراد ، وتزول خشونة ابتداءه ، وشدّة جفائه ، إذ خاطب الممدوح بالكاف فجعله داءً عظيماً في أوّل كلمة سمعها منه .)) (٣) .

وأنّ أبا مقاتل لم يكن شاعراً حاذقاً حين استهلّ قصيدته بقوله :

لاتَقُلْ بُشْرَى ولكنْ بُشْرَيَانِ غُرّةُ الدّاعي وَيَوْمُ المَهْرَجَانِ (٤)

ذلك لأنّه بدأ قصيدته بما يشعر بالتشاؤم ، فأتى بمطلع قبيح تشمئزّ منه النّفس وفي هذا يقول ابن شرف : ((ولو كان هذا الشاعر حاذقاً ، لكان اصلاح هذا الفساد من أيسر الأشياء عليه ، وذلك بأنْ يعكس البيت فيقول :

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٤٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٤٣ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٤٣ .
(٤) الصناعتين ، ص : ٤٥٢ ، ويتيمة الدّهر ، ١/ ١٤٦ .

غرّة الدّاعي ويوم المهرجـــــان أيّ بشرى هي لابل بشريان .)) [1]

وفي هذا ما يدلّ على أنّ ناقدنا لم يكن يكتفي بالتحذير من الوقوع في الخطـــأ، واظهار القبح الذي وقع فيه بعض الشعراء في مطالعهم، إنّما كان يكشف لنا عنه، ويعمـــل على تصويبه، فكشف لنا بذلك عن نظر نقديّ، وذوق رفيع، وعن عين بصيرة بمواقع الكـــلام ومحاسنه.

هذا ومن الأمور القبيحة المستكرهة التي حذّر ابن شرف من الوقوع فيها، ودعـــا الشعراء الى تجنبها، وتبرئة مطالعهم منها الجفاء في النسيب، ويمثل على ذلك بقـــول أبي نواس، فيقول: ((وممّا يقبح الجفاء في النّسيب على الحبيب، والتضجّر ببعده، وغلظة العتاب على صدّه، كقول أبي نواس[2]:

أجارة بيتنا أبوكِ غيـــــــورُ وميسورُ ما يرجى لديك عسيْـــرُ
فإنْ كنتِ لا خلاًّ ولا أنْتِ زوجـــــةً فلابرحت منّا عليكِ سُتُـــــورُ
وجاورت قوماً لا تزاور بينهـــــم ولا قرب إلاّ أنْ يكون نُشُـــورُ.[3])) .

وينقده بقوله: ((فلم أسمع بأوحش من هذا النّسيب، ولا بأخشن من هـــــذا التشبيب، وذلك قوله: إنْ لم تكوني لي زوجة ولا صديقة، فلا برحت منا ستور التـــراب عليك، ولا كان جارك ماعشنا نحن إلاّ الموتى الذين لا يتزاورون، ولا يتواصلون إلى يـــوم النشور مع أن كلامه يشهد عليه بأنه شاك.)) [4]

ذلك لأنّ أبا نواس خالف الغرض الذي نظم من أجله قصيدته، كما خالف طبيعته وأدبه، وفي هذا يقول ابن شرف: ((وانّما المعروف في أهل الرّقة والظرف، والمعهـــود من أهل الوفاء والعطف ان يفدوا أحبابهم بالنفوس من كلّ مكروه وبؤس. فأين ذهبـــت ولادته البصريّة، وآدابه البغداديّة حتّى اختار الغدر على الوفاء؟ وبلغت به طباعـــه إلى أجفى الجفاء، فاعلم هذا وايّاك أنْ تعمل به.)) [5].

وهذا اعتبار يحسب للبيئة والثقافة حساباً كبيراً، ويرى أنّهما تلعبان دوراً كبيراً في صقل شخصيّة الأديب، وتؤثران فيها تأثيراً واضحاً.

وممّا تقدّم فإنّنا نستطيع أنْ نلمح معايير الجودة الّتي اشترطها ابن شـــرف

---

(١) أعلام الكلام، ص: ٤١.
(٢) ديوان أبي نواس، ص: ٣٢٧.
(٣) أعلام الكلام، ص: ٤١.
(٤) المصدر نفسه، ص: ٤١ - ٤٢.
(٥) المصدر نفسه، ص: ٤٢.

لقبول المطلع الجيّد ، فهو يريده أنْ يكون واضح المعنى ، بعيداً عن التعقيد والغموض ، ملائماً للغرض العام الّذي نظمت القصيدة من أجله ، صادراً عن ذوق مرهف فلا يوحي للمتلقّي أو القارئ بالتشاؤم والانقباض ، وهذه أُمور دعا إليها معظم النقاد العرب الّذين سبقوه وعاصروه (١) ، إلاّ أنّ ابن شرف ينفرد عنهم بهذه التدقيقات الّتي طالعنا بها ، وبهذا التحليل الدقيق كما رأينا .

هذا وإذا كانت بداية القصيدة بمثابة مفتاح لها فإنّ خاتمتها هي قفلها ، وفي هذا يقول ابن رشيق : ((وأمّا الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع ، وسبيله أنْ يكون مُحْكَماً لاتُمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أوّل الشّعر مفتاحاً له وجبَّ أنْ يكون الآخر قفلاً عليه . (٢))) ، ويقول : ((. . . وخاتمة الكلام أبقى في السمع ، وألصق بالنفس ، لقرب العهد بها ، فإنْ حَسُنَتْ حَسُنَ ، وإنْ قَبُحَتْ قَبُحَ ، والأعمال بخواتيمها ، كما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلّم — .)) (٣) .

ومن أجل هذا فقد اشترط ابن شرف على الشاعر أنْ يقيم توازناً وتلاؤماً بين خاتمة قصيدته وموضوعها الّذي نظمت من أجله ، فيبعدها عن كلّ ما يشعر بالتشاؤم والحزن في مواطن الفرح والتهنئة ، وعن كلّ ما يوحي للمتلقّي بالانقباض والتطيّر ، ولذلك فقد جُهِلَ أبو نواس وأخطأ

---

(١) أنظر : الشّعر والشعراء ، ١/ ٧٤ — ٧٥ ، ٥٢٢ — ٥٢٣ ، عيار الشعر ، ص : ٢٧ ، ١١١-١١٩ ، الموازنة ، ١/ ٤٠٦ ، الرسالة الحاتمية ، ص : ٦٦ — ٦٩ ، الوساطة ، ص : ١٥٢ — ١٦٠ ، الصناعتين ، ص : ٤٥١ - ٤٥٧ ، واليتيمة ، ١/ ١٤٥-١٤٧ ، ص : ١٧٤ — ١٧٦ ، العمدة ، ١/ ٢١٧ — ٢٤١ .

(٢) العمدة ، ١/ ٢٣٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ١/ ٢١٧ .

في نظر ابن شرف عندما أنهى قصيدته التي رفعها مهنئاً بقوله (١) :

سَلامٌ على الدُّنيا إذا ما فُقِدْتُمُ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رائحينَ وَغادِ (٢)

وذلك لأنه بهذه الخاتمة قد خالف الغرض الذي نظم قصيدته من أجله ، فأتى بما يوحي بالتطيّر والاشمئزاز ، وفي هذا يقول ابن شرف : ((فكمّل جَهْلَهُ ، وتمّم خطأه ، وزاد القلوب ، المتوقعة للخطوب سرعة توقّع ، وأضاف للنفوس المتوجّعة بذكر الموت شدّة توجّع ، وأراد أنْ يمدح فهجا ، ودخل أنْ يسرّ فشجى .)) (٣) .

مقاييسه في نقد الشّعر :

مقياس اللّغة والنّحو :

لقد اشترط ابن شرف في الشّعر الجيد أنْ يكون مطابقاً لمقاييس اللّغة والنّحو ، ولما هو شائع مألوف من قواعدهما ، ومن أجل ذلك فقد تشدد في محاسبة الشعراء ، ورفض أنْ يخالفوا في أشعارهم قواعد اللّغة ، ويخرجوا عليها ، ونظر إلى الألفاظ الملحونة التي تقع في الشّعر على أنّها من العيوب المذمومة التي تحطّ من قيمته ، وتقلل من شأنه ، وهذا واضح في قوله : ((. . . ومن عيوب الشّعر اللّحن (٤) الذي لا تسمعه فصحاء العربيّة .)) (٥) .

وفي هذا ما يدّل على أنّ ابن شرف كان يحرص حرصاً كبيراً على مراعاة العرف اللغويّ في الشّعر ، ويدعو الشعراء إلى السّموّ بأشعارهم عن كُلّ

---

(١) ديوان أبي نواس ، ص : ٢٢٠ .
(٢) أعلام الكلام ، ص : ٤٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٤٠ .
(٤) اللحن بتسكين الحاء ، الخطأ في الإعراب ، أُنظر اللّسان ، ١٣ / ٣٧٩ — ٣٨١ .
(٥) أعلام الكلام ، ص : ٣٧ .

ما يعيبها ، ولذلك فقد أخذ على جرير قوله (١) :

وَلَوْ وُلِدَتْ لِعَبْدَةَ جَرْوَ كَلْبٍ لَسُبَّ بِذَلِكَ الجَرْوُ الكِلَابَا (٢)

وذلك لأنه خالف مقاييس اللّغة والنّحو ، فنصب ما حقّه أنْ يرفع ، وهذا مخالف لما هو شائع ومألوف من قواعد اللّغة .

كما أخذ على الفرزدق قوله (٣) :

وعضّ زمانٌ يا ابنَ مروانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ المالِ إلّا مُسْحَتاً أوْ مُجَلِّفُ (٤)

وأشار إلي أنّ المتعصبين له من النّحويين واللّغويين حاولوا أنْ يلتمسوا له العذر ، وأنْ يبرّروا له هذا الخطأ على أنّه إقواء ، وحذّر الشعراء من الانزلاق في مثل هذه المواطن المستقبحة الّتي لاتليق بهم ، وإنْ تحيل لهم النحويّون بشتى العلل والمبررات ، فقال معقباً على قول الفرزدق : ((فرفع مجلفاً وحقّه النصب . وقد تحيّل بعض النّحويين للفرزدق على وجه الإقواء أحسن منه ، فاحذر مثله ، واياك وما يُعْتَذَرُ منه بفسيح من العُذْر فكيف بضيق .)) (٥) .

وابن شرف في نظرته هذه إلى اللّحن يجري على ماجرى عليه النقاد العرب من قبل ، فهذا قدامة ابن جعفر يقول : ((. . . ومن عيوب اللّفظ أنْ يكون ملحوناً وجارياً على غير سبيل الإعراب واللّغة (٦) .)).

التلاؤم بين الألفاظ :

لقد جعل النقاد العرب تآخي الالفاظ وانسجامها في التراكيب شرطاً لجودة العبارة وفصاحتها ، وحثّوا الشاعر على اقامة التجانس والانسجام بين الفاظه ، فلا يأتي في تركيبه اللغوي بلفظة لاتتفق والالفاظ الاخرى

---

(١) خزانة الأدب ، ١/١٦٣ .
(٢) أعلام الكلام ، ص : ٣٧ .
(٣) ديوان الفرزدق ، ٢/٢٦ .
(٤) أعلام الكلام ، ص : ٣٧ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٣٧ - ٣٨ .
(٦) نقد الشّعر ، ص : ١٦٦ ، وأنظر : الموشّح ، ص : ٣١٧ .

التي يتضمنها في معناها ، ولا تتناسب مع الألفاظ التي ترافقها في السياق ، وفي هذا يقول العسكري : ((وحُسْنُ الرّصف أنْ تُوضَع الألفاظ في مواضعها ، وتُمكّن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة إلاّ حذفاً لا يفسد الكلام ، ولا يعمّى المعنى ، وتضمّ كلّ لفظة منها إلى شكلها ، وتضاف إلى لُفْقِها .)) (١)

ومن أجل هذا فقد نظر ابن شرف إلى اللّفظة التي لا تنسجم مع ما قبلها وما بعدها ، والتي لا تتلاءم مع غيرها من الألفاظ المرافقة لها في التركيب على أنّها لفظة ثقيلة مستكرهة ، وجعل ذلك من العيوب المذمومة التي تقع في الشّعر ، وهذا واضح في قوله : ((... ومن عيوبه المذمومة مجاورة الكلمة ما لا يناسبها ولا يقارنها . (٢))).

ويسوق لنا أمثلة على عدم توفيق الشعراء في وضع الكلمة المناسبة في مكانها الذي يليق بها ، ويلائمها ، فيورد قول الكميت بن زيد الذي يقول فيه (٣) :

وَقَدْ رَأَيْنَا بِهَا حُوراً مُنَعَّمَةً بِيضاً تكامَلَ فِيها الدَّلُّ والشَّنَبُ (٤)

فالكميت في هذا البيت لم يوفّق في استعمال اللّفظة المناسبة عندما جاور ما بين لفظة ((الدّلّ)) ، ولفظة ((الشّنب)) ؛ لأنّهما لفظتان غير متقاربتين ، ولا متناسبتين في معناهما . وقول الشاعر الذي يقول فيه :

فإنّكَ غُيِّبْتَ في حُفْرَةٍ تراكمَ فيها نَعيمٌ وحُورُ (٥)

ويعقّب عليه بقوله : ((وإنْ كان النّعيم والحور مِنْ مواهب أهل الجنة ، فليس بينهما في النفوس تقارب ، ولا لفظة تراكم ممّا تجمع بين الحور والنّعيم .)) (٦) .

---

(١) الصناعتين ، ص : ١٦٧ .
(٢) اعلام الكلام ، ص : ٣٨ .
(٣) ديوان الكميت ، ١ / ٩٣ .
(٤) أعلام الكلام ، ص : ٣٨ .
(٥) المصدر نفسه ، ص : ٣٩ .
(٦) المصدر نفسه ، ص : ٣٩ .

وقول الشاعر :

وَاللّهِ لَوْلا أَنْ يُقالَ تَغَيُّـــــرا وَصَبا وإنْ كان التَّصابي أجْدَرا
لأعادَ تفّاحَ الخُدودِ بَنَفْسَجـــاً لَثْماً وكافُورَ التَّرائِبِ عَنْبَـــرا

وذلك لانه لم يكن موفّقاً في مجاورته بين لفظتي ((التّفّاح)) و ((البنفسج)) ، لأنّهما غير متقاربتين ولا منسجمتين ، ولكنّه كان موفّقاً ومصيباً عندما جاور بيـــن لفظة ((الكافور)) ، ولفظة ((العَنْبَر)) ، وهذا واضح في قوله : ((فالتّفّاح ليس من جنس البنفسج ، لأنّ التّفّاح ثمرة والبنفسج زهرة ، وقد أجاد في جمعـــه بين الكافور والعَنْبَر ، لأنّهما من قبيل واحد .)) (١) .

هذا ومن الجدير بالاشارة هنا أنّ ابن شرف لم يكن ليكتفي باظهـــار العيب أو الخطأ فيما يتعرّض له بالنقد ، أو فيما يتوافر له الاطلاع عليـــه ، إنّما كان يحاول أنْ يدل الشاعر على التعبير السّليم الّذي يجب أنْ يجـــري عليه الاستعمال ، ليضع أمامه ما هو أرفع وأحسن ، وليرشده إلى الصياغـــة الصحيحة ، فيستقيم بذلك المعنى الّذي يريد أنْ يعبّر عنه ، وهذا واضـــح في قوله : ((... ولو قال :

لأعادَ وَرْدَ الوَجْنَتَيْنِ بَنَفْسَجـــاً لَثْماً وكافُورَ التَّرائِبِ عَنْبَـــرا

لاجاد الوصف ، وأحسن الرصف ، لكون الورد من قبيل البنفسج ، فهـــذا النوع فافتقد ، وهذا الشرع فاعتمد .)) (٢) .

وفي هذا ما يكشف لنا عن ثقافة واسعة ، وسعة اطلاع على دواويـــن الشّعر العربيّ ، وكتب النّقد والبلاغة ، وعن بصر ودقّة فيما يتعرّض له بالنقـــد والتحليل ، مثلما يكشف لنا عن ذوق مرهف ، وأذن موسيقية تأبى النشاز وترفضه .

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٣٩ .

السهـــــــولـــة :

ومن مقاييس الجودة في الشّعر عند ابن شرف أن تكون الفاظه متآلفة الحروف ، سهلة الجري على اللّسان ، عذبة الوقع في السّمع . ومن أجل هذا فقد نظـــر إلى اللّفظة الّتي يثقل لفظها ، وتتنافر حروفها على أنّها لفظة ثقيلة ، ينفـــر منها السمع ، ويستهجنها النقد ، لما تحدثه من اضطراب ونشاز في أذن المتلقّي ، وإنْ وردت هذه اللّفظة في قصيدة جزلة ، وبيت جميل ، لذلك فقد حكـــم على قصيدة لجرير تُعَدّ من عيون شِعْرِهِ وأفصحه بالثّقل ، لوجود لفظة ((بُوْزَع)) في أحد أبياتها ، وهذا واضح في قوله : ((وممّا يعاب به الشّعر ويستهجنـــه النقد خشونة حروف الكلمة كقول جرير [1] :

وتقولُ بُوْزَعُ قد دَبَبْتَ على العَصَـــا ... هلّا هزِئتَ بِغَيْرِنا يابُوْزَعُ [2])).

ويعقّب على هذا البيت فيقول : ((وهذا بيت في قصيده من أجلـــى قصائد جرير ، وأملحها ، وأجزلها ، وأفصحها ، فثقلت القصيدة كلّهـــا بهذه اللّفظة ، ولا تكاد ترى أختا لها في شعره .)) [3] .

وهذه نظرة جزئية للعمل الأدبي تقوم على النظر إلى البيت الشّعـــريّ في القصيدة على أنّه قائم بذاته ، مستقل عن غيره في معناه ، وإلى اللّفظـــة في البيت على أنّها منفصلة عن مثيلاتها فيه .

ومهما يكن من أمر فإنّ قضية السهولة هذه من المقاييس النقديّـــة الّتي شُغِلَ بها النقّاد العرب — على اختلاف عصورهم — فقد جعلوا سهولـــة مخارج الكلمة ، وعدم تنافرها شَرْطاً لجودتها ، وهذا ما أكّده الجاحظ حيـــث يقول : ((أجود الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلـــك أنّه أفرغ افراغاً واحداً ، وسبك سبْكاً واحداً ، فهو يجري على اللّسان كما يجـــري الدّهان .)) [4] .

---

(١) ديوان جرير ، ٢ / ٩١٠ . (٢) أعلام الكلام ، ص : ٣٨ .
(٣) المصدر نفسه : ص ٣٨ .
(٤) البيان والتبيين ، ١ / ٦٧ ، وانظر : العمدة ، ١ / ٢٥٧ ، وسر الفصاحة ، ص : ٦٥ - ٧٢ ، والصناعتين ، ص : ١٤٧ .

البعد عن التعقيد :

لقد اشترط النّقاد العرب في العبارة الجيّدة أنْ تكون ذات دلالة واضحة على معناها ، وجعلوا ذلك من أهمّ شروط التأثير والبلاغة ، ليصل إلى قلب المتلقّي بسهولة ، ويحدث فيه الغاية المنشودة ، ونظروا إلى العبارة المعقّدة على أنّها عبارة رديئة تحطّ من قيمة الشّعر ، وتقلل من شأنه ، وفي هذا يقول بشر بن المعتمر : ((... وإيّاك والتّوعّر ، فإنّ التّوعّر يُسْلِمُكَ إلى التعقيد ، والتعقيد هو الّذي يستهلك معانيك ويشيّن الفاظك .)) (١) ، ويقول الثعالبيّ : ((... إنّ مثل هذا الكلام إذا قرع السمع ، لم يصل إلى القلب إلاّ بعد اتعاب الفكر ، وكدّ الخاطر ، والحَمْل على القريحة ، وإنْ ظُفِرَ بعد العناء والمشقّة . فقلّما يحصل على طائل .)) (٢) .

لذلك فقد نظر ابن شرف إلى التعقيد على أنّه من الأمور المستكرهة المذمومة الّتي تقع في الشّعر وينفر منها النّقاد ، لانه يقود إلى طمس المعنى ويتعب المتلقّي ، ويستهلك وقته وجهده مِنْ غير طائل (٣) .

ويشير ابن شرف إلى أنّ التعقيد في الشّعر يتأتّى عندما يخلّ الشاعر بترتيب ألفاظه ، ويتلاعب بها ، فيقدّم ما حقّه التأخير ، ويؤخّر ما حقّه التقديم ، ويستعمل اللّفظة في غير معناها الدّقيق ، فيؤدي به ذلك إلى استخدام أبعد الطرق للتعبير عمّا في نفسه ، ويقوده إلى التعقيد . ومن أجل هذا فقد أخذ على الفرزدق قوله (٤) في مدح إبراهيم بن هشام المخزوميّ ، خال هشام بن عبد الملك :

وما مِثْله في النّاس إلاّ مُمَلَّكاً ... أبو أُمّه حيٌّ أبوه يقاربُهْ

---

(١) البيان والتبيين ، ١/١٣٥ — ١٣٦ ، والعمدة ، ١/٢١٣ .
(٢) يتيمة الدّهر ، ١/١٥٤ .
(٣) أنظر : أعلام الكلام ، ص : ٣٨ ، وص : ٤٥ .
(٤) الموشّح ، ص : ٩٤ .

وعد هذا القول من الاقوال المستكرهة المذمومة ، وجعله غاية في التعقيد والتنكيد ، وهذا واضح في قوله : ((ويكره النقاد تعقيد الكلام في الشّعر ، وتقديم آخره وتأخير أوّله ، وهذا غاية في التعقيد والتنكيد .)) (١) .

وذلك لأنّ الفرزدق يريد أنْ يقول : ((إنّ إبراهيم بن هشام ما مثله في النّاس حيّ إلاّ ملّك ، يعني هشاماً أبو أمّه أي جد هشام لأمّه ، أبو إبراهيم هذا الممدوح ، فهو خاله أخو أمّه ، فهو يشبهه في الناس لاغير .)) (٢) .

وأخذ على المتنبي ميله إلى التعقيد في شعره ، وفي هذا يقول : ((. . . وكان يميل إلى تعقيد الكلام ، ويعتمده على علمه بقبحه ، ومن ذلك قوله (٣) يصف ناقته :

فتبيت تُشْئِدُ مُسْنَداً في نِيِّهَا ... إسآدَها في المَهْمَهِ الانْضَاءُ

وقوله (٤) :

أَنّى يكونُ أبا البَرِيّةِ آدمٌ ... وأبوك والثّقلانِ أنتَ مُحَمَّدُ

وقوله (٥) :

كأنّكَ ما جَاوَزْتَ مَنْ بانَ جُودُهُ ... عَلِيّاً وَلا قاتَلْتَ مَنْ لَمْ تقاوِمِ (٦))) .

ويعقّب على هذه الابيات ، فيقول : ((وهذه الأجناس من أبيات وإن ظهرت معانيها بعد استقصاء ، وأطاعت غوامضها بعد استعصاء ، فهي مذمومة السّلك ، وإنْ اطلعت منها على أجزل الإفادة فكيف إذا حصلت منها على السلامة بلا زيادة .)) (٧) .

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٣٨ .
(٢) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .
(٣) ديوان المتنبي ، ١/١٧ .
(٤) المصدر نفسه ، ٣/٣٤٠ .
(٥) المصدر نفسه ، ٤/١١٧ .
(٦) اعلام الكلام ، ص : ٤٤ — ٤٥ .
(٧) المصدر نفسه ، ص : ٤٥ .

ومما تقدم فإننا نستطيع أن نلاحظ أن ابن شرف قد جعل الدقة في اختيار الألفاظ، وبعدها عن التعقيد والغموض مقياساً هاماً من مقاييس الجودة في الشعر، ودعا الشعراء إلى الابانة والوضوح في شعرهم، وحثهم على تجنب التعقيد والالتواء، وهو بهذا يجري على الاتجاه العام الذي جرى عليه النقاد العرب[1] الذين سبقوه وعاصروه في هذه القضية.

تجنب القوافي المعجمة :

لقد عُنِيَ النقاد العرب بالحديث عن القافية في الشعر لأنها آخر ما يطرق السمع من البيت، ونظروا إليها على أنها من أخص ميزات الشعر، وفي هذا يقول ابن رشيق : ((القافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية.)) [2]

ومن أجل ذلك فقد تحدث النقاد عن شروط جودتها، فاشترطوا فيها أن تكون غير مستكرهة ولا مستكرهة، متمكنة في مكانها من البيت، ترتبط بما قبلها ارتباطاً وثيقاً، لتحقق المعنى الذي استعملت من أجله، وهذا واضح في قول قدامة بن جعفر : ((ومن عيوب الشعر أن تكون القافية مستدعاة قد تكلف في طلبها، فاشتغل معنى سائر البيت بها. [3])).

ولذلك فقد نظر ابن شرف إلى القافية التي لا توافق ما يتصل بها، والتي يؤتى بها لتكون قافية فحسب لا لتخدم المعنى الذي قُصِدَ إليه، على

---

(١) أنظر : عيار الشعر، ص : ٤٣، الموشح، ص : ٩٤، الصناعتين، ص : ١٦٨، يتيمة الدهر، ١/١٥٤، الموازنة، ١/٢٨٠، العمدة، ٢/٢٦٧، سر الفصاحة، ص : ١٢٥.

(٢) العمدة، ١/١٥١.

(٣) نقد الشعر، ص : ٢٥٤، وأنظر : الموشح، ص : ٢١٤، الصناعتين، ص : ٤٧٢.

أنّها قافية معيبة مستكرهة ينفر منها النّقاد ، وهذا واضح في قوله : ((ويقبح جدّاً الاتيان بكلمة القافية معجمة ، لاترتبط بما قبلها من الكلام ، وإنّما هي مفردة بحشو القافية ، كقول بعضهم[1] :

وَوُقِيَتْ الحُتُوفَ مِنْ وَارِثٍ وَا لٍ وأَبْقَاكَ صَالِحاً رَبُّ هُودِ[2])) .

ويشير ابن شرف إلى أنّ هذا النوع من القوافي القبيحة الغثّة ، يدلّ دلالة واضحة على عجز الشاعر ، وعلى عدم مقدرته الفنية على استجلاب القافية المناسبة الّتي يتطلبها البيت ، ويقتضيها المعنى ، فيقول : ((فأنت ترى غثاثة هذه القافية ، والله — تعالى — ربّ جميع الخلق وكلّ شيء ، فخصّ هوداً — عليه السلام — وحده ، لضعف نقده ، وعجزه عن الاتيان بقافية تلين وتحسن .))[3] .

وابن شرف في موقفه هذا من القافية المعجمة المعيبة يذكّرنا بموقف قدامة بن جعفر منها ، حيث يقول : ((... ومن عيوب هذا الجنس أن يؤتى بالقافية لتكون نظيرة لأخواتها في السّجع لا لأنّ لها فائدة في معنى البيت ، كما قال أبو عدّيّ القرشيّ :

وَوُقِيَتْ الحُتُوفَ مِنْ وَارِثٍ وَا لٍ وأَبْقَاكَ صالحاً رَبُّ هود

فليس نسبة هذا الشّاعر الله — عزّ وجلّ — إلى أنّه ربّ هود بأجود من نسبته إلى أنّه ربّ نوح ، ولكنّ القافية كانت دالية ، فأتى بذلك للسجع لا لافادة معنى بما أتى به منه .))[4] .

وعلى أية حال فإنّ حديث ابن شرف عن هذه القضية قد كشف لنا عن تفهم لأهمية القافية ودورها في الشّعر ، وعن ذوق أدبيّ رفيع .

---

(١) وهو : أبو زيد القرشي . انظر : ترجمته في : نقد الشعر ، ص : ٢٥٦ ، الموشح ، ص : ٢١٤ ، والصناعتين ، ص : ٤٧٢ .

(٢) اعلام الكلام ، ص : ٤١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص : ٤١ .

(٤) نقد الشّعر ، ص : ٢٥٥ - ٢٥٦ ، وانظر : الموشّح ، ص : ٢١٤ ، والصّناعتين ، ص : ٤٧٢ .

هذا ومن مقاييس الجودة في الشّعر عند ابن شرف أنْ يكون سليماً من عيوب الوزن والقافية ، بعيداً عن الكسر (١) ، ذلك لأنّ الكسر من العيوب الّتي تُهجّن الشّعر ، وتخرجه عن طبيعته ورونقه ، ولذلك فقد رفض ابن شرف الشّعر الّذي يقع فيه الكسر ، واعتبر الشاعر الّذي يقع فيه ليس شاعراً ، ولا يحقّ له أنْ يُسمّى في عداد الشّعراء ، وهذا واضح في قوله : ((ومن عيوب الشّعر كلّها الكسر ، لأنه يخرجه عن نعته شِعْراً ، وليس ممّا يقع لمن نُعِتَ شاعر .)) (٢) .

وأمّا بقية عيوب الشّعر الأُخرى الّتي تتصل بالوزن والقافية من مثل الإقواء ، والإيطاء ، والسّناد ، والإكفاء ، وصرف ما لا ينصرف من الأسماء ، والزّحاف ، فهذه كلّها أُمور محتملة ويمكن للشّاعر أن يستخدمها في شِعْره إلاّ أنّ عدم وجودها في الشّعر يجعله مفضلاً وجميلاً ، وفي هذا يقول : ((. . . فأمّا الإقواء ، والإيطاء ، والسّناد ، والإكفاء ، والزّحاف ، وصرف ما لا ينصرف ، فكلّ ذلك يستعمل إلاّ أنّ السالم من جميع ذلك أفضل وأجمل . (٣))) .

ويبدو لي أنّ ناقدنا قد اكتفى بذكر هذه العيوب ولم يفصّل القول فيها ، لأنّها كانت مألوفة في عصره ومعروفة ، ولأنّها كانت متداولة ومفصّلة في معظم كتب النقد الّتي سبقته وعاصرته (٤) ، فاكتفى بالإشارة إليها ، وحذّر من استعمالها .

وحديث ابن شرف عن هذه الظاهرة يكشف لنا عن أُذن موسيقيّة حسّاسة

---

(١) الكسر في اللّغة هو عدم إقامة الوزن ، وفي هذا يقول ابن منظور : ((. . . وكسر الشّعر يكسره كسراً فانكسر لم يقم وزنه)) . اللّسان ، ٥ / ١٣٩ . وهذا ما عرف عند النقاد العرب بـ ((التخليع)) . أُنظر : نقد الشعر ، ص : ٢٠٦ ، الموشّح ، ص : ٧٤ .

(٢) أعلام الكلام ، ص : ٣٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص : ٣٨ .

(٤) أُنظر : الشّعر والشعراء ، ١ / ٩٥ - ٩٧ ، نقد الشّعر ، ص : ٢١٠-٢١٣ ، الموشّح ، ص : ١٣ - ٢٥ ، العمدة ، ١ / ١٦٤-١٧٠ .

مرهفة لاتقبل النشاز والاضطراب في الشّعر مهما كان بسيطاً ، مثلما تكشف لنا عن تشدد ومحافظة على ماورث عن العرب من أوزان شعريّة .

نقده التطبيقي :

لم يكن ابن شرف ناقداً نظرياً فحسب يكتفي بعرض المصطلحات والتعريفات النقدية ، إنّما كان ناقداً تطبيقياً يكثر من عرض الأمثلة والنماذج الشّعريّة ، ويأتي بالأدلة والحجج ليدعم ما يأتي به من فرضيات وبراهين . ومن أجل ذلك فقد أتى نقده النظريّ نزيراً إذا ما قورن بنقده التطبيقيّ الذي بثّه في تضاعيف مقالته النقديّة التي وصلتنا .

ويكفينا للتدليل على ماذهبنا إليه أنْ نتوقّف عند بعض النماذج النقديّة التطبيقية التي تصدّى لها ابن شرف في نقده من مثل : نقده لامرئ القيس، ونقده لزهير بن أبي سلمى ، واستحسانه لبعض الأبيات الشّعريّة .

نقده لامرئ القيس :

إذا كان معاصرنا قدنا وقرينه ابن رشيق قد قدّم امرأ القيس ، وجعله مثلاً أعلى للشعراء الذين جاءوا بعده في التّوليد والابتكار ، وجعله رائداً لهم في السّبق إلى المعاني الجديدة (١) ، فإنّ ناقدنا قد اتخذ منه هدفاً لسهام نقده ، ومثالاً للكشف عن عيوب الشّعر والشعراء ، وطفق ينعى عليه بعض الهنات والسّقطات التي وقع فيها ، وحاكمه محاكمة أخلاقية على بعض أقواله وأشعاره التي وردت في معلقته الشهيرة التي تعدّ من أعظم آثاره الشعريّة التي وصلتنا ، ومن ذلك قوله : ((يقول امرؤ القيس في قصيدته المقدّمة ، ومعلّقته المفخّمة (٢) :

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ فَقَالَتْ لَكَ الوَيْلاتُ إنّاكَ مُرْجِلي))(٣)

---

(١) أنظر : العمدة ، ١ / ٩٤ — ١٠٢ ، قراضة الذّهب ، ص : ١٥—١٧ .
(٢) ديوان امرئ القيس ، ص : ١١ ، وشرح المعلقات السبع ، ص : ١٤ .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ٢٨—٢٩ .

ويتوقّف ابن شرف عند هذا البيت وقفة الناقد والمدقق البصير الذي يُعْنَى بصغائر الأشياء ودقائق الأمور، ويأخذ عليه تصريحه بهذه الأمور التي لا تتناسب ومستواه، ولا تليق بمكانته، فهو ملك والملك ينبغي أنْ يترفّع عن ذكر هذه الأمور السوقيّة المعيبة، وهذا واضح في قوله: ((فما كان أغناه عن الاقرار بهذا، وما أشد غفلته عمّا أدركه من الوصمة به، وذلك أنّ فيه أعداداً كثيرة من النَّقْصِ والبَخْسِ، مِنْها: دخوله متطفلاً على مَنْ كره دخوله عليه، ومنها قول عنيزة له: ((لك الويلات))، وهي قولة لا تقال إلاّ للخسيس، ولا يقابل بها رئيس.)) (١).

ويستمر ابن شرف في نقده لهذا البيت مشيراً إلى أنّ المرأة التي يتغزّل بها امرؤ القيس كانت فقيرة، وأنّها ليست من مستواه الاجتماعي، فيقول: ((فإنْ احتجّ محتجّ بأنّها كانت أرأس منه، قيل له: لم يكن ذلك، لأنّ الرئيسة لا تركب بعيراً يموت إذا زاد عليه ركوب راكب ساعة، بل هذا بعير فقيرة حقيرة.)) (٢).

هذا ويشير إلى أنّه لم يكن عاشقاً محبّاً للمرأة التي يتغزّل بها حين يقول(٣):

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعاً فألهيْتُها عَنْ ذِي تَمائِمَ مُحْوَلِ (٤)

ذلك لأنّها كانت امرأة رجل غيره، والعاشق المخلص يأبى أنْ يُشارَكَ في حبّه ومشاعره، وهذا واضح في قوله: ((... وإنّما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقه، واطراح سواه، كالتعسين في ليلى ولبنى، وغيلان (٥) بميّة،

---

(١) أعلام الكلام، ص: ٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٢٩.

(٣) ديوان امرئ القيس، ص: ١٢. (٤) أعلام الكلام، ص: ٢٩.

(٥) وهو: غيلان بن عقبة بن بهيش، يكنى أبا الحرث، وهو من بني مصعب ابن طلحان بن عدي بن عبد مناة المعروف بذي الرّمة. أنظر: الشّعر والشعراء، ١/٥٢٤، الموشّح، ص: ١٥٥ — ١٦٨.

وجميل (١) بثينة ، وسواهم كثير . فلم يكن لها عاشقاً ، بل كان فاسقاً ، ثُمَّ أهجَنُ هُجْنة عليه ، وأسخن سخنة لعينيه ، اقراره بإتيان الحُبلى والمرضع ، فأمّا الحُبلى فقد جَبَل اللّه النفوس على الزهد في اتيانها والاعراض عن شأنها لوجوه منها : أنّ الحبل علة أشبه العلل بالاستسقاء ، ومع الحبل كمود اللون ، وسوء الغذاء ، وفساد النكهة ، وسوء الخلق ، وغير ذلك ، ولا يميل إلى هذا إلاّ مَنْ له نفس سوقيّ ، دع نفس ملوكي ، وأعجب من هذا أنّ البهائم كلّها لا تنظر إلى ذوات الحمل مِنْ أجناسها ، ولا تقرب منها حتّى تضع أحمالها ، وتفارق فُصْلانها ، ثُمَّ لم يكفه أنْ ذكر الحُبلى حتى افتخر بالمرضع وفيها من التلويث بأوضار رضيعها ، ومن اهتزالها ، واشتغالها عن أحكام اغتسالها ، وقد أخبر أنّ التمائم المحول متعلّق به ، وأخبر أنّها ظئر ولدها ، لا ظئر له ، ولا مرضع سواها ، فدلّ بذلك على أنّها حقيرة فقيرة ، ومثل هذه لا يصبو إليها مَنْ لَهُ همّة ، وهذه الصّفات كلّها تستقذرها نفس الملوك والملوك ، فكيف أنفس المُلُوك؟ !)) (٢) .

وكأنّي بابن شرف يريد أنْ يقول : إنّ الشّعر يجب أنْ يدلّ على شخصية صاحبه ، ويعبّر عن نفسيته ، ولما كان امرؤ القيس مَلِكاً ، فلا بدّ أنْ تكون له نفسية ترفعه عن الهبوط إلى مستوى العامّة ، والتلفّظ بألفاظها ، وقد عُرِفَتْ هذه النظرة بـ ((قاعدة الاستواء النفسيّ)) عند النقاد العرب(٣) .

ومهما يكن من أمر فإنّ موقف ابن شرف الأخلاقي الّذي وقفه مِن امرئ القيس في هذه الأبيات يذكّرنا بموقف الباقلانيّ مِنْه من قبل (٤) ، فكلاهما يعتمد

---

(١) وهو : جميل بن عبد اللّه بن معمر ، ويكنى أبا عمرو ، وهو أحد عشّاق العرب المشهورين بذلك ، وصاحبته بثينة . أنظر : الشّعر والشعراء ، ١ / ٤٣٤ ، الموشّح ، ص : ١٨٠ — ١٨٢ .

(٢) أعلام الكلام ، ص : ٢٩ — ٣٠ . (٣) أنظر : الموشّح ، ص : ٢٥ ، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص : ٤٨ .

(٤) أنظر : إعجاز القرآن ، ص : ٢٥٣ — ٢٥٤ ، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب ص : ٤٦٥ .

على النظرة الأخلاقيّة في نقده ، ولكنّه مع ذلك كشف لنا عن ثقافة واسعة ، وعن معرفة دقيقة بأحوال الناس وعاداتهم ونفسياتهم ، مثلما كشف لنا عن معرفة بأحوال الحيوانات وطبائعها .

نقده لزهير بن أبي سلمى :

ومن الأمثلة النقديّة التطبيقية الّتي تصدّى لها ابن شرف في نقده ، وتوقّف عندها بالنقد الدّقيق المعلل معلقة زهير بن أبي سلمى ، فقد توقّف عند بعض الأقوال الّتي وردت فيها وحاكمها محاكمة منطقية دقيقة كشفت لنا عن نفاذ بصر وتعمق فيما يتعرّض له ، ومن ذلك قوله : ((. . . وقال زهير في مذهّبته (١) :

وَمَنْ لا يَذُدْ عَنْ حَوْزِهِ بِسلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِم النّاسَ يُظْلَمِ (٢)

فأخذ عليه قوله : ((ومن لا يظلم النّاس يظلم)) ، وأشار إلى أنّه أسرف وتجاوز حدود العدل والحق بقوله هذا ، لأنّه حرّض على الظّلم ، وهذا واضح في قوله : ((وقد تجاوز في هذا الحقّ الباطل ، وبنى قولاً ينقصه جريان العادة ، وشهادة المشاهدة ، وذلك أنّ الظّلم وعثرة مراكبه ، مذمومة عواقبه في جاهليته واسلامنا ، فحرّض في شعره عليه ، وإن كان إنّما أشار إلى أنّ الظالم يُرْهَبُ فلا يظلم . فهذا قياس ينفسد ، وأصل ليس يطرد لأنّ الظالم يُرْهبه من هو أضعف منه ، وربّما انتقم منه بالحيلة والمكيدة ، وقد يظلم الظالم من يغلبه فيكون بذلك سبب هلاكه ، مع قباحة السّمة بالظّلم ، والمثل إنّما يضرب بما لا ينخرم . (٣))) .

ويحاول ابن شرف بذوقه النقديّ والشّعريّ أنْ يتدخّل في اصلاح هذا الخلل الّذي وقع فيه زهير ، وأنْ يرشده إلى التّعبير الصّحيح ، والأسلوب

---

(١) شرح ديوان زهير ، ص : ٣٠ ، شرح المعلقات السبع ، ص : ١٢١ .
(٢) أعلام الكلام ، ص : ٣٤ . (٣) المصدر نفسه ، ص : ٣٤ .

الأفضل ، فيقول : ((وقد كانت له مندوحة واتساع في أنْ يقول : يُهَدَّم ومن لا يدفع الظُّلْمَ يُظْلَم .)) (١)

ويتوقّف ابن شرف في نقده لزهير عند قول آخر عدة قدامة بن جعفر نموذجاً من نماذج المدح الموفّق (٢) ، فيخالف قدامة فيما ذهب إليه مشيراً إلى أنّ زهيراً في قوله هذا لم يُصِب الغرض الّذي قصده ، ولم يهتد إلى التعبير السليم ، فخالف بذلك الهدف الّذي رمى إليه ، وهذا واضح في قوله : ((. . . وقال زهير يمدح سادة من النّاس، تذفهم بأنواع الذّم، وأكثر النّاس على استحسان ما قال ، بل أظنّ كلّهم على ذلك ، وهو قوله (٣) :

على مُكْثِرِيهِم حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وَعِنْدَ المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ والبَذْلُ (٤)

وينقده بقوله : ((فأوّل ما ذمّهم به إخباره أنّ فيهم مكثرين ومقلّين . فلو كان مكثروهم كرماء ، لبذلوا لمقليهم الأموال ، حتّى يستووا في الحال ويشبهوا في الكرم والحال الّذين قال فيهم حسّان (٥) :

المُلحقينَ قَتِيرَهُم بِغَنِيِّهِمْ ... وَالمُشْفِقِينَ على اليَتِيمِ المُؤْمَلِ

والذين قالت الخرنق (٦) فيهم :

الخَالِطِينَ لُحُومَهُمْ بِنُضَارِهِمْ ... وَذَوِي الغِنَى مِنْهُمْ بِذِي الفَقْرِ

فهذا كلّه — وأبيكَ — غايةُ المَدْحِ النَّقِيِّ من القَدْحِ .)) (٧)

---

(١) المصدر السّابق ، ص : ٣٤ .

(٢) أنظر : نقد الشّعر ، ص : ٧٧ .

(٣) شرح ديوان زهير ، ص : ١١٤ .

(٤) أعلام الكلام ، ص : ٣٥ .

(٥) شرح ديوان حسّان ، ص : ٣٤٦ .

(٦) وهي : الخَرْنَق بنت بدر بن هفّان بن مالك بن ضبيعة بن قيس، شاعرة جاهليّة ((ت، ٥٧ م) ، وهي أخت الشاعر الجاهليّ المعروف طرفة بن العبد لأمّه . أنظر : خزانة الأدب، ٢/٣٠٦، والأمالي ، ٢/١٥٤، شاعرات العرب، ص : ٦٤ ، وأعلام النّساء ، ١/٣٤٨ .

(٧) أعلام الكلام ، ص : ٣٥ — ٣٦ .

ومما تقدّم فإنّنا نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف كان يعتمد على عنصر المقارنة والموازنة في نقده ، ليكشف لنا عن دقّة التعبير ، ودقّة المعنى ، ويحاول أنْ يعلل تلك المقارنات تعليلاً مقنعاً ، فكشف لنا بذلك عن سعة اطلاع وتعمّق في دواوين الشّعر العربيّ ، وعن ثقافة واسعة ، مثلما كشف لنا عن ذوق أدبيّ ، واحساس مرهف دقيق .

ويمضي ابن شرف في نقده لهذا القول ، فيقول : ((ثم أسمع ما فسني هذا البيت سوى هذا من الخلل والزلّل منها : أنّهم نميّموا القريب ، وراعوا حقّ الغريب ، وصلة الرّحم أولى ما يبدأ به . ومن مكارم العرب حميّتها لذوي أنسابها ، وذبّها عن أحسابها الاقرب فالاقرب ، وما فضل عن ذلك فالابعد . ثم أخبر أنّ المكثرين ليس يسمحون بأكثر من الاستحقاق في قوله : ((عليهم حقّ من يعتريهم)) ، ومن أعطى الحقّ فإنّما أنصف ولم يتفضّل بما وراء الانصاف ، والزيادة على الانصاف أمدح . ثم أخبر في البيت أنّ المقلين على تعور أيديهم أكرم طباعاً من مكثريهم على قدرتهم في قوله : ((وعند المقلّين السماحة والبذل)) ، والبذل مع الاقلال مدح عظيم وايثار ، والسّماحة اعطاء غير اللازم ، فمدح بشعره هذا من لا يحظى منه بطائل ، وذمّ الّذين يرجو منهم جزيل النائل ، وهذا غاية الغلط في الاختيار ، وفي ترتيب الاشعار .)) (١) .

ويأخذ أيضا على زهير قوله (٢) :

تَراهُ إذا ما جئته مُتَهَلِّلاً كأنّكَ تُعْطِيهِ الّذي أنْتَ سائِلُهُ (٣)

فيتوقّف عند قوله هذا وقفة الناقد العارف بطبائع النّاس ، وخفايا نفوسهم ، مشيراً إلى أنّ زهيراً في هذا القول لم يوفّق إلى الغرض الّذي

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٣٦ .
(٢) شرح ديوان زهير ، ص : ١٤٢ .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ٣٤ .

يريد ، ولم يوفق إلى التعبير الصحيح ، وينقده بقوله : ((. . . لقد مدح بهذا شريفاً أيّ شريف ، فجعل سروره بقاصده كسروره بمَنْ يدفع شيئاً من عرض الدّنيا إليه وليس من صفات النُّفُوس العارفة السّامية ، ولا الهمم الشريفة العالية اظهار السرور إلى أنْ تتهلل وجوههم ، وتسر نفوسهم ببهجة الواهب ، ولا شدّة الابتهاج بعطية المعطي . بل ذلك عندهم سقوط همّة ، وصغر نفس . وكثير من ذوي النُّفُوس النَّفِيسَة ، والأخلاق الرئيسة ، لا يظهر السرور متى رزق مالاً عفواً بلا مَنّة مثيل ، ولا يد معطٍ مستطيل ، لأنّه عند نفسه أكبر منه ، ولأنّ قَدْرَ المال يقصّر عنه ، فكيف أنْ يُمْدَحَ ملك كبير عظيم الفخر بأنّه يتهلل وجهه ، ويمتلئ سروراً قلبه إذا أعْطَى سائله مالاً ؟ . هذا نقص الثناء ، ومحض الهجاء . والفضلاء يفخرون بضد هذا [1] .)) .

ويستمر في نقده لهذا البيت ، فيقول : ((وإنّما غرّ زهيراً ، وغرّ المستحسن بيته هذا ما جبلوا عليه مِنْ حُبّ العطاء ، وما جرت به عاداتهم مِنَ الرّغبة في الهبات والاستجداء ، وليس كلّ الهمم تستحسن ذلك ، ولا كلّ الطباع تسلك هذه المسالك .)) [2] .

وهذه تدقيقات تميّز بها ابن شرف ، تدلّ على نفاذ بصر وتعمّق فيما ينقده ، أتى بها ليفسّر الشّعر تفسيراً جديداً ، وكأني به يريد أنْ يتميّز عمّا أجمع عليه النقاد العرب ، ومن أجل ذلك فقد رفض أنْ يأخذ بما صدر عن النقاد الّذين سبقوه على أنّه حقائق مسلّم بها ، وأنّه نهاية المطاف في شعر امرئ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، وبدأ بمناقشته ومعالجته .

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٣٤ — ٣٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٣٥ .

استحسان بعض الأبيات الشعرية :

هذا ومن أهمّ المجالات النقدية التطبيقية الّتي تصدّى لها ابن شرف في نقده الذي توافر لنا ، قضيّة استحسان بعض الأبيات الشعريّة ، ويكفينا للتدليل على ما ذهبنا إليه أنْ نشير إلى أنّه قد خصّص القسم الأخير من مقامته النقدية للحديث عن هذا الغرض[1] ، فكثيراً ما كان ابن شرف يبدي إعجابه أو استحسانه ببعض الأبيات أو المقطّعات الشعرية الّتي حصلّها من ثقافته الشعرية الواسعة ، وخاصّة تلك الابيات الّتي كانت سليمة من عيوب الشّعر الّتي حذّر منها في نقده[2] ، والّتي كانت تتضمن معنىً جيّدا ، ومغزى ظريفاً ، وهذا واضح في قوله : ((فقد رويت منها ما استغربت معناه ، واستظرفت مغزاه .))[3] .

ولكنّه لا يحاول أنْ يعلل لنا سبب استحسانه أو إعجابه بهذه الأبيات بل كان يكتفي بايرادها فقط من غير تحليل أو تعليق ، ومن أجل ذلك فقد أتى معظم الابيات الّتي استحسنها وأُعجب بها غير معلّل ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك ، فقد كان ابن شرف — على سبيل المثال — يستحسن قول الشاعر[4] :

وانْتَعْ مِنَ العَيْشِ ما أتاكَ بِهِ ... مَنْ قَرَّ عَيْناً بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ
قَدْ يَجْمَعُ المالَ غَيْرُ آكِلِهِ ... ويأكلُ المالَ غَيْرُ مَنْ جَمَعَهْ[5]

وقول الشاعر[6] :

جَرَتِ الرِّياحُ على مَحَلِّ دِيارِهِمْ ... فكأنّما كانُوا على مِيْعادِ

---

(١) أنظر : أعلام الكلام ، ص : ٤٧ — ٥٤ .
(٢) أنظر : المصدر نفسه ، ص : ٣٧ — ٤٦ . (٣) المصدر نفسه ، ص : ٤٧ .
(٤) وهو : للأشمط بن قريع السعديّ ، وهو من بني عوف بن كعب بن سعد وسط الزبرقان بن بدر . أنظر : الشّعر والشعراء ، ١ / ٣٨٢ — ٣٨٣ ، الخزانة ، ١ / ١٩٥ — ١٩٦ .
(٥) أعلام الكلام ، ص : ٤٧ . (٦) وهو : الأسود بن يَعْفُر ، شاعر جاهلي يكنى أبا الجرّاح ، وكان أعمى . أنظر : الشّعر والشعراء ، ١ / ٢٥٥ - ٢٥٦ ، والخزانة ، ١ / ١٩٥ .

فأرى النَّعيمَ وكلَّ ما يُلْهى بِهِ ... يَوْماً يَصيرُ إلى بِلىً ونَفادِ (١)

وقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعيّة التي تقول فيه (٢) :

قَدْ كُنْتَ لي جَبَلاً ألوذُ بِظِلِّهِ ... فاليَوْمَ تُسْلِمُني لأجْرَدَ ضاحِ
فاليَوْمَ أخْضَعُ للذَّليلِ وأتَّقي ... ظِلّي وأدْفَعُ ظالِمي بالرّاحِ (٣)

وقول أبي تمّام (٤) :

وقَدْ كانَ فَوْتُ المَوْتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ ... إليهِ الحَفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونَفْسٌ تَخافُ العارَ حَتّى كأنَّما ... هُوَ الكُفْرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أوْ دُونَهُ الكُفْرُ
فأثْبَتَ في مُسْتَنْقَعِ المَوْتِ رِجْلَهُ ... وقالَ لَها : مِنْ تَحْتِ أخْمَصِكِ الحَشْرُ
تَرَدّى ثِيابَ المَوْتِ حُمْراً فَما أتى ... لها الليلُ إلاّ وهي مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ (٥)

وقول أبي الطّيب المتنبّي (٦) :

وفي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذي التّاجِ ذِلَّةٌ ... لأبْلَجَ لا يَنْجانِ إلاّ عَمائِمُهُ
يُقَبِّلُ أفْواهَ المُلُوكِ بِساطُهُ ... ويَكْبُرُ عَنْها كُمُّهُ وبَراجِمُهُ (٧)

وقوله : (٨)

وقَيَّدْتُ نَفْسي في ذُراكَ مَحَبَّةً ... ومَنْ وَجَدَ الإحْسانَ قَيْداً تَقَيَّدا (٩)

---

(١) أعلام الكلام ، ص : ٤٧ .
(٢) أنظر : ديوان الحماسة ، ١ / ٥٣٠ .
(٣) أعلام الكلام ، ص : ٥٠ .
(٤) ديوان أبي تمّام ، ٤ / ٨٠ — ٨١ ، والعمدة ، ٢ / ١٤٨ .
(٥) أعلام الكلام ، ص : ٥١ .
(٦) ديوان المتنبّي ، ٣ / ٣٣٥ — ٣٣٦ .
(٧) أعلام الكلام ، ص : ٥٤ .
(٨) ديوان المتنبّي ، ١ / ٢٩٢ .
(٩) أعلام الكلام ، ص : ٥٣ .

ولكنّه لا يعلل إعجابه بهذه الأبيات، فجاء إعجابه بها إعجاباً تأثّريّاً لا يستند إلى تعليل . ويستحسن ابن شرف قول قتيلة بنت الحارث(١) ، ويعبّر عن استحسانه واعجابه بهذا الشّعر، فيقول : ((ومن أحسن المراثي ، وأفصحها ، وأوجعها وأقرحها قول قتيلة أخت النّضر بن الحارث ، وقد قتله رسول اللّه — صلى اللّه عليه وسلّم — صبراً وكان من بني عبد الدّار :

يا راكباً أنّ الأثيل مظنّة ... من صبح خامسة وأنت موفّق
أبلغ به ميتاً بأنّ تحيّة ... ما إن تزال بها الرّكائب تخفق
منّي إليه وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعنّ النّضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميّت لا ينطق ؟
أمحمّد يا خير ضنو نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرّك لو مننت وربّما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من قتلت قرابة ... وأحقّهم إن كان عتق يعتق
ظلّت سيوف بني أبيه تنوشه ... للّه أرحام هناك تشقّق (٢)

لكنّه مع ذلك لا يكشف لنا عن العلّة الّتي من أجلها أعجب بهذه الأبيات، و الأمثلة على هذه الظاهرة في نقده كثيرة يستطيع الدّارس أن يلمحها بوضوح (٣) .

ومهما يكن من أمر فإنّ هذا الجانب النقديّ التطبيقيّ من نقد ابن شرف قد كشف لنا عن ثقافته الشعريّة الواسعة، وعن سعة اطلاعه على دواوين الشّعر العربيّ ، كما كشف لنا عن مقاييسه النقدية الّتي اشترطها في قبول الشّعر واستحسانه .

---

(١) أنظر : السيرة ، ٣٠٣/٢ ، والعقد الفريد ، ١١٢/٦ ، الأغاني ، ٣٠/١ ، والعمدة ، ٥٦/١ .
(٢) أعلام الكلام ، ص : ٥٠ .
(٣) أنظر : المصدر نفسه ، ص : ٤٧ — ٥٥ .

خاتمـــــــــة

وبعـــــــد :

فهذا بحث في أبي عبد الله محمّد بن شرف القيروانيّ ، يتناول حياتـــــه وأدبه في جوانبهما المختلفة ، وقد أتى في تمهيد وأربعة فصول ، تحدّثنا فـــــي التمهيد عن العصر الّذي عاش فيه ابن شرف من الناحية السياسيّة ، والاجتماعيـــة ، والاقتصاديّة والفكريّة بصورة عامّة متوخّين أنْ يكونَ حديثنا عن عصره بالقـــــدر الّذي يمسّ حياته ، ويؤثّر فيها ، فتبيّن لنا من خلال ذلك كله أنّ الحياة السياسيّـة الّتي هيمنت على عصره كانت مضطربة قلقة ، تعتريها الفتن والثورات الداخليّـــة ، فأثّرت هذه الحالة القلقة على الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، لما بينهمـــا من ارتباط وثيق ، ولكنّ الحياة الثقافيّة والفكريّة — مع ذلك — كانت نشطة مزدهـــرة ، وقد تمثل ذلك في ظهور نخبة من الأدباء ، والشّعراء ، والنقّاد ، دارت أسماؤهـــم وآراؤهم في كتب النقد والأدب حتّى يومنا هذا ، وقد كان من أشهرهم : الحصريّ ، وابن رشيق ، وابن شرف ، وغيرهم من العلماء والفقهاء . وأنّ القيروان الّتـــــي نشأ فيها ابن شرف كانت مركزاً من أهمّ مراكز العلم والثقافة في تلك الفترة ، أمّهـــا الدّارسون ، وطلّاب العلم من كلّ حَدْبٍ وصَوْبٍ ، لينهلوا من مناهل علمهـــــا إلى أنْ داهمها الأعراب من بني هلال ، وبني سليم ، وأتوا على حضارتها الزّاهـــرة ، وعملوا على قلب الأوضاع فيها ، وتشريد أهلها في كل مكان .

وجعلنا الفصل الأوّل من هذه الدّراسة للحديث عن حياة ابن شـــــرف وثقافته في جوانبهما المختلفة ، فتوقفنا عند اسمه ، ونسبه ، ونشأته الأولـــــى ، وحياته بالقيروان حيث بلاط المعزّ بن باديس المكتظ بالأدباء والشّعراء ، فتبيّـــن لنا أنّ المصادر وكتب التراجم الّتي تعرّضت لترجمته وأخباره لم تعن بالحديـــث عن هذه الجوانب ، وخاصّة وهو في بلاط المعزّ بالقيروان ، وتوقّفنا عند مجريـــات حياته فرافقناه منذ ولادته بالقيروان في أواخر القرن الرابع الهجريّ حتّـــى وفاته بطليطلة بعيداً عن أهله ووطنه ، وعند صلاته وعلاقاته بأمراء الطّوائـــف

بالأندلس ، فوجدنا أنّه كان على علاقة طيّبة مع ملوك الطّوائف ، وأنّه قد نال حظوة ومكانة لديهم . وتوقّفنا في هذا الفصل أيضاً عند شيوخه ، وتلاميذه ، وتكوينه الثقافي ومؤلّفاته ، فعرّفنا بها ، وأشرنا إلى ماوصلنا منها ، ثم صححنا الوهم الّذي وقع فيه بعض الدّارسين فيما يتعلق بكتابيه ((أعلام الكلام)) ، و ((رسائل الانتقاد)) ، فانتهينا إلى أنّهما كتابان مختلفان .

وتبيّن لنا من خلال دراستنا لآثاره ومؤلّفاته ، أنّه كان صاحب مؤلّفات كثيرة ، إلاّ أنّ يد الزّمن قد امتدت إليها فخطفتها ، ولم يصلنا منها إلاّ القليل .

وقد اتضح لنا من خلال دراستنا لهذا الفصل أنّ ابن شرف كان مشهوراً في عصره ، متفوّقاً فيه ، إلاّ أنّ الزّمن لم يكن حليفه ، فأتى على شهرته ، وآثاره ، فلم يصلنا عنهما إلاّ هذه النُّتف القليلة المبعثرة في طيّات الكتب ، وأنّ حياته الّتي عاشها بالأندلس بعد نزوحه عن وطنه ، كانت مضطربة قلقة ، فرأيناه متنقلاً فيها من بلد إلى بلد ، ومن حضرة إلى حضرة .

وأمّا شعره فقد تحدّثنا عنه في الفصل الثاني من هذه الدّراسة ، وعندما تصدينا لدراسته وجدنا أنّه لم يجمع في كتاب مطبوع أو ديوان مستقل ، إنّما أتى مبعثراً في طيّات كتب الأدب والتراجم ، فأخذنا على أنفسنا جمعه ، وتخريجه ، وترتيبه ترتيباً هجائياً ، وجعلناه في ملحق ألحقناه لدراستنا هذه ، ثُمّ أخضعناه لدراسة تناولنا فيها : جمعه وتدوينه ، أغراضه وموضوعاته ، وخصائصه الفنية ، فتبيّن لنا من خلال ذلك كله أنّه قد طرق أكثر أغراض الشّعر العربيّ المعروفة في عصره من مدح وهجاء ، ووصف ، وحكمة ، ورثاء ، وأنّه أجاد أكثرما أجاد في رثاء وطنه وتصويره بعد تلك النكبة الّتي مُنِيَ بها ، وأنّه قد تأثّر بالتراث القديم تأثراً كبيراً ، واتكأ في معانيه على معاني الشّعراء القدماء الّذين سبقوه من جاهليين وإسلاميين ، وسار على نهجهم في بناء قصائده في المديح ، ولكنّه تأثر أكثر ما تأثر

بأبي الطيّب المتنبّي ، وقد تأثر به في نفسيته ، وفي اكثار من الحِكْمة في شعره ، وفي جزالة ألفاظه ، وتذمّره من الدّهر والزّمن . وقد تبين لنا من خلال ذلك كله أنّه كان شاعراً مبدعاً ، صاحب انتاج غزير ، استطاع أنْ يمزج بين معطيات عصره ، وبين ثقافته مزجاً بديعاً .

وقد عقدنا الفصل الثالث للحديث عن نثره ، وقد حملنا ذلك في قسمين ، تحدّثنا في الأوّل منهما عن أغراضه وموضوعاته في النّثر ، وعن مجتمعه كما يصوّره ، وعن مقاماته ، ورسائله الّتي بعث بها إلى ملوك الطّوائف ووزرائهم بالأندلس ، فوجدنا أنفسنا أمام كاتب بليغ ، امتلك ناصية النثر مثلما امتلك زمام الشعر ، واستطعنا من خلال دراستنا لهذا الجانب من أدبه أنْ نلمح صورة مجتمعه الّذي عاش فيه ، وأنْ نتعرّف إلى موقفه من ذلك المجتمع ، ومن القضايا المستجدة الّتي طرأت عليه ، وأنْ نتبيّن المكانة المرموقة الّتي وصل إليها لدى ملوك الطّوائف بالأندلس .

وتحدّثنا في القسم الثاني من هذا الفصل عن نثره من الناحية الفنية ، فتوقفنا عند معانيه وألفاظه ، وأسلوبه في كتابة النثر ، فكشفت لنا هذه الجوانب عن ثقافة واسعة وتعمّق في دواوين الشّعر العربيّ ، وكتب الأدب العربيّ الّتي سبقته وعاصرته .

وأقمنا الفصل الرابع من هذه الدراسة للحديث عن نقده ، ومقاييسه في نقد الشّعر ، فتبيّن لنا من خلال ذلك أنّه كان ناقداً بصيراً في نقد الأدب ، عالماً بمواطن الجمال والقبح فيه ، استطاع أنْ يأتي بنظرة نقديّة تفسر الشّعر على أسس نفسية ، وأنّه في نقده يردد ما أكده النقاد القدماء ، وأئمة اللغة من قبل .

فهذا هو أبو عبد الله محمّد بن شرف القيروانيّ الأديب ، الشاعر ، الكاتب الناقد ، في حياته وأدبه ، آملاً أنْ اكون بعملي هذا قد أضفت رافداً جديداً إلى المكتبة الأندلسية والله وليّ التوفيق .

((وأنْ آخر دعواهم ، أنْ الحمد لله ربّ العالمين)) .

— الهمـــزة —

قال ابن شرف من قصيده في مدح عبّاد :

— الطويل —

(١) فما جَشَأَتْ نَفْسِي عَشِيَّةَ مُشْـــرِفٍ ... ولا احْتَلَبَتْ عَيْنَيَّ حُزْوى وَقَيْفَـــاءُ

(٢) ولا لِغُرَابَيْ دِمْنَةِ الدَّارِ ظَلَّتْ ذَا ... سُؤالٍ وَما عِنْدَ الغُرَابَيْنِ أَنْبَـــاءُ

(٣) مَقامُ زَمانٍ ماتَ عُرْوَةُ حَسْـــرَةً ... عليهِ وَظَلَّتْ تَسْفَحُ الدَّمْعَ عَفْـــراءُ

(٤) فلو نالَ حَظّاً مِنْهُ غَيْلانَ لالْتَقَـــتْ ... له صَيْدَحٌ فيه وَمَيٌّ وَدَهْنَـــاءُ

ومنهـــا :

(٥) أُجَشِّمُهُم لَيْلَ القِفارِ وَظُلْمَـــةَ الـ ... بِحارِ وَكَمْ رِيعُوا لِلسِّيدِ إِرْخَـــاءُ

(٦) وَلِي مِنْهُما سَهْمانِ هذا ابْنُ أَرْبَعٍ ... وهذا ابْنُ سِتٍّ كُلَّما كانَ إِغْفَـــاءُ

(٧) أُغَشِّيهِما واللَّيْلُ داجٍ كأَنَّمَـــا ... هُما نُقْطَتا ياءٍ وَجِسْمِي هُوَ الياءُ

التخريـــج :

الأبيات في الذّخيرة ق ٤ م١ / ٢١٩ .

(١) جشأت نفسه : ارتفعت ونهضت إليه وجاشت من حزن أو فزع . لسان العرب : ((جشأ)) . حزوى : موضع بنجد في ديار تميم . معجم البلدان ، ٤ / ٢٨٥ . وهو هنا يشير إلى قول ذي الرّمّة :

لقد جَشَأَتْ نَفْسِي عشيّة مُشْـــرِفٍ ... ويوم لوى حُزْوى فقلت لها صَبْرا .

ديوان ذي الرّمّة ، ص : ٢٣٦ .

(٢) يشير هنا إلى قول عُرْوة :

: ((ألا يا غرابَي دِمْنَةِ الدّارِ بَيِّنا ... أبا الصَّرْمِ مِنْ عَفْراءَ تنتحِبانِ .))

شعره ، ص : ١٦ .

(٤) صيدح ناقة ذي الرّمّة ، ومَيّ صاحبته ، والدّهناء موطنه وهي من ديار بني تميم . وقد كان ذو الرّمّة يتغنّى بذكر هذه الأمور في شعره . أنظر : الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ٢٢٠ ، ومعجم البلدان ، ٢ / ٤٦٣ .

(٥) السّيد : الذئب . لسان العرب : ((سيد)) .

(٨) فَطَوْراً يُغَشِّيهِم على ذِكْرِكَ الكَرَى ... فَتُصْبِحُ أَغْوَاءٌ عَلَيْهِم وَلُأَلاءُ
(٩) وَطَوْراً يَمُجُّونَ الدَّجَى وَمِطَالَهُ ... وما كان للغَايَاتِ مَطْلٌ وإِرْجَاءُ
(١٠) فَتَضْجُرُ مِنْهُم أَنْفُسٌ رُبَّما بَكَتْ ... بُكَاً هو للمُهِمِّ الجَلامِيدِ إِبْكَاءُ

ومنهـــا :

(١١) فإِنْ أَفْحَمَتْنَا هَدْيَةٌ عُمَرِيَّةٌ ... لَدَيْكَ لَهَا في الشِّعْرِ كَسْرٌ وإِقْوَاءُ
(١٢) بَذَلْتَ أَنبَاطَاتٍ لَنَا عَلَوِيَّةً ... لَهَا بَعْدَ مَوَاتِ المَهَامِهِ أَفْيَاءُ

---

(٨) الكرى : النّعاس . اللّسان .
(١١) هدية عمر ، وانبساط علي يضرب بهما المثل . أنظر : الذّخيرة ، ق ٤م١ / ٢٢٠ .
(١٢) المَوَاتُ : المفازة الواسعة الملساء الّتي لا ماء فيها ولا أنيس بهـــا . لسان العرب . والمهمه : المفازة والبريّة القفر . اللّسان .

وقال في عُودِ الغِنَـــاء :

ـ البسيـــط ـ

(١) يا عُودُ مِنْ أيَّةِ الأشْجارِ أنْتَ فَـــلا جَفّا ثَراهَا وَلا أغْصانُها النَّـــاءُ

(٢) غَنّى القِيانُ عَلَيْها وَهْيَ يابِسَـــةٌ بَعْدَ الحَمامِ زَماناً وَهْيَ خَضْـراءُ

التخريـــج :

البيتان في الخريدة ، ق٤ ج٢/١١٨ ، وفي المطرب ، ص : ٧٦ .

(١) في الخريدة : ((جفا ثراها ولا أعضاءها الماء)) .

وقال مُلْغِزاً في الشَّمس مادِحاً عبّاد :

ـ الوافـــر ـ

(١) وَبِلْقِيسِيَّةٍ فِي الْمُلْكِ لَيْسَتْ كَمَنْ أَوْهَى سُلَيْمانَ قُواهَا
(٢) يراها كُلُّ ذي بَصَرٍ فَيَمْشُو لِبَهْجَتِها إِلى أَنْ لا يَراهَا
(٣) إذا العُلْيا يُبالِغُ ناسِبُوهَا عَزَوْهَا في السُّمُوِّ إلى عُلاهَا
(٤) وَمُلْكُ الأرْضِ مِنْ بَرٍّ وَبَحْرٍ فَلَيْسَ يرومُهُ مَلِكٌ سِواهَا
(٥) نُمُوتُ كُلُّهُنَّ غَدَتْ نُمُوتاً لِعَبّادٍ سِوى نَمْتٍ عَداهَا
(٦) وذلكَ أنَّها مَهْما أقامَتْ بأرْضٍ أيْبَسَتْ مِنْها ثَراهَا
(٧) وَعَبّادٌ إذا ما حَلَّ أرْضاً تَفَجَّرَ يَبْسُ تُرْبَتِها مِياهَا

التخريـــج :

الأبيات في الغيث ، ٢/٢٦٢ ، وفي المُنْتَـــف ، ص : ٩٠ .

(١) بلقيسيّة : نسبة إلى بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل من بنـــي يَعْفر بن سكسك من حمير ، ملكة سبأ ، زوجة النّبي سليمان بن داود عليه السلام . ورد ذكرها في القرآن ، وكانت هي وقومها قبل زواجهـــا من سليمان تعبد الشمس . أُنظر : أخبارها وترجمتها في : نهايـــة الأرب ، ١٤/١١٣ ـ ١٢٤ ؛ والأعلام ، ٢/٥١ .

— البـــــاء —

وقال ابن شرف يصف حالتـــه :

— الطويـــل —

(١) تَصَعَّدُ نفسٌ لا صعودَ تنفُّسٍ وتَرْدِيدُ رُوحٍ في حُشاشةِ مَكْروبِ

(٢) فلا القُرْبُ يُحْيِيني ولا البُعْدُ قاتِلي ولا الهَجْرُ يُسْلِيني ولا الصَّبْرُ يَلْوِيني

(٣) وأصْبَحْتُ ذا ضُرٍّ ولقياكَ مُبْـــرِئٌ لِضُرِّي ولكنْ أيْنَ عيسى مِنْ أيّـــوبِ

التخريـــج :

الأبيات في الذّخيرة ، ق ٤ ، ١ / ٢١٥ .

(١) الحُشاشة : بقيّة الرّوح في المريض ، ورمق حياة النّفس . لسان العـــرب : ((حشش)) . الكرب : الحزن والغمّ . لسان العرب ، : ((كرب)) .

وقال أيضاً :

— المجتث —

(١) شَكَوتُ حُزني وبثّي إلى القَريبِ المُجيبِ
(٢) فكانَ عُقباي عُقبى نَبيِّهِ يَعقُوبِ

التّخريج :

المقطّعة في الدّخيرة ، ق ٤ م١ / ٢٢٧ .

وقال ابن شـــرف :

ـ الطويل ـ

(١) سَأُبْقِي على الدُّنْيا بِمَوْلَةِ مِحْـــرَبٍ وإلاّ على الأُخْرى بِوَصْلَةِ مِحْـــرابِ

(٢) وَلا خَيْرَ في عَيْشٍ يكونُ قِوامُـــــهُ بِمِنْحَةِ مَكْذُوبٍ وَمِدْحَةِ كَـــذّابِ

التّخريـــج :

البيتان في الخريدة ، ق ٤ ج ٢/١١٨ .

(١) المِحْرَب والمِحْرَاب : الرّجل الشّديد في الحَرب ، الشّجاع عند اللّقـــاء . لسان العرب : ((حرب)) . وَوَصْلَةِ المِحْرَاب هنا : اتصال الصّـــلاة في المحاريب . والمِحْرَابُ هو : صدر البيت وأكرم موضع فيه ، وهـــو مكان الإمام في المسجد . لسان العرب .

وقال مُلْغِزاً في الإبـــرة :

— مجزوء الرّجـز —

(١) نَحيلَةُ الجِسْمِ لَهَـــــا فِعْلٌ مَتينُ السَّبَـــــبِ
(٢) حافِرُها في رَأسِهَـــــا وَعَيْنُها في الذَّنَـــــبِ

التّخريـــــج :

المقطّعة في شرح مقامات الحريريّ ، ٥ / ٧١ ، طِراز المجالس ، ص: ١٣٣ ، والنّتف ، ص : ٩٢ — ٩٣ .

وقال ابن شرف :

— البسيط —

(١) ومابلوغ الأماني في مواعدها ... إلا كأشعب يرجو وعد عرقوب

(٢) وقد يخالف مكتوب القضاء يدي ... فكيف لي بقضاء غير مكتوب

التخريج :

المقطعة في الذخيرة ، ق٤م١ / ٢٢٥ ، وفي شرح مقامات الحريري ، ٣ / ١١٦ ، وفي معجم الأدباء ، ١٩ / ٤٣ ، وفي تزيين الأسواق ، ٢ / ١٢ ، وفي التنتف ، ص : ٩٣ .

(١) وهو : أشعب بن جبير ، يكنى أبا العلاء ، وأبا القاسم ، (ت ، ١٥٤ هـ) ، وهو من المدينة ، وكان مولى من الموالي ، شديد الطمع ، يضرب به المثل فيقال : ((أطمع من أشعب)) . أنظر : ثمار القلوب ، ص : ١١٨ ، فوات الوفيات ، ١ / ٢٢ ، ميزان الاعتدال ، ١ / ٢٥٨ — ٢٦٢ ، ولسان الميزان ، ١ / ٤٥٠ — ٤٥٤ ، ونهاية الأرب ، ٤ / ٢٤ — ٣٦ ، والأعلام ، ١ / ٣٣٣ .

وأما عرقوب فهو : رجل جاهلي يضرب به المثل في اخلاف المواعيد . أنظر : ثمار القلوب ، ص : ١٠٢ — ١٠٣ ، والأعلام ، ٥ / ١٦ .

(٢) في معجم الأدباء :

((وقد تخلّف مكتوب القضاء بها ... فكيف لي بقضاء غير مكتوب)) .

وفي شرح مقامات الحريري :

((وقد تخالف مكتوب القضاء به ... فكيف لي بقضاء غير مكتوب)) .

وقال ابن شـــرف :

ـ الطويـــل ـ

(١) وَقَدْ وَخَطَتْ أَرْمَاحُهُمْ مِفْرِقَ الدُّجَى فَبَانَ بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ شَائِبَـــا .

التخريـــج :

البيت في ثمرات الأوراق ، ٢/١٣٢ ، وفي تأهيل الغريب ، ص : ٥١ ، والنّتف ، ص : ٩٢ .

(١) الأسِنَّة ، مفرد ها سِنَان وهو : نصل الرّمح . اللّسان ، ((سَنَنَ)) .

وقال في مَكْمَدَةِ الثّياب وأُرْزَبَّتِهـا *:

ـ الطويل ـ

(١) وَمَضْرُوبَةٍ في ظَهْرِهَا حِينَ تَكْتَسِي فإنْ نَزَعَتْ عَنْهَا كُسَاهَا فَلا ضَرْبُ
(٢) وَذَاتِ أُبَنَةٍ مَا إنْ تَزَالُ تَمُقُّهَا وَتَضْرِبُهَا حَتّى يَرِقَّ لَهَا القَلْبُ
(٣) وَمَا تَشْتَكِي مِنْهَا العُقُوقَ وَلا الأذَى وَبَيْنَهُمَا مع ذَا وَذَا الحُبُّ والقُرْبُ

التخريـــج:

المقطّعة في الخريدة ، ق٤ ج٢/١١٩ ـ ١٢٠ .

* وهي الوعاء الّذي توضع فيه الثّياب للغسيل . اللّسان ((كَمَدَ)) . وأمّا الأُرْزَبَّـة فهي : عصا قصيرة من الحديد . اللّسان ، ((رَزَبَ)) .

وقال في الحَـــظّ :

ـ الوافـــر ـ

(١) إذا صَحِبَ الفَتى جَدٌّ وَسَعْـــدٌ تَحامَتْهُ المَكارِهُ والخُطُـــوبُ
(٢) وَوافاهُ الحَبيبُ بِغَيْرِ وَعْـــدٍ طُفَيْلِيّاً وَقادَ لَهُ الرَّقيْـــبُ
(٣) وَعَدَّ النّاسُ غَمْطَتَهُ غِنَـــاءً وَقالُوا إنْ فَسا قَد فاحَ طِيْـــبُ

التخريـــج :

المقطّعة في معجم الأُدباء ، ١٩ / ٤٠ ، وفي الغيث ، ٢ / ١٢٩ ، وفـــي الوافي بالوفيات ، ٣ / ١٠٠ ، وفي فوات الوفيّات ، ٢ / ٤١٢ ، وفي الشعور بالعور ، ص : ٦١ ، والمعاهد ، ١ / ١٥٢ ، والنُّتف ، ص : ٩١ .

(١) في فوات الوفيّات : ((إذا صَحِبَ الفَتى جَدٌّ وَسَعْـــيٌ تحامته المكارِهُ والخُطُـــوبُ)) . وهو سهو من النّاسخ .

وقال في القُبّاريّة :

— الرّجز —

(١) وَرَأْسِ قُبّارِيّةٍ بِرَأْسِهِ أَثْوابُهُ تَحْمِيهِ والمَخالِبُ

(٢) في مِثْلِ خَلْقِ الخَلْقِ إلّا أنّهُ قَلْبُ عَدُوٍّ كُلُّهُ عَقارِبُ

التخريج :

البيتان في شفاء الغليل ، ص : ١١٨ ، وفي النّتف ، ص : ٩٣ .

(١) القبّاريّة : نوع من الخسّ البرّيّ ، يُسَمّى الكَرْكَر . أُنظر : شفاء الغليل ، ص : ١١٨ .

وقال في ليلة أُنْسٍ باردةٍ ممطرةٍ :

ـ الكامل ـ

(١) وَلَقَدْ نَعِمْتُ بِلَيْلَةٍ جَمَدَ الحَيَا فِي الأَرْضِ فِيهَا والسَّمَاءُ تَذُوبُ

(٢) جَمَعَ العِشَاءَيْنِ المُصَلِّي وانْزَوَى فِيهَا الرَّقِيبُ كأنَّهُ مَرْعُوبُ

(٣) والكأسُ كاسِيَةُ القَمِيصِ يُدِيرُهَا ساقٍ كَخَوْدٍ كَفُّهَا مَخْضُوبُ

التَّخْرِيج :

البيت الأول، والثاني ، والثالث ، والرّابع ، والسّادس في معجم الأُدباء ، ١٩ / ٣٩ — ٤٠ ، وفي فوات الوفّيات ، ٣ / ٩٨ ، وفي الشعور بالعمور ، ص : ٦١ ، وفي الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٦ — ١١٧ ، وفي النّتف ، ص : ٩١ — ٩٢ .

وأمّا البيت الخامس فقد ورد في الخريدة فقط ؛ ق ٤ ج ٢ / ١١٧ .

(١) الحيا : المطر . لسان العرب : ((حيا)) .

(٢) العشائين : المغرب والعشاء : لسان العرب : ((عشا)) .

(٣) في الخريدة :

((والكأس كاسية القميص كأنّها لوناً وقدّاً مِعْصَمٌ مَخْضُوبُ)) .

وفي الوافي بالوفيات ، وفوات الوفيات ، والشعور بالعمور :

((والكأسُ كاسيةُ القميص كأنّها لوناً وقدّاً مِعْصَمٌ مَخْضُوبُ)) .

الخود : الشّابة النّاعمة . لسان العرب : ((خود)) .

(٤) هِيَ وَرْدَةٌ فِي خَدِّهِ وَبِكَأْسِهَا الـدْ ... ـدُرِّيِّ مِنْهَا عَسْجَدٌ مَصْبُوبُ

(٥) مَشْرُوبَةٌ لِلُبِّ شَارِبَةٌ وَمَـا ... شَيٌّ سِوَاهَا شَارِبٌ مَشْرُوبُ

(٦) مِنِّي إِلَيهِ وَمِنْ يَدَيْهِ إِلَى يَـدِي ... كَالشَّمْسِ تَطْلُعُ بَيْنَنَا وَتَغِيبُ

---

(٤) في فوات الوفيّات ، والوافي بالوفيّات ، والشعور بالعور :
((هِيَ وَرْدَةٌ فِي خَدِّهِ وَبِكَأْسِهَا ... تَحْتَ التَّنَانِي عَسْجَدٌ مَصْبُوبُ)) .
العسجد : الذّهب . لسان العرب ، ((عسجد)) .

(٦) في معجم الأدباء : ((الشّمس تطلع تارةً وتغيب .)) .
وفي فوات الوفيات ، والوافي بالوفيّات ، والشّعور بالعور :
((فالشّمس تطلع بيننا وتغيب)) .

وقال ابن شرف من قصيدة يمت بها إلى ابن رشيق :

— الطويل —

(١) عَدِمْنَاكَ مِنْ بُعْدٍ وَإِنْ زِدْتَنَا قُرْبَا عَلى أَنَّ فِيمَا بَيْنَنَا سَبْسَباً سَهْبَا

التخريج :

البيت في إنباه الرّواة ، ١ / ٣٠٢ ، وفي مسالك الأبصار ، ق ١ ج ١١ / ٢٤١ .

(١) السّبسب السّهب : المفازة الواسعة أو الفلاة البعيدة من الارض . لسان العرب : ((سهب)) .

— التّاء —

وقال في وصف الخيّار :

— الطويل —

(١) خِيارٌ يُحَيِّينا خِيارَ الوَرى بِهِ ... بِأَيْدِي المَهى في أَخْمَرِ الحِبَرَاتِ

(٢) لَفَفْنَ على الأيدي الأَكُمَّةَ سُتْرَةً ... فأَذْكَرْنَنا ما قِيلَ في الخَفِيَرَاتِ

(٣) يُخَبِّين أطرافَ البَنانِ مِنَ التُّقَى ... وَيَطْلَعْنَ شَطْرَ اللّيلِ مُعْتَجِرَاتِ

التخريج :

الأبيات كلّها في الوافي بالوفيات ، ٣ / ١٠٠ ، وفي الشعور بالعور ، ص: ٦١ .

(١) الحِبْرات : مفردها حِبْرَة ، وهي ضَرْبٌ مِنْ بُرود اليمن مُنَمَّر . لسان العرب، ((حبر)) .

(٢) الخَفَر : شدّة الحياء . لسان العرب ، ((خفر)) .
الكُمّ : مدخل اليد ومخرجها من الثّوب . لسان العرب، ((كمم)) .

(٣) المِعْجَر : ثوب تَعْتَجِرُ به المرأة ، أصغر من الرِّداء وأكبر من المِقْنَعَة . لسان العرب ،((عجر)) .

وقال مخاطبا السّميسر* :

ـ المتقارب ـ

(١) بَدأتَ وللمُبتَدِي الفَضْلُ فِي ... فُرُوضِ المَوَدَّةِ والسُّنَّةِ
(٢) وما الوُدُّ إلاّ امتِنانٌ وقَدْ ... سَبَقْتَ سِوَاكَ إلى المِنَّةِ
(٣) وبالسَّبْقِ في أوّلِ الهِجْرَتَيْنِ ... تقدَّمَ قَوْمٌ إلى الجَنَّةِ
(٤) وحُدِّثْتُ أنّكَ سَمْحُ الطِّبَاعِ ... إذا ما طِبَاعُهُم مَنَّتِ
(٥) ونَفْسُكَ فاضِلَةٌ حُرَّةٌ ... إذا عايَنَتْ فاضِلاً حَنَّتِ
(٦) فلا عُقَ لو مازَجَتْها الجِبَالُ ... إذَنْ رَقَصَتْ لكَ أوْ غَنَّتِ
(٧) فلو مِنْ أبانَ ورَضْوَى خُلِقْتَ ... لما كُنْتَ إلاّ مِنَ الثَّنَّةِ

التخريج :

المقطّعة كلّها في الذّخيرة ، ق١ م٢ / ٨٩٧ .

* وهو : خلف بن فرج الإلبيريّ أبو القاسم المعروف بالسّميسر ، (ت ٤٨٠ هـ) شاعر هجّاء أصله من إلبيرة ، وبيته في غرناطة . أنظر : ترجمته وأخباره في الذّخيرة ، ق٢ م١ / ٨٩٥ ، والأعلام ، ٢ / ٣٥٦ .

— الشّـــاء —

وقال في وصف منزلٍ :

— الكامـــل —

(١) لَكَ مَنْزِلٌ كُلَّتْ سِتَارَتُهُ لَنَـــا ... لَلّهوِ لكِنْ تَحْتَ ذَاكَ حَدِيْـــثُ

(٢) غَنّى الذّبَابُ وظَلَّ يَزْمُرُ حَوْلَـــهُ ... فِيهِ البَعُوضُ وَيَرْقُصُ البَرْغُـــوثُ

التخريـــج :

البيتان في الذّخيرة ، ق٤ م١ / ٢٢٧ ، وفي معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٨ — ٣٩ ، وفي شرح مقامات الحريريّ ، ٢ / ٣٢٠ ، وفي المطرب ، ص : ٧٦ ، وفي المعاهد ، ٢ / ٢٣٥ ، وراياتُ المبرّزين ، ص : ١٤٣ ، وفي النّفـــح ، ٣ / ٣٢٩ ، وفي النّتف ، ص : ٩٤ .

(١) في شرح مقامات الحريريّ : ((لكَ مَنْزِلٌ كُلَّتْ بِشَارَتُهُ لَنَا)) .
وفي معجم الأدباء :
((لكَ مَجْلِسٌ كُلَّتْ تَوَاعِي لَهْوِنَـــا فِيهِ ولكنْ تَحْتَ ذاكَ حَدِيْـــثُ)) .
وفي المطرب والمعاهد : ((لك مجلسٌ كُلَّتْ ستارتُنا بِهِ .)) .
وفي النّفح : ((لَكَ مَجْلِسٌ كُلَّتْ بِشَارَةُ لَهْوِنَا .)) .

(٢) في المطرب ، ومعجم الأدباء ، وراياتُ المبرّزين :
((غنّى الذّبابُ فَظَلَّ يَزْمُرُ حَوْلَهُ .)) .

— الجيم —

وقال مِنْ خَمريّةٍ :

— الوافر —

(١) خَلِيلَ النَّفْسِ لا تَحْمِلِ الزُّجاجَا ... إذا بَحْرُ الدُّجى في الجَوِّ ماجَا

(٢) وجاهِرْ في المَدامَةِ مَنْ يَراني ... فَما فَوْقَ البَسيطةِ مَنْ يُداجَى

(٣) أَمِطْ عنّا الكَرى واللّيلُ ساجٍ ... وَدَعْنا نَلْبَسِ الظَّلماءَ ساجَا

(٤) وَهاتِ على اهْتِمامِ الرّوحِ راحاً ... تُعيدُ هُمومَ أنْفُسِنا افْتِراجَا

(٥) إذا مِرّيخُها زادَ احْتِراراً ... صَبَبْنا المُشْتَري فيها مِزاجَا

التخريج :

الأبيات كلّها في الخريدة ، ق٤ ج ٢/١١٧ ، وفي النّتف ، ص : ٩٤ .

(١) الدّجى : سواد اللّيل مع غيم . لسان العرب : ((دَجَوَ)) .

(٣) الكرى : النّوم أو النعاس . لسان العرب : ((كَرَوَ)) .
السّاج : طيلسان أسود . لسان العرب : ((سَوَجَ)) .

(٥) المرّيخ : نجم من الخُنّس ، شديد الحُمْرة . لسان العرب : ((مَرَخَ)) .
والمشتري : كوكب شديد الضّياء .

وقال مُلْغِزاً في البِطّيخ :

— مجزوء الكامل —

(١) ما أَطْفَأَتْ جَمْرَ الوَقِيـ ـدِ لِمُشْتَكٍ وَقْداً تَوَهَّجَا

(٢) كإداوةٍ أكسِيَّةٍ مملوءةٍ ماءً وَثَلْجَا

(٣) رَتْقاءَ لَمْ يَسْلُكْ بِهَا غَوْرُ الإشافي قَطُّ نَهْجَا

(٤) تَزْهو بِلَوْنَي خُضْرَةٍ هذا انْتَهى وأخوه لَجَّا

(٥) كزُمُرُّدٍ وزَبَرْجَدٍ رَصَّعْنَ للكافُورِ دُرْجَا

(٦) أَوْ وَجْهِ ذي خَجَلٍ تَبَسَّمْ قَ بِالمُصَبَّغِ أو تَسَجَّى

التخريـــج :

الأبيات في نهاية الأرب ، ١١ / ٢٣٣ ، وفي مخطوط مناهج الفكر ، ج ٤ / ٢٢ .

(١) الوهج : شدّة حرّ النّهار والشّمس . لسان العرب . ((وَهَجَ)) .

(٢) الإداوة : المطهرة . القاموس المحيط ، ٤ / ٣٣١ .

(٣) رتقاء : ملتحمة متلاحمة . لسان العرب : ((رَتَقَ)) .
الإشفى : مخيط الإسكاف ومثقبه . لسان العرب .

(٦) تسجّى : تغطّى . لسان العرب . ((سَجَوَ)) .

وقال ابن شرف في ذمّ التّين :

ـ السريع ـ

(١) لا مرحباً بالتّين لمّا أتى ... يسحب الليل عليه وشاح

(٢) ممزّق الجلباب يحكي لنا ... أمة زنجيّ عليها جراح

التخريج :

البيتان في نهاية الارب ، ١١/١٦٠ .

— الحـــــاء —

وقال في وصف الشَّعْر الذي ينبت على سوق بعض النِّساء :

(١) وبلقيسيَّةٍ زيَّنتْ بشَعْـــــــرٍ ... يسيرٍ مثلما يَهَبُ الشَّحيـــحُ

(٢) رقيقٍ في خَدَلَّجَـــــةٍ رَدَاحٍ ... خفيفٍ مثل جِسْمٍ فيـــه روحُ

(٣) حكَى زَغَبَ الخُدودِ وكلَّ خـــدٍّ ... به زَغَبٌ فمعشـــوق طليـــح

(٤) فإنْ يَكُ صَرْحُ بلقيس زجاجـــاً ... فمِنْ حَدَقِ العيونِ لها صروحُ

التخريـــج :

الأبيات في بدائع البدائه ، ص : ٢٤١ ، وفي المطرب ، ص : ٧٥ ، وفي بساط العقيق ، ص : ٧٦ والنَّتف ، ص : ٩٤ .

(١) في المطرب : ((يسير مثل ما يهب الشّحيح .)) .
وبلقيسيّة : نسبة الى بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل ملكة سبأ . أُنظر : نهاية الأرب ، ١٤/١١٣ ، والأعلام ، ٢/٥١ .

(٢) في المطرب : ((دقيق في خدلّجة رداح .)) .
الخدلّجة : الممتلئة الذّراعين والسّاقين . لسان العرب : ((خدج)) .
امرأة رداح : عجزاء ، ثقيلة الأوراك ، تامّة الخلق . لسان العرب : ((ردح)) .

وقال من قصيدة في ذكر ولده :

— الطويل —

(١) جُسومٌ على حُكْمِ العُيونِ صِحَاحُ ... وفي طيِّ أحْنَاءِ الضُلوعِ جِرَاحُ

ومنها :

(٢) إذا كان للأحبابِ رُسْلٌ فرُسْلُنَا ... بروحٌ إلى أحبابِنا وريَاحُ

(٣) ومِنْ دونِ تلكَ الرُّسلِ أغضَرُ زاخِرٌ ... أجاجٌ ومهجورُ الفجاجِ فَيَاحُ

(٤) وللسَّهمِ دون القيروان تَسَهُّمٌ ... وما شَوْكُهُ إلا ظُبًا ورِمَاحُ

(٥) وقرَّةُ قد قرَّتْ هناكَ عيونُها ... وزَفْرَةُ ريشتْ زَفْرَتُها وريَاحُ

(٦) كأنْ لم يكن لي أمسِ في عَرَصَاتِها ... من العَيْشِ جِدٌّ طيِّبٌ ومُزَاحُ

(٧) يخيِّلها زَوْرُ الكَرَى لي في الدُّجَى ... فأرْغَبُ في ألا يلوحَ صباحُ

(٨) أُسِيتُ قِنَاعَ الشَّيْبِ قَبْلَ أوانِهِ ... وجِسمي عليه للشبابِ وِشَاحُ

(٩) ويا ربَّ وَجْهٍ فيه للعينِ مَنْزَهٌ ... أُمانِعُ عيني منه وهو مُبَاحُ

(١٠) وأهجره وهو اقتراحي من الوَرَى ... وقد تُهْجَرُ الأمواهُ وهي قَرَاحُ

التخريج :

الأبيات كلّها في الذّخيرة ، ق٤ م١/ ٢٣٦ — ٢٣٧ .

والبيتان الثّامن والتاسع في معجم الأدباء ، ١٩/ ٤٢ .

وأما الأبيات الثامن ، والتاسع والعاشر فقد وردت في معالم الايمان ، ٣/ ١٩٤ ، والنّتف ، ص : ٩٥ .

(٣) الأُجَاج : شدّة الحرّ . لسان العرب ، ((أجج .)) .

الفجاج : كلّ طريق بَعُدَ . لسان العرب : ((فجج)) .

الفَيْح : شدّة القيظ . لسان العرب : ((فيح .)) .

(٩) في معجم الأدباء ، وفي معالم الايمان : ((ويا ربّ وجه فيه للعين نزهة .)) .

(١٠) القراح : الماء العذب الصّافي . لسان العرب : ((قرح .)) .

— الدّال —

وقال ابن شرف في مدح المعزّ بن باديس من قصيدة :

— الكامل —

(١) للّهِ مِنْ يَوْمٍ أغرّ سعيـــــــــد متميّزٍ مِنْ عَصْرِهِ مَعْـــــدُودِ

ومنها :

(٢) كانَ القَضاءُ إرادَةً فردتَـــــهُ شُورَى فَفازَ بحقّهِ المَـــردُودِ

(٣) يا فَضْلَها مِنْ سيرةٍ عُمَريّـــــةٍ هي للعباد رِضىً وللمعبُـــودِ

التخريـــج :

الأبيات في معالم الايمان ، ٣/ ١٨٨ ، وفي النتف ، ص : ٩٧ .

(٣) السيرة العمريّة : يضرب بها المثل في العدل . انظر : ثمار القلوب ، ص : ٦٦ .

وقال من قصيدة في مدح المعزّ :

ـ الخفيف ـ

(١) لا جُنُودٌ إلا جُنودُ السُّعُودِ مُغْنِياتٌ عَنْ عدَّةٍ وعديدِ

التخريج :

البيت في البيان المغرب ١٠ / ٢٧٩ .

وقال ابن شـــرف :

— الكامل —

(١) ما الحُبُّ إلاّ غيرةٌ وصَبابةٌ ... والصَّبُّ إلاّ مُقلةٌ وفُـــؤادُ

(٢) عُمْرُ المتيَّمِ مِنْ لَيْ يوم ... سُلُـــوِّهِ ... وخلاصُ كُلِّ مغرَّرٍ ميـــلادُ

التخريـــج :

البيتان في مسالك الأبصار ، ق١ ج ١١/٢٤٢ .

وقال ابن شرف :

— المتقارب —

(١) دَهى الغُصْنَ الغَضَّ جَمْرُ الغَضَا فقلتُ قفي النّارِ ذاتِ الوُقُودِ
(٢) توقّد ما دامَ في نَفْسِهِ فلمْ يُخْمِدْ الوَقْدَ غيرُ الخُمُودِ
(٣) عُبُوبٌ نُظِمْنَ على جِسْمِهِ كما نُظِمَتْ دُرَرٌ في عُقُودِ
(٤) ولكنْ تركْنَ بِحَبِّ القُلُوبِ كُلُوماً وخدَّدنَ أرْضَ الخُدُودِ
(٥) وتَحْسِبُها غَرَضاً للسِّهامِ أصابتهُ مِنْ يدِ رامٍ مُجيدِ
(٦) فنَجْمُ السُّعودِ أنْثنى آفِلاً وبُرْجُ الصُّعودِ توَى في الصَّعيدِ
(٧) تخدَّم في عِزَّةٍ كالدَّليلِ وأسْلَمَ في جَمْعِهِ كالفريدِ
(٨) كما يسلم الشِّبْلُ بين الأُسُودِ ويَعْثَرُ الفيلُ بَيْنَ الجُنُودِ

التخريج :

الابيات في مسالك الابصار ، ١١ / ٢٤٣ .

(١) الغضا : شجرة من الاثل ، خشبه من أصلب الخشب ، وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفئ . المعجم الوسيط ، ٢ / ٦٦١ .

(٢) الخمود : موضوع تدفن فيه النار حتى تخمد . لسان العرب : ((خمد)) .

(٥) الغرض : الهدف . لسان العرب ، ((غرض)) .

(٦) توى : ذهب فلم يرجع . المعجم الوسيط ، ١ / ٩٠ .

وقال ابن شرف :

ـ السريع ـ

(١) ألحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدود
(٢) جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدور

التخريج :
البيان في نفح الطيب ، ٤٠/١١٦ .

— الذّال —

وقال ابن شرف في الموز :

— مجزوء الرّجز —

(١) هلْ لكَ في موزٍ إذا ... ذُقْتَاهُ قُلْتَا حبّذا

(٢) فيه شرابٌ وغذا ... يُزيلُ كالماءِ القذى

(٣) لو ماتَ مَنْ تلذّذا ... بهِ لقلْنَا ذا بذا

التخريج :

الأبيات في بدائع البدائه ، ص : ٢٤٢ ، وفي نهاية الأرب ، ١١/١٠٨ ، وفي مناهج الفكر ، ج ٤/١٢٣ ، وفي النتف ، ص : ٩٧ — ٩٨ ، وبساط العقيق ص : ٨٣ .

(٢) في نهاية الأرب ، ومناهج الفكر ، : ((يُزيلُ كالماءِ القذى .)) .

— الرّاء —

وقال ابن شرف من قصيدة :

— البسيط —

(١) مالي كذا كلّ ما ألبّته عسر ... وقد أخذت بحبّ المطالب العسر

(٢) مالي أجاذب ذي الدّنيا مولّية ... فكلّ ثوب عليها قد من دبر

ومنها :

(٣) يعطي الجزيل من التّنويل معتذراً ... وربّ معطٍ قليلاً غير معتذر

(٤) أتى الزّمان على يأس به لبني الدّ ... نيا كبشرى بمولودٍ على الكبر

(٥) إنّي ومجدك صيّرت الورى نهراً ... وقلت ما قاله طالوت في النّهر

(٦) فأنت عندي منهم غرفة بيدي ... حلّت وحرّم باقي النّهر في الزّبر

التخريج :

الأبيات كلّها في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٢ — ٢٢٣ ، وقد ورد البيت الثاني ، والرّابع في شرح مقامات الحريري ، ٤ / ٨٨ ، والنتف ، ص : ١٠١ — ١٠٢ .

(٤) في شرح مقامات الحريري ، ((كبشرى بمولود على كبر)) .

(٥) + (٦) : يشير الى قوله — تعالى — : ((فلمّا فصل طالوت بالجنود قال : إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّي ، ومن لم يطعمه فإنّه منّي إلاّ من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلاّ قليلا منهم ...)) أنظر الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة ، وأنظر خبر طالوت في نهاية الأرب ، ١٤ / ٤٤ ، وقصص القرآن ، ص : ١٧٤ — ١٨٩ .

وقال يصف زرافـــة :

ـ الطّويـــل ـ

(١) غَرِيبَةُ أشكالٍ غَرِيبَتُـــهُ دَارِ ... لها لَوْنُ خَطّي فِضّةٍ ونُضَـــارِ

(٢) فلونٌ لها لونُ البياضِ وصُفْـرَةٍ ... كما مُزِجَتْ بالماءِ كأسُ عُقَـــارِ

(٣) وآخَرُ ما بَيْنَ اسوِدَادٍ وَحُمْـرَةٍ ... كما احمَرَّ مُسْوَدُّ الدُّخَانِ بِنَـــارِ

(٤) أُعِيرَتْ شُخُوصاً وهي في شَخْصِ واحدٍ ... تُحَيِّرُ في نَشْزٍ لها وقِفَـــارِ

(٥) تقومُ على ما بين ظِلْفٍ وحَافِـــرٍ ... لَهُ جِسْمُ جُلْمُودٍ وصَفْقَةُ قَـــارِ

(٦) وأربَعَةٍ تحكي سَبَائِكَ عَسْجَـــدٍ ... تَطِيرُ بِهَا في الارضِ كُلَّ مَطَـــارِ

(٧) لها عُنُقٌ قد خَالَطَ الجَوَّ تَحْتَهُ ... طِوَالٌ لها تَخْطو أمامَ قِصَـــارِ

(٨) وذاتُ قَرًى وَعْرِ الرّكوبِ وإنّمـــا ... أُجِلَّتْ بِذَا عَنْ ذِلّةٍ وصَغَـــارِ

(٩) لها عِجْبَةُ التّيّاهِ عُجْباً بِنَفْسِهَـــا ... ولكنَّ ذاكَ العُجْبَ تَحْتَ وَقَـــارِ

التخريج :

الأبيات كلّها في نهاية الارب ، ٩ / ٣٢١ .

(١) النُّضار : الذهب . لسان العرب : ((نضـر)) .

(٢) العقار : الخمر . لسان العرب : ((عقـر)) .

(٤) النَّشز : المتن المرتفع من الارض . لسان العرب : ((نشز)) .
والقِفار : الخلاء من الارض . لسان العرب : ((قفـر)) .

(٥) الظّلف : الظّفر ، للبقرة ، والشاة ، والظّبي . لسان العرب : ((ظلف)) .
الحافر : للخيل ، والبغال والحمير . لسان العرب : ((حفر)) .

(٨) القرا : الظّهر . القاموس المحيط ، ٤ / ٣٨٠ .

وقال في الغربة :

— مجزوء الرّجز —

(١) يا خائفاً مِنْ مَعْشَرٍ ... لا يُصْطَلَى بِنارِهِمْ
(٢) إنْ تُبْلَ مِنْ شَرارِهِمْ ... على يَدَي شِرارِهِمْ
(٣) أو تُرْمَ مِنْ أحْجارِهِمْ ... وأنْتَ في أحْجارِهِمْ
(٤) فما بَقِيتَ جارُهُمْ ... ففي نَواحُم جارِهِمْ
(٥) وأرْضِهِمْ في أرْضِهِمْ ... ودارِهِمْ في دارِهِمْ

التخريج :

الأبيات كلّها في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٢ ، وفي معاهد التنّصيص ، ٣ / ٢١٠ ، وفي الوافي بالوفيّات ، ٣ / ١٠١ ، والشعور بالعور ، ص : ٦٢ ، والنتّف ، ص : ١٠٠ — ١٠١ .

وورد البيت الأول ، والرابع ، والخامس في الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٨ .

(١) في الخريدة ، ومعاهد التنصيص ، والوافي بالوفيّات والشّعور بالعور :
((يا ثاوياً في مَعْشَرٍ ... قد اصْطَلَى بنارهم .)) .

(٢) في الوافي بالوفيّات ، والشعور بالعور ، ومعاهد التنّصيص :
((إنْ تبلَ مِنْ شَرارِهم .)) .

(٤) في الوافي بالوفيّات ، والشّعور بالعور :
((فما غَنيتَ جارهم)) .

وقال طفيلا في حبل الغسيل :

ـ الخفيف ـ

(١) ما غَسِيلٌ لَهُ البَهَاءُ مَقِيلُ مُكْتَسٍ بَهْجَةً وفي الليلِ عَارِي

(٢) وَتَرَى فَوْقَهُ صُفُوفَ ثِيَابٍ وهو ذُو فاقةٍ حليفُ افتقارِ

(٣) تَمْتَلِيهِ الكُسَى ثِقَالاً ويُلْقِيـ ـهَا خِفَافاً في أخريات النّهار

التخريج :

الأبيات في الخريدة ، ق٤ ج٢ / ١٢٠ .

وقال ابن شـــرف :

ـــ السّريـــع ـــ

(١) وَدُرَّةٍ نَارَتْ ذرَا دَارِي لاَدَرَّ دَرِّي إِنْ دَرَى دَارِي

(٢) وَلاَرَوَى رَاوٍ أَذَاهُ وَلاَ وَدَّتْ وِدَادِي إِنْ نَوَى زَارِي

التخريـــج :

البيتان في الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٦ .

(١) الدّرة : اللؤلؤة العظيمة ، والفتاة الجميلة الناعمة المصقولة . لسان العرب : ((دَرَرَ)) .

وقال في وصف المتمر :

ـ الوافـــر ـ

(١) وَمطبُوخٍ بِفَيْحِ عَقِيدِ نَـــــار عَزَمْتُ على جَنَاهُ بِأَبْتِكَـــارِ
(٢) تَوابِيتٌ تَبَدَّتْ مِنْ عَقِيـــقٍ مقمَّعَـــةٌ بِسُبُوكِ النُّضَـــارِ
(٣) تَرَى لِصَفَاءِ جَوْهَرِهَا نَوَاهَـــا كَأَلْسِنَةِ العَصَافِيرِ الصِّغَـــارِ

التّخريـــج :

الأبيات في نهاية الأرب ، ١١/١٢٨ ، ومناهج الفكر ، ج ٤/١٣٢ .

(١) رجّح محقق نهاية الأرب أنّها ((وَقِيدِ)) . أنظر : نهاية الأرب، ١١/ ١٢٨ .

(٢) العقيق : نواة رخوة تؤكل . لسان العرب : ((عَقَـقَ)) .
النّضار : الخالص من جوهر التّبر والخشب . لسان العرب : ((نَضَرَ)) .

وقال في التّمر أيْضـاً :

ـ المجتث ـ

(١) أما تَرى التَّوْيَحكِي ... في الحُسْنِ للنَّظَارِ
(٢) مَخازِناً مِنْ عِتيقٍ ... قَدْ قُيِّمَتْ بِنُضَارِ
(٣) كأنَّما زَعْفَرانٌ ... فيه مَعَ الشَّهْدِ جَارِي
(٤) يَشِفُّ مِثْلَ كُؤوسٍ ... مملوءةٍ مِنْ عُقَارِ

التخريج :

الابيات في نهاية الارب ، ١١/١٢٨ .

وقال مُلْغِزاً أيْضاً :

ـ السّريع ـ

(١) ما آكِلٌ يُعْطى على أكْلَةٍ إعْطاءَ اقلالٍ واكْثارِ
(٢) لُقْمَتُهُ قيمَتُها وَحْدَها مِنْ غيرِ حَلْفٍ ألفُ دينارِ

التخريج :

الأبيات في شرح مقامات الحريري ، ٥ / ٧١ ، وفي طراز المجالس ، ص : ١٣٣ ، والنّتف ، ١٠١ .

وقال من قصيدة في مدح المعز بن باديس :

ـ الشرح ـ

(١) بِالْيُمْنِ وَالسَّعْدِ عُدْ وَبِالظَّفَرِ مُوَفَّقَ الْوِرْدِ غَانِمَ الصَّدَرِ.

التخريج :

البيت في البيان المغرب ، ١ / ٢٧٦ .

وقال متغزّلاً :

ـ مجزوء الرّمل ـ

(١) بَيْنَ أجْفانِكِ سِحْرُ ... وَعلى غُصْنِكِ بَدْرُ
(٢) جَرَّدَتْ عَيْنَاكِ سَيْفَيْـ ... ـنِ لِذَا أمْرُكِ أمْرُ
(٣) فَعَلى خَدِّكِ مِنْ نَشْـ ... ـرِ دَمِ العُشَّاقِ أثَرُ
(٤) وَمِنَ الكُثْبانِ تَمْطُرُ ... لَآلٍ والأغْصانِ تَمْطُرُ
(٥) وَسَواءٌ قُلْتُ دُرٌّ ... ما أرَى أوْ قُلْتُ ثَغْرُ
(٦) وبماذا أصِفُ الخَصْـ ... ـرَ وَما إنْ لَكِ خَصْرُ
(٧) بِكِ شُغْلِي واشْتِغالِي ... وَمَضَى زَيْدٌ وَعَمْرو.

التّخريج :

الأبيات في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٥ ، وفي شرح مقامات الحريري ، ٥ / ٢٣٠ ، وقد نسبها خطأ لابن رشيق .

وقال من قصيدة في مدح ابن طاهر أمير مرسيّة :

— الطويل —

(١) وعاجوا على عُسْفانَ واللّيلُ أليلٌ ... ومرّوا بذاتِ البَيْنِ والصّبحُ مُسْفِرُ
(٢) وحازتْهُم حُزْوى نُعَمّى وتَرَوّحُوا ... بِمَنْعَجَ واستَقْلَوا أباناً فنَوّروا
(٣) ولمّا توافَقْنا بِذي سَلَمٍ بِدا ... سلامٌ لسلمى ظلّ يخفى ويَظْهَرُ
(٤) شَعَرْتُ له والرَّكْبُ هَيْرانُ غافِلٌ ... وما شاعِرٌ أمراً كمَنْ ليسَ يَشْعُرُ
(٥) رأتْ ظَبْيَةَ الوَعْساءِ عيني فهيّجَتْ ... لَها ذِكْرَهُم والشيءُ بالشيءِ يُذْكَرُ
(٦) سأبْكي طُلولاً كُنْتِ فيها مُطَلّةً ... عليها وكلّ الليلِ تحتَكِ مُقْمِرُ
(٧) تصرّمَ ذاكَ العَيْشُ إلاّ ادّكارَهُ ... وإلاّ كذوباً في المنامِ تَزَوّرُ
(٨) فتىً طاهريٌّ طاهِرُ الثوبِ ذِكْرُهُ ... مِنَ المِسْكِ أذْكى أوْ مِنَ الماءِ أطْهَرُ

التخريج :

الأبيات كلّها في الذّخيرة ، ق٤ م١/ ٢٢٠ — ٢٢١ .

(١) العَوْج : الانعطاف . لسان العرب : ((عَوَجَ)) .
عُسْفان : قرية على حد تهامة وتبعُد من مكة ثلاثون ميلاً .
أنظر : معجم البلدان ، ٤/ ١٢٢ .
وذات البَيْن : موضع ورد في شعر أبي صخر الهذلي . معجم البلدان ، ١/ ٥٣٤ .

(٢) منعج : وادٍ يصب مِنَ الدّهناء . معجم البلدان ، ٥/ ٢١٣ .
أبان : جبل بين قيد والنّبهانيّة محدد الرّأس كالسّنان ، وهو لبني مناف بن دارم بن تميم بن مُرّ . معجم البلدان ، ١/ ٦٢ .

(٣) ذو سلم : وادٍ على طريق البصرة الى مكة . معجم البلدان ، ٣/ ٢٤٠ .

(٥) الوعساء : الأرض اللّيّنة ذات الرّمل . معجم البلدان ، ٥/ ٢٥٦ .

وقال ابن شرف :

ـ الكامل ـ

(١) احْذَرْ مَحاسِنَ أَوْجُهٍ فَقَدَتْ مَحَا ... سِنَ نفسِها ولو أنَّها أَقْمَارُ

(٢) سُرُجٌ تَلُوحُ إذا نَظَرْتَ فإنَّها ... نُورٌ يُضِيءُ وإنْ مَسَسْتَ نَارُ

التخريج :

البيتان في معجم الأدباء ، ١٩/ ٤٣ ، وفي الوافي بالوفيّات ، ٣/ ١٠٠ ، وفي الشعور بالعور ، ص : ٦١ ، وفي فوات الوفيّات ، ٢/ ٤١١ ، والنّتف ، ص : ٩٩ .

(١) في الوافي بالوفيّات ، وفي الشّعور بالعور ، وفي فوات الوفيات : ((أَنْفُس)) .

(٢) السّرج : مفردها سراج وهو : المِصْباح . لسان العرب : ((سَرَجَ)) .

وقال في الدّرهم الدّينار :

— الطّويل —

(١) أَلا رُبَّ شيءٍ فيه مِنَ أَحْرفِ اسْمِهِ نَواهٍ لنا عَنْهُ وَزَجْرٌ وانْذارُ

(٢) فُتِنّا بِدِيْنارٍ وَهُمْنا بِدِرْهَمٍ وآخِرُ ذا هَمٌّ وآخِرُ ذا نارُ

التخريج :

البيتان في شرح مقامات الحريري ، ١/١٤٨ ، والنّتف ، ص : ١٠١ .

وقال ابن شرف من قصيدة يصوّر فيها خلاء القيروان :

ـ الطّويـل ـ

(١) كأنّ الدّيارَ الخاليات عرائسٌ ... كواسِدُ قد أزرتْ بهنّ الضّرائرُ

(٢) وتنكرُ بقياها الاسرّةُ حسّراً ... عواطلَ لا تفشى لهنّ السّرائرُ

(٣) إذا أقبلَ اللينُ البهيمُ تمكّنتْ ... بها وحشةٌ منها القلوبُ نوافرُ

(٤) ولا سُرُجٌ إلاّ النّجومُ وربّما ... تغطّتْ فسدّتْ جانبيها الدّياجرُ

(٥) يمرّ عليها الدّهرُ يسحبُ لحفّهُ ... ولا كانسٌ إلاّ الرّياحُ الغدائرُ

(٦) ويمتدّ عمرُ الصّوتِ فيها وربّما ... تجودُ مِراراً بالكلامِ المقابرُ

(٧) فلو نطقتْ ما كانَ أكثرُ نطقِها ... سوى قولها أينَ الخليطُ المعاشرُ؟

(٨) ألا قمرٌ إلاّ المقنّعُ في الدّجى ... فأينَ اللواتي ليلهنّ المقاجرُ؟

(٩) ألا منزلٌ فيه أنيسٌ مخالطٌ ... ألا منزلٌ فيه أنيسٌ مجاورُ؟

(١٠) ترى سيّئاتُ القيروانِ تعاظمتْ ... فجلّتْ عن الغفرانِ ـ واللهُ غافرُ ـ

(١١) تراها أصيبت بالكبائرِ وحدَها ... ألمْ تلكُ قدماً في البلادِ الكبائرُ؟

(١٢) ترحّلَ عنها قاطنوها فلا ترى ... سوى سائرٍ أو قاطنٍ وهو سائرُ

التخريـــج :

الأبيات في الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ٢٢٤ — ٣٢٥ .

والبيتان : ١٠ ، ١١ في المعجب ، ص : ٤٤٢ .

والأبيات : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، في معجم الأدباء ، ١٩ / ٤٢ ، وفي معالم الايمان ، ٣ / ١٩٤ .

والابيات : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ في معالم الايمان ، ١ / ١٧ .

(١) الكَسَادُ : خلاف النّفاق . الضرائر : مفردها ضرة ، وهي امرأة الرّجل الأخرى . أنظر : لسان العرب : ((كَسَد)) ، ((ضَرَرَ)) .

(٤) الدّياجرُ : مفردها ديجور وهو الظّلمة ((دَجَرَ)) .

(١٣) تكشَّفتْ الأستارُ عنهمُ وربَّما ... أُقيمتْ ستورٌ دونهم وستائرُ

(١٤) إذا جاذبتْ أستارَها تبتذلني ... لأقدامِها سِتْراً تبدَّتْ قدائرُ

(١٥) تبيتُ على فُرْشِ الحَصَى وغِطاؤها ... دَوارِسُ أسمالٍ زوارٍ حقائرُ

(١٦) فيا ليتَ شِعْري بالقيروانِ مواطني ... أعائدةٌ فيها الليالي القصائرُ؟

(١٧) ويا روحتي بالقيروانِ وبُكْرتي ... أراجعةٌ روحاتُها والبواكرُ؟

(١٨) كأنْ لَمْ تكُنْ أيامُنا فيكِ طَلْقةً ... وأوجهُ أيامِ السُّرورِ سوافرُ

(١٩) كأنْ لم يكُنْ كُلٌّ ولا كانَ بعضُهُ ... سيُفْني بهِ عَصْرٌ ويمضي المُعاصِرُ

---

(١٣) في معجم الأدباء : ((تكشَّفتْ الأستار عن أهْلِها وكَمْ .)) .

(١٥) في معالم الايمان : ((تبيتُ على فُرْشِ الحَصَى فغطاؤها * دوارسُ أسمالٍ عليها حقائر .)) . والأسمال : مفردها سمل وهو الثَّوب الخلق البالي . لسان العرب ((سمل)) .

(١٧) في معالم الايمان : ((أراجعةٌ روحاتُنا والبواكرُ .)) .

(١٩) في معالم الايمان : ((به قد مَضى عَصْرٌ وتمضي المعاصرُ .)) .

وقال ابن شرف :

— السّريع —

(١) كأنّما الأغصانُ لمّا علا فروعها تَطْرُ النّدى نَثْرا
(٢) ولاحت الشّمسُ عليها تُحَقّ زبرجدٌ قد أثمر الدُّرّا

التخريج :

البيتان في شفاء الغليل ، ص : ٤٧ ، وفي النّتف ، ص : ١٠٠ .

(٢) الزّبرجد : حجر كريم يشبه الزّمرد ، وهو ذو ألوان مختلفة كثيرة ، أشهرها الأخضر والأصفر . المعجم الوسيط ، ١ / ٣٨٩ .

الدّرّة : اللؤلؤة العظيمة . لسان العرب : ((دَرَرَ)) .

وقال في جلاء أهل القيروان وابتذالهم :

— السّريع —

(١) بَعْدَ خُطُوبٍ خَطَبَتْ مُهْجَتِي ... وكانَ وَشْكُ البَيْنِ اصْهارَها
(٢) ذا كَبِدٍ أفلاذُها حَوْلَها ... قَسَّمَتِ الغُرْبَةُ أعْشارَها
(٣) أطافِلٌ ما سَمِعَتْ بالقِلا ... قَطُّ فقايَنْتُ القِلا دارَها
(٤) ولا رَأَتْ أبْحارُها شاطِئاً ... ثُمَّ جَلَتْ باللُّجِ أبْحارَها
(٥) وكانَتِ الاشْتارُ آفاقَها ... فَمادَتِ الآفاقُ أشْتارَها
(٦) ولَمْ تكُنْ تَمْلُو سَرِيراً عَلا ... إلّا إذا وافَقَ مِقْدارَها
(٧) ثُمَّ عَلَتْ كُلَّ عُثُورِ الخُطا ... بَرْعِي بِها الأرْضَ وأحْجارَها
(٨) ولَمْ تكُنْ تَلْحَظُها مُقْلَةٌ ... لو كَحَّلَتْ بالشَّمْسِ أشْفارَها
(٩) فأصْبَحَتْ لا تتقي لَحْظَةً ... إلّا بأنْ تَجْمَعَ أطْمارَها

التخريج :

الأبيات في الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢١ ، وفي معالم الايمان ، ١ / ١٥ — ١٦ ، وفي النتف ، ص : ٩٩ — ١٠٠ .

(٣) الطِّفْل : الرَّخْص النّاعم . لسان العرب : ((طَفَلَ .)) .
(٤) اللُّجّ : الماء الكثير الذي لا يُرَى طَرَفاه . لسان العرب : ((لَجَجَ)) .
(٨) الشَّفْر : مَنْبِتُ الشَّعْر في الجَفْن . لسان العرب : ((شَفَرَ)) .
(٩) الطِّمْر : الثَّوب الخَلَق . لسان العرب : ((طَمَرَ)) .

وقال في وصف وادي عَذْرَاء* :

— المتقارب —

(١) رِيَاضٌ غَلائِلُهَا سُنْدُسٌ ... تَوَشَّتْ مَعَاطِفُهَا بالزَّهَرْ
(٢) مَدَامِعُهَا فَوْقَ خَطِّ الرُّبَا ... لَهَا نَظْرَةٌ فَتَنَتْ مَنْ نَظَرْ
(٣) وَكُلُّ مَكَانٍ بِهَا جَنَّةٌ ... وَكُلُّ طَرِيقٍ إِلَيْهَا سَفَرْ

التخريج :

الابيات في معجم الأدباء ، ١٩/٨٩ .

* وادٍ بمدينة برْجَة من أعمال المَرِّيَّة . انظر معجم الأدباء ، ١٩/٨٩ .

(١) السُّندس : ضرب من رقيق الدِّيباج . لسان العرب .

(٢) سَفَر الصُّبح : أضاءَ . لسان العرب .

وقال ابن شرف في وصف القلم :

ـ الرّمـــل ـ

(١) قَلَمٌ قَلَّمَ أظْفَـــارَ اليَـــدَا فَهوَ كالأصبعِ مقصُوصُ الظُّفُـــرْ

(٢) أشْبَهَ الحَيَّةَ حتّى إنَّـــهُ كُلَّما عَمَّرَ في الأيدِي قَصُـــرْ

التخريـــج :

البيتان في الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ٨٦ .

وقال ابن شرف في مدح المظفّر بن الأفطس :

— السّريع —

(١) زارَ وقد شمّرَ فضلَ الإزارْ ... جُنْحَ ظلامٍ جانحٍ للفرارْ

(٢) ورَوْضةُ الأنجمِ قد صوّحتْ ... والفجرُ قد فجّرَ نهرَ النّهارْ

(٣) قلتُ له : أهلاً بطيفٍ دنا ... مِنْ نازحِ الدّارِ بعيدِ المَزارْ

(٤) كيفَ خطوتَ الشرَّ ثمّ الشّرَى ... وابنَي هِلالٍ والقَنا والشّفارْ

(٥) أمهوةَ الغبراءِ أمْ داحِساً ... ركبتَ حتّى خُضْتَ ذاكَ الغِمارْ

(٦) وجئتَ بالخطّارِ أمْ أعوجٍ ... جُنْبيّةٍ مُعْتَدّةٍ للخِطارْ

(٧) وهلْ تقلّدتَ لدفعِ السّرَى ... حَمائلَ الصّمصامِ أمْ ذي الفقارْ

التخريج :

القصيدة كلّها في الذّخيرة ، ق٢ م٢ / ٦٤٢ — ٦٤٣ .
والابيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٥ ، ١٦ ، في مسالك الأبصار ، ق١ ج ١١ / ٢٤٠ . والبيتان : ١٥ ، ١٦ ، في الحلّة السّيراء ، ٢ / ٦٧ ، والنتف ، ص : ١٠٢ .

(٤) الشّرَى : الأشداء الشّجعان . المعجم الوسيط ، ١ / ٤٨٤ .
القَنا : الرّماح . لسان العرب : ((قنو)) .
الشّفار : السّكين العريضة العظيمة ، وشفرات السّيوف حروف حدّها . اللّسان : ((شفر)) .

(٥) الغبراء وداحس : فرسان معروفان لقيس بن زهير بن جُذَيمة العَبْسيّ . لسان العرب .

(٦) الخطّار : فرس لحذيفة بن بدر الذّبيانيّ الفزاريّ . لسان العرب : ((خطر)) .
الأعوج : فحل كريم تُنْسَب الخيلُ الكرامُ إليه . لسان العرب : ((عوج)) .
والجنبية : كلّ طائع مُنْقاد . لسان العرب . ((جنب)) .

(٧) الصّمصام : السّيف الصّارم الذي لا ينثني . لسان العرب : ((صمم)) .
وذو الفقار : كلّ سيف فيه حزوز مطمئنة عن متنه ، وكلّ شيء حُزّ أو أثّر فيه ، وذو الفقار : سيف رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — لسان العرب .

(٨) وأنتَ زيدُ الخيلِ أمْ عامِرُ ... ومالكُ بنُ الرَّيبِ أمْ ذو الخِمارْ

(٩) فقالَ لا هذا ولا ذا ولا ... بلْ كُنتُ عنهُم قمراً في سِرارْ

ومنها :

(١٠) سيري فلم تَقذِفْكِ في مجْهَلٍ ... ولا ضربنا بكِ ضَرْبَ القِمارْ

(١١) حَيثُ عُلوقُ العِلْمِ مطلوبَةٌ ... يوافِقُ السّوقَ كِرامُ التّجارْ

(١٢) خُذْهَا أبا بَكْرٍ عُرَيْبِيَّةً ... سَرَى بِهَا الوُدُّ إليكُمْ وطَارْ

(١٣) لَيْسَتْ مِنَ الشِّعْرِ القصيرِ الخُطَى ... ولا مِنَ المَشْرُوقِ والمُسْتَعارْ

(١٤) قدَّمْتُهَا قَبْلَ قدومي كما ... قدَّمتِ الحجّاجُ رَمْيَ الجِمارْ

(١٥) يا مَلِكاً أمْسَتْ تُجَيْبُ بِهِ ... تَحْسِدُ قحطانَ عليهِ نِزارْ

---

(٨) وهو : عامر بن الطفيل بن مالك أحد فرسان العرب المذكورين . انظر : ثمار القلوب ، ص : ٧٨ ، والشّعر والشعراء ، ١ / ٣٣٤ .
وهو : مالك بن الرّيب التميميّ النّهشليّ ، وهو من مازن تميم ، وكان فاتكاً لصّاً ، يصيب الطريق ثمّ أسلم فحَسُنَ اسلامه وغزا خُرَسانَ مع سعيد ابن عثمان ، ومات بها . انظر : الشعر والشعراء ، ١ / ٣٥٢ ، وجمهرة أشعار العرب ، ص : ٥٧٨ .
وذو الخِمار : لقب عوف بن الرّبيع بن سماعة ذي الرّمحين ، مِنْ فرسان العرب المعروفين . انظر : تاج العروس ، ٣ / ١٨٨ .

(٩) السِّرار : الليلة التي يستتر فيها القمر . لسان العرب : ((سَرَرَ)) .

(١٥) وهي تُجَيب بنت ثوبان بن سليم بن رهاء من مَذْحِج ، واليها بنو عدّي ، وبنو سعد ، وهي من قبائل اليمن ، وفيها قال الرسول — عليه السلام : ((وتجيب أجابت الله ورسوله)) . أنظر : الانساب ، ٣ / ٢٠ ، وجمهرة أنساب العرب ، ص : ٢٢٩ ، ولسان العرب ، ١ / ٢٢٧ .
وأما قحطان فهو : قحطان بن سام بن نوح واليه ترجع اليمانية كلّها . انظر : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٧ .
ونزار : أبو قبيلة وهو : نزار بن معدّ بن عدنان ومن ولده : مضر وربيعة ، واياد ، وأنمار . انظر : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٩—١٠ ، ولسان العرب ، ٥ / ٢٠٤ ، والسّيرة ، ١ / ١٢ .

(١٦) لَوْلاكَ لَمْ تَشْرَفْ مَعَدٌّ بِهَا ... جَلَّ أبو ذَرٍّ فَجَلَّتْ غِفَارْ

ومنها :

(١٧) أقمتَ للعِلْمِ مَنَاراً وَمَا ... أظُنُّ في الدُّنْيا لعِلْمٍ مَنَارْ

(١٨) فما نداماكَ سِوَى أهْلِهِ ... وَكُلُّهُم بين ندامَى العُقَارْ

(١٩) مِيزُكَ ميزانُ عقولِ الورى ... وَفَهْمُكَ العَدْلُ لكُلِّ عِيَارْ

(٢٠) تبدو لك الهُجْنَةُ في لَحْظَةٍ ... وَتُعْرِفُ الأسنانَ قَبْلَ الفِرَارْ

(٢١) مِنْ لَفْظِهِمْ تَعْرِفُ ما هُمْ وَفي ... جَحْفَلَةِ العَاثِرِ يبدو المَشَارْ

(٢٢) فما رأتْكَ العَيْنُ تُصْغِي إلى ... مُحَالِ عِجْلٍ سامِرِيِّ الخُوَارْ

---

(١٦) غفار : بطن من كنانة ، وهم رهط أبي ذر الغفاريّ . أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص : ١٨٦ ، ولسان العرب ، ٥ / ٢٩ .

(٢٠) فرّ الدّابة : كشف عن أسنانها لينظر ما سِنها . لسان العرب : ((فَرَرَ)) .

(٢٢) السّامرة : قبيلة من قبائل بني اسرائيل ، واليهم نُسِبَ السّامريّ الذي عبد العجل الذي صُيِّغَ له خُوار . لسان العرب : ((سَمَرَ)) .

وقال متغزلا :

ـ الكامل ـ

(١) قَدْ كُنْتَ في وَعْدِ العِذارِ فأنْجَزا ... وَقَضى لِحُسْنِكَ بالكَمالِ فأوْجَزا

(٢) وافَى لِنَصْرِ الحُسْنِ إلاّ أنَّهُ ... وَلّى إلى فِئَةِ الهَوى مُتَحَيِّزا

(٣) عَطْفٌ تَعَلَّمَ مِنْكَ عِطْفُكَ عَطْفَهُ ... وَجَدَ الفُؤادُ بِهِ السَّبِيلَ إلى العَزا

(٤) لَمْ يَكْفِ وَجْهَكَ حُسْنُهُ وَبَهاؤُهُ ... حتّى اكْتَسى ثَوْبَ الجَمالِ مُطَرَّزا

(٥) سُبْحانَ مَنْ أعْطاكَ حُسْناً ثانِياً ... وَبِثالِثٍ مِنْ فَضْلِ حُسْنِكَ عَزَّزا

التخريج :

الابيات كلّها في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٤ — ٢١٥ ، وفي شرح مقامات الحريريّ ، ٥ / ٢٤٠ ، وفي المنتف ، ص : ١٠٢ — ١٠٣ .

والبيت الخامس في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٨٥ .

(١) العِذار : عذار الرّجل : شَعْرُهُ النّابت في موضع العِذار ، وهو استواء شَعْر الغُلام . لسان العرب : ((عَذَرَ)) .

(٣) في شرح مقامات الحريريّ : ((عَطْفٌ تَعلّم منه قَلْبي عَطْفَهُ .)) .

(٥) في شرح مقامات الحريري : ((وبثالثٍ مِنْ حُسْنِ فِعْلِكَ عَزَّزا .)) .

وقال في عُودِ الغِناء :

— الطويـــل —

(١) سَقى اللهُ أرْضاً أنبتتْ عُودَكَ الّـــذي زَكَتْ منه أغصانٌ وطابتْ مغـــارِسُ

(٢) تَغَنّى عَلَيْها الطّيرُ وهي رَطيبَـــةٌ وَغَنّى عليها النّاسُ والعُودُ يابِـــسُ

التخريـــج :

البيتان في الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٩ ، وفي شرح مقامات الحريـــريّ ، ٣ / ٢٠٥ ، وفي المطرب ، ص : ٧٦ ، وفي رايات المبرّزين ، ص : ١٤٨ ، وفي فوات الوفيّات ، ٢ / ٤١٢ ، وفي الوافي بالوفيّات ، ٣ / ١٠٠ ، وفـي الشعور بالعور ، ص : ٦١ ، وفي نهاية الارب ، ٥ / ١٢٣ ، وفي النّتـــف ، ص : ١٠٣ .

(١) في المطرب : ((زَكَتْ منه أعراقٌ وطابتْ مَغارِسُ .)) .
وفي رايات المبرّزين : ((زَكَتْ منه أعطافٌ وطابتْ مَغارِسُ)) .
وفي نهاية الارب : ((زَكَتْ منه أنفاسٌ وطابتْ مَغارِسُ .)) .

(٢) في شرح مقامات الحريريّ :
((تَغَنّى عليه الطّيرُ والعُودُ أخضَـــرُ وَغَنّى عليه الغِيدُ والعُودُ يابسُ)) .
وفي المطرب :
((تَغَنّى عليه الطّيرُ والعُودُ أخضَـــرُ وغنّتْ عليه الغِيدُ والعودُ يابسُ .)) .
وفي رايات المبرّزين :
((تَغَنّتْ عليه الطّيرُ والعُودُ أخضَـــرُ وغنّت عليه الغيد والعودُ يابسُ)) .
وفي فوات الوفيّات : ((وغنّت عليها النّاسُ والعودُ يابس .)) .
وفي نهاية الارب :
((تغنّت عليه الوُرْقُ والعودُ أخضَـــرُ وغنّتْ عليه الغِيدُ والعُودُ يابِسُ)) .

وقال ابن شرف مخاطباً المعتمد عبّاد :

ـ البسيط ـ

(١) أأنْ تصيّدْتَ غيري صَيْدَ طائِرَةٍ أوسعْتَها الحبَّ حتّى ضمّها القفصُ
(٢) حسبْتَني فُرْصَةً أخرى ظفِرْتَ بها هيْهاتَ ما كلّ حينٍ تُمْكِنُ الفُرَصُ
(٣) وظاهِرٌ حسنٌ أيضاً لِتِهْمَتِها لكنْ لها باطِنٌ في طيّهِ قِصَصُ
(٤) لكَ الموائِدُ للقُصّادِ مُترَعَةً تُروي وتُشبِعُ لكنْ بعْدَها غُصَصُ
(٥) ولستُ أعجبُ مِنْ قومٍ بها انتشَبُوا لكنّما عَجَبي مِنْ مَعْشَرٍ خَلَصُوا
(٦) ولمْ يطِبْ قطُّ لي مَنْ يَلَذُّ ولا سلْوى إذا كانَ في عُقْباهُما مَغَصُ

التخريـــج :

الأبيات كلّها في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٨٢ .
والأبيات : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، في مسالك الابصار ، ق ١ ج ١١ / ٢٣٩ .
والأبيات : ١ ، ٢ ، ٤ ، في فوات الوفيّات ، ١ / ١٤٨ .
(١) في المسالك : ((لَئِن تصيّدْتَ غيري صَيْدَ طائِرَةٍ .)) .
وفي فوات الوفيّات : ((أأنْتَ صيّدْتَ غيري صَيْدَ طائِرَةٍ)) .
(٥) في المسالك : ((وإنّما عَجَبي مِنْ مَعْشَرٍ بِها انتشَبُوا .)) .

ـ الضّـــاد ـ

وقال في الغُرْبَةِ :

ـ السّريع ـ

(١) إنْ ترمِكَ الغُرْبَةُ في مَعْشَـــرٍ قَدْ جُبِلَ الطَّبْعُ على بُغْضِهِـــمْ

(٢) فَدَارِهِمْ ما دُمْتَ في دَارِهِـــمْ وأرْضِهِمْ ما دُمْتَ في أرْضِهِـــمْ

التخريـــج :

البيتان في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٧٢ ، وفي الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٧ ، وفي شرح مقامات الحريريّ ، ٢ / ٢٥٨ ؛ وفي معجم الأدباء ، ١٩ / ٣٨ ، وفي المطرب ، ص : ٧٧ ، وفي معالم الايمان ، ٣ / ١٩٣ ، والنتّف ، ص : ١٠٣ .

(١) في الخريدة : ((إنْ تُلْقِكَ الغُرْبَةُ في مَعْشَرٍ تَتَآمَروا فيكَ على بُغْضِهِمْ)) .
وفي شرح مقامات الحريريّ : ((قَدْ جُبِلَ النّاسُ على بُغْضِهِمْ)) .
وفي المطرب : ((إنْ تُلقِكَ الغُرْبَةُ في مَعْشَرٍ تَطابَقُوا فيكَ على بُغْضِهِمْ)) .

— الطّـــاء —

وقال في متجسّس :

— البسيـــط —

(١) وَناصِبٍ نَجْوَ أفواهِ الهَوَى أُذُنـــاً ... كالقَعْبِ يَلْقَطُ مِنْهُم كُلَّ ما سَقَطَـــا

(٢) تَرَاهُ يَلْتَقِطُ الأخبارَ مُجْتَهِـــداً ... حَتّى إذا ما وَعاها زَقَّ ما لَقَطَـــا

التخريـــج :

البيتان في الخريدة ، ق ٤ ج ٢ / ١١٩ ، وفي نهاية الأرب ، ٣ / ٢٩٤ .

(١) في نهاية الأرب : ((كالقَعْبِ يلقطُ فيها كُلَّ ما سَقَطا .)) .
القَعْب : القَدَح الضَّخْم ، الغليظ . لسان العرب : ((قَعَبَ)) .

(٢) في نهاية الأرب : ((يَظَلُّ يَلْتَقِطُ الأخبارَ مُجْتَهِداً .)) .

— الميـــن —

— الكامـــل —

(١) سَلْ عَنْ رِضايَ عَنِ الزَّمانِ فإنَّـــهُ ... كَرِضى الفَرَزْدَقِ عَنْ بَني يَرْبُـــوعِ

(٢) للّهِ حالٌ قَدْ تَنَقَّلَ عَهْدُهَـــا ... بِخِلافِ نَقْلِ الدَّهْرِ حالَ صَريعِ

(٣) دارَتْ دَرارِيُّ الخُطُوبِ قَواصِـــداً ... حَتّى نَظَرْتَ إليَّ مِنْ تَرْبيـــعِ

ومنها :

(٤) لوكانَ خُلْقُكَ المَيّالِي لَمْ يَـــزَلْ ... جِسْمُ الثَّرى وعليه ثَوْبُ ربيـــعِ

(٥) سَلَكَ الوَرى آثارَ فَضْلِكَ فانْثَنَـــى ... متكلِّفٌ عن مَسْلَكٍ مطبـــوعِ

(٦) أبناءُ جِنْسِكَ في الحُلَى لا في العُلا ... وأقولُ قَوْلاً لَيْسَ بالمَدْفُـــوعِ

(٧) أبداً تَرى البيتين يَخْتَلِفانِ في الـ ... مَعْنَى ويَتَّفِقانِ في التَّقْطيـــعِ

التخريـــج :

الابيات : الاول ، والثاني ، والثالث ، في الذخيرة ، ق٤ م١/ ٢٢٦ ، وفي شرح مقامات الحريري ، ٤/ ٨٨ ، وفي النتف ، ص : ١٠٤ .

والبيت الرابع : في الوافي بالوفيات ، ٣/ ٩٩ ، وفي الشعور بالصور ، ص : ٦١ .

والابيات : الخامس ، والسادس ، والسابع ، في معاهد التنصيـــص ، ٢/ ٥٥ ، وفي الوافي بالوفيات ، ٣/ ٩٩ ، وفي الشعور بالصور ، ص : ٦١ ، وفي النتف ، ١٠٤ — ١٠٥ .

(١) بنو يربوع : وهم كليب بن يربوع ، وهم رهط جرير بن عطية بن حذيفـــه الشاعر المعروف . جمهرة أنساب العرب ، ص : ٢٢٥ .

(٢) في شرح مقامات الحريري : ((كَخِلافِ نَقْلِ الدَّهْرِ حالَ صَريعِ)) .
وأما صريع : فهو مسلم بن الوليد ، كان مداحاً حسناً ، ولي بريـــد جرجان في خلافة المأمون الى أن توفي بها . أنظر : الشعـــر والشعراء ، ٢/ ٨٣٢ ، والاغاني ، ١٨/ ٣١٥ .

وقال من قصيدة :

ـ الطويل ـ

(١) وشمس تراخت أن تغيب لقبلتي ... كما أمسكت فيما مضى شمس يوشع

(٢) فيا قاطعاً وصلي ويا واصلاً غدي ... بأمسي ويومي في العذاب المتتبع

(٣) صرفت رجائي عن لعل وعن عسى ... وأبعدتني باليأس من كل مطمع

(٤) أغني بإطماع الوصال على النوى ... إذا لم تقاتل ياجبان فشجع

(٥) لديك فؤاد ماله من مطالب ... أأطلب في بعضي وقد بان أجمعي ؟

(٦) وديعة ميت أنت فيها محكم ... وإن شئت فاحفظها وإن شئت ضيع

(٧) أرى مهجات في يديك فما ترى ... بمن شئت أوقع أو بما شئت وقع

التخريج :

الأبيات في الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٦ .

والبيت الرابع : في الغيث ، ١ / ١٥٦ .

(١) وهو : يوشع بن نون بن افراثيم بن يوسف عليه السلام ، وهو ابن أخت النبي موسى عليه السلام لزمه ليتعلم منه ، وقد زعم اليهود أن الشمس قد توقفت من أجله عن المغيب حتى فتح الأرض المقدسة انظر : تفسير ابن كثير ، ٣ / ٩٢ ، والجامع لأحكام القرآن ، م ٦ ج ١١ / ١١ ، وأنبياء الله ، ص : ٢٥٩ .

وقال ابن شرف :

— الكامل —

(١) قالت أذو شيب فقلت مخادعاً ... لو جاز عند الفانيات خداعي

(٢) ما شبت لكن خفت يشتهر الهوى ... فليست للرقباء غير قناعي

(٣) قالت أشد عليك مما خفته ... ما خلتها لجنة لدفاعي

التخريج :

الأبيات في مسالك الأبصار ، ق ١ ج ١١ / ٢٤٢ .

— الفَيْن —

وقال في الموز :

— السّريع —

(١) يا حبّذا المَوْزُ واشْتِهاؤُهُ ... مِنْ قَبْلِ أنْ يمضَغَهُ الماضِغُ

(٢) لانَ إلى أنْ لامَسَ لَيْنُهُ ... فالفَمُّ ملآنٌ بِهِ فارِغُ

(٣) سيّان قُلْنا مأكلٌ طَيِّبٌ ... فيه وإلّا مَشْرَبٌ سائِغُ

(٤) إنْ قِيلَ فيما قد حَلا طَيِّبٌ ... فالمَوْزُ حلوٌ طَيِّبٌ بالِغُ

(٥) أحْلَى مَذاقاً مِنْ دِماءِ العِدا ... أُمْكِنَ مِنْها أسَدٌ والِغُ

التخريج :

الأبيات : الأول ، والثاني ، والثالث ، في بدائع البدائه ، ص : ٢٤٠ ، وفي المطرب ، ص : ٧٤ ، وفي نهاية الأرب ، ١١/ ١٠٧ — ١٠٨ ، وفي النتف ، ص : ١٠٥ .

والأبيات : الأول ، والثاني ، والثالث ، والرابع ، والخامس ، في نهاية الأرب ، ١١/ ١٠٧ — ١٠٨ ، وفي مناهج الفكر ، ج ٤ / ١٢٣ .

ـ الفـــاء ـ

وقال ابن شـــرف :

ـ البسيط ـ

(١) أهْلَ الصَّفاءِ نأيْتُمْ بَعْدَ قُرْبِكُـــمُ فما انْتَفَعْتُ بِعَيْشٍ بَعْدَكُمْ صَـــافِ

(٢) وَقَدْ قَصَدْتُ نَدَى مَنْ لا يُوافِقُنِـــي فكانَ سَهْمِيَ عَنْهُ الطّائِشَ الهَافِـي

(٣) أرَدْتُ عَمْراً وَشَاءَ اللّهُ خَارِجَـــةً أما كَفَى الدَّهْرُ مِنْ خُلْفِي وإخْلافِي ؟

التخريـــج :

الأبيات في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٦ .

وقال من قصيدة في مدح المعتضد عبّاد :

— الكامل —

(١) لولا هُمُ لَحَجَجْتُ أَوَّلَ حِجَّةٍ ... حَرَمَ الكِرَامِ وَطَالَ فيه طَوَافِي

(٢) وَلَزُرْتُ حِمْصَ الغَرْبِ أَغْرَبَ زَائِرٍ ... بِغَرَائِبٍ كالحلّةِ الأفْوَافِ

(٣) وَزَهَتْ وادِيَها بِمِثْلِ مُحَابِيهِ ... مِنْ سَلْسَبِيلٍ في الكُثُوبِ سُلَافِ

(٤) وأَرَيْتُهُ بَحْرًا يُفَاخِرُ قَعْرُهُ ... بِلآلِئٍ فيه بِلا أَصْدَافِ

ومنها :

(٥) يا حَاسِدَيْهِ على مُلاً حُطَّتْ لَهُ ... سَبَقَ القَنَا بالنُّونِ بَعْدَ الكَافِ

(٦) يُخْلِي الدِّيَارَ مِنَ الجُسُومِ وَيَحْتَنِي ... ثَمَرَ الرُّؤُوسِ وطُرْفَةَ الأطْرَافِ

(٧) فكأنَّما الأجْسَامُ بَعْدَ رُؤُوسِهَا ... أبياتُ شِعْرٍ مالَهُنَّ قَوَافِ

التخريج :

الأبيات في الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢١ .

والبيتان : السادس ، والسابع في مسالك الأبصار ، ق ١ ج ١١ / ٢٣٩ .

(٢) الأفواف : الثياب الرقيقة الموشاة المخططة . لسان العرب : ((فوف)) .

(٣) السلاف : ماسال من غير عصر . لسان العرب .

وقال طُفَيْلاً في زُحَل * :

— المتقارب —

(١) وَشَيْخٍ لَهُ نُوقَةٌ فَخْمَةٌ ... عَلَتْ وَهْوَ فيها جَميعَ الغُرَفْ

(٢) يَمُرُّ ويُرْجِعُ طُولَ الزَّمانِ ... فَكَمْ مَرَّ مِنْ مَرَّةٍ وانْصَرَفْ

(٣) ويُفْسِدُ كُلَّ مَكانٍ هَواهُ ... على أنَّهُ غايَةٌ في الشَّرَفْ

التخريج :

الأبيات في الغيث ٢، ٢٨٠/٢ .

* زُحَل : كوكب من الخُنَّس ، وهو من أعظم الكواكب السّيارة وأبعدها في النّظام الشّمسي . لسان العرب : ((زَحَلَ)) ، والمعجم الوسيط ، ٣٩٣/١ .

— القـــاف —

وقال ابن شرف من قصيـــدة :

— البسيط —

(١) عَجِبْتُ مِنْهُ وأَحْشَائِي مَنَازِلُـــهُ كَيْفَ استقرَّ بِهَا مِنْ كَثْرَةِ القَلَـــقِ

التخريـــج :

البيت في الذّخيرة ، ق١ م٢ / ٨٢٢ .

وقال من قصيدة يصف فيها أطفاله :

— الطويل —

(١) كأنّي وأفراخي إذا الليلُ جنّنا ... بَيات الكَوى يَجْفو جُفونَا ويَطْرُقُ

(٢) حَمائِمُ أُنْمِلْنَ الوُكُورَ فَنَمَّها ... تَجانُسها حتّى تراءى المُفَرَّقُ

(٣) إذا أفزعتْهم نَبْوةٌ زاحَموا لَها ... مُلُوعيَ حتّى وِدُّهُمْ لو تُفَتَّقُ

(٤) ويَصْغُرُ جِسْمي عَنْ جميعِ احْتِمالِهِمْ ... فَيَثْبُتُ ذا فيه وذا عنه يَزْهَقُ

(٥) كأنّهمُ لم يَسْكُنوا ظِلَّ نِعْمَةٍ ... لَها بَهْجَةٌ مِلْءَ العُيونِ ورَوْنَقُ

(٦) إلى أنْ غَدَوْا فيءَ القَنا في فَتارَةٍ ... تُباعُ وفي بَعْضِ الأحايينِ تُعْتَقُ

(٧) وَطَوْراً على موجِ البِحارِ كأنّنا ... غَذَى قَدْ وَثِقْنا أنّنا لَيْسَ نَغْرَقُ

(٨) ونَحْنُ نُفوسٌ تِسْعَةٌ لَيْسَ بَيْنَنا ... وبَيْنَ الرَّدَى إلّا عُوَيْدٌ مُلَفَّقُ

التخريج :

الأبيات في الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٢ ، وفي مسالك الأبصار ، ١١ / ٢٤٠ .

(٣) في المسالك : ((إذا تَرَعَتْهم نَبْوةٌ زاحَموا لَها .)) .

(٤) في المسالك : ((كأنّهم لم يُسْلَبُوا ظِلَّ نِعْمَةٍ)) . وهي تصحيف والصحيح ما أثبتناه .

وقال من قصيدة :

— الوافر —

(١) لَعَلَّ اللهَ يَفْتَكُّ المُعَنَّى ... أَسِيرٌ فَيَهْتَدِي وَهُوَ الطَّلِيقُ

(٢) وَإِنْ أَرجُو التَّخَلُّصَ مِنْ عظيمٍ ... فقد يَنْجُو مِنَ اللُّجَجِ الغَرِيقُ

(٣) لَقَد أَنفَذْتُ مِنْ جَلَدِي دُرُوعاً ... زَرَيْنَ على الَّذي نَسَجَتْ سَلُوقُ

(٤) وَصَبْراً لو تَجَسَّمَ لي مَجَنّاً ... كَفَانِي ما رَمَتْهُ المَنْجَنِيقُ

(٥) وَأَفْقَدُ ما طَلَبْتُ فَلَمْ أَجِدْهُ ... رَفِيقٌ في صَحَابَتِهِ رَفِيقُ

(٦) فأَصبحَ وَهْوَ للعَنْقَاءِ ثَانٍ ... وثَاوٍ حَيْثُ فَرَّخَتِ الأُنُوقُ

(٧) صَحِبْتُ بِهذِهِ الدُّنيا أُنَاساً ... إذا غَدَرُوا فَغَدْرُهُمُ وَثِيقُ

(٨) وَلَمْ أَصْحَبْهُمُ وُدّاً ولكِنْ ... كما جَمَعَ العَدُوَّينِ الطَّرِيقُ

التخريج :

الأبيات في الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٤ .

والبيتان : السابع ، والثامن ، في مسالك الأبصار ، ١١ / ٢٣٩ .

(٣) السلوق : الدروع الجيدة . لسان العرب : ((سَلَقَ)) .

(٦) العنقاء : طائر متوهم لا وجود له . لسان العرب : ((عَنَقَ)) .

وقال ابن شرف من قصيدة :

— الطويل —

(١) سَقَى القَصْرَ بالمَيْدانِ أَحْلافُ مُزْنَةٍ ... تَرَاحَتْ على الرَّوْحاءِ مِنْها أفاويقُ

(٢) على أنَّهُ مِمَّا نَبَتْ عَنْهُ أَسْهُمي ... فلا حَزْلي في الأفْقِ مِنْهُ ولا فُوقُ

(٣) أُنادِيهِ والبَحْرُ المُحيطُ مُجاوِبي ... ودُونِي خَليجٌ مِنْهُ أَفْيَحُ مَخْرُوقُ

(٤) وقُرْطُبَةُ ضَمَّتْ إليها جَوانِحي ... كما ضَمَّ مِنْ عَفْراءَ عُرْوَةَ تَمْنِيقُ

(٥) نزلنا بِها لا نَبْتَغي السُّوقَ عِنْدَها ... فما كانَ بُدٌّ أَنْ أَقامَتْ لنا سوقُ

(٦) وأحيا ابْنُ يحيى مَيِّتاتِ خَواطِري ... وفَسَّحَ آمالي وكانَ بِها ضِيقُ

(٧) أبا حَسَنٍ أَحْسَنْتَ بَدْءاً وعَوْدَةً ... وللمُحْسِنِ إِشْمارٌ إذا كانَ تَوْرِيقُ

(٨) فَلَمْ يُرْبُؤُسٌ إذ وُلِّيتَ أُمورَها ... ولا كَسَدَتْ سوقٌ إذ التَفَّتْ السُّوقُ

(٩) وكَمْ لَقِيَتْ حَرْبَ الأزارِقِ مِنْهُمُ ... وكَمْ زَرَقَتْ في جانِبَيْها المَزارِيقُ

التخريج :

الأبيات في الذخيرة ، ق٤ م١ / ٢٣٦ .

(١) القَصْر : مدينة عظيمة بينها وبين القيروان أربعة أميال ، أسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم سنة ١٨٤ هـ ، واتخذ منها مقراً لأمراء بني الأغلب . معجم البلدان ، ٤ / ٣٦٢ .

(٦) وهو : ابراهيم بن محمد بن يحيى ، يُكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن السقاء وهو مدبّر الملك الجهوري بقرطبة . الذخيرة ، ق٤ م١ / ٢٣٨ .

وَقَالَ في وَصْفِ مَنْزِلٍ :

ـ السَّريـع ـ

(١) وَمنزلٍ قُبِّحَ مِنْ مَنْـــزِلِ النَّتْنُ والظُّلْمَةُ والضِّيْـقُ
(٢) كأنَّني في وَسْطِهِ قَيْشَـــةٌ ألوطُهُ والعَرَقُ الرِّيْـقُ

التخريـج :

البيتان في بدائع البدائه ، ص : ١٢١ ، وفي فوات الوفيات ، ٢/ ٤١٠ ، وفي الوافي بالوفيّات ، ٣/ ٩٧ ـ ٩٨ ، وفي الشعور بالعور ، ص : ٦١ ، وفي الغيث ، ٢/ ٣٨٨ ، وفي النّتف ، ص : ١٠٦ .

(١) في الغيث ، وفي فوات الوفّيات ، والوافي بالوفيّات ، والشعور بالعور :
((كأنّما حمّامنا فقعـــة النّتن والظلمة والضيـــق .)) .

(٢) في فوات الوفيّات ، وفي الوافي بالوفيّات ، وفي الشعور بالعور :
((كأنّني في وَسْطِها قَيْشَـة ألوطها والعرق والرّيـق .)) .
وفي الغيث : ((كأنّنا في وسطها قَيْشَة .)) .

وقال ابن شـــرف :

— مجزوء الكامل —

(١) قالوا تَسَابَقَتِ الحَمِيْـــــرُ فقلتُ إذ عُدِمَ السَّوَابِـــقْ

(٢) خَلَتِ البُيُوتُ مِنَ الرُّخَـــــا خِ فَفُرِّزَتْ فِيهَا البَيَاذِقْ

التخريـــج :

البيتان في الذخيرة ق٤ م١/ ٢٢٦ ، وفي معجم الأدباء ، ١٩/ ٤٠ ، وفي فوات الوفيّات ، ٢/ ٤١٢ ، وفي الوافي بالوفيات ، ٣/ ١٠٠ ، والخميث ٢/ ٢٠٥ ، والنتف ، ص : ١٠٦ .

والبيت الأول في الشعور بالصور ، ص : ٦١ .

(١) في معجم الأدباء : ((قالوا تَسَابَقَتِ الحَمِيْـــرُ فقلتُ مِنْ عَدَمِ السَّوَابِقْ .)) .
وفي الوفيات ، والوافي بالوفيات ، والخميث : ((مِنْ عَدَمِ السَّوَابِقْ .)) .
السوّابق : جمع سابق ، وهو الحصان . لسان العرب : ((سَبَقَ)) .

(٢) في معجم الأدباء ، وفوات الوفيّات ، والخميث ، والوافي بالوفيّات :
((خَلَتِ الدُّسُوتُ مِنَ الرُّخَـــــا خِ فَفُرِّزَتْ فيها البَيَـــاذِقْ .)) .
الرُّخُ : قطعة مِنْ قِطَعِ الشّطرنج . لسان العرب : ((رَخَخَ .)) .

وقال ابن شـــرف :

— الطويل —

(١) يقولون سادَ الأرذلونَ بِمِصْرِنَـــا وَصارَ لَهُم قَدْرٌ وَخَيْلٌ سَوابِـــقُ

(٢) فقلتُ لهم ولّى الزمان ولم تَـــزل تُفَرْزِنُ في أُخْرَى الدُّيُوتِ البَيَاذِقُ

التخريـــج :

البيتان في الذّخيرة ، ق ٤ م١ / ٢٢٦ ، وفي رايات المبرّزين ، ص : ١٤٢ .

(١) في رايات المبرّزين :

((يقولون سادَ الأرذلون بأرْضِنَـــا وَصار لَهُم مالٌ وخَيْلٌ سَوابِقُ)) .

(٢) في رايات المبرّزين :

((تُفَرْزِنُ في أخرى الدّسوتِ البَيَاذِقُ .)) .

البَيَاذِق : قطعة من قطع الشطرنج . لسان العرب : ((بَذَقَ)) .

— الكـــاف —

وقال ابن شرف طُيفزاً في المرآة :

— مجزوء الرّمل —

(١) ما يقولُ الشَّيْخُ في شَـــي ءٍ تَراهُ وَبَراكَـــا

(٢) ثُمَّ لا تلقَـــــاهُ إلاّ حِيْنَ لا يَلْقَى سِوَاكَا

التخريـــج :

البيتان في شرح مقامات الحريريّ ، ٥ / ٧١ ، وفي النُّتَف ، ص : ١٠٦ .

— اللام —

وقال ابن شرف من قصيدة :

— الوافر —

(١) يَعِيشُكِ نادِ أيّامي وَقُلْ مَهْلاً ... لَدَيْكِ إلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ

(٢) أراكِ كما يَرى المُحْتاجُ مالاً ... وَقد مَلَكَتْ عليه يَدُ البَخِيلِ

(٣) أراحِلَةً وما أبقَيْتِ مِنّي ... سِوى لَحْظٍ يُتَرْجِمُ عن غَلِيلِ

(٤) وَقد عاقَبْتِ بالعَبَراتِ عَيْني ... بِلا ذَنْبٍ وَما ذَنْبُ الرَّسُولِ

(٥) وَجَدْتُ النّاسَ كُلَّهُمُ طُلُولاً ... فَلَمْ أُطِلِ الوُقُوفَ على الطُّلُولِ

(٦) وَتَسْمَعُ مِنْهُمُ ما لا تَراهُ ... كَسامِعِ ضَرْبَةِ السَّيفِ الصَّقِيلِ

(٧) فَمَنْ بِسِوَاكَ بَاعَكَ فاغْنَ عَنْهُ ... كما اسْتَغْنَى عليٌّ عَنْ عَقِيلِ

التخريج :

الأبيات في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٧) وهو : عقيل بن عبد مناف (أبي طالب) بن عبد المطلب أخو عليّ بن أبي طالب ، ولد معه توأماً ، وكان معروفاً بفصاحة اللّسان ، وسعة العلم ، فارق أخاه علياً في صفّين ووقف إلى جانب معاوية .

أنظر : البيان والتبيين ، ١ / ٣٢٢ ، والذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٢٥ ، وجمهرة أنساب العرب ، ص : ٦٩ ، والأعلام ، ٥ / ٤٠ .

وقال من قصيدة يتشوّق فيها الى وطنه :

— الكامل —

(١) يا قيروانُ وَدِدْتُ أنّي طائرٌ ... فأراكِ رُؤيةَ باحثٍ متأمّلِ

(٢) آهاً وأيّةُ آهةٍ تشفي جوى ... قلبٍ بنيرانِ الصّبابةِ مُصطلي

(٣) أبْدَتْ مفاتيحُ الخُطوبِ عجائباً ... كانت كوامنَ تحتَ غيبٍ مُقفلِ

(٤) زعموا ابنَ آوى فيكِ يعوي والصّدى ... يذراكِ يصرخُ كالحزينِ المُثكلِ

(٥) يا بيدَ روطةَ والشّوارعُ حولَها ... معمورةٌ أبداً تغصُّ وتمتلي

(٦) يا أربُعي في القُطبِ منها كيفَ لي ... بمعادِ يومٍ فيكِ لي ومن أينَ لي ؟ !

(٧) يا لو شهدتِ إذا رأيتُكِ في الكرى ... كيفَ ارتجاعُ صبابةٍ بعدَ تكهّلِ

(٨) لا كثرةُ الإحسانِ تنسي حسرةً ... هيهاتَ تذهبُ علّةٌ بتعلّلِ

(٩) وإذا تجدّدَ لي أخٌ ومنادمٌ ... جدّدتُ ذكرَ إخاءِ خِلٍّ أوّلِ

(١٠) ((لو كنتُ أعلمُ أنّ آخرَ عهدِهم ... يومُ الرّحيلِ فعلتُ ما لم أفعلِ)) .

الأبيات في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٣ .

والأبيات : ١ ، ٧ ، ٨ في معالم الايمان ، ١ / ١٧ — ١٨ ((تحقيق شبّوح)) .

والأبيات : ١ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ في معالم الايمان ، ٣ / ١٩٣ — ١٩٤ . ((تحقيق ماضور)) .

والبيت : ٦ في تكميل الصلحاء ، ص : ٣٣٧ .

والأبيات : ١ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ في النتف ، ص : ١١٠ .

(٥) في تكميل الصّلحاء : ((يا بئرَ روطة والشوارع حولها .)) .

وبيروطه : مكان معروف بالقيروان . انظر : تكميل الصّلحاء ، ص : ٣٣٧ .

(١٠) ديوان جرير ، ٢ / ٩٤٠ .

وقال في مدح ابن أبي الرّجال :

— البسيط —

(١) رَسْمُ الشّجيّ البُكا في الرّسْمِ والطّلَلِ ... والدّمْعُ حيلةُ أهلِ الفقْدِ للحِيَلِ
(٢) أفنى دموعي وجسْمي طُولُ هجْركُمُ ... حتّى جرتْ دمْعتي طلاً على طلَلِ
(٣) أبكي فلا جسدي أبقى ولا جلَدي ... ما لو أُصيبَ به جِسْمُ البِلى لبَلى
(٤) وحُسْنُ صبْري فلا يغرُرْكَ عن غِيَرٍ ... مِثْلُ الملاحةِ في أجفانِ ذي السّبَلِ

ومنها :

(٥) جاورْ عليّاً ولا تحْفلْ بحادِثةٍ ... إذا أدلّجْتَ فلا تسألْ عن الأسَلِ

التخريج :

الابيات : ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ في ألف باء ، ١/٤٩٨، في النتف ، ص : ١٠٩—١١٠ . والابيات : ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ في الذّخيرة ، ق ٤ م ١/٢٢٢، وفي شرح مقامات الحريريّ ، ٤/٢٢٣—٢٢٤، وفي رايات المبرّزين ، ص : ١٤٢، وإعجاب الكتّاب ، ص : ٢١٤ .
والابيات : ٥، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١ في مسالك الابصار ، ١١/٢٣٩، وص : ٢٤٣ . والابيات : ٥، ٧، ١٠ في فوات الوفيّات ، ٢/٤١١ ، وفي الوفيات بالوفيات ، ٣/٩٨ — ٩٩ ، وفي الشعور بالعور ، ص : ٦٢ .
والابيات : ٥، ٦، ٧، ٨، ١٠ في معجم الأدباء ، ١٩/٤١—٤٢ .
والبيتان : ٥، ١٠ في معاهد التنصيص ، ٢/٢٧٤ ، وفي خزانة الأدب ، ٧/٥٠٧ .
والبيت : ٢ في عنوان الموقعات ، ص : ٨١ .
والبيت : ١٠ في نهاية الارب ، ٧/١٣٠ .

(١) في معجم الأدباء : ((اذا نزعت فلا تسأل عن الامل .)) وهذا تصحيف .
(٤) السّبَل : أسبل دمعه ، وأسبل المطر والدّمع إذا هطلا . لسان العرب : ((سَبَلَ)) .
(٥) في المسالك : ((جاور عليّاً ولا تعبأ بحادِثةٍ .)) . والاسَل : الرّماح . لسان العرب : ((أسَلَ)) .

(٦) اسْمٌ حكاه المُسَمَّى في الفَعَالِ فقَد ... حَازَ المليَّين من قولٍ ومنْ عَمَلِ

(٧) فالماجِدُ السَّيِّدُ الحُرُّ الكريمُ لَهُ ... كالنَّعْتِ والعطفِ والتوكيدِ والبدلِ

(٨) زانَ الملا وسِواهُ شانَها وكَذا ... للشَّمْسِ حالانِ في الميزانِ والحَمَلِ

(٩) وربَّما عابه ما يفخرونَ بِهِ ... بُشْنا منَ الخَمْرِ ما يُهْوَى منَ الكَفَلِ

(١٠) سَلْ عنه وانطِقْ به وانظرْ إليه تجِدْ ... ملءَ المسامعِ والأفواهِ والمقَلِ

(١١) لا قاصداً أنْهُ إلاّ وأبْدَلَهُ ... يُسْراً مِنَ العُسْرِ أوْ أمناً مِنَ الوَجَلِ

---

(٧) في المسالك : ((كالنَّعْتِ كالعطْفِ كالتّوكيدِ كالبدلِ)) .

(٨) في شرح المقامات ، وفي معجم الأدباء : ((تميّز الشّمس في الميزان والحَمَل .)) .
الميزان والحمل : برجان في السّماء . لسان العرب : ((حَمَلَ)) .
وفي مسالك الابصار : ((وكذا الشّمس في الميزان والحَمَلِ .)) .

(٩) الكَفَلُ : ردف العَجُز . لسان العرب ((كَفَلَ)) .

(١١) الوَجَل : الخوف والفزع . لسان العرب : ((وَجَل)) .

وقال من قصيدة مطولة في مدح المنصور حفيد ابن أبي عامر* :

— الرمـــل —

(١)	عربي نحن عليه تمـــــــر	متحل نوره لا ينجلـــــي
(٢)	حز عطفيه فقلنا انـــــــه	ذو الفقار اهتز في كف علي
(٣)	ورأيت الناس صرعى حولـــــه	فكأن اليوم يوم الجمـــل
(٤)	تلك أخبار زمان قد مضـــــى	وأمور في السنين الأول
(٥)	زمن المنصور قوى منتـــــــي	وسرى همي وأحيا جذلي
(٦)	وسرور النفس من بعد الصبا	ناشر عصر الصبا والغـــزل
(٧)	فاستطيب العيش في بلدتـــه	فكأن الناس في قطربل
(٨)	وكأن الشمس من بهجتهـــا	أبدا فيها ببرج الحمل

التخريـــج :

الابيات في الذخيرة ، ق٤ م١ /٢١٨ .

* ذكر ابن بسام أنها طويلة . انظر : الذخيرة ، ق٤ م١ /٢١٨ .

(٢) العطف : المنكب . لسان العرب ، ((عطف)) .
ذو الفقار : المفقر من السيوف ؛ الذي فيه حزوز مطمئنة ، وكل شيء حز أو أثر فيه ، وذو الفقار : سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . لسان العرب : ((فقر)) .

(٧) قطربل : قرية بين بغداد وعكبرا ينسب اليها الخمر ، وهي متنزه للبطالين ، وحانة للخمارين ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها . معجم البلدان ، ٤ /٣٧١ .

وقال في بستان :

ـ الطّويل ـ

(١) سقى اللّهُ عيشي تحتَ ريّانَ يافعٍ ... مُفَدّاً بأندَاءٍ وبُرْدِ ظِلالِ
(٢) كأنّي إذا امتدّتْ عليّ ظِلالُهُ ... مَسَحْتُ على بُرْدَيّ رَدْعَ غوالِي
(٣) كأنّ على أوراقِهِ أدمُعَ الحَيَا ... نِظامَ لآلٍ أو نُجومَ ليالِي
(٤) كأنّ على أعنابِهِ سُندُسيّةً ... سَواتِرَ مِنْ حَرّ الهجيرِ كَوالِي
(٥) كأنّ مدِيّداتِ الترائِسِ فوقَنَا ... هَوابِطُ خِلْجانٍ تلينُ عَوالِي
(٦) كأنّ جَنَى المقطوفِ مِنْ ثمراتِها ... جَنَى النّحلِ ممزوجاً بماءِ زُلالِ
(٧) كأنّ سنا النّارنجِ فوقَ غصونِهِ ... سَنَى الخمرِ يُذكي بالكُوّةِ صالِي
(٨) كأنّ مبادِي الجِلّنارِ أنامِلٌ ... مُطرّفةٌ مِنْ داميات نِبالِ
(٩) كأنّ ذُرَى الرّمانِ غِيدٌ نواهِدٌ ... جَلاهُنّ في أعلى المِنَصّةِ جالِي
(١٠) كأنّ ثِمارَ النّبقِ أنجمُ عسجدٍ ... بِخِنْصرِ سَنا شمسٍ ونورِ هِلالِ

التخريج :

الأبيات في مقامات السّيوطيّ ، ص : ٣٦ .

(١) اليَافِع : الجبل ، وكلّ شيء مرتفع مشرف . لسان العرب : ((يَفَعَ)) .
المُفَد : العالي المرتفع . لسان العرب : ((مَفَدَ)) .

(٢) البُرْد : كساء يُلتحف به . لسان العرب : ((بَرَدَ)) .

(٤) السّندس : ضرب من الدّيباج . المعجم الوسيط ، ١/٤٥٧ .
الهجير : شِدّة الحَرّ في الظهيرة . لسان العرب : ((هَجَرَ)) .

(٧) النارنج : شجرة مثمرة من الفصيلة البرتقالية دائمة الخُضرة ، المعجم الوسيط ، ٢/٩٢٠ .
الكوّة : الخَرق في الحائِطِ ، والثّقب في البيت . لسان العرب : ((كوى)) .

(٨) الجِلّنار : زهر الرّمان . المعجم الوسيط ، ١/١٣٢ .

(١١) كأنّ ثِمارَ الخَوْخِ يُبْدِي جُنُوبَهَا ... خُدودٌ مِنَ التَّخْميشِ ذاتُ بَلالِ

(١٢) كأنَّ جَنَى وَرْدٍ بِهِ جُمِعَا مَعاً ... عقيقٌ ودرٌّ في ترائبِ خالِي

(١٣) كأنّ ذَكِيَّ الياسَمِيْنَ وَحُسْنَهُ ... جَميلُ ثناءٍ عَنْ جَزيلِ نَوالِ

(١٤) فيا حبّذا إذا رُحْتُ خالِيَاً ... بِهَذا وَذا لو أنَّ سِرّيَ خالِي

---

(١١) البَلَلُ : الطَّراوةُ . لسان العرب : ((بَلَلَ .)) .

وقال ابن شرف مِنْ قصيدةٍ في ذكر وطنه :

— الطويل —

(١) تذكرتُ والليلُ بيني وبينها ... وموصولةٌ فيحٌ ومهجورةٌ غفلُ

(٢) ومنْ دونها حربٌ عوانٌ وفارسٌ ... ولودٌ لها عنْ نفسها أبداً بعلُ

ومنها :

(٣) يُقرُّ امرؤُ القيسِ بنُ حُجْرٍ لفضلها ... ويُظهرُ عنها العجزَ علقمةُ الفحلُ

(٤) فلو وصلتْ عمري الليالي لوقتِهِ ... لقالتْ لهُ الأشعارُ ما قالتِ النملُ

التخريج :

الابيات في الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ١٤٠ .

(١) الفيح : السعة والانتشار ، وشدة القيظ من فيح جهنم . لسان العرب : ((فيح)) .
والغفل : كلّ ما لا علاقة فيه ولا أثر عمارة من الأراضين والطرق ، لسان العرب : ((غفل)) .

(٢) العوان : الظهير على الامر المساعد عليه . لسان العرب : ((عون)) .

(٣) وهو : علقمة بن عبدة التميميّ ، شاعر جاهليّ مشهور ، لقّب بعلقمة الفحل . أنظر : الشعر والشعراء ، ١ / ٢١٨ ، والأغاني ، ٢١ / ٢٢٤ .

(٤) يشير إلى قوله تعالى — : ((يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم .)) . سورة النمل ، أية رقم ((١٨)) .

وقال في الحُرِّ يَخْدِمُ أصحابَه :

— المنسرح —

(١) خادِمُنا خَيْرُنا وأفْضَلُنا ... تَطْرَحُ أعباءَنا وَيَحْمِلُها
(٢) فَنَحْنُ يُسْرَى اليَدَيْنِ تَخْدِمُها ... يُمْناهُما الدَّهْرَ وَهِيَ أفْضَلُها

التخريج :

البيتان في معجم الأدباء ، ١٩/ ٤١ ، وفي الغيث ، ٢/ ٢٨٦ ، والنّتف ، ص : ١١١ .

وقال مِنْ قصيدة طويلة في ذكر وطنه :

— الخفيف —

(١) آهِ للقيروانِ أنَّهُ شَجْـــــوٌ ... عَنْ فؤادٍ بِجَاحِمِ الحُزْنِ يَصْلَـــى

(٢) حِيْنَ عادَتْ بِهِ الدِّيارُ قُبُـــوراً ... بَلْ أقولُ الدِّيارُ مِنْهُنَّ أخْلَـــى

(٣) ثُمَّ لا شَمْعَةٌ سِوَى أنْجُمٍ تَخْـــ ... ـطُو على أُفْقِها نَواعِسَ كُسْلَـــى

(٤) بَعْدَ زُهْرِ الشَّمَاعِ تُوقَدُ وَقْـــداً ... وَمَتَانِ الذُّبالِ تُفْتَلُ فَتْـــلا

(٥) والوجوهِ الحِسَانِ أشرقَ مِنْهُنَّ ... وبِفُضْلَتِهِنَّ مِصْنَعٌ وَشُكْـــلا

(٦) لو رأيْتَ الذينَ كانَ لَهُمْ سَهْـ ... ـلُكَ وَعْراً قَدْ صَيَّرُوا الوَعْرَ سَهْلا

ومنها :

(٧) بَعْدَ يومٍ كأنَّما حُشِرَ الخَلْـــ ... ـقُ حُفاةً بِهِ عَوارِيَ رَجْلَـــى

(٨) ولَهُم زَحْمَةٌ هُنالِكَ تَحْكِـــي ... زَحْمَةَ الحَشْرِ والصَّحائِفُ تُتْلَـــى

(٩) وَعَجِيجٍ وَضَجَّةٍ كَضَجِيجِ الـ ... ـخَلْقِ يَبْكُونَ والسَّرائِرُ تُبْلَـــى

(١٠) مِنْ أيامَى وراءَهُنَّ يَتامَـــى ... طُلِئوا حَسْرَةً وَشَجْواً وَثُكْـــلا

(١١) وثكالَى أراملاً حَامِـــلاتٍ ... طِفْلَةً تَحْمِلُ الرِّضاعَ وَطِفْـــلا

(١٢) وحَصانٍ كأنَّها الشَّمْسُ حُسْناً ... كَفَّنَتْها الأطْمارُ نَجْلاءَ كَحْـــلا

التخريـــج :

الأبيات كلّها في الذّخيرة ، ق٤ م١/٢٢٧ — ٢٢٩ .

(١٠) الثّكل : فقدان المرأة زوجها ، أو فقدان الحبيب . لســـان العرب : ((ثَكَلَ)) .

(١٢) الحَصَان : المرأة العفيفة . لسان العرب : ((حَصَنَ)) .
والطِّمر : الثّوب الخَلَق . لسان العرب : ((طَمَرَ)) .
والنَّجْل : سَعَة شَقّ العَيْن مع حُسْنٍ . لسان العرب : ((نَجَلَ)) .

(١٣) فاتَ كُرسيَّها الجَلاءُ فأضحَتْ ... في ثيابِ الجَلاءِ للنّاسِ تُجْلَى

(١٤) جارَ فيهم زمانُهمُ وأولو الأمـ ... ـرِ فغرّوا يَرْجُونَ في الأرضِ عَدْلا

(١٥) تركُوا الرَّبْعَ والاثاثَ وما يَثْـ ... ـقُلُ لا حاملٌ مِنَ النّاسِ ثِقْلا

(١٦) لَبِسُوا الباليات مِنْ خَشِنِ الصّو ... فِ ليغدو النَّبيهُ في الناسِ غُفْلا

(١٧) نادباتٍ غَفْراءُ تُسعِدُ سُعْدى ... وسُعادٌ تُجيبُ بالنّوحِ جُمْلا

(١٨) لَيْسَ مِنْهُنَّ مَنْ يُودِّعُ جاراً ... لا ولا حُرْمَةً تُشيِّعُ أهْلا

(١٩) كلّهنَّ اعتدى الفِراقُ عليه ... فاقتحمْنَ الجَلاءَ حَفْلاً فحَفْلا

(٢٠) فإذا القَفْرُ غَمَّهُم فوقَ الدّهـ ... ـرُ لَهُمْ غيرَ ذلكَ النَّبْلِ نَبْلا

(٢١) مِن ثَعالِبْينَ حاملينَ نُيوباً ... عُصُلاً ذابِلاً ونِهلا ونصْلا

(٢٢) وشَياطِينَ رامحينَ بُلاقُو ... نَ بِجَونِ الفَلا مَساكينَ عُزْلا

(٢٣) فترى للظّهورِ تُمْتَلُ عَثْلاً ... وتُشَقُّ البُطونُ تُنْسَلُ نَسْلا

(٢٤) فإذا مَطْمَعٌ أصابُوهُ في أحـ ... ـدٍ شاءَ قومٌ عَمّوا بذلكَ كُلّا

(٢٥) فإذا نَجَّتِ المقاديرُ مِنْهُم ... راحِلاً بالخَلاصِ يَحْمِلُ رَحْلا

(٢٦) لَقِيَ الهونَ في المَذَلّةِ أنّى ... كانَ مِنْ سائرِ البِلادِ وَحَلّا

(٢٧) لَيْسَ يَلْقى إلاّ امرءاً مستطيلاً ... طالِباً عِنْدَهُ حُقوداً وَذَحْلا

---

(١٦) الغُفْل : الّذي سها عنه النّاسَ . لسان العرب : ((غَفَلَ)) .
(١٩) حَفَلَ القومُ حَفْلاً : اجتمعوا واحتشدوا . لسان العرب : ((حَفَلَ)) .
(٢١) سِهامٌ عُصْلٌ : صُلْبَةٌ معوجّة . لسان العرب : ((عَصَلَ)) .
(٢٢) الجَوْن : كُلُّ لون أسود مشرَّبٌ بالحُمْرَةِ . لسان العرب : ((جَوَنَ)) .
(٢٧) الذَّحل : الثأر . لسان العرب : ((ذَحَلَ)) .

(٢٨) فترى أشرف البريّة نفساً ... ناكساً رأسهُ يُلاطِفُ نَدْلا

(٢٩) فهمُ كلّما نَبَتْ بِهِمُ أرْ ... ضٌ مطايا الفِراقِ خَبْلاً وَرَحْلا

(٣٠) مُزِّقوا في البِلادِ شَرْقاً وَغَرْباً ... يَسْكُبُونَ الدّموعَ هَطْلاً وَوَبْلا

(٣١) لا يلاقي النَّسيبُ مِنْهُم نَسيباً ... يَتَعَزّى بِهِ وَلا الخِلُّ خِلّا

(٣٢) لَيْتَ شِعْري هَلْ عُودُ ظِلي في الخَدْ ... بِ إلى ما أطالَ شَجْوِيَ أمْ لا؟

وقال ابن شرف مِنْ قصيدة في الحِكْمَةِ :

ـ البسيط ـ

(١) يا حَامِلَ الأدبِ الغَضِّ الشهي لنا ... حُيِّيتُما حَامِلي فَضْلٍ ومَحْمُولا

(٢) ويا محبَّ فصيحِ القولِ يَعْلَمُهُ ... نثراً ونظماً وتمثيلاً وترْسِيلا

(٣) خُذْ ما عهدْتَ مِنَ الأمثالِ مفترقاً ... مجمَّعاً لكَ في يُمْناكَ مَعْقُولا

(٤) شتّى قوافٍ غدتْ أبياتُها مائةً ... حِيزَتْ بقافيةٍ في مثلِها طُولا

(٥) لا تسألِ النّاسَ والأيامَ عنْ خَبَرٍ ... هما يبيّنانِكَ الأخبارَ تفصيلا

(٦) ولا تُعاتِبْ على نَقْصِ الطِّباعِ أخاً ... فإنَّ بَدْرَ السّما لم يعطَ تكميلا

(٧) والمالُ يُسْرِجُهُ الجاهلينَ بِهِ ... والفَقْرُ يُورِثُ أهلَ الفَقْرِ تجهيلا

(٨) يرى البليدُ الرّزايا بَعْدَ ما نزلَتْ ... وذو الذّكاءِ يرى الأشياءَ تخييلا

(٩) وبذلُكَ المالَ للأعراضِ واقيةٌ ... وصونُكَ المالَ يُبقي العِرْضَ مبذولا

(١٠) والمرءُ إنْ لَمْ يذدْ عنْ حَوْزِهِ بيَدٍ ... ضاعَتْ بأنْ لَحْمُ الذّودِ مأكولا

(١١) ومَنْ يُكنْ رزيّاتِ المُحِبِّ لَهُ ... يغْدُ المُحِبُّ مَلولاً وهو مطلولا

(١٢) ومَنْ تعرّضَ للقولِ القبيحِ فقدْ ... جرّ الظّنونَ وإنْ كانت أباطيلا

(١٣) لا يصلحُ العهدُ إلاّ قرعُ هامتِهِ ... والحُزْ يكفيهِ أنْ تلقاهُ مَعْذولا

(١٤) كَمْ خانَني الدّهرُ في أوفى الورى فمضى ... به وخلّفَ مرذولاً ومجهولا

التخريج :

القصيدة في مخطوط خزانة ابن يوسف ، ص : ٢٠٥ — ٢١٥ .
والبيت الخامس في المرقّصات ، ص : ٨ .
والبيتان: الخامس ، والسّادس في فوات الوفيّات ، ٢ / ٤١١ ، وفي الوافي بالوفيات ، ٣ / ٩٩ ، وفي معاهد التنّصيص ، ١ / ٣٦٠ ، وفي الشعور بالعور ، ص : ٦٢ ، والنتف ، ١٠٦ .
والبيت : ٣٤ في شرح مقامات الحريريّ ، ١ / ١١٦ .
والبيت : ٣٥ في الغيث ، ١ / ١١٦ .

(١٠) الذّود : القطيع من الابل . لسان العرب : ((ذَوَدَ)) .

(١٥) بادروا كأنهم للفرقة اتعدوا ... فلم يكن ذلك المعاد مطولا

(١٦) والناس أقوات هذا الموت يأكلهم ... جيلاً فجيلاً إلى ألا ترى جيلا

(١٧) ود لنا صادق الدنيا وما برحت ... له عدو خفي الكيد مجهولا

(١٨) إن لم تغر ولم تنفع فكن حجراً ... أو ميتاً عن أمور العيش مشغولا

(١٩) والطير لا تلتقي إلا لمزرعة ... وحيث تلتقي الثرى ريان مبلولا

(٢٠) كم قد عرفت وجوه القوم سافرة ... فلم أقصر ولكن بيننا طولا

(٢١) لا يؤيسنك من أمر تصعبه ... فالله قد يعقب التصعيب تسهيلا

(٢٢) والجد يغني الفتى عن كد مهجته ... فليقدر تكثير حرص الفتى تقليلا

(٢٣) وليأخذ المقوم دنياه ممتنعاً ... فالكل يذهب مغلوباً ومحصولا

(٢٤) والنفس جوعها فليسها صرف ... والسيف يقطع رد اليغمد مغلولا

(٢٥) ورب سيف كهام لا يضاء له ... وقد تراه محلى الغمد مصقولا

(٢٦) كم سامع أسوأ الأقوال من فرق ... لم يسمعوا منه لا قولاً ولا قيلا

(٢٧) فالصمت أبقى على الأرواح من كلم ... قد تترك المرء مكلوماً ومقتولا

(٢٨) ومن يطل عمره يفقد أحبته ... حتى الجوارح والصبر الذي غيلا

(٢٩) وفي التأسي لما تشكو الأسى فرج ... فانظر تجد لك في الشكوى أماثيلا

(٣٠) قد يوصل الشيء مقطوعاً وما قطعت ... أيدي المنون فلن تلقاه موصولا

(٣١) وكل ذي نعمة ما زال لابسها ... ساء إلى أن يرى للحال تحويلا

(٣٢) والناس أضغاث أحلام إذا ذهبوا ... وعلة ما بقوا تشكو عقابيلا

(٣٣) كم حكمة وضعت في غير موضعها ... وسائل عن مكان عاد مسؤولا

(٣٤) بع من جفاك ولا تبخل بسلعته ... واطلب به بدلاً إن رام تبديلا

(٣٥) وصير الأرض داراً والورى رحلاً ... حتى ترى مقبلاً في الناس مقبولا

(٣٦) والخير لا بد أن يجزى بعاجلة ... وربما كان تعجيلاً وتأجيلا

(٣٧) والنّاسُ راغمونَ عنْ أهلِ الحُظُوظِ وهُمْ ... أعداءُ مَنْ ذَلَّ أو مَنْ ضَلَّ تضليلا

(٣٨) ولم يزل ثَمَرُ الدّنيا لقاطِفِهِ ... رُطَباً ويَبْساً ومجموجاً ومَمْسُولا

(٣٩) اذا تساوى الورى نَماءً وحفظُهُم ... أنْ يَجْهَلوا فانمِلاً مِنْهُم ومفضُولا

(٤٠) فإنْ هُمُ سوّدُوا جُهّالَهُم مَلِكُوا ... هَلْكَ الدّليلِ إذا ما ضَلَّ تضليلا

(٤١) مَنْ يَهْوَ ثوباً على غِرٍّ لِيُعْجِبَهُ ... يَظَلْ بالشَّرِّ مَمْجُوناً ومَشْكُولا

(٤٢) ومَنْ تزوّدَ زادَ النّارِ ثُمَّ نجا ... مِنْها نَجا لابِساً للشّرِّ اكليلا

(٤٣) ومَنْ بَنَى وعلى التسعينَ مَنْهَلُهُ ... فقد غَدا مِنه رَيْعُ الموتِ مأهُولا

(٤٤) ومَنْ يُعاقَبْ بما تَجْني يَداهُ بِلا ... ظُلْمٍ التّجنّي فقد نالَ اليدَ الطُّولى

(٤٥) والمرءُ يبقى فيبقى سؤلُه معَهُ ... حتّى إذا ماتَ لم يُتْرَكْ لهُ سُؤلا

(٤٦) ولَمْ أجِدْ قَطُّ عَيّاباً ومُفْتَخِراً ... إلاّ على العَيْبِ والعَوْراءِ مَجْبولا

(٤٧) ومَنْ يُشِبْ وهْوَ مطبوعٌ على خُلُقٍ ... لاقى به التّربَ مَضْمُوناً ومكفُولا

(٤٨) والطّبْعُ أملكُ بالإنسانِ يلزمُهُ ... ولا يطيقُ له ما عاشَ تنقيلا

(٤٩) وقد يُعادي الفتى مَنْ لا يفارقُهُ ... على الغُرُورِ تنكيداً وتثقيلا

(٥٠) وموتُ قومٍ حياةٌ عِنْدَ غيرِهِم ... وقد أبى الدّهرُ بين النّاسِ تحديلا

(٥١) مازالَ جِسْمٌ كبيرُ النّفسِ في تَعَبٍ ... مُحَمَّلاً كلّما زادته تحميلا

(٥٢) لنا على الدّهرِ غيظٌ ليس ينفعنا ... غَيْظُ الأسيرِ أسيرِ الغِلِّ مَغْلُولا

(٥٣) يُظَنُّ بالنّاسِ سُوءاً مَنْ يسيءُ ومَنْ ... رَمى اتّقى الرَّمْيَ تصميماً وتسليلا

(٥٤) والمرءُ يَحْلُو وقد تشكو مرارتُهُ ... ذو عِلّةٍ لم يَجِدْ للبُرْءِ تعليلا

(٥٥) ومَنْ يُطِلْ محنةَ الدّنيا يُداوِلْها ... تغيّراً عن معانيها وتحويلا

---

(٤٥) السّؤل : الأمنية . لسان العرب : ((سَوَلَ)) .

(٤٧) التّرب : المماثل في السّن ، لسان العرب : ((تَرَبَ)) .

(٥٢) الغِلّ : الغِشّ ، والعداوة ، والحقد والحسد . لسان العرب : ((غَلَلَ)) .

(٥٣) الانسلال : الخروج من مضيق أو زحام . لسان العرب : ((سَلَلَ)) .

(٥٦) والموتُ أهونَ مِنْ عَيْشِ الذليلِ ومَنْ ... يَحْسدْ ذليلاً كساهُ اللهُ تنكيلا

(٥٧) والظُّلْمُ طَبْعُ الوَرَى لولا مَخافةُ مَنْ ... يَخْشَى العُقوبةَ تَعْجيلاً وتأجيلا

(٥٨) مَنْ رُمْتَ منه رحيلاً سمحتْ يَدُهُ ... بذاكَ فهو مريدٌ عنكَ ترحيلا

(٥٩) قُرْبٌ وبُعْدٌ ومولودٌ ومختَرَعٌ ... شُغْلُ الليالي أبَتْ للشُّغْلِ تعطيلا

(٦٠) كُنْ حيثُ وافقتَ ما تَهْوَى ترى وَرَى ... وطِيبَ عيشٍ وإنصافاً وتنزيلا

(٦١) وكُلُّ مَنْ ليسَ يدري كُنْهَ قيمتِهِ ... فالناسُ فيه يحقُّونَ الأباطيلا

(٦٢) وذو الطِّباعِ غَنِيٌّ عَنْ تكلُّفِهِ ... وهلْ ترى أكحلَ العينينِ مكحولا

(٦٣) قد تُرْفَعُ الحُجُبُ دونَ الطالبينَ وقدْ ... يرونَ سِتْراً على المطلوبِ مسدولا

(٦٤) أنكرتُ دهراً خُطوبَ الدهرِ ثمَّ غدتْ ... نفسي تقولُ لها رحباً وتأهيلا

(٦٥) ومُنْفِقُ العُمْرِ في الأموالِ يجمعُها ... مُسْتَعْجِلٌ فقرَهُ لؤماً وتسفيلا

(٦٦) خيرٌ من المالِ وُدٌّ عندَ ذي كَرَمٍ ... فلا تعوِّلْ على الأموالِ تعويلا

(٦٧) وأعيبُ العَيْبِ عَيْبُ القادرينَ على ... أنْ يكملوا فيرونَ النقصَ تكميلا

(٦٨) لا مجدَ إلا بمالٍ فالتمسْهُ ولا ... مالَ إذا لم يكن بالمجدِ مشمولا

(٦٩) بِعْتُ الشبابَ لتجريبي علانيةً ... فليتني ما جعلتُ الشيبَ تجميلا

(٧٠) سيّانِ في الموتِ ذو علمٍ وذو جهلٍ ... وربَّما زادَ أهلَ الجهلِ تمهيلا

(٧١) والملكُ طيفٌ إذا ما السيفُ أسلمَهُ ... فكنْ أميراً به لو كنتَ مَعْزولا

(٧٢) أفنى الوَرَى بعضُهم بعضاً وما ظفروا ... بطائلٍ وتهاووا في تراتيلا

(٧٣) وفي احتمالِ الأذى والعينُ تبصرهُ ... ما يتركُ الجَسَدَ الملآنَ مهزولا

(٧٤) كم فرَّ مِنْ أسدٍ تمارٍ إلى أسدٍ ... في غيلةٍ مرَّ أحضانُهُ الغيلا

وقال مُلْغِزاً في الشّمس :

ـ السريع ـ

(١) ما طَائِرٌ في الأرضِ مِنْقَارُهُ ... وَجِسْمُهُ في الأُفُقِ الأعْلَى

(٢) ما زالَ مَشْغُولاً بِهِ غَيْرُهُ ... ولا يَرَى أنَّ لَهُ شُغْلا

التخريج :

البيتان في فوات الوفيّات ، ١ / ٣٨١ .

— الميم —

قال ابن شرف من قصيدة يمدح بها المعزّ بن باديس :

— الوافر —

(١) قِفا فتنسّما عِطْرَ النَّسيمِ ... بِرَسْمِ الدّارِ مِنْ بَعْدِ الرَّسِيمِ

(٢) أنيخا النّاعجينِ ولا تَرُوما ... فما السُّلْوانُ بالأمرِ العظيمِ

(٣) قِفا تَرِيا السَّبيلَ إلى النَّصابي ... لمَغْناها وكَيْفَ صَبا الحليمِ

ومنها :

(٤) هو الشّرفُ الّذي نَسَبَ المَعالي ... إليهِ وهْوَ ذو الشَّرَفِ القديمِ

(٥) شِهابُ الحَرْبِ يُهْلِكُ كُلَّ باغٍ ... ومُحْرِقُ كُلِّ شَيْطانٍ رَجيمِ

(٦) تُقَطِّعُ دُونَهُ البِيضُ المواضي ... وتَجْفِلُ عَنْهُ أجْفالَ الظَّليمِ

(٧) ويَجْلو عَنْهُ لَيْلَ النَّقْعِ وَجْهٌ ... كَبَدْرِ التِّمِّ في الليلِ البَهيمِ

التخريج :

الأبيات كلّها في إنباه الرّواة ، ١ / ٣٠٢ .

(١) الرّسيم : ضرب من السّير سريع مؤثر في الأرض . لسان العرب : ((رَسَمَ)) .

(٢) النّاعج : السريع من الابل . لسان العرب : ((نَعَجَ)) .

(٦) البيض : مفردها أبيض وهو السّيف . لسان العرب : ((بَيَضَ)) .
والظليم : الذّكر من النّعام ، وجفل الظّليم : أي أسرع وذهب . لسان العرب : ((ظَلَمَ)) .

(٧) البهيم : الليل المظلم الّذي لا ضوء فيه . لسان العرب : ((بَهَمَ)) .

وقال ابن شرف :

— الكامل —

(١) واذكُرْ لياليكَ الّتي ذَهَبَتْ لَنَا نَهْباً وَعيشاً كان كالتّهويمِ
(٢) يُسْعِدْكَ وابِلُ أدْمُعٍ في أرْبُعٍ شَرِبَتْ مِياهَ الدّمعِ شُرْبَ الهِيمِ
(٣) أيّامَ شَمْسُ المَشْرِقَيْنِ ضَجيعَتي فيها وبَدْرُ المَغْرِبَيْنِ نَديمي
(٤) ونُجومُ كاساتي طوالِعُ بالمُنَى والسّعْدُ يَسْتَغْني عن التّقويمِ
(٥) مَحْمودُ عَيشٍ جادَ لي دَهْري بِهِ ثُمّ استردّ فكانَ فيه ذَميمي
(٦) ولّى وخلّى جَمْرَةً مَشْبوبَةً تُذْكي على الأحشاءِ نارَ سَمومِ
(٧) فإذا رأيتَ لهيبَها وسلامَتي فاذْكُرْ بذلكَ نارَ إبراهيمِ

التخريج :

الأبيات في الذّخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢١٦ — ٢١٧ .
والبيت الرّابع في الغيث ، ٢ / ١٢٣ ، وفي النّتف ، ص : ١١٢ .

(٧) نار ابراهيم : يضرب بها المثل في البرد والسّلامة . انظر : ثمار القلوب ، ص : ٣٢ .

وقال في القِدَم والحَداثة :

— الخفيف —

(١) أُغْرِيَ النَّاسُ بامتِداحِ القَديمِ ... وبذَمِّ الجَديدِ غَيْرِ الذَّميمِ

(٢) لَيْسَ إلاّ لأنَّهُمْ حَسَدُوا الحَسْـ ... ـنَ وَرَقَوا على العِظامِ الرَّميمِ

التخريـــج :

البيتان في أعلام الكلام ، ص : ٢٨ ، وفي شرح مقامات الحريري ، ١ / ٣٦ . وفي رايات المبرّزين ، ص : ٢٣ ، وفي طراز المجالس ، ص : ١٢١ ، وفي ألف باء ، ١ / ٥٩ — ٦٠ ، والنّتف ، ١١١ .

(١) في شرح مقامات الحريريّ ، وفي طراز المجالس :
((أولع النّاس بامتداح القديم .)) .
وفي رايات المبرّزين : ((عُنِيَ النّاسُ بامتداح القديم .)) .

(٢) في شرح مقامات الحريريّ : ((وطالوا الى العِظام الرّميم .)) .

وقال ابن شرف :

ـ البسيط ـ

(١) إنّي وإنْ عزّني نَيْلُ المنى لا أرَى ... حِرْصَ الفتى خِلّةً زِيدَتْ على العدمِ

(٢) تقلّدتْني اللّيالي وهْيَ مُدْبِرةٌ ... كأنّني صارمٌ في كفّ منهزمِ

التخريج :

البيتان في شرح مقامات الحريري ، ٤/٨٨ ، وفي طراز المجالس ، ص : ١٣٢ ، وفي النّتف ، ص : ١١١ ـ ١١٢ .

وقال ابن شـــرف :

ـ البسيط ـ

(١) كأنّني اذ أوالي لثـم راحتـــه عجزت عن شكره حتى سددت فمي

التخريـــج :

البيت في طراز المجالس ، ص : ٢٥ .

وقال ابن شـــرف :

ـ الكامل ـ

(١) صَنَمٌ مِنَ الكافُورِ باتَ مُعانِقِـــي ... في مُلْتَيْنِ تَعَفُّفٍ وتَكَـــرُّمِ

(٢) فكرتُ ليلَةَ وَصْلِهِ في صَـــدِّهِ ... فجَرَتْ سَوابِقُ أدْمُعي بالعَنْدَمِ

(٣) فطفقتُ أمْسَحُ مقلتيَّ بجِسْمِـــهِ ... إذْ عادَةُ الكافُورِ إمْساكُ الدَّمِ

التخريـــج :

الابيات في المطرب ، ص : ٧٧ .

(٢) العَنْدَم : صَبِغٌ أحْمَر ، ودَمُ الغزال . لسان العرب : ((عَنْدَم)) .

وقال في وصف التوت :

ـ السّريـع ـ

(١) أُنظُرْ إلى تُوتِ الجِنانِ الّـذي وَافَى إلى النّاطُورِ في جَـامِ

(٢) يَحْكِي جِرَاحاً وَمُهَا سائِـلٌ لَدَى جُسُومٍ مِنْ بَنِي هَـامِ

التخريـج :

البيتان في نهاية الأرب ، ١١ / ١٦٢ ، وفي مناهج الفكر ، ج ٤ / ١٨٧ .

(١) النّاطور : حافظ الكرم بعد الزرع والحصل . اللسان ((نطر)) .

الجام : إناءٌ مِنْ فِضّةٍ . لسان العرب : ((جوم)) .

وقال في مدح المعزّ بن باديس :

— الخفيف —

(١) شَرَفُ الدَّولَةِ المعزُّ بنُ بادِيـ ... ـسِ النَّصيرُ المُظَفَّرُ المِقْدامُ

(٢) مَنْ لَهُ في المُلا ثَلاثَةُ آبا ... ءٍ نَصيرٌ وعِدَّةٌ وحُسامُ

(٣) وابنُ زيري أبو الفُتوحِ الذي أعْـ ... ـدى أعاديهِ في الوَرى الاحْجامُ

(٤) وأبو الفَتْحِ بَعْدَه السَّيِّدُ المَنْـ ... ـصورُ مَنْ نَوْبُ راحَتيه سِجامُ

التخريج :

الأبيات في البيان المغرب ، ١ / ٣٩٥ .

وقال في القِدَم والحَداثة :

— الخفيف —

(١) قُلْ لِمَنْ لا يَرَى المُعاصِرَ شيئاً ... وَيَرى للأوائلِ التَّقديما

(٢) إنَّ ذاكَ القديمَ كانَ جديداً ... وَسَيَغدو هذا الجديدُ قديما

التخريج :

البيتان في أعلام الكلام ، ص : ٢٨ .

— النّـــون —

قال ابن شرف :

— الكامـــل —

(١) وَلَقَد يُهَوِّنُ أَنْ يَخُونَكَ كاشِـــحٌ ... كَمُنُ الخِيانَةِ مِنْ أَخٍ وَخَدِيـــنِ

(٢) لَقِّى أَخُو يَعْقُوبَ يَعْقُـــوبَ الأَذَى ... وَهُما جَمِيعاً في ثِيابِ جَنِيـــنِ

(٣) وَمَضَى عَقِيلٌ عَنْ عَلِيٍّ خَـــائِلاً ... وَرَأَى الأَمِينُ جِنايَةَ المأْمُـــونِ

(٤) فَعَلى الوَفاءِ سَلامُ غَيرِ مُعايِـــنٍ ... شَخْصاً لَهُ إِلاَّ عِيانَ ظُنُـــونِ

التخريـــج :

الأبيات في معجم الأدباء ، ١٩/٤٠ — ٤١ ، وفي الغيث ، ٢/٣٤٨ ، والمنتف ، ص : ١١٣ — ١١٤ .

(١) في الغيث : ((ولقد يُهَوِّنُ أَنْ يَخُونَكَ ذو هَوَى)) .

الكاشح : الذي يضمر العداوة ، ويتولّى عنك بوّده . لسان العرب : ((كَشَحَ)) .

الخدين : الصّديق والصّاحب . لسان العرب : ((خَدَنَ)) .

وقال ابن شرف :

— الكامل —

(١) قُلْ للعَذُولِ لو اطّلعْتَ على الّذي عايَنْتُهُ لعَذَرْتَ ما تُعْنِينِي

(٢) أتصدّني أمْ للغرامِ تَرُدّني وتلومني في الحُبِّ أمْ تغْرِينِي ؟

(٣) دَعْني فلَسْتُ مُعاقباً بجِنايَتي إذ ليسَ دينُكَ في المحبّةِ دَيْني

التّخريج :

الأبيات في تزيين الأسواق ، ١/١١٧ ، وفي معاهد التنصيص ، ٢/٢٥٦ — ٢٥٧ ، وفي الغيث ، ٢/٣٦٧ ، وفي النتف ، ص : ١١٢ .

(٣) في معاهد التنصيص ، وفي الغيث : ((إذ ليسَ دينُكَ لي ولا لك ديني .)) .

وقال ابن شرف :

ـ الكامل ـ

(١) ما هذهِ الخدَعُ التي قدّرتُمُ ... قد عوّتُم الخوّانَ بالاخوانِ

(٢) ما صحّ لي أحدٌ أميّره أخاً ... في اللّه محضاً أو ففي الشّيطانِ

(٣) إمّا مولٍّ عن ودادي ما لهُ ... وجهٌ وإمّا من له وجهانِ

التخريج :

الأبيات في مسالك الأبصار ، ١١ / ٢٤٢ .

(٢) المحض ، الصّديق الذي يخلص في ودّهِ ومحبّتهِ . لسان العرب : ((محض)) .

وقال في غلام اسمه عمر :

ـ البسيط ـ

(١) يا أعدلَ النّاسِ أسماً كمْ تجورُ على ... فؤادِ مُمْتَنَاكَ بالهجْرانِ والبَيْنِ

(٢) أظنُّهم سَلَبُوكَ القافَ مِنْ قَمَرٍ ... فأبْدَلُوها بِمَيْنٍ خِيفَةَ البَيْنِ

التخريج :

البيتان في معجم الأدباء ، ١٩ / ٤١ ، وفي فوات الوفيات ، ٢ / ٤١٢ ، وفي الوافي بالوفيات ، ٣ / ١٠٠ ، وفي الشعور بالعمور ، ص : ٦٢ ، والنتف ، ص : ١١٤ .

(١) في الوافي بالوفيّات ، وفي الشعور بالعمور : ((يا أعدلَ الأئمّة أسماً كمْ تجورُ على)) .

(٢) في فوات الوفيّات ، وفي الوافي بالوفيّات ، وفي الشّعور بالعمور : ((أظنّهم سرقوكَ القافَ مِنْ قمرٍ .)) .

وقال في رجل عجز عن عرسه :

— مجزوء البسيط —

(١) كَمْ ذَكَرٍ في الوَرَى وأُنْثَى أَوْلى مِنَ اثْنَيْنِ باثْنَتَيْنِ

(٢) إنَّ الليالي أَتَتْ بِلَحْنٍ لِجَمْعِها بَيْنَ ساكِنَيْنِ

التخريج :

البيتان في معاهد التنصيص ، ٣/١٤٧ ، وفي الغيث ، ٢/٢٢ ، وفي النتف ، ص : ١١٤ .

وقال في مصرعي الباب مُلْغِزاً :

— الطويل —

(١) عَجِبْتُ لمحروميْنِ مِنْ كُلِّ لَـــذَّةٍ ... يبيتانِ طُولَ الليلِ يَمْتَنِقَـانِ

(٢) إذا أمسيا كانا على النّاسِ مِرْصَـداً ... وعِنْدَ طلوعِ الشّمسِ يَفْتَرِقَـانِ

(٣) فما ميّتٌ أحيا به اللّهُ ميّتـــاً ... لِيُخْبِرَ قوماً أنذِرُوا بِبَيَـانِ

(٤) وَعَجْفاءَ قَدْ قامَتْ لتنذِرَ قومَهَـــا ... وأهلَ قُراها رَهْبَةَ الحَدَثَـانِ

التخريـــج :

الأبيات في شرح مقامات الحريريّ ، ٥ / ٧٣ .

والابيات : الأول ، والثاني ، والثالث في طراز المجالس ، ص : ١٣٤ .

(٤) عَجْفاء : هزيلة . لسان العرب : ((عَجَفَ)) .

وقال ابن شرف :

— الكامل —

(١) خَلَفٌ تمنّوا في البُيُوتِ أمانِيَا وَجميعُ أعمارِ اللئامِ أمانِي

التخريج :

البيت في الغيث ، ٢ / ١٦٩ ، وفي مصاعد التنصيص ، ٢ / ١٤٤ ، وفي تزيين الأسواق ، ٢ / ١٥ ، والنتف ، ص : ١١٥ .

وقال من قصيدة يمدح بها المعزّ بن باديس :

ـ الكامـــل ـ

(١) طَلَعَتْ مِنَ الغَرْبِيِّ شَمْسُ الدِّيـــنِ بالسَّعْدِ والإقبالِ والتَّمْكِيْـــنِ

التخريـــج :

البيت في البيان المغرب ، ١ / ٢٧٦ .

وقال من قصيدة يمدح بها ابن السقاء :

— الوافر —

(١) فيا أخويَّ من أسدٍ وسعدٍ ... أحيٌّ حيُّ زنجةَ أم دفينُ

(٢) فلا اشتطت مساكنها بشملٍ ... ولا هدأ القرارُ به سكونُ

(٣) ولا سرت الرياحُ على رياحٍ ... لواقحُ مزنةٍ أنّى تكونُ

(٤) فقد دارت علينا من رحاها ... طحونٌ كلما لاقت زبونُ

(٥) فلا وطنٌ لنا إلا المطايا ... وإلا الماءُ طوراً والسفينُ

(٦) لعلك أيها البرقُ اليماني ... إذا كشفت عن الغبر تبينُ

(٧) أفي وكناتها عقبانُ قومٍ ... كعهدي أم خلت منها الوكونُ

(٨) وبين قباب منبجة والمصلى ... نهى وسهاً وآسادٌ وعينُ

(٩) وأجبالٌ تمورُ بها المذاكي ... وأقمارٌ تميسُ بها الغصونُ

(١٠) وقرطبةٌ أعيدت قيروانا ... لنا لما دهت تلك الفنونُ

(١١) وكيف يضيعُ مثلي في مكانٍ ... يكونُ به أبو الحسن الأمينُ

(١٢) أيأمنُ أن تكونَ النونُ راءً ... وقد وجبت له راءٌ ونونُ

التخريج :

الأبيات في الذخيرة ، ق ٤ م ١ / ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٤) حرب زبون : تزين الناس أي تصدهم وتدفعهم . لسان العرب : ((زبن)) .

وقال في ميزان البنّاء مُطْفِزاً :

ـ الكامل ـ

(١) وَمُعَلِّقٍ بِذُؤابَةٍ في رأسِهِ ... مِنْ غيرِ ذَنْبٍ بَلْ لَهُ إحْسانُ

(٢) مازالَ يسألُهُ مُعَذِّبُ جِسْمِهِ ... فيُجيبُهُ وَجَوابُهُ تِبْيانُ

فيقول :

(٣) مِلْتُ كذا وعُجْتُ كذا ولَمْ ... يَفْهَمْ الصّوابَ وَمالَدَيْهِ لِسانُ

التخريج :

الأبيات في الخريدة ، ق٤ ج ٢ / ١١٩ .

وقال في الميزان مُلْغِـزاً :

— الوافـر —

(١) رَأَيْتُ النَّاسَ قد قَبِلُوا قَفَـاهُ ولا نُطْقٌ لَدَيْهِ ولا لِسَانُ .

التخريـج :

البيت في طِراز المجالس ، ص : ١٣٤ .

وقال ابن شـــرف :

ـ السّريع ـ

(١) يقولُ لِيَ العَاذِلُ في لَوْمِـــهِ وَقَولُهُ زُورٌ وبُهْتَـــانُ

(٢) ما وَجْهُ مَنْ أجْنَيْتَهُ قُبلَـــةً قُلْتُ وَلا قَوْلُـــكَ قُـرآنُ

التخريـــج :

البيتان في تزيين الأسواق ، ٢/٥٦ ، وفي الغيث ، ٢/٢١١ ، والنتف ، ص : ١١٢ .

وقال ابن شرف :

ـ الكامل ـ

(١) كَتَمَ الهَوى فَوَشى بِهِ كِتْمانُهُ ... لِطِلابِهِ وَتَكَلَّمَتْ أَجْفانُهُ

(٢) وَهَبَ الكَرى لِسُهادِهِ وَنَعيمِهِ ... لِعَذابِهِ حَتّى أَسا إِحْسانُهُ

(٣) جَلْدٌ يَحارُ عَدُوُّهُ في واضِحٍ ... مُتَشابِهٍ وَعلى الدُّموعِ بَيانُهُ

التخريج :

الأبيات في المسالك ، ١١/٢٤٣ .

وقال ابن شرف :

— الطويل —

(١) لِمُخْتلفي الحاجاتِ جَمْعٌ بِبابِهِ فهذا لهُ فَنٌّ وهذا لهُ فَنُّ

(٢) فللخائفِ الأمنُ وللمُذْنِبِ المُنْتَبي وللمُعْدَمِ الغِنَى وللخائلِ العلْيا

التخريج :

البيتان في معاهد التنصيص ٢/٣١٠ .

وقال ابن شرف :

ـ الكامل ـ

(١) بِحَيْثُ يَهُونُ المرءُ يُكْرِمُ ضِدَّهُ وَحَيْثُ هُبُوطُ الشَّمْسِ يُشْرِفُ كِيوَانُ

التخريج :

البيت في الغيث ، ٢/٢٠٨ ، وفي النّتف ، ص ١١٣ .

وقال ابن شرف من قصيدة في مدح المعزّ بن باديس :

— البسيط —

(١) فلو رأى من مضى ما شدتَ لَهَجا ... أفلاذ جفنة بعد المدح حسّانُ

(٢) وحلّ لهم غيرُ أيامٍ مقدّمةٍ ... وكلّ حيٍّ له حينٌ وأبّانُ

(٣) تقدّموك بما لم يسبقوك به ... كما تقدّم شهرَ الصوم شعبانُ

(٤) لم يلهك العزّ عن أهل الخمول على ... أنّ الغنى شاغلٌ والعزّ فتّانُ

(٥) لمّا رأى الله بقيانا على ظمأ ... أغاثنا بك إنّ الله رحمانُ

(٦) أصلحت بيني وبين الدهر بعد وغىً ... شمطاء قد طلحت عبسٌ وذبيانُ

(٧) وصرت في عدّةٍ تزري بعدّتِه ... وصار حولي للأقران أقرانُ

(٨) حتّى استطلتُ عليه في مهابته ... كما استطال على النعمان غسّانُ

(٩) لمّا غزت حرمي سودُ الحوادث في ... جيش النجاشيّ والأيّام تختانُ

(١٠) كنت ابن ذي يزن لم تبن عدّته ... تلك الجموعُ ولم تحصنه عمدانُ

(١١) قلّدت منك يدي نصرٍ ومقدرةٍ ... في بغض نصرته كسرى وساسانُ

(١٢) أريدُ عنهم غنىً لو كان يمكنني ... وليس كلّ مرادٍ فيه إمكانُ

(١٣) كما تورّع سفيانٌ فردّ يداً ... ثمّ اقتدى نحو بيت المال سفيانُ

التخريج :

الأبيات في مسالك الأبصار ، ١١ / ٢٤١ .

وقال ابن شـــرف :

— الكامـل —

(١) كَمْ قد وَشَتْ لكِنْ كُفِيتُ لِسَانَها عَيْنٌ وَفَتْ للدَّمْعِ حتّى خانَهَـــا

(٢) أودَعْتُهَا سِرَّ الهَوَى فوشَتْ بِـهِ ما كلُّ مَنْ مُنِحَ السَّرائرَ صَانَهَـــا

التخريـــج :

البيتان في أخبار وتراجم أندلسّية ، ص : ٣٥ .

ـ الهـــاء ـ

وقال ابن شـــرف :

ـ الخفيـف ـ

(١) ما فُلانٌ إلاّ كَجِيفَةِ كَلْـــبٍ والضّرورات ألجأتْنا إليـــهِ

(٢) فَمَنْ اضطُرَّ غيرُ باغٍ ولا عَـــا دٍ فلا إثْمَ في الكِتابِ عليـــهِ

التخريـــج :

البيتان في مسالك الابصار ، ١١/٢٤٣ .

وقال ابن شـــرف :

ـ السّريـع ـ

(١) شتّانَ في النُّطْقَينِ ما بَيْنَنَـــا وَبَيْنَنا في المَنْظَرَيْـــنِ اشْتِبَـاه

(٢) ياعَجَباً مِنْ حُرُقاتِ الهَـــوى تُصمِدُ نيرَاناً وتُجري مِيَـــاه

التخريـــج :

البيتان في المطرب ، ص : ٧٦ .

— اليـــاء —

وقال ابن شرف من قصيدة :

— البسيط —

(١) إذا الهَوى والهَوى الخَلْقُ مُعْتَدِلٌ ... هذا وهذا ربيعيٌّ وطبعيُّ

(٢) بِتْنا جميعاً وكلٌّ في السَّماعِ وفي ... شُرْبِ المُدامِ حجازيٌّ عِراقيُّ

(٣) أُسْقَى وأَسْقِي نديماً غابَ ثالثُهُ ... والدَّوْرُ منّا شمالِيٌّ يمينيُّ

(٤) تحتَ الظلامِ الذي مثل الظَّليمِ جثا ... والبَدْرُ بيضتُهُ والجوُّ أُدْحِيُّ

(٥) حتّى علا واقعَ النَّسرينِ ذروتُه ... كأنّه بَيْذَقٌ باثنين محميُّ

(٦) وقد تولَّتْ بناتُ النَّعشِ هابطةً ... كأنّها في بحرٍ سماريٌّ

(٧) وقيصرُ الشَّرقِ قد أبدى طلائعَهُ ... فانهدَّ بالمغربِ الجيشُ النجاشيُّ

(٨) حتّى إذا ما التقى الجَمْعانِ فتَّ بهِ ... مَقَرَّةَ الجيشِ كالمنشورِ طيٌّ

التخريـــج :

الأبيات كلّها في مسالك الأبصار ، ١١/٢٤٢ .

والأبيات : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ في غرائب التشبيهات ، ص : ٤٢ .

والبيت : الرابع ، في الموشّحات والمطربات ، ص : ٨١ .

الفهـــــــارس :

أولا : فهرس الأعـــــلام .
ثانيا : فهرس الأماكـــــن .
ثالثا : فهرس القبائل والأمم .
رابعا : فهرس المصادر والمراجع .
خامسا : فهرس الموضوعـــــات .

فهـــــرس الأعـــــلام

ـ الهمـــزة ـ

١ـ ابن الابّار : ٥٩.

٢ـ ابراهيم بن الاغلب : ٣٦٠.

٣ـ ابراهيم بن حسن المعافريّ : ٢٢، ٣٨.

٤ـ ابراهيم بن عليّ بن تميم : ١٤، ٢٤، ٢٦، ٣٥، ٣٦، ٥٦، ٧٤، ٧٥.

٥ـ ابراهيم ابن غانم بن عيذون : ٣٥.

٦ـ ابراهيم بن القاسم (الرّقيق) : ٤٢.

٧ـ ابراهيم بن محمّد (ابن السّقاء) : ٩٢، ٩٣، ١٠٦، ٣٦٠، ٣٩٩.

٨ـ ابراهيم بن المهدي : ١٩٨.

٩ـ ابراهيم الموصليّ : ١٩٧.

١٠ـ ابراهيم بن هشام المخزوميّ : ٢٧٥، ٢٧٦.

١١ـ ابن الاثير : ٦، ٧، ٩، ١٠، ١٩٤، ١٥٧.

١٢ـ أحمد بن درّاج (القسطلّي) : ٢١٣.

١٣ـ أحمد الشّايب : ١٥٧.

١٤ـ أحمد بن عبدالرحمن الخولانّي : ٢، ١٢، ٣٨.

١٥ـ أحمد بن عبد الله بن أبي زيد : ٧٧.

١٦ـ أحمد بن القاسم بن أبي الليّث : ٣٥.

١٧ـ الاخطل : ٢٥٢.

١٨ـ الادريسيّ : ٢٠.

١٩ـ الاسكندريّ (أبو الفتح) : ٢١٣.

٢٠ـ اسماعيل بن ابراهيم بن الخازن : ٢٦.

٢١ـ اسماعيل بن ابراهيم القيروانّي : ٤٠.

٢٢ـ اسماعيل بن جامع (أبو القاسم) : ١٩٨.

٢٣— اسماعيل بن محمد اللخمّي : ٢٦٠
٢٤— الأسود بن يعفر : ٢٨٧٠
٢٥— أشعب بن جبير : ٣٠١٠
٢٦— الأشعرى (أبو موسى) : ١٩٧٠
٢٧— امرؤ القيس : ١٥١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٦٠، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٦، ٣٧٢٠
٢٨— الأمين بن هارون الرّشيد : ٣٩١٠
٢٩— أنمار بن نزار : ٣٤٣٠
٣٠— اياد بن معدّ : ٢٤٢٠
٣١— اياد بن نزار : ٣٤٣٠

— البـــاء —

٣٢— الباجيّ (أبو الوليد) : ٦٥، ٩٤٠
٣٣— باديس بن حبّوس : ٦٨، ٩٢، ١٨٣، ١٨٥، ٢٠٤، ٢٠٥٠
٣٤— باديس بن المنصور : ٣٠
٣٥— باقل : ٢٤٣٠
٣٦— الباقلّانيّ (أبو بكر) : ٥٧٠
٣٧— البحترىّ (الشاعر) : ٢٥٥٠
٣٨— بديع الزّمان الهمذاني : ٢١٠، ٢١٢، ٢٢٦، ٢٢٧٠
٣٩— ابن بسّام (الشنتريني) : ٣٥، ٤٤، ٤٩، ٥١، ٥٦، ٦٥، ٦٦، ٦٩، ٧٨، ٨٣، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٢٣، ١٣٩، ١٤٨، ١٧٠، ١٧١، ١٨٣، ١٨٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٣، ٢٣٢، ٢٣٤، ٣٦٩٠

٤٠— بشار بن برد : ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٥٠ .
٤١— بشر بن المعتمر : ٢٧٥ .
٤٢— ابن بشكوال : ٥١ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ٢٠١ ، ١٠٢ .
٤٣— البغدادي : ٩٤ .
٤٤— البكري : ١٩ .
٤٥— بلقيس بنت الهُدّاد : ٢٩٦ ، ٣١٥ .
٤٦— بلكين بن زيري (أبو الفتوح) : ١ .
٤٧— بوزع : ٢٧٤ .

— التاء —

٤٨— أبو تمّام (حبيب بن أوس الطّائي) : ٥٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨٨ .
٤٩— تميم بن المعزّ بن باديس : ١٦ .

— الثاء —

٥٠— الثعالبيّ (أبو منصور) : ٢٧٥ .

— الجيم —

٥١— الجاحظ : ٥٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧٤ ،
٥٢— جالينوس : ٢٤٣ .
٥٣— جذام بن عدّي : ٤٦ .
٥٤— جذيمة بن الأبرش : ٢٣٤ .
٥٥— الجرجاني (القاضي) : ٢٥٧ ، ٢٦٥ .

٥٦— جرير بن عطية : ٢٢٧، ٢٥١، ٢٦٢، ٢٧١، ٢٧٤، ٣٥٠، ٣٦٦.
٥٧— جعفر البرمكيّ : ٢٦٦.
٥٨— جعفر بن محمّد بن شرف (ابو الفضل) : ٥١، ٥٩، ١٠١.
٥٩— جميل بن معمر : ٢٨٢.

— الحاء —

٦٠— حاتم الطّائي : ١٨٥، ١٨٦، ٢٤٢.
٦١— حاتم بن محمّد (أبو القاسم) : ٥٧.
٦٢— حاجي خليفة : ٦٨.
٦٣— حسّان بن ثابت : ٢٢٣، ٢٨٤، ٤٠٦.
٦٤— حسن حسني عبد الوّهاب : ٤٨، ٧٠، ٧٢، ٨١، ٨٥، ٨٩.
٦٥— الحسن بن خلدون : ٧.
٦٦— الحسن بن عليّ اليازوريّ : ١٠، ١٣، ١٥.
٦٧— الحسن محمد بن منكود : ٨٥.
٦٨— الحسن بن هانئ (أبو نواس) : ١٨٩، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠.
٦٩— الحسين بن عبد الرحيم (أبو الزّلازل) : ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧.
٧٠— الحسين بن عليّ بن ابي طالب : ١٩٣.
٧١— الحريريّ : ٣٠٠، ٣٠١، ٣١١، ٣٢٣، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٦٤، ٣٧٧، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٩٦.
٧٢— حمّاد بن الزّبرقان : ٢٣٣.
٧٣— حمّاد الصّنهاجيّ : ٣، ٤.
٧٤— حمّاد عجرد : ٢٣٣.
٧٥— الحميري : ٩١.
٧٦— ابن حيّان : ٣٦.

ـ الخـــاء ـ

٧٧ـ خالد بن صفوان : ٢٤٣.
٧٨ـ خالد القسـريّ : ١٩١.
٧٩ـ الخانجي : ٢١٠.
٨٠ـ الخرائطي (أبو بكر) : ٢٠٥.
٨١ـ الخرنق بنت بدر : ٢٨٤.
٨٢ـ الخريمّي (ابو يعقوب) : ٢٥٢.
٨٣ـ ابن خلدون : ١، ٥، ١٠، ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٩٣، ١٠٢.
٨٤ـ ابن خلّكان : ٤، ٢٤، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٥٣، ٧٤.
٨٥ـ ابن خليفة : ٩٣.

ـ الدّال ـ

٨٦ـ الدّاعي (أبو مقاتل) : ٢٧٦.
٨٧ـ الدّباغ القيروانيّ : ١٢، ٣٦، ٤٥، ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٥٨، ٧٦.
٨٨ـ ابن دحية (الكلبي) : ٤٥، ٦٦، ٦٧.
٨٩ـ ابن درّاج (القسطلي) : ٦٤، ٢١٦.
٩٠ـ دريد بن الصمّة : ٢٢٣.
٩١ـ ديك الجن : ٢٦٦.
٩٢ـ ابن دينار : ٣.

ـ الذّال ـ

٩٣ـ أبو ذر الغفاريّ : ٣٤٤.
٩٤ـ ذو الرّمّة (غيلان بن عقبة) : ١٦٨، ٢٨١، ٢٩٣.

ـ الرّاء ـ

٩٥ـ راشد بن عريف اللخميّ : ٥٩، ٧٠.

٩٦— ربيعة بن سعد (المرقش الأكبر) : ٢٦٣.

٩٧— ربيعة بن نزار : ٣٤٣.

٩٨— ابن رشيق (الحسن بن رشيق القيرواني) : ١٤، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤٢، ٤٤، ٤٦، ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٧٤، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ٨٩، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٩، ١٧١، ١٧٣، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٨٠، ٣٠٨، ٣٢٢.

٩٩— ابن الرّومي : ٦١، ٢٥٤.

١٠٠— رُهَم بن عَنزَة : ٢٣٤.

— الزّاي —

١٠١— زاوي بن زيري : ٤.

١٠٢— الزبرقان بن بدر : ٢٨٧.

١٠٣— الزجّاجي (أبو القاسم) : ٢٠٥.

١٠٤— زرقاء اليمامة : ٦٢.

١٠٥— زيد الخيل : ١٥٣، ١٨٥، ٣٤٣.

١٠٦— ابن زيدون : ٨٩، ١٢٤، ١٧٣، ١٨٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٣٢.

١٠٧— زيري بن مناد : ١.

١٠٨— ابن زنجي : ٣٦.

١٠٩— زهير بن أبي سلمى : ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٤٨، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦.

ـ السين ـ

١١٠ـ ساسان : ٤٠٦.
١١١ـ سحبان وائل : ٢٤٣.
١١٢ـ سحيم عبد بني الحسحاس : ٢١٩، ٢٦٢، ٢٦٤.
١١٣ـ ابن سعيد (المغربي) : ٦٨، ٩٣.
١١٤ـ سعيد بن عثمان : ٣٤٣.
١١٥ـ السّلفي : ١٣٨.
١١٦ـ سليمان بن داود (النبي) : ٢٩٦.
١١٧ـ السميسر (خلف بن فرج) : ٣١٠.
١١٨ـ سيف الدولة الحمداني : ٢٣٥.
١١٩ـ السيوطي (جلال الدين) : ٤٤، ٩٨، ١٧٨، ١٨٢، ٣٧٠.

ـ الشين ـ

١٢٠ـ ابن شاكر (الكتبي) : ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٨١، ٨٣، ٩١، ٩٣، ١٠٩.
١٢١ـ ابن شهيد (الاندلسيّ) : ٢٢٨.
١٢٢ـ شوقي ضيف : ٢٣٨.

ـ الصّاد ـ

١٢٣ـ الصاحب بن عبّاد : ٢٤.
١٢٤ـ الصّفدي : ٤٦، ٤٧، ٥٥، ٦٨، ٩٤، ٩٨، ١٣٥.

ـ الطـاء ـ

١٢٥ـ طالوت : ٦٠، ١٠٧، ١١٦، ٣٢٣.
١٢٦ـ ابن طاهر : ١٠٦، ١١٤، ١٤٩.
١٢٧ـ طرفة بن العبد : ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٨٤.

ـ الظّاء ـ

١٢٨ـ ابن ظافر الأزديّ : ٢٣، ٦٩.

— العيـــن —

١٢٩— عامر بن الطفيل : ١٥٣، ٣٤٣.
١٣٠— عبّاد بن اسماعيل (المعتضد) : ٦٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١١، ١٤٧، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٣٢، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٤٧، ٣٥٥.
١٣١— العبّاس بن الاحنف : ٢٢٤.
١٣٢— ابن عبد البر : ٦٨، ٨٩.
١٣٣— عبد الخالق التميميّ : ٣٨.
١٣٤— ابن عبد ربّه :
١٣٥— عبد الرزاق بن عليّ (القيروانّي) : ٤٠.
١٣٦— عبد الرّحمن بن محمّد : ٣٨.
١٣٧— عبد الرحمن بن محمّد بن يوسف : ٤٢.
١٣٨— عبد الرحمن الخافقي : ٣٩.
١٣٩— عبد الرحمن ياغي : ٧٢.
١٤٠— عبد العزيز بن سهل : ٤٠.
١٤١— عبد العزيز القرشي : ٣٦.
١٤٢— عبد العزيز الميمني : ٤٨.
١٤٣— عبد الكريم النّهشليّ : ٢٥، ٣٢.
١٤٤— عبد الملك بن مروان : ١٨٣.
١٤٥— عبد الملك بن يحيى (الدركادو) : ٣٤.
١٤٦— عبد الله بن حمّاد : ٤.
١٤٧— عبد الله بن طلحة : ٥١.
١٤٨— عبد الله بن محمد بن شرف : ٥١.
١٤٩— عبد الله بن مسلم : ٤٠.
١٥٠— عبد المنعم بن خلدون : ٣٨.

١٥١— عبد المنعم الكندي : ٤٢.
١٥٢— عبد الوهاب بن نصر : ٥٧.
١٥٣— عبيد بن الأبرص : ٢١٣.
١٥٤— عبيد الله المهدي : ٦٠.
١٥٥— العتابي : ٢٥٢.
١٥٦— عتيق السوسي (أبو بكر) : ٣٣.
١٥٧— ابن عذاري : ٦.
١٥٨— عرقوب : ٦٢، ٣٠١.
١٥٩— عروة بن حزام : ١٦٨، ٢٢٤، ٢٩٣، ٣٦٠.
١٦٠— العزيز بالله الفاطمي : ٥٤.
١٦١— ابن عساكر : ٢٠٥، ٢٤٢.
١٦٢— العسكري (أبو هلال) : ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٧٢.
١٦٣— عصام بن شهير : ١٨٣.
١٦٤— ابن عطاء (اليهودي) : ٢٢.
١٦٥— عفراء : ٢٩٣، ٣٦٠.
١٦٦— عقيل بن أبي طالب : ٢٣٤، ٣٦٥، ٣٩١.
١٦٧— علقمة الفحل : ٢٧٢.
١٦٨— علي بن عبد الجبار الهذلي : ٤٠.
١٦٩— علي بن ابي الرجال الشيباني : ٦، ٢٤، ٥٨، ٦٣، ٧٥، ١٠٦، ١٥١، ٣٦٧.
١٧٠— علي بن أبي طالب : ١١٣، ٣٦٥، ٣٩١.
١٧١— علي بن عمر المقري : ٥٧.
١٧٢— علي بن محمد المعافري : ٣٧، ٥٣، ٥٤.
١٧٣— أبو عمران الفاسي : ٢٢، ٧٥.

١٧٤— عمر بن الخطّاب : ١١٣، ١٩٥، ٢٩٤.
١٧٥— عمر بن العطّار : ٣٥.
١٧٦— أبو عمرو بن العلاء : ٢٥٢.
١٧٧— عوف بن الرّبيع : ٣٤٣.
١٧٨— عياض بن موسى (القاضي) : ٢، ١١، ٥٣.
١٧٩— عيسى بن هشام : ٢١٣، ٢١٤.

— الفـــاء —

١٨٠— الفاسي (أبو عمران) : ٥٨.
١٨١— فاطمة بنت الأجدم الخزاعيّة : ٢٨٨.
١٨٢— أبو فراس الحمدانيّ : ٢٥٥،
١٨٣— الفرزدق : ٩٧، ٢١٦، ٢٢٧، ٢٥٢، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٦، ٣٥٠.
١٨٤— الفضل بن يحيى : ١٩٧.

— القـــاف —

١٨٥— ابن القابسيّ : ١٢، ٧٥.
١٨٦— القائد بن حمّاد : ٣.
١٨٧— القائم بأمر الله العباسيّ : ٩.
١٨٨— ابن قتيبة : ٢١٤، ٢٢٢، ٢٥١، ٢٥٢.
١٨٩— قتيلة بنت الحارث : ٢٨٩.
١٩٠— قدامة بن جعفر : ٢٧١، ٢٧٧، ٢٧٨.
١٩١— ابن قزمان (أبو مروان) : ٢٣٥.
١٩٢— القرشي (ابو زيد) : ٢٧٨.
١٩٣— القفطي : ٤٤.
١٩٤— قيس بن ذريح : ٢٣٤.
١٩٥— قيس بن الملّوح : ٢٣٤.

ـ الكـــاف ـ

١٩٦ـ ابن كثير : ٣٥١.
١٩٧ـ كســرى : ٤٠٦.
١٩٨ـ كشاجمـــــم : ٢٥٤.
١٩٩ـ كعب بن سعد : ٢٨٧.
٢٠٠ـ كعب بن مامة : ١٨٤، ١٨٦، ٢٠٤.
٢٠١ـ الكميت بن زيد : ٢٧٢.

ـ اللام ـ

٢٠٢ـ لبيد بن ربيعة : ٢١٣، ٢٥٥.
٢٠٣ـ ليلى بنت الحباب : ٢٣٤.
٢٠٤ـ ليلى بنت طريف : ٢٥٥.
٢٠٥ـ ليلى بنت مهدي : ٢٣٤.

ـ الميـــم ـ

٢٠٦ـ المأمون بن ذي النّون (يحيى) : ٥٩، ٧٠، ٩٣، ٩٧، ٩٩، ١٠٦، ١٠٧.
٢٠٧ـ المأمون بن هارون الرشيد : ٣٥٠، ٣٩١.
٢٠٨ـ مالك بن أنس : ٥، ٥٤، ٥٧.
٢٠٩ـ مالك بن الريب : ١٥٣، ٣٤٣.
٢١٠ـ مالك بن فارج : ٢٣٤.
٢١١ـ المتنبّي (أبو الطيّب) : ٣٥، ٥٥، ٩٧، ١١٦، ١٣٥، ١٣٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧١، ٢٢٥، ٢٥١، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٦، ٢٨٨.
٢١٢ـ ابن محرز : ٣٩.
٢١٣ـ محمّد (عليه السلام) ٢٨٩.

٢١٤— محمد بن تميم (ابو العرب) : ٤٢.
٢١٥— محمد بن جعفر (القزاز) : ٤٠ ، ٥٤ ، ٧٥.
٢١٦— محمد بن سفيان المقرّي : ٣٩.
٢١٧— محمد بن عبد الله بن رزين (أبو الشّيص) : ٢٥٨ ، ٢٥٩.
٢١٨— محمد بن عبد الله القصريّ : ٣٩.
٢١٩— محمد كرد علي : ٧.
٢٢٠— محمد بن عبد الواحد البغدادي (أبو الفضل) : ٢٦ ، ٣٢.
٢٢١— ابن المرابط (أبو بكر) : ٥١.
٢٢٢— المزرقيّ : ٢٥٦ ، ٢٥٧.
٢٢٣— المستنصر العبيديّ : ١٠.
٢٢٤— مسلم بن الوليد (صريع الغواني) : ٣٥٠.
٢٢٥— مصعب بن الزبير : ١٨٤.
٢٢٦— مضر بن نزار : ٣٤٣.
٢٢٧— معاوية بن أبي سفيان : ١٨٨ ، ٣٦٥.
٢٢٨— المعتصم بن صمادح : ٥١.
٢٢٩— المعرّي (أبو العلاء) : ١٧١.
٢٣٠— المعزّ بن باديس الصّنهاجيّ : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٩٧ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٣١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦.
٢٣١— المعزّ لدين الله الفاطميّ : ١.

٢٣٢ـ المظفّر بن الافطس : ١٠٦، ١٠٧، ١١٥، ١٥٣، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٢٢، ٢٣٣.

٢٣٣ـ المنصور (حميد بن أبي عامر) : ١٠٦، ١١٥.

٢٣٤ـ ابن منظور : ٢٧٩.

٢٣٥ـ ابن منكود : ٨٧.

٢٣٦ـ موسى بن عيسى الضفجوميّ : ٣٧، ٥٧.

ـ النـــون ـ

٢٣٧ـ النّابغة الذبياني : ٢١٥، ٢٢٤، ٢٢٧.

٢٣٨ـ النّجاشيّ : ٤٠٦، ٤١٠.

٢٣٩ـ نزار بن معدّ : ٣٤٣.

٢٤٠ـ النّضر بن الحارث : ٢٨٨، ٢٨٩.

٢٤١ـ النعمان بن المنذر : ٢٨٣، ٤٠٦.

٢٤٢ـ نوح (عليه السّلام) : ٢٣٥، ٢٧٨.

ـ الهـــاء ـ

٢٤٣ـ هارون الرّشيد : ١٩٧، ١٩٨.

٢٤٤ـ ابن هانئ (الاندلسي) : ١٦٨، ١٧٠، ٢١٣، ٢٥٤.

٢٤٥ـ هشام بن اسماعيل المخزوميّ : ١٨٣.

٢٤٦ـ ابن هشام (القاضي) : ٧٦، ٧٧.

٢٤٧ـ هود (عليه السلام) : ٢٧٨.

ـ الـــواو ـ

٢٤٨ـ الوّراق (أبو سعيد) : ٥١.

٢٤٩ـ الوقشيّ (ابو الوليد) : ٥١.

ـ اليـــاء ـ

٢٥٠ـ اليافعـــي : ٢٩.

٢٥١— ياقوت : ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦٦، ٦٧، ٧٠، ٧٦، ٨٠، ٨٣، ٨٤، ٩٩، ١٠١، ١٠٢.

٢٥٢— اليسع بن عيسى الفافقي : ٥١، ٥٤.

٢٥٣— يوسف (عليه السّلام) : ١٢٨، ٣٥١.

٢٥٤— ابن يوسف : ٢٣٦، ١٢٧، ١٢٨.

٢٥٥— يوشع بن نون : ٣٥١.

٢٥٦— يعقوب (عليه السلام) : ٢٩٨، ٣٤١.

فهـــــرس الأماكـــــن

— الهمـــزة —

١— أبان : ٣٣٣.

٢— الاسكندريّة : ٢٤٢.

٣— اشبيليّة : ٢٠ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٣٢.

٤— اشبيـــر : ٢.

٥— افريقيّة : ٢ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٠١.

٦— البيرة : ٣١٠.

٧— الأندلس : ١ ، ٤ ، ٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣.

— البـــاء —

٨— باجة : ١٦.

٩— برجة : ٣٤٠.

١٠— بطليوس : ١٠٦ ، ١٥٣ ، ٢٠٨.

١١— بغداد : ٢٧ ، ٤٠ ، ٥٧ ، ٧٤ ، ٣٦٩.

١٢— بيد روطة : ١٣٣ ، ١٤٥ ، ٣٦٩.

١٣— البين : ١٥٠ ، ١٥٨ ، ٣٣٣.

— التـــاء —

١٤— تهامة : ٦٢.

١٥— تونس : ١٩.

— الجيم —

١٦— جرجان : ٢٢٨ ، ٣٥٠.

— الحاء —

١٧— حُزْوَى : ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦٨ ، ٢٦٢ ، ٣٣٣.

١٨— حمص : ٩١ ، ٣٥٥.

— الخاء —

١٩— خرسان : ١٨ ، ١٨٩.

— الدّال —

٢٠— الدّهناء : ٢٩٣.

— الرّاء —

٢١— الرّطلة : ١٠.

٢٢— الرّوحاء : ١٥٤ ، ٣٦٠.

— السّين —

٢٣— سبأ : ٢٩٦ ، ٣١٥.

٢٤— سَلْمان : ٢١٢.

٢٥— سَلْم : ١٥٠ ، ٣٣٣.

٢٦— السّودان : ٨ ، ٢٠٠.

٢٧— سوسة : ١٦ ، ١٩٠.

— الشين —

٢٨— شامة : ٢٣٥.

٢٩— الشّام : ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٢.

— الصّاد —

٣٠— صبرة : ٦٣.

٣١ـ صقليّة : ١٩، ٢٨، ٤٠، ٦٣، ٧٨، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩،

ـ الطّـــاء ـ

٣٢ـ طرابلس : ٢٠.

٣٣ـ طُفَيل : ٢٣٥.

٣٤ـ طليطلة : ٥٩، ٩٣، ١٠٠، ١٠٦، ١٠٧، ١٤٩.

ـ العيـن ـ

٣٥ـ العراق : ٢٧، ٣٥، ١٩١، ٢٣٤.

٣٦ـ عُسْفَان : ١٥٠، ١٥٨، ١٧٥، ٣٣٣.

ـ الغيـن ـ

٣٧ـ غرناطة : ١٨٣، ٢٠٤، ٣١٠.

ـ الفـــاء ـ

٣٨ـ فحص الدرارة : ٢١.

٣٩ـ فلسطيـــن : ١٠.

٤٠ـ فيفـــاء : ١٦٨، ٢٩٣.

ـ القـــاف ـ

٤١ـ قابس : ٥٣.

٤٢ـ قرطبة : ٩٢، ٩٣، ١٠٦، ٢٣٥، ٣٦٠، ٣٩٩.

٤٣ـ القصر : ١٥٤، ٣٦٠.

٤٤ـ القطب : ١٦٦، ٢٦٦.

٤٥ـ قطربّل : ١١٥، ٣٦٩.

٤٦ـ قفصـــه : ١٦.

٤٧ـ قلعة حمّاد : ٢، ٤.

٤٨— القيروان : ٢، ٣، ٥، ٦، ١١، ١٤، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٢، ٦٣، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٢، ٨٦، ٨٧، ١٠١، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٨، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٥، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٧، ٢٥٢، ٣١٦، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٦٠، ٣٦٦، ٣٧٤، ٣٩٩.

— الكـــاف —

٤٩— الكوفـــه : ١٩٣.

— الميم —

٥٠— مازر : ٨٥، ٨٧، ٨٨.

٥١— المدينة (المنّورة) : ١٨٣، ٢٣٥، ٣٠١.

٥٢— مرسيّة : ١٠٦.

٥٣— المريّة : ٥١، ٩٩، ٣٤٠.

٥٤— مصر : ٥٧، ٥٩، ٧٤، ١٣٠.

٥٥— المغرب : ٥، ٩، ١٠، ١٣، ٢١، ٢٢، ٢٧، ٣٦، ٥٦، ٦٢، ٦٣، ٩٤، ١٠١، ١٢٥، ١٢٨، ٢١٦.

٥٦— مكّة : ٥٧، ٢٣٥.

٥٧— منبج : ١٥٠، ١٥٨، ٣٣٣.

٥٨— المهدّية : ٣، ١١، ١٤، ١٥، ١٦، ٣٦، ٧٨، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ١٠٥، ١٣٩.

٥٩— الميدان : ١٥٤، ٣٦٠.

— النّـــون —

٦٠— نجـــد : ٢٩٣.

فهرس القبائل والأمم

ـ الهمزة ـ

١ـ الأثبج : ١٣.

٢ـ أسد : ١٤٤ ، ١٥٤ ، ٣٩٩.

٣ـ بنو الأغلب : ٣٦٠.

ـ الباء ـ

٤ـ البربر : ٤ ، ١٧ ، ١٨.

ـ التاء ـ

٥ـ تجيب : ١١٢ ، ٣٤٣.

٦ـ تميم : ٢٢٦ ، ٢٩٣ ، ٣٤٣.

ـ الجيم ـ

٧ـ جذام : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧.

ـ الحاء ـ

٨ـ حمير : ٢٩٦.

ـ الخاء ـ

٩ـ الخوارج : ١٩١.

ـ الدّال ـ

١٠ـ ذبيان : ١٠٥ ، ٤٠٦.

ـ الرّاء ـ

١١ـ ربيعة : ١٨.

١٢ـ الرّوم : ٨ ، ١٨ ، ٨٦.

١٣ـ رياح : ١٣ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٣١٦.

ـ الـزّاى ـ

١٤ـ زغبة : ١٣ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ٣١٦ ، ٣٩٩ .
١٥ـ زناتة : ٢ ، ٤ ، ١٤ .

ـ السّيـن ـ

١٦ـ السّامرة : ٣٤٤ .
١٧ـ سعد : ١٤٤ ، ١٥٤ ، ٣٤٣ ، ٣٩٩ .
١٨ـ سعد العشيرة : ١٨٩ .
١٩ـ بنو سليم : ١٣ .

ـ الشيـن ـ

٢٠ـ الشيعة : ١٢ .

ـ الضّـاد ـ

٢١ـ صنهاجة : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ١١ ، ١٤ ، ١٥ .

ـ العيـن ـ

٢٢ـ عبس : ١٠٥ ، ٤٠٦ .
٢٣ـ عدىّ : ١٣ ، ٣٤٣ .
٢٤ـ بنو العنبر : ١٩١ .
٢٥ـ بنو عوف : ٢٨٧ .

ـ الغيـن ـ

٢٦ـ غفار : ٣٤٤ .

ـ الفـاء ـ

٢٧ـ الفرس : ١٨ .

ـ القـاف ـ

٢٨ـ قحطان : ١٨ ، ٤٦ ، ١١٢ .

٢٩ـ قـــرّة : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٣١٦ .
٣٠ـ قريش : ١٨ ، ١٨٣ ، ١٨٩ .

ـ الكـــاف ـ

٣١ـ كليب : ٣٥٠ .
٣٢ـ كنانة : ٣٤٤ .

ـ الميـــم ـ

٣٣ـ مازن : ٣٤٣ .
٣٤ـ المالكيّة : ١١ ، ٢٢ .
٣٥ـ مضـــر : ١٨٩ .
٣٦ـ معـــدّ : ٣٤٤ .

ـ النّـــون ـ

٣٧ـ نزار : ١١٢ .

ـ الهـــاء ـ

٣٨ـ بنو هلال : ١٣ ، ١٤٣ ، ٣٤٢ .

ـ اليـــاء ـ

٣٩ـ بنويربوع : ٩٧ ، ٣٥٠ .

ثبت المصادر والمراجع *

أولا : المصادر المخطوطة :

١— ابن حجّه الحمويّ — أبو بكر عليّ بن عبد الله الأزدي (٧٦٧—٨٣٧هـ).
— تأهيل الغريب ، مخطوط بالخزانة العامّة بالرباط برقم : (١٩٧) ، وعنه صورة على ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنيّة تحت رقم : (٤٩).

٢— السّيوطي — جلال الدّين عبد الرحمن بن أبي بكر (٨٤٩—٩١١هـ).
— جني الجناس ، مخطوط على ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنيّة تحت رقم : (٣٩٨).

٣— الصّفديّ — أبو الصّفا صلاح الدّين خليل بن أيبك (٠٠٠—٧٦٤هـ).
— الشّمور بالعمور ، مخطوط على ميكروفيلم في مركز الوثائق بالجامعة الأردنيّة تحت رقم : (٦٠٨).

٤— ابن فضل الله العمريّ — أبو العبّاس شهاب الدّين أحمد بن يحيى (٧٠٠—٧٤٩هـ).
— مسالك الأبصار ، مخطوط على ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنية تحت رقم : (٣٩٥) ، ق ١—٢.

٥— الوطواط — محمّد بن ابراهيم بن عليّ الكتبي (٠٠٠—٨١٨هـ).
— مناهج الفكر ومناهج العبر ، الجزء الرّابع ، مخطوط على ميكروفيلم في مركز الوثائق الجامعة الأردنية تحت رقم : (١٣).

٦— ابن يوسف — أبكار الأفكار ، مخطوط في مكتبة ابن يوسف بمراكش بلا رقم (١).

---

* رتبت المصادر ترتيباً هجائياً وفقاً لشهرة مؤلفيها دون اعتبار للقطه (أبو) أو (ابن) ، وأمّا المراجع الحديثة فقد رتبت حسب الاسم الأول لمؤلفيها .

(١) وهو مجموعة مخطوطات مختلفة جمعت مع بعضها البعض ، وبها نقول من كتاب أبكار الأفكار لابن شرف ، وقد نسب هذا المخطوط خطأ إليه .

ثانياً : المصادر المطبوعة :

٧— القرآن الكريم — .

٨— ابن الابّار القضاعي — أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن أبي بكر (٠٠٠ —٦٥٨هـ) .

— إعتاب الكتّاب ، تحقيق الدّكتور صالح الاشتر ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٦١م .

— التكملة لكتاب الصّلة جـ١—٢ ، نشر عزّت العطّار ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٥٦م .

— الحلّة السيراء ، جـ١—٢ ، تحقيق الدّكتور حسين مؤنس ، الطبعة الاولى ، مصر ، ١٩٦٣م .

— المعجم في أصحاب القاضي أبي عليّ الصّدفي ، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنّشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

٩— ابن الاثير — أبو الفتح ضياء الدّين نصر الله بن محمّد (٠٠٠ — ٦٣٧هـ) .

— المثل السّائر في أدب الكاتب والشاعر ، جـ١—٤ ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانه الطبعة الاولى ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٩م .

١٠— ابن الاثير — أبو الحسن عليّ بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانيّ (٠٠٠ — ٦٣٠هـ) .

— الكامل في التّاريخ ، جـ١—١٢ ، دار صادر للطباعة والنّشر ، بيروت ، ١٩٦٥م .

١١— الادريسيّ — أبو عبد الله محمّد بن محمّد (٤٩٣ — ٥٦٠هـ) .

— صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق) ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٦٨م .

١٢ـ الأصمعيّ ـ أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (١٢٢ ـ ٢١٦ هـ).
ـ فحولة الشّعراء، الطبعة الأولى، تقديم صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.

١٣ـ الآمديّ ـ أبو القاسم الحسن بن بشر (٠٠٠ ـ ٣٧٠هـ).
ـ الموازنة بين الطّائيين، جـ١ـ٢، تحقيق السّيّد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ١٩٦١م.

١٤ـ امرؤ القيس ـ امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو.
ـ ديوان امرئ القيس، الطبعة الثالثة، تحقيق محمّد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر.

١٥ـ الباقلانّي ـ أبو بكر محمّد بن الطّيب (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ).
ـ اعجاز القرآن، تحقيق السّيّد احمد صقر، دار المعارف بمصر، ١٩٥٤م.

١٦ـ البحتريّ ـ أبو عبادة الوليد بن عبيد الطّائي (٨٢٠ ـ ٨٩٧هـ).
ـ الحماسة، تحقيق كمال مصطفى، المكتبة التجارية القاهرة، ١٩٢٩م.

١٧ـ البديع ـ أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني (٣٥٨ ـ ٣٨٩هـ).
ـ مقامات بديع الزّمان الهمذانّي، شرح محمّد محمود الرّافعيّ، مطبعة السعادة، القاهرة.

١٨ـ ابن بسّام الشّنتيريني ـ أبو الحسن عليّ بن بسّام (٠٠٠ ـ ٥٤٢ هـ).
ـ الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جـ١ـ٨، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

١٩— ابن بشكوال — أبو القاسم خلف بن عبد الملك (٤٩٤ — ٥٧٨ هـ).
— الصّلة، جـ١—٢، الدّار المصريّة للتأليف والترجمة، بمصر، ١٩٦٦م.
٢٠— البغداديّ — أبو بكر أحمد بن عليّ الخطيب (٠٠٠ — ٤٦٣ هـ).
— تاريخ بغداد، جـ١—١٤، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان.
٢١— البغداديّ — اسماعيل باشا بن محمّد أمين.
— هديّة العارفين، جـ١—٢، طبع بعناية وكالة المعارف، استانبول، ١٩٥١م.
٢٢— البغداديّ — عبد القادر بن عمر (١٠٣٠ — ١٠٩٣ هـ).
— خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، جـ١—٤، الطبعة الأولى، المطبعة المنيريه ببولاق.
٢٣— البكريّ — أبو عبيد الله بن عبد العزيز (٠٠٠ — ٤٨٧ هـ).
— معجم ما استعجم من البلاد والمواضع، جـ١—٤، تحقيق مصطفى السّقا، القاهرة، ١٩٤٥م.
— المغرب في ذكر بلاد أفريقيّة والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد.
— فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، الطبعة الأولى، تحقيق عبد المجيد عابدين، واحسان عبّاس، بيروت، ١٩٥٨م.
٢٤— البلويّ — أبو الحجّاج يوسف بن محمّد (١١٣٥ — ١٢٠٧م).
— ألفباء، جـ١—٢، جمعيّة المعارف، القاهرة، ١٢٨٧هـ.
٢٥— التّجاني — أبو عبد الله محمّد بن أحمد (٠٠٠ — ٧١٧هـ).
— رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوّهاب، المطبعة الرسمية، تونس، ١٩٥٨م.
٢٦— ابن تغري بردي — ابو المحاسن جمال الدّين يوسف بن تغري بردي الاتابكيّ (٨١٣ — ٨٧٤هـ).

— النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ١—١٢ ، الهيئة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والنّشر ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

٢٧— أبو تمام — حبيب بن أوس الطّائي (٠٠٠ — ٢٢١هـ) .

— ديوان أبي تمام ، جـ١—٤ ، (شرح الخطيب التّبريزيّ) ، تحقيق الدّكتور محمّد عبده عزّام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

— ديوان الحماسة ، جـ١—٢ ، تعليق محمد عبد المنعم خفاجيّ ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

٢٨— الثّعالبيّ — أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن اسماعيل النيسابوريّ ، (٠٠٠ — ٤٢٩هـ) .

— ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، مطبعة الظاهر ، القاهرة ، ١٩٠٨م .

— يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر ، جـ١—٤ ، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد ، مكتبة الحسين التجاريّة ، القاهرة ، ١٩٤٧م .

٢٩— الجاحظ — أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠ — ٢٥٥هـ) .

— البيان والتبيين ، جـ١—٤ ، الطبعة الثانية ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٦٠م .

— كتاب الحيوان ، جـ١—٧ ، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون ، الطبعة الأولى ، مكتبة مصطفى البابي الحلبيّ ، القاهرة ، ١٩٤٥م .

٣٠— الجرجاني — أبو الحسن عليّ بن عبد العزيز (٠٠٠ — ٣٩٢هـ) .

— الوساطة بين المتنبّي وخصومه ، تحقيق محمّد أبو الفضل ابراهيم ، وعليّ محمّد البّجاويّ ، دار احياء الكتب العربيّة ، القاهرة .

٣١— جرير — جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي (٠٠٠ — ١١١هـ) .

— ديوان جرير ، جـ١—٢ ، تحقيق الدّكتور نعمان محمّد أمين طه ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٣٢ـ الحاتمي ـ أبو علي محمّد بن الحسن المظفّر (٠٠٠ ـ ٣٨٨هـ) .
ـ الرّسالة الحاتميّة فيما وافق المتنبّي في شعره من كلام أرسطو، تحقيق الدّكتور فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٣١م.
٣٣ـ حاجي خليفه ـ مصطفى بن عبد الله (١٠١٠ ـ ١٦٧ هـ) .
ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ١ ـ ٢ ، المكتبة الاسلاميّة ، طهران ، ١٣٨٧هـ .
٣٤ـ ابن حجّة ـ أبو بكر بن عليّ الازدي (٧٦٧ ـ ٨٣٧هـ) .
ـ ثمرات الاوراق بهامش المستطرف في كلّ فن مستظرف للأبشيهي ، دار الفكر ، بيروت .
ـ خزانة الادب وغاية الارب ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩١هـ .
٣٥ـ ابن حزم الظّاهريّ ـ أبو محمّد عليّ بن حزم الاندلسيّ (٣٨٤-٤٥٦هـ) .
ـ جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الدكتور عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢م.
٣٦ـ حسّان ـ حسّان بن ثابت الانصاريّ (٠٠٠ ـ ٥٤هـ) .
ـ شرح ديوان حسّان بن ثابت الانصاري ، ضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقيّ ، دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٨٠م.
٣٧ـ الحصريّ ـ أبو اسحق ابراهيم بن عليّ القيروانيّ (٠٠٠ ـ ٤٥٣هـ) .
ـ جمع الجواهر في الملح والنّوادر ، المكتبة التجاريّة الكبرى ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ .
٣٨ـ الحميديّ ـ أبو عبد الله محمّد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الازديّ ، (٠٠٠ ـ ٤٨٨هـ) .
ـ جذوة المقتبس ، الدّار المصريّة للتأليف والترجمة ، مصر ، ١٩٦٦م.
٣٩ـ الحميريّ ـ أبو عبد الله محمّد بن عبد الله (٠٠٠ ـ ٩٠٠هـ) .
ـ الرّوض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٥م.

٤٠— ابن خاقان — أبو نصر الفتح بن محمّد بن عبد الله القيسيّ الاشبيليّ ، ١٩٧٥م.
— قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، القاهرة ، ١٢٨٤هـ.
٤١— الخريميّ — أبو يعقوب اسحق بن حسّان (... — ٢١٤هـ).
— ديوان أبي يعقوب الخريميّ ، تحقيق عليّ جواد الطّاهر ومحمّد جبّار ، بيروت ، ١٩٧١م.
٤٢— ابن الخطيب — أبو عبد الله لسان الدّين بن الخطيب (٧١٣—٧٧٦هـ).
— تاريخ المغرب في العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام ، تحقيق الدكتور احمد مختار العبادي ، ومحمد ابراهيم الكتّانيّ ، دار الكتاب ، الدّار البيضاء ، ١٩٦٤م.
٤٣— الخفاجيّ — شهاب الدّين أحمد بن محمّد بن عمر الخفاجيّ (... — ١٠٦٩هـ).
— شفاء الغليل ، الطبعة الاولى ، مطبعة السّعادة ، مصر ، ١٣٢٥هـ.
— طراز المجالس ، المطبعة الوهبيّة المصريّة ، مصر ، ١٢٨٤هـ.
٤٤— ابن خلدون — عبد الرّحمن بن محمّد بن خلدون المغربيّ (... — ٨٠٨هـ).
— تاريخ ابن خلدون المسمّى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، ج١—٧ ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٨م.
٤٥— ابن خلّكان — أبو العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨ — ٦٨١هـ).
— وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزّمان ، ج١—٨ ، تحقيق الدّكتور إحسان عبّاس ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٢م.

٤٦— داود الانطاكي — داود بن عمر الانطاكي (٠٠٠ —١٠٠٨هـ) .
— تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشّاق ، الطبعة الثالثة ، المطبعة المصريّة ، القاهرة ، ١٣٢٨هـ .
٤٧— الدّبّاغ — أبو زيد عبد الرّحمن بن محمّد الانصاريّ الاسيديّ (٦٠٥— ٦٩٦هـ) .
— معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، الجزء الاول بتحقيق ابراهيم شبّوح ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٦٨م . والجزء الثالث بتحقيق محمّد ماضور ، المكتبة العتيقة بتونس ، ومكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٧٨م .
٤٨— ابن دحية — أبو الخطاب عمر بن الحسين بن عليّ بن خليفة الكلبّي (٠٠٠ — ٦٣٣هـ) .
— المطرب في أشعار أهل المغرب ، تحقيق مصطفى عوض الكريم ، مطبعة مصر ، الخرطوم ، ١٩٥٤م .
٤٩— ديك الجن — عبد السلام بن رُشَيْان .
— ديوان ديك الجن ، تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري ، دار الثقافة ، بيروت .
٥٠— ابن دينار — أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرّعينيّ القيروانّي .
— المؤنس في أخبار أفريقيّة وتونس ، تحقيق محمّد شمّام ، الطبعة الثالثة ، المكتبة العتيقة بتونس ، ١٩٦٧م .
٥١— الذّهبي — أبو عبد الله شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان (٦٧٢ — ٧٤٨هـ) .
— العِبَر في خبر مَنْ غَبَر ، جـ١—٥ ، تحقيق صلاح الدّين المنجد وفؤاد سيّد ، دائرة المطبوعات والنّشر ، الكويت ، ١٩٦٦م .
٥٢— ذو الرّمة — غيلان بن عقبة بن بهيس العدوي (٧٧—١١٧هـ) .

— ديوان ذي الرّمّة — الطبعة الثانية ، المكتب الاسلامي ، دمشق ، ١٩٦٤م.

٥٣— ابن رُسْتة — أبو عليّ أحمد عمر بن رُسْته (... — ٢٩٠هـ) .

— الأعلاق النّفيسة ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩٠م.

٥٤— ابن رشيق — أبو عليّ الحسن بن رشيق القيروانّي الأزديّ ، (٣٩٠— ٤٥٦هـ) .

— ديوان ابن رشيق القيروانّي ، جمع وتحقيق الدّكتور عبد الرحمن ياغي ، دار الثقافة ، بيروت .

— العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده ، الطبعة الرابعة ٢ ج في م١ ، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٢م.

— قراضة الذّهب في نقد أشعار العرب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٢٦م.

٥٥— الزّبيديّ — محمّد مرتضى الحسيني (١١٤٥—١٢٠٥هـ) .

— تاج العروس في جواهر القاموس ، ج١—١٠ ، دار ليبيا ، بنغازي ، ١٩٦٦م.

٥٦— الزّبيريّ — أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب (١٥٦ — ٢٣٦هـ) .

— نسب قريش ، تصحيح وتعليق إ. ليفي بروفنسال ، دار المعارف بمصر .

٥٧— زهير — زهير بن أبي سلمى .

— ديوان زهير بن أبي سلمى (صنعة ثعلب) ، الدّار القوميّة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م.

٥٨— الزّوزنّي — أبو عبد الله الحسين بن احمد الزّوزنّي .

— شرح المعلّقات السّبع ، الطبعة الثالثة ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م.

٥٩— سحيم ـ سحيم عبد بني الحسحاس (٠٠٠ ـ ٤٠هـ).
ـ ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، تحقيق عبد العزيز الميمنيّ، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م.
٦٠— السرّاج ـ محمّد بن محمّد الأندلسيّ (٠٠٠ ـ ١٠٧٠هـ).
ـ الحلل السّندسيّة في الاخبار التّونسية، القسم الرّابع، تحقيق محمّد الحبيب، الدّار التونسيّة بتونس، ١٩٧٠م.
٦١— ابن سعيد المغربيّ ـ أبو الحسن نور الدّين عليّ بن موسى بن سعيد المغربيّ (٠٠٠ ـ ٦٧٣هـ).
ـ رايات المبرّزين وغايات المميّزين، تحقيق الدّكتور النّعمان عبد المتعال القاضي، لجنة احياء التراث الاسلاميّ، القاهرة، ١٩٧٣م.
ـ الرقصات والمطربات، جمعية المعارف، القاهرة، ١٢٨٦م.
ـ المغرب في حلى المغرب، ج١—٢، تحقيق الدّكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.
٦٢— ابن سلّام الجمحّي ـ أبو عبد الله محمّد بن سلّام الجمحّي، (١٣٩ ـ ٢٣٢هـ).
ـ طبقات فحول الشّعراء، تحقيق محمود محمّد شاكر، دار المعارف، مصر.
٦٣— السّلفيّ ـ أحمد بن محمّد بن أحمد بن محمّد بن ابراهيم سَلَفَه (٠٠٠ ـ ٥٧٦هـ).
ـ أخبار وتراجم أندلسية، الطبعة الأولى، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣م.
٦٤— السّمعانيّ ـ عبد الكريم بن محمّد بن منصور التميميّ السمعانيّ (٠٠٠ ـ ٥٦٢هـ).

— الانساب ، جـ١—٦ ، تعليق وتصحيح عبد الرّحمن بن يحيى اليمانيّ ، الطبعة الاولى ، مطبعة دار المعارف العثمانيّة بحيدر أباد ، الهند ، ١٩٦٢م.

٦٥— ابن سنان الخفاجي — عبد الله بن محمّد بن سنان الخفاجيّ (٤٠٠ — ٤٦٦هـ) :

— سر الفصاحة ، تحقيق عليّ فوده ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٣٢م.

٦٦— السّيوطيّ — جلال الدّين عبد الرّحمن بن ابي بكر (٨٤٩—٩١١هـ).

— بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة ، جـ١—٢ ، تحقيق محمّد ابو الفضل ابراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ ، القاهرة ، ١٩٦٤م.

— تاريخ الخلفاء ، المطبعة المنيريّة ، القاهرة ، ١٣٥١هـ.

— مقامات السّيوطّي ، الطبعة الاولى ، مطبعة الجوائب ، قسطنطينيّة ، ١٢٩٨هـ.

٦٧— ابن شاكر — محمّد بن شاكر الكتبي (٠٠٠—٧٦٤هـ).

— فوات الوفيات ، الجزء الاول بتحقيق الدّكتور إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣م. والجزء الثاني بتحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصريّة ، القاهرة ، ١٩٥١م.

٦٨— الشّجريّ — أبو السعادات هبة الله بن عليّ الحسني (٤٥٠—٥٤٢هـ).

— الحماسة الشجريّة ، تحقيق أسماء الحمّصي ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٠م.

٦٩— ابن شرف — أبو عبد الله محمّد بن شرف القيروانّي (٠٠٠—٤٦٠هـ).

— أعلام الكلام ، الطبعة الاولى ، تحقيق وتصحيح عبد العزيز أمين الخانجي ، مطبعة النهضة بمصر.

— رسائل الانتقاد ، نشرها الأستاذ حسن حسني عبد الوهّاب في مجلّة المقتبس المجلّد السّادس ، وفي رسائل البلغاء .

٧٠— الشريشي — أبو العبّاس أحمد بن عبد المؤمن القيسّي الشريشي (٠٠٠—٦١٩هـ) .

— شرح مقامات الحريري ، ج١—٥ ، تحقيق محمّد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة المدنّي ، القاهرة .

٧١— الصّفديّ — صلاح الدّين خليل بن أيبك الصّفديّ (٦٩٦—٧٦٤هـ) .

— الغيث المسجّم في شرح لاميّة العجم ، ج١—٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٥م .

— الوافي بالوفيات ، ج١—٣ ، باعتناء س . ديدرينغ ، دمشق المطبعة الهاشمية ، ١٩٥٣م .

٧٢— الصّوليّ — أبو بكر محمّد بن يحيى الصولي (٠٠٠—٣٣٥هـ) .

— أخبار أبي تمّام ، تحقيق خليل محمود عساكر ، ومحمّد عبده عزّام ونظير الاسلام الهندي ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

٧٣— الضبي — احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي (٠٠٠—٥٩٩هـ) .

— بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ، مطبعة روخس ، مجريط ، ١٨٨٤م .

٧٤— الضبي — أبو العبّاس المفضّل بن محمّد (٠٠٠—١٦٨هـ) .

— أمثال العرب ، مطبعة الجوائب ، قسطنطينيّة ، ١٨٨٢م .

٧٥— ابن أبي الضّياف — أحمد بن أبي الضياف (٠٠٠—١٢٩١هـ) .

— اتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تحقيق لجنة من كتّاب الدّولة للشؤون الثقافية ، تونس ، ١٩٦٣م .

٧٦— ابن طباطبا — محمّد بن أحمد بن طباطبا العلوي (٠٠٠—٣٢٢هـ) .

— عيار الشعر ، تحقيق وتعليق طه الحاجريّ ومحمّد زغلول سلّام ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

٧٧ـ طرفة ـ طرفة بن العبد (٠٠٠ـ٥٦٤م).
ـ ديوان طرفة بن العبد (شرح الأعلم الشنتمري)، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٥م.
٧٨ـ ابن ظافر الأزدي ـ علي بن ظافر الأزدي (٠٠٠ـ٦١٣هـ).
ـ بدائع البداهة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
ـ غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، تحقيق محمد زغلول سلام ومصطفى الصاوي، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م.
٧٩ـ العباس ـ العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي (٠٠٠ـ١٩٢هـ).
ـ ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي، القاهرة، ١٩٥٤م.
٨٠ـ العباسي ـ عبد الرحيم بن أحمد العباسي (٠٠٠ـ٩٦٣هـ).
ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، جـ١ـ٤، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة.
٨١ـ ابن عبد ربه ـ احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (٠٠٠ـ٣٢٨هـ).
ـ العقد الفريد، جـ١ـ٨، الطبعة الأولى، دار الفكر بيروت.
٨٢ـ ابن عذاري المراكشي ـ أبو عبد الله أحمد بن محمد المراكشي (٠٠٠ـ٦٩٥هـ).
ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ١ـ٣، نشر وتحقيق: ج. س: كولان، إ. ليفي بروفنسال، ليدن، هولاندا، ١٩٥١م.

٨٣— عروة — عروة بن حزام .
— شعر عروة بن حزام ، جمع وتحقيق إبراهيم السّامرائي ، وأحمد مطلوب ، بغداد ، ١٩٦١م .
٨٤— ابن عساكر — أبو القاسم عليّ بن الحسن (٤٩٩—٥٧١هـ) .
— تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، جـ١—٧ ، الطبعة الثانية ، رتّبه وهذّبه عبد القادر بدران ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩م .
٨٥— العسكري — أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، (٠٠٠— ٣٩٥هـ) .
— كتاب الصّناعتين (الكتابة والشعر) ، تحقيق محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٧١م .
٨٦— ابن العماد — أبو الفلاح عبد الحيّ بن احمد بن محمّد بن العماد الحنبلي (٠٠٠—١٠٨٩هـ) .
— شذرات الذّهب في أخبار من ذهب ، جـ١—٤ ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٩٣١م .
٨٧— العماد — أبو عبد الله عماد الدّين بن محمّد بن صفي الاصفهاني ، (٠٠٠—٥٩٧هـ) .
— خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الرّابع ، تحقيق عمر الدّسوقي وعلي عبد العظيم ، دار نهضة مصر للطبع والنّشر ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
٨٨— عياض — أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (٠٠٠—٥٤٤هـ) .
— ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، جـ١—٤ ، تحقيق الدّكتور أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة بيروت ، ومكتبة طرابلس ليبيا .

٨٩— أبو الفرج — أبو الفرج عليّ بن الحسين بن محمّد الأمويّ القرشـــي (٢٨٤—٣٥٦هـ).
— الأغاني، جـ١—٢٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٧م.
٩٠— الفرزدق — همام بن غالب بن صعصعة (٠٠٠—١١٤هـ).
— ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.
٩١— الفيروز أبادي — أبو طاهر مجد الدّين محمّد بن يعقـــــوب (٧٢٩—٨١٧هـ).
— القاموس المحيط، جـ١—٤، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
٩٢— القالي — أبو عليّ اسماعيل بن القاسم القالي البغداديّ (٠٠٠— ٣٥٦هـ).
— الأمالي، جـ١—٢، الطبعة الثالثة، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٤م.
٩٣— ابن قتيبة — أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري (٢١٣— ٢٧٦).
— الشعر والشعراء، جـ١—٢، تحقيق أحمد محمّد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦م.
٩٤— قدامة — أبو الفرج قدامة بن جعفر (٠٠٠—٣٣٧هـ).
— نقد الشّعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجيّ، مصـــر، ١٩٦٣م.
٩٥— القرشي — أبو زيد محمّد بن الخطاب القرشي (٠٠٠—٢٣٠هـ).
— جمهرة أشعار العرب، تحقيق عليّ محمّد البجاوي، الطبعـــة الأولى، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٧م.

٩٦ـ القرطبيّ ـ أبو عبد الله محمّد بن احمد الانصاريّ القرطبيّ (٠٠٠ـ٦٧١هـ).
ـ الجامع لأحكام القرآن، جـ١ـ٢٠، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٦٧م.
٩٧ـ القفطي ـ أبو الحسن جمال الدّين عليّ بن يوسف القفطي (٥٦٨ ـ ٦٤٦هـ).
ـ إنباه الرّواة على أنباه النّحاه، جـ١ـ٣، تحقيق محمّد أبو الفضل ابراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م.
٩٨ـ القلقشنديّ ـ أبو العباس أحمد بن عليّ القلقشنديّ (٧٥٦ـ٨٢١هـ).
ـ صبح الأعشى في صناعة الانشا، جـ١ـ١٤، المؤسسة المصريّة العامة للتأليف والترجمة، القاهرة.
٩٩ـ ابن كثير ـ أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشيّ (٠٠٠ـ٧٧٤هـ).
ـ البداية والنهاية في التاريخ، جـ١ـ١٤، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٣٢م.
ـ تفسير القرآن العظيم، جـ١ـ٤، دار احياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبيّ.
١٠٠ـ الكميت ـ الكميت بن زيد الأسديّ (٦٠ـ١٢٦هـ).
ـ شعر الكميت بن زيد الأسديّ، جمع وتحقيق داود سلّام، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٦٩م.
١٠١ـ الكنانيّ ـ محمّد بن صالح بن عيسى الكنانيّ (١٢٢٢ـ١٢٩٢هـ).
ـ تكميل الصّلحاء والاعيان لمعالم الايمان في أولياء القيروان، تحقيق محمّد العنّابي، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٠م.
١٠٢ـ المبرّد ـ أبو العبّاس محمّد بن يزيد (٢١٠ـ٢٨٥هـ).
ـ الكامل في اللّغة والأدب، جـ١ـ٤، تحقيق محمّد أبو الفضل ابراهيم والسيّد شحاته، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م.

١٠٣- المتنبي — أبو الطيّب أحمد بن الحسين المتنبّي (٠٠٠—٣٥٤هـ) .
— ديوان أبي الطّيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ، جـ١—٤ ، ضبط وتصحيح مصطفى السّقا وابراهيم الابياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٨م .

١٠٤- المرّاكشيّ — عبد الواحد بن عليّ المراكشي (٠٠٠— ٦٤٧هـ) ،
— المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمّد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

١٠٥- المرزبانّي — أبو عبد الله محمّد بن عمران المرزباني (٢٩٦—٣٨٤هـ) .
— الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء ، الطبعة الثانية ، تحقيق محبّ الدّين الخطيب ، المطبعة السلفيّة ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ .

١٠٦- المرزوقيّ — أبو عليّ أحمد بن محمّد بن الحسن المرزوقي (٠٠٠—٤٢١هـ) .
— شرح ديوان الحماسه ، جـ١—٤ ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، الطبعة الاولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١م .

١٠٧- المستنصر بالله — معدّ بن عليّ (١٠٢٩ —١٠٩٤م) .
— السّجلات المستنصريّة ، تحقيق عبد المنعم ماجد ، دار الفكر العربيّ ، مصر ، ١٩٥٤م .

١٠٨- ابن المعتزّ — عبد الله بن المعتزّ (٠٠٠—٢٩٦هـ) .
— طبقات الشّعراء المحدثين ، تحقيق عبد السّتار فرّاج ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٦م .

١٠٩- المعرّى — أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري (٣٦٣ — ٤٤٩هـ) .
— شروح سقط الزّند ، جـ١—٥ ، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب ، تحقيق مصطفى السّقا وآخرون ، الدّار القومية للطباعة والنشر ،

القاهرة ، ١٩٦٤م،

ـ الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ، تحقيق محمود حسن زناتي ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧م.

١١٠- المقّريّ ـ أحمد بن محمّد المقري التلمساني (٩٩٢ـ١٠٤١هـ).

ـ نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب ؛ جـ١ـ٨ ؛ تحقيق الدّكتور إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م،

١١١- ابن منظور ـ أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الانصاريّ (٦٣٠ـ٧١١هـ).

ـ لسان العرب ، جـ١ـ١٥ ، دار صادر ، بيروت .

١١٢- الميدانّي ـ أبو الفضل أحمد بن محمّد بن أحمد بن ابراهيم الميدانّي ، (٠٠٠ـ٥١٨).

ـ مجمع الامثال ، جـ١ـ٢ ، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد ، مطبعة السّنة المحمّدية ، بيروت ، ١٩٥٥م.

١١٣ـ النّاصريّ ـ أبو العبّاس أحمد بن خالد النّاصريّ (٠٠٠ـ١٢٥٠هـ).

ـ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، جـ١ـ٩ ، تحقيق جعفر النّاصريّ ومحمّد النّاصري ، مطبعة دار الكتاب ، الدّار البيضاء ، ١٩٥٤م.

١١٤- أبو نواس ـ الحسن بن هاني (٠٠٠ـ١٩٩هـ).

ـ ديوان أبي نواس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٢م.

١١٥- النّويريّ ـ شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب النويري (٦٧٧ـ٧٣٣هـ)

ـ نهاية الارب في فنون الادب ، جـ١ـ١٨ ، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصريّة ، المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

١١٦- ابن هانئ ـ أبو القاسم محمّد بن هانئ الأزدي (٠٠٠ـ٣٦٢هـ).
ـ ديوان ابن هانئ الأندلسي، المطبعة الميمنيّة، القاهرة، ١٢٧٤هـ.

١١٧- ابن هشام ـ أبو محمّد عبد الملك بن هشام المعافري (٠٠٠ـ٢١٣هـ).
ـ السّيرة النبوية، جـ١ـ٤، تحقيق الدّكتور محمّد فهمي، مكتب التراث الاسلامي، حلب، سوريا، ١٩٧٨م.

١١٨- اليافعي ـ أبو محمّد عبدالله بن أسعد بن عليّ بن سليمان اليافعي (٠٠٠ـ٧٦٨هـ).
ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان، جـ١ـ٤، الطبعة الثانية، مؤسسة الأعلميّ، بيروت.

١١٩- ياقوت ـ أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله الروميّ الحمويّ (٥٧٤ـ٦٢٦هـ).
ـ معجم الأدباء، جـ١ـ٢٠، تحقيق الدكتور أحمد رفاعي، مطبوعات دار المأمون، القاهرة، ١٩٣٦م.
ـ معجم البلدان، جـ١ـ٥، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٧م.

ثالثا : المراجع :

١٢٠- ابراهيم أنيس :
ـ موسيقى الشعر العربي، الطبعة الثالثة، الانجلو المصريّة، القاهرة، ١٩٦٥م.

١٢١- إحسان عبّاس :
ـ تاريخ الأدب الأندلسيّ (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م.
ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب، الطبعة الاولى، دار الأمانة بيروت، ١٩٧١م.

١٢٢- أحمد أمين :
— ظهر الإسلام، جـ١—٤، مكتبة النهضة المصريّة ، القاهـــرة، ١٩٦٢م.

١٢٣- أحمد بدوي :
— أسس النقد الأدبي عند العرب ، مكتبة نهضة مصـــــر، القاهرة ، ١٩٥٧م.

١٢٤- أحمد بهجت :
— أنبياء الله ، الطبعة الثالثة ، دار الشروق ، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٢٥- أحمد توفيق المدنّي :
— المسلمون في جزيرة صقليّة ، الجزائر ، ١٣٦٥هـ.

١٢٦- أحمد الشايب :
— الأسلوب ، الطبعة السّادسة ، مكتبة النهضة المصريّة ، القاهرة، ١٩٦٦م.
— أصول النقد الأدبي ، الطبعة السادسة ، مكتبة نهضة مصـــر، القاهرة ، ١٩٥٥م.

١٢٧- أحمد عطيّة الله :
— القاموس الاسلامي ، جـ١—٤، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٧٦م.

١٢٨- أماري ، ميخائيل أماريّ :
— المكتبة العربيّة الصقليّة ، أعادت طبعها بالأوفســـــت مكتبة المثنّى بغداد ، ليبسك ، ١٨٥٧م.

١٢٩- البستاني ، بطرس البستاني :
— دائرة المعارف ، جـ١—٧، دار المعرفة ، بيروت ، ١٨٨٢م.

١٣٠- جودت الرّكابي :
— في الأدب الأندلسيّ ، الطبعة الرّابعة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٥م.

١٣١- حسن ابراهيم حسن :
— تاريخ الدّولة الفاطمية (في المغرب ، ومصر ، وسوريّة ، وبلاد العرب) ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨م.

١٣٢- حسن حسني عبد الوهّاب :
— بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، المطبعة الثانيه ، مكتبه المنار ، تونس ، ١٩٧٠م.
— مجمل تاريخ الأدب التونسّي (من فجر الفتح الى العصر الحاضر) مكتبة المنار ، تونس ، ١٩٦٨م.
— المنتخب المدرسيّ من الأدب التونسي ، الطبعة الثانية ، المطبعة الأميريّة ، القاهرة ، ١٩٤٤م.
— ورقات عن الحضارة العربيّة بأفريقيّة ، جـ١—٢ ، مكتبة المنار ، تونس ، ١٩٦٤م.

١٣٣- خير الدّين الزركلّي :
— الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء) ، جـ١—١١ ، الطبعة الثالثة ، بيروت .

١٣٤- داود سلّام :
— تاريخ النقد العربي (من الجاهلية حتّى نهاية القرن الثالث الهجري) مطبعة الايمان ، بغداد ، ١٩٦٦م.

١٣٥- دور الزابث :
— الشعر كيف نفهمه ونتذوّقه ، ترجمة محمّد ابراهيم الشوش ، مكتبة منيمنه ، بيروت ١٩٦١م.

١٣٦- زكي مبارك :
— النّثر الفني في القرن الرابع الهجري ، جـ١-٢ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٤م.
١٣٧- سعيد اسماعيل شلبّي :
— البيئة الأندلسيّة وأثرها في الشعر (عصر ملوك الطوائف) ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٨م.
١٣٨- شوقي ضيف :
— الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٦٥م.
— الفن ومذاهبه في النثر العربي ، الطبعة السابعة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٧م.
— في النقد الأدبي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦م.
— المقامة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤م.
١٣٩- طه أحمد ابراهيم :
— تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧م.
١٤٠- عبد البديع صقر :
— شاعرات العرب ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، ١٩٦٧م.
١٤١- عبد الجليل حسن عبد المهدي :
— الحياة الأدبية في الشام ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٧٧م.
١٤٢- عبد الحكيم بلبع :
— النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٥٤م.

١٤٣- عبد الرحمن ياغي :
— حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦١م .
— رأي في المقامات ، المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٦٩م .
١٤٤- عبد الرؤوف مخلوف :
— ابن رشيق النّاقد الشاعر ، الدّار المصريّة للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
— ابن رشيق ونقد الشعر ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣م .
١٤٥- عبد العزيز عتيق :
— علم العروض والقافية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤م .
١٤٦- عبد العزيز الميمني :
— ابن رشيق ، المطبعة السلفيّة ، القاهرة ، ١٣٣٤هـ .
— النّتف من شعر ابن رشيق وابن شرف ، المطبعة السّلفيّة ، القاهرة ، ١٣٤٢هـ .
١٤٧- عبد الله الطّيّب المجذوب :
— المرشد إلى فهم أشعار العرب ، جـ١—٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠م .
١٤٨- عليّ عبد العظيم :
— ابن زيدون (عصره وحياته ، وأدبه) ، دار الكاتب العربي ، مصر ، ١٩٦٧م .
١٤٩- عمر الدّقاق :
— مصادر التراث العربيّ ، مكتبة دار الشرق ، بيروت ، ١٩٧٢م .
١٥٠- عمر رضا كحّالة :
— أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ، جـ١—٥ ، الطبعة الثانية ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٥٩م .

— معجم قبائل العرب ، جـ١—٣ ، المكتبة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٤٩م.

— معجم المؤلّفين ، المكتبة العربية ، دمشق ، ١٩٦١م.

١٥١- محمّد رضا الشبيبي :

— أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصريّة ونصوصه العربيّة ، معهد الدّراسات العربيّة العالية ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

١٥٢- محمّد زغلول سلّام :

— تاريخ النقد العربي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٤م.

١٥٣- محمّد عبد المنعم خفاجي :

— البناء الفني للقصيدة العربية ، الطبعة الأولى ، مكتبة القاهرة ، القاهرة .

— النقد العربي الحديث ومذاهبه ، مكتبة الكلّيات الأزهريّة ، القاهرة ، ١٩٧٥م.

١٥٤- محمّد غنيمي هلال :

— النّقد الأدبي الحديث دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

١٥٥- محمّد مجيد السّعيد :

— الشّعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، دار الرّشيد ، بغداد ، ١٩٨٠م.

— الشعر في ظلّ بني حمّاد ، مطبعة النّعمان ، بغداد ، ١٩٧٢م.

١٥٦- محمّد بن محمّد :

— شجرة النّور الزّكيّة في طبقات المالكيّة ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

١٥٧- محمّد مصطفى هدّارة :

— مشكلة السّرقات في النّقد العربي ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، مصر ، ١٩٥٨م.

١٥٨- محمّد كرد عليّ :
— رسائل البلغاء ، الطبعة الثالثة ، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى ، القاهرة ، ١٩١٣م.
١٥٩- محمّد لبيب البتنونّي :
— رحلة الأندلس ، مطبعة كشكول ، القاهرة ، ١٩٢٧م.
١٦٠- محمّد النيفر :
— عنوان الأريب ، جـ١—٢ ، الطبعة الأولى ، المطبعة التونسيّة ، تونس ، ١٣٥١هـ.
١٦١- محمود السّمرة :
— القاضي الجرجانّي ، الأديب النّاقد ، المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٦٦م.
١٦٢- مصطفى الشكعة :
— الأدب الأندلسيّ (موضوعاته وفنونه) ، الطبعة الثالثة ، دار العلم ، بيروت ، ١٩٧٥م.
١٦٣- مصطفى ناصف :
— نظريّة المعنى في النقد العربي ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٦٥م.
١٦٤- ممدوح حقّي :
— العروض الواضح ، الطبعة الرّابعة عشرة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٠م.
١٦٥- نعمة رحيم العزاوي (الدّكتور) :
— النّقد اللغويّ عند العرب حتّى نهاية القرن السابع الهجري ، وزارة الثقافة والفنون ، العراق ، ١٩٧٨م.
١٦٦- يوسف الياس سركيس :
— معجم المطبوعات العربية والمعرّبة ، مكتبة سركيس ، القاهرة ، ١٩٢٨م.

١٦٧- يوسف حسين بكّار :

— بناء القصيدة العربيّة ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩م.

١٦٨- يوسف نور عوض:

— فن المقامات بين الشرق والغرب ، دار القلم ، بيروت، ١٩٧٦م.

رابعا : الدوريات والمجلات :

١٦٩- مجلّة الثقافة : العدد الثاني والثلاثون ، السنة الأولى ، القاهرة، ١٩٣٩م.

١٧٠- مجلّة عالم الفكر : المجلّد التاسع ، العدد الثاني ، الكويت ، ١٩٧٨م.

١٧١- مجلّة المقتبس : المجلّد السّادس ، دمشق ، ١٩١١م.

المحتويـــــات

الموضـــــــوع :	الصفحـــة :
— المقدّمـــة :	أ — ى
— التمهيـــد :	١— ٤٣
أ) البيئة السّياسيّة	١— ١٦
ب) البيئة الاجتماعيّة والاقتصادية	١٧—٢٤
جـ) البيئة الثقافيّة والفكريّة	٢٥—٤٣
— الفصل الأوّل : حياته وثقافته	٤٤—١٠٠
أ) اسمه ونسبه	٤٤—٤٧
ب) مولده ونشأته الأولى	٤٨—٤٩
جـ) عائلتـــه	٤٩ —٥٢
د) شيوخه وتلاميذه	٥٣ —٥٩
هـ) تكوينه الثقافي	٦٠—٦٥
و) مصنّفاتـــه	٦٦—٧٣
ز) مجريات حياته	٧٣—٩٣
ح) شخصيته وأخلاقه	٩٣—٩٧
ط) وفاتـــه	٩٧—١٠٠
— الفصل الثاني : شعره	١٠١—١٨٢
١— جمعه وتدوينه	١٠١—١٠٤
٢— موضوعاته وأغراضه	١٠٤—١٤٧
أ) المديح	١٠٥—١١٧
ب) الغزل	١١٧—١٢٤
جـ) الوصف	١٢٤—١٣٣
د) الحكمة	١٣٤—١٣٩
هـ) الرّثاء	١٣٩—١٤٥
و) الهجاء	١٤٦—٠٠٠

الموضـــــــــوع :	الصفحـــــــة :
٣ـ خصائصه الفنّية	١٤٨—١٨٢
أ) بناء القصيدة	١٤٨—١٥٦
ب) الألفاظ والأساليب	١٥٦—١٦٧
جـ) المعاني	١٦٧—١٧٢
د) الموسيقى	١٧٣—١٧٦
هـ) الصّور والأخيلة	١٧٧—١٨٢
— الفصل الثالث : نثره	١٨٣—٢٤٣
١ـ أغراضـــه	١٨٣—٢٣٢
أ) المديح	١٨٣—١٨٦
ب) مجتمعه من خلال نثره ..	١٨٧—١٩٦
جـ) الوصف	١٩٦—٢٠١
د) الحكمة	٢٠١—٢٠٤
هـ) رسائله	٢٠٤—٢١٠
و) مقاماته	٢١١—٢٣٢
٢ـ خصائصه الفنّية	٢٣٢—٢٤٣
أ) رسائله الأخوانية	٢٣٢—٢٣٥
ب) الألفاظ والأساليب	٢٣٥—٢٤٣
— الفصل الرّابع : نقده	٢٤٤—٢٩٢
١ـ نظراته النقديّة	٢٤٤—٢٧٠
أ) القدم والحداثة	٢٤٤—٢٥٣
ب) اللفظ والمعنى	٢٥٣—٢٥٧
جـ) السرقات الشعريّة	٢٥٧—٢٦٠
د) المبدأ التعريضي	٢٦٠—٢٦٥
هـ) الاستهلال والخاتمة ...	٢٦٥—٢٧٠

الموضـــــــــوع :	الصفحـــــة :
٢ــ مقاييسه في نقد الشعر	٢٧٠ــ٢٨٠
أ) مقياس اللّغة والنّحو	٢٧٠ــ٢٧١
ب) التلاؤم بين الألفاظ	٢٧١ــ٢٧٣
جـ) السهولة والوضوح	٢٧٤ــ٢٧٥
د) البعد عن التعقيد	٢٧٥ــ٢٧٧
هـ) تجنّب القوافي المعجمة...	٢٧٧ــ٢٨٠
٣ــ نقده التطبيقي	٢٨٠ــ٢٨٦
أ) نقده لامرئ القيس	٢٨٠ــ٢٨٣
ب) نقده لزهير بن ابي سلمى .	٢٨٣ــ٢٨٦
جـ) استحسانه لبعض الأشعار .	٢٨٧ــ٢٨٩
ــ الخاتمـــة	٢٩٠ــ٢٩٢
ــ ملحق لأشعاره	٢٩٣ــ٤١٠
ــ الفهارس	٤١١ــ٤٦٢
أ) فهرس الأعلام	٤١١ــ٤٢٤
ب) فهرس الأماكن	٤٢٥ــ٤٢٩
جـ) فهرس القبائل	٤٣٠ــ٤٣٢
د) فهرس المراجع والمصادر	٤٣٣ــ٤٥٨
هـ) فهرس المحتويات	٤٥٩ــ٤٦١